

الكتاب : تفسير الشعراوي

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89)

ومجىء هذا القول في صيغة السؤال؛ يدفعهم إلى التأمل والتدقيق؛ لمعرفة شخصية المتحدث .  
ثم يأتي التلطف الجميل منه حين يضيف :

{ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ } [ يوسف : 89 ] .

وفي هذا القول ما يلتمس لهم به العذر بالجهل ، ولم يتحدث إليهم بعزّة الكبرياء ، وغرور المكانة التي وصل إليها ، وهدفه أن يخفف عنهم صدمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم .

وهذا مثلما يكون أحدهم قد أخطأ في حقك قديماً بسلوك غير مقبول ، ولكن الأيام أزالته  
مرارتك من سلوكه ، فتذكره بما فعله قديماً وأنت تقول له : إن فعلك هذا قد صدر منك أيام  
طيشك ، لكنك الآن قد وصلت إلى درجة التعقل وفهم الأمور .

وقول يوسف عليه السلام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثره  
بشكواهم ، ثم تبسّمه لهم ، وظهور ثناياه دفعهم إلى تذكره ، ودار بينهم وبينه الحوار الذي جاء  
في الآية التالية : { قالوا أءنتك لأنت يوسف . . . } .

قَالُوا أءنتك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله  
لا يضيع أجر المحسنين (90)

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرفوا عليه ، وقالوا :

{ أءنتك لأنت يوسف . . . } [ يوسف : 90 ] .

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريبي الذي أكدوه ب « إن » و « اللام » ، وقد قالوا ذلك  
بلهجة مُنلنة بالفرح والتعجب بنجاحهم في التحسس الذي أوصاهم به أبوهم .  
فرد عليهم :

{ أنا يوسف وهذا أخي } [ يوسف : 90 ] .

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخ يوسف « بنيامين » ، وجاء ذكر يوسف له هنا دليلاً على أن

بنيامين قد دخل معه في النعمة ، وأن الحق سبحانه قد أعزَّ الاثنين .

ويجيء شُكْرُ يوسف لله على نعمته في قوله :

{ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [ يوسف : 90 ] .  
وجاء يوسف بهذا القول الذي يعرض القضية العامة التي تنفعهم كإخوة له ، وتنفع أيَّ سامع لها  
وكل مَنْ يتلوها ، وقد قالها يوسف عليه السلام بعد بيّنة من واقع أحداث مرّت به بدءً من الرؤيا  
إلى هذا الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع مُعَاشٍ ، فقد مَنَّ الله على يوسف وأخيه مما ابتُلِيَ به واجتمعا من  
بعد الفُرقة ، وعَلَّل يوسف ذلك بالقول :

{ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ } [ يوسف : 90 ] .

أي : مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ،  
ويصبر على ما أصابه ، ولا تفتُر هَمَّتَه عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصي مهما زُيِّت له

فسبحانه وتعالى لا يُضِيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا بتقواهم مُستحقّين لرحمته ،  
واحسانه في الدنيا والآخرة .

ويأتي قول الحق سبحانه بعد ذلك ليحمل لنا ما قاله أخوة يوسف في هذا الموقف : { قَالُوا تَاللَّهِ  
. . . } .

**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91)**

و « تالله » قَسَمَ بالله .

{ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا . . } [ يوسف : 91 ] .

أي : خَصَّكَ بشيء فوق ما خَصَّ به الآخرين ، وهو لم يُؤثِرَكَ بظلم لغيرك ، ولكنك كنت  
تستحق ما آثَرَكَ به من المَلِكِ وعلو الشَّانِ والمكانة .

وهكذا صدَّق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا بخطيئتهم ، حين حاولوا أن يكونوا  
مُقرِّبين مثله عند أبيهم ، ولكنك يا يوسف وصلت إلى أن تصير مُقرباً مُقدِّماً عند ربِّ أبينا وربِّ  
العالمين .

والشَّان والحال التي كنا فيها تؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بُدَّ أن ننتبه إلى الفَرْق بين « خاطئين » و  
« مخطئين » .

والعزير قد قال لزوجته : { واستغفري لَدُنْكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ } [ يوسف : 29 ] .  
ولم يَقُلْ لها « كنت من المخطئين » فالمادة واحدة هي : « الخاء » و « الطاء » و « الهمزة » ،  
ولكن المعنى يختلف ، فالخاطي هو مَنْ يعلم منطقة الصواب ويتعدَّها ، أما المُخطئ فهو مَنْ لم

يذهب إلى الصواب؛ لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه إليه .  
ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لأخوته بعد أن أقرُّوا بالخطأ : { قَالَ  
لَا تَغْرِبْ . . . } .

### قَالَ لَا تَغْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92)

والشريب هو اللوم العنيف ، وهو مأخوذ من الثَّرْب؛ فحين يذبحون ذبيحة ، ويُخْرِجون أمعاءها  
يجدون حول الأمعاء دُهناً كثيفاً؛ هذا الدُهْن يُسَمَّى ثَرْب .  
أما إن كانت هزيلة ، ولم تتغدَّ جيداً ، فأمعاؤها تخرج وقد ذاب من عليه هذا الثَّرْب .  
والشريب يعني : أن اللوم العنيف قد أذاب الشحم من لحمه ، وجعل دمه ينزّ ، ويكاد أن يصل  
بالإنسان إلى أن ينزل به ويسلّه .

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا زنت أمةً أحدكم فتيبَ زناها  
فليجلدها الحدّ ، ولا يُتْرَبَ عليها ، ثم إن زنت فليجلدها الحدّ ، ولا يُتْرَبَ عليها ، ثم إن زنت  
الثالثة فتيبَ زناها فليبيعها ، ولو بحبل من شعر » .

أي : لا يقول لها : يا مَنْ فعلت كذا وكذا ، بل فليعاقبها بالعقاب الذي أنزله الله لمثل هذه  
الجرمة؛ فإن لم ترتدع عن الفعل فليبيعها ، وهكذا نفهم أن الشراب أو اللوم العنيف قد يؤلِّد  
العناد .

وقال يوسف عليه السلام :

{ اليوم يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [ يوسف : 92 ] .

ولقائل أن يتساءل : ولماذا قال يوسف ذلك؛ وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل؟  
ونقول : إن دعوة يوسف بالمغفرة لهم جاءت في حدود معرفته ولتصفية النفوس مما شابها بهذا  
اللقاء .

وقوله :

{ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [ يوسف : 92 ] .

هو فَهْمٌ لحقيقة أن أيَّ رحمة في العالم ، أو من أي أحد إنما هي مُستمدَّة من رحمته سبحانه .  
وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر لهم خطأهم القديم وعَفَا عنهم؛  
والله أَوْفَى منه بالعفو عنهم .

ثم يعود الحديث بينه وبينهم إلى والدهم ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف لإخوته  
، وهو الذي عَلِمَ ما حدث لأبيه بعد فراقه له : { اذْهَبُوا بِقَمِيصِي . . . } .

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)

وكان يوسف عليه السلام ، قد عَلِمَ أن أباه يربط عينيه من الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فأمر أخوته أن يذهبوا بقميصه الذي كان يلبسه إلى أبيه .

وتقول كتب السِّير أن أخاه الأكبر الذي رفض أن يبرح مصر ، وقال : { فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } [ يوسف : 80 ] .

قد قال ليوسف :

« يا أيها العزيز إني أنا الذي حملتُ القميص بدم كذب إلى أبي ، فدعني احمل هذا القميص لأبي ، كي تمحو هذه تلك » .

وقال يوسف عن فعل القميص مع الأب :

{ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا } [ يوسف : 93 ] .

ونلاحظ أنه لم يَقُلْ : « وجه أبيكم » .

وفي قوله :

{ وَجْهِ أَبِي } [ يوسف : 93 ] .

إشارة إلى الحنان الأبوي الذي فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده في الحزن .

و { يَأْتِ بَصِيرًا } [ يوسف : 93 ] أي : يرتد إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف :

{ وَأَتُوبِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ } [ يوسف : 93 ] .

هذا تعبير قرآني دقيق ، أن يُحضروا معهم كل مَنْ يَمُتُّ بصلته قرابة لهم أو يعمل معهم ، ولم يَقُلْ يوسف « بآلكم » حتى لا يأتوا بالأعيان فقط .

ونلاحظ أنه لم يذكر والده في أمر يوسف لأخوته أن يأتوه بكل مَنْ يَمُتُّ لهم بصلته قُرْبَى؛ لأن في

مثل هذا الأمر من موقع عزيز مصر إجباراً للأب على الجيء ، وهو يُجِلُّ أباه عن ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَمَّا فَصَلَتِ . . . } .

**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94)**

و « فصلت » تدل على شيء كان مُلتصقاً بشيء آخر وانفصل عنه ، وفصلت العيرُ . أي :

خرجت من المدينة وتجاوزتها؛ لتسير في رحلتها ، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدةً مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء :

{ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ } [ يوسف : 94 ] .

والمعروف أن القميص الذي أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول

يعقوب من أقربائه لم يُصدِّقوا قوله ، فأضاف :

{ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ { [ يوسف : 94 ] .

أي : لولا اتهامكم لي بالخرّف ، لأنّ التّفنيد هو الخرف .

ومن العجيب أننا في أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صُورَ المرآئي والأصوات ، توجد لها آثار في الجو ، رغم ما يُخيّل للإنسان أنها تلاشت .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أيّ جماعة كانت تجلس في مكان ما ، ثم رحلت عنه منذ ساعة أو ساعتين ، ممّا يدلُّ على أن الصور لها نضح من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة قبل أن يضيع .

وكذلك الأصوات؛ فالعلماء يحاولون استرداد أصوات مَنْ رحلوا؛ ويقولون : لا شيء يضيع في الكون ، بل كل ما وُجد فيه محفوظ بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشمُّ الريح من على مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها؛ ولذلك تنتشر الكلاب المدرّبة في المطارات وعلى الحدود؛ لتكشف أيّ محاولة لتهريب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدره الله قادراً على التقاط الرائحة من بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر؛ يبحث الآن في كيفية استحضر الصورة واسترداد الصوت من الفضاء المحيط بالإنسان؛ فعلينا أن ندرك أن العيرَ عندما خرجت من أسوار المدينة؛ وأخذت طريقها إلى الموقع الذي يعيش فيه يعقوب عليه السلام؛ استطاع يعقوبُ بقدره الله أن يشمَّ رائحة يوسف؛ تلك التي يحملها قميصه القادم مع القافلة .

ولسائل أن يقول : ولماذا ارتبط تنسّم يعقوب لرائحة يوسف بخروج العير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب؟

نقول : لأن العيرَ لحظة تواجدها في المدينة تكون رائحة قميص يوسف مُختلطة بغيرها من الروائح؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى داخل أي مدينة ، ويصعب نفاذ رائحة بعينها لتغلب على كل الروائح؛ ويختلف الأمر في الخلاء؛ حيث يمكن أن تمشي هبّة الرائحة دون أن يعترضها شيء .  
وبذلك نؤمن أن كل شيء في الكون محفوظ ولا يضيع؛ مصداقاً لقوله تعالى : { وَإِنَّ عَلَيْنَاكُمْ حَافِظِينَ \* كِرَامًا كَاتِبِينَ { [ الانفطار : 10-11 ] .

وكل ما يصدر منك مُسجّل عليك؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لتقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً .

ويردُّ مَنْ بقي من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد ريح يوسف : { قَالُوا تَاللّهِ . . . { .

قَالُوا تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95)

وكانهم قد ملُّوا حديثه عن يوسف؛ وأعرضوا عن كلامه قائلين له : إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنون الضلال بمعنى الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنون الضلال بمعنى الجزئيات التي لا علاقة لها بالتدئين من محبة شديدة ليوسف ، وتعلُّق به ، والتمني لعودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقع لقائه ، وهم الذين ظنُّوا أن يوسف قد مات .  
ويأتي البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ . . . } .

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ  
(96)

وحين حضر البشير ، وهو كما تقول الروايات كبير الأخوة؛ ويُقال أيضاً : إنه يهوذا؛ وهو من رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن يأذن له والده ، أو يأتي حلُّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين في مصر ، بعد اتهام أعوان العزيز له بالسرقة ، طبقاً لما أراده يوسف ليستبقي شقيقه معه .  
ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف؛ فألقاه على وجه الأب تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفرح يعقوب فرحاً شديداً؛ لأنه في أيام حزنه على يوسف ، وبيضاض عينيه من كثرة البكاء حدته قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً؛ وكان البكاء عليه من بعد ذلك هو بكاء من فرط الشوق لرؤية ابنه .  
وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحي من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يردُّ إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرح له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلَّت انتصارات الحق والنبوة .  
وقال يعقوب عليه السلام :

{ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [ يوسف : 96 ] .

ولم يقل ذلك إذلالاً لهم ، بل ليعطي الثقة والتوثيق لأخبار كل نبي ، وأن الواقع قد أيد الكلام الذي قاله لهم : { يا بني اذهبوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَبْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ } [ يوسف : 87 ] .

فإذا جاءكم خبر من معصوم؛ إياكم أن تقفوا بعقولكم فيه؛ لأن العقول تأخذ مُدركات الأشياء على قدرها ، وهناك أشياء فوق مُدركات العقول .  
وحين يُحدِّثكم معصوم عن ما فوق مُدركات عقولكم إياكم أن تُكذِّبوه؛ سواء فهمتم ما حدَّثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عمَّا فوق مُدركات العقول .

وهنا يقرُّ أخوة يوسف بذنوبهم فيقول الحق سبحانه : { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ . . . } .

## قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97)

وهم هنا يُقَرُّون بالذنب ، ويُجَدِّثون والدهم ببداء الأبوة كي يستغفر لهم ما ارتكبوه من ذنوب كثيرة ، فقد آذوا أباهم وجعلوه حزيناً ، ولا يسقط مثل هذا الذنب إلا بأن يُقَرَّ به مَنْ فعله ، ونلاحظ أنهم قالوا : { إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } [ يوسف : 97 ]  
أي : أنهم كانوا يعلمون الصواب ، ولم يفعلوه .  
ويأتي الحق سبحانه بما قاله يعقوب : { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي . . . } .

## قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)

ونلاحظ أن يوسف قد قال لهم من قبل : { لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [ يوسف : 92 ]  
لكن والدهم هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول : { سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي . . . } [ يوسف : 98 ]  
ولم يقل : « سأستغفر لكم ربِّي » ، وهذا يدل على أن الكبار يحتاجون لوقت أكبر من وقت الشباب ؛ لذلك أجل يعقوب الاستغفار لما بعد .  
والشيخ الألوسي في تفسيره يقول : « إنما كان ذلك لأن مطلوبات البر من الأخ لأخوته غير مطلوبات البر من ابن لأبيه ؛ لأن الأخ ليس له نفس حق الأب ؛ لذلك يكون غضب الأب أشد من غضب الأخ » .  
ثم إن ذنوبهم هنا هي من الذنوب الكبيرة التي مرَّ عليها وعلى تأثيرها على الأب زمن طويل .  
ويقال : إن يعقوب عليه السلام قد أحرَّ الاستغفار لهم إلى السَّحَر ، لأن الدعاء فيه مُسْتَجَاب .  
وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك إلى لحظة اللقاء بين يوسف عليه السلام وأهله كلهم ، بعد أن انتقلوا إلى حيث يعيش يوسف ، فيقول سبحانه :  
{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ . . . }

## فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ (99)

ونعلم أن الجَدَّ إسحق لم يكن موجوداً ، وكانوا يُغَلِّبون جهة الأبوة على جهة الأمومة ، ودخلت معهم الخالة ؛ لأن الأم كانت غير موجودة .  
ويبدو أن يوسف قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال العظماء ، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم ؛ وهذا هو الدخول الأول الذي آوى فيه أبويه .

ثم دخل بهم الدخول الثاني إلى البلد بدليل أنه قال : { . . . ادخلوا مِصرَ إن شاءَ اللهُ آمِنِينَ }  
[ يوسف : 99 ]

ففي الآية دخولان .

وقول الحق سبحانه : { آوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ . . . } [ يوسف : 99 ]

يدل على حرارة اللقاء لمغتربين يجمعهم حنان ، فالأب كان يشناق لرؤية ابنه ، ولا بُدَّ أنه قد سمع  
من أخوته عن مكانته ومنزلته ، والابن كان مُتَشَوِّقاً للقاء أبيه .

وانفعالات اللقاء عادة تُترك لعواطف البشر ، ولا تقنبن لها ، فهي انفعالات خاصة تكون مزيجاً  
من الود ، ومن المحبة ، ومن الاحترام ، ومن غير ذلك .

فهناك مَنْ تلقاه وتكتفي بأن تسلم عليه مُصَافِحَةً ، وآخر تلتقي به ويغلبك شوقك فتحضنه ،  
وتقول ما شئتَ من ألفاظ الترحيب .

كل تلك الانفعالات بلا تقنين عبادي ، بدليل أن يوسف عليه السلام آوى إليه أبويه ، وأخذهما  
في حضنه .

« والمثل من حياة رسولنا صلى الله عليه وسلم في سياق غزوة بدر حيث كان يستعرض المقاتلين  
، وكان في يده صلى الله عليه وسلم قدح يعدل به الصفوف ، فمرَّ بسواد بن غزيرة من بني عدي  
بن النجار ، وهو مستنصل عن الصف أي خارج عنه ، مما جعل الصف على غير استواء فطعن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم في بطنه بالقدح وقال له : « استَوِ يا سواد » .

فقال سواد : أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقديني .

فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال صلى الله عليه وسلم : « استقد » .  
فاعتقه سواد وقَبَّل بطنه .

فقال صلى الله عليه وسلم : « ما حملك على هذا يا سواد؟ » .

قال : يا رسولَ الله ، قد حضر ما ترى يقصد الحرب فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمَسَّ  
جلدي جلدك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ . . . }

وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي  
حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي  
وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)

وقد رفع يوسف أبويه على العرش لأنه لم يجب التميُّز عنهم؛ وهذا سلوك يدل على الحُبَّة  
والتقدير والإكرام .

والعرش هو سرير الملك الذي يدير منه الحاكم أمور الحكم . وهم قد خَرُّوا سُجَّدًا لَهِ مِنْ أَجْلِ  
جَمْعِ شَمْلِ الْعَائِلَةِ ، وَلَمْ يَخْرُوا سُجَّدًا لِيُوسُفَ ، بَلْ خَرُّوا سُجَّدًا لِمَنْ يُخَرِّ سَجُودًا إِلَيْهِ ، وَهُوَ اللَّهُ .  
وَلِلَّذِينَ حَاوَلُوا نِقَاشَ أَمْرِ سَجُودِ آلِ يَعْقُوبَ لِيُوسُفَ أَقُولُ : هَلْ أَنْتُمْ أَكْثَرُ غَيْرَةً عَلَى اللَّهِ مِنْهُ  
سُبْحَانَهُ؟

إنه هو سبحانه الذي قال ذلك ، وهو سبحانه الذي أمر الملائكة من قَبْلِ بالسجود لآدم فلماذا  
تأخذوا هذا القول على أنه سجد لآدم؟

والمؤمن الحق يأخذ مسألة سجود الملائكة لآدم؛ على أنه تنفيذ لأمر الحق سبحانه لهم بالسجود  
لآدم ، فأدم خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه؛ وأمر الملائكة أن تسجد لآدم شكراً لله  
الذي خلق هذا الخلق .

وكذلك سجود آل يعقوب ليوسف هو شكر لله الذي جمع شملهم ، وهو سبحانه الذي قال هذا  
القول ، ولم يُجَرِّمْ سبحانه هذا الفعل منهم ، بدليل أنهم قَدَّمُوا تحية ليوسف هو قادر أن يردها  
بمثلها .

ولم يكن سجودهم له بغرض العبادة؛ لأن العبادة هي الأمور التي تُفعل من الأدنى تقريباً للأعلى ،  
ولا يقابلها المعبود بمثلها؛ فإن كانت عبادة لغير الله فالله سبحانه يُعاقب عليها؛ وتلك هي الأمور  
المُحَرَّمَةُ .

أما العبادة لله فهي اتباع أوامره وتجنب نواهيه؛ إذن : فالسجود هنا استجابة لنداء الشكر من  
الكل أمام الإفراج عن المهم والحزن وسبحانه يُثيب عليها . أما التحية يقدمها العبد ، ويستطيع  
العبد الآخر أن يردها بمثلها أو خَيْرٍ منها ، فهذا أمر لا يجرمه الله ، ولا دَخَلَ للعبادة به .  
لذلك يجب أن نفظن إلى أن هذه المسألة يجب أن تُحَرَّرَ تحريراً منطقيّاً يتفق مع معطيات اللغة  
ومقتضى الحال ، ولو نظرنا إلى وضع يعقوب عليه السلام ، وما كان فيه من أحزان وموقف  
إخوته بين عذاب الضمير على ما فعلوا وما لاقوه من متاعب لأيقنا أن السجود المراد به شكر  
من بيده مقاليد الأمور بدلاً من خلق فجوات بلا مبرر وَهُمْ حين سجدوا ليوسف؛ هل فعلوا  
ذلك بدون علم الله؟ طبعاً لا .

ومن بعد ذلك نجد قول يوسف لأبيه : { وَقَالَ يَا بَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي  
حَقًّا . . . } [ يوسف : 100 ]

وقد كانت الرؤيا هي أول لَقْطَةٍ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ قَالَ الْحَقُّ مَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ  
يُوسُفَ لِأَبِيهِ : { . . . إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } [  
يوسف : 4 ] وقوله في الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها : { قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا . . . } [  
يوسف : 100 ] أي : أمراً واقعاً ، وقد رآه والد يوسف وأخوته لحظة أن سجدوا ليوسف

سجود الشكر والتحية لا سجود عبادة ، وقد سجد الأخوة الأحد عشر والأب والحالة التي تقوم مقام الأم ، ورؤيا الأنبياء كما نعلم لا بُدَّ أن تصير واقعاً .

ولقائل أن يقول : وماذا عن رؤيا إبراهيم عليه السلام التي أمره فيها الحق سبحانه أن يذبح ابنه؛ فقام إلى تنفيذها؛ واستسلم إسماعيل لأمر الرؤيا .

نقول : إن الأنبياء وحدهم هم الملتزمون شرعاً بتنفيذ رؤاهم؛ لأن الشيطان لا يُخايلهم؛ فهم معصومون من مخايلة الشيطان .

أما إن جاء إنسان وقال : لقد جاءني رؤيا تقول لي نَقِّدْ كذا . نقول له : أنت غير مُلزم بتنفيذ ما تراه في منامك من رؤى؛ فليس عليك حكم شرعي يلزمك بذلك؛ فضلاً عن أن الشيطان يستطيع أن يُخايلك .

أما تنفيذ إبراهيم عليه السلام لما رآه في المنام بأن عليه أن يذبح ابنه ، وقيام إبراهيم بمحاولة تنفيذ ذلك؛ فسببه أنه يعلم بالتزامه الشرعي بتنفيذ الرؤيا .

وقد جاء لنا الحق سبحانه بهذا الذي حدث ليبين لنا عِظَمَ الابتلاءات التي مرَّت على إبراهيم ، وكيف حاول أن يتم كل ما توجهه له السماء من أوامر ، وأن ينفذ ذلك بدقة .

وقال الحق سبحانه مُصَوِّراً ذلك : { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . . . } [ البقرة : 124 ]

وكانت قمة الابتلاءات هي أن يُنقِّدَ بيديه عملية ذبح الابن؛ ولذلك أؤكد دائماً على أن الأنبياء وحدهم هم المُلْزَمون بتنفيذ رؤاهم ، أما أي إنسان آخر إن جاءته رؤيا تخالف المنهج؛ فعليه أن يعتبرها من نزع الشيطان .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف : { وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ . . . } [ يوسف : 100 ]

ولقائل أن يسأل : ولماذا لم يذكر يوسف الأحداث الجسام التي مرَّت به في تسلُّلها؛ مثل إلقاء أخوته له في الجُبِّ؟

نقول : لم يُرِدْ يوسف أن يذكر ما يُكثِّرُ صَفْوُ اللقاء بين العائلة من بعد طول فراق . ولكنه جاء بما مرَّ به من بعد ذلك ، من أنه صار عبداً ، وكيف دخل السجن؛ لأنه لم يستسلم لغواية امرأة العزيز ، وكيف مَنَّ اللهُ عليه بإخراجه من السجن ، وما أن خرج من السجن حتى ظهرت النعمة ، وكفي أنه صار حاكماً .

وقد يقول قائل : إن القصة هنا غير مُنْسَجمة مع بعضها ، لأن بعضاً من المواقف تُذكر؛ وبعضها لا يُذكر .

نقول : إن القصة مُنْسَجمة تماماً ، وهناك فارق بين قصص التاريخ كتاريخ؛ وبين قصص يوضح

المواقف الهامة في التاريخ .

والمناسبة في هذه الآية هي اجتماع الإخوة والأب والخالدة ، ولا داعي لذكر ما يُغص هذا اللقاء؛  
خصوصاً؛ وأن يوسف قد قال من قبل : { قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ  
الرَّاحِمِينَ } [ يوسف : 92 ]

وسبق أن قال لهم بلطف من يلتمس لهم العذر بالجهل : { . . . هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ  
وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ } [ يوسف : 89 ]

وهو هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يذكر إحسان الحق سبحانه له فيقول : { هذا  
تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا .

. . { [ يوسف : 100 ]

ويُثني على الله شاكراً إحسانه فيقول : { وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ . . . } [ يوسف  
: 100 ]

وهو إحسان له في ذاته ، ثم يذكر إحسان الله إلى بقية أهله : { وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ . . . } [ يوسف :  
100 ]

وكلمة « أحسن » كما نعلم مرة تتعدى ب إلى ، فتقول : « أحسن إليه » ، ومرة تتعدى بالبلاء ،  
فتقول : « أحسن به » ، وهو هنا في مجال « أحسن بي » .  
أي : أن الإحسان بسببه قد تعلق بكل ما اتصل به؛ فجعله حاكماً ، وجاء بأهله من البدو؛ أما  
الإحسان إليه فيكون محصوراً في ذاته لا يتعداه .

وجعل الحق سبحانه الإحسان هنا قسمين : قسم لذاته؛ وقسم للغير ، واعتبر محيء الأهل من  
البدو إحساناً إليه ، لأن البدو قوم يعيشون على الفطرة والانعزالات الأسرية ، ولا توطن لهم في  
مكان ، ولا يضمُّهم مجتمع ، وليس لهم بيوت مبنية يستقرون فيها ، ولكنهم يتبعون أرزاقهم من  
منابت الكلاء ومساقط المياه ، ويحملون رحا لهم إلى ظهر الجمال متنقلين من مكان لآخر .

وتخلو حياتهم من نعم الحضارة . ففي الحضارة يحضر إليك كل ما تطلب ، ولكن الحياة في البدو  
تُحتم أن يذهب الإنسان إلى حيث يجد الخير؛ ولذلك تستقر الحياة في الحضر عنها في البادية .  
ويعطينا الشاعر أحمد شوقي رحمة الله عليه صورة تبين الفارق بين البدو والحضر ، حين صنع  
مناظرة بين واحدة تتعصب للبدو ، وأخرى تتعصب للحضر . فقال :

فأنا من البيدِ يا ابن جُريج . . . ومن هذه العيشة الجافية

ومن خالب الشاة في موضع . . . ومن مُوقد النارِ في ناحيه

مُعنيكمو معبداً والغريق . . . وقينتنا الضبع العاويه

هم يأكلون فنون الطهارة . . . ونحن نأكل ما طهت الماشيه

فابن جريج يشكو السَّأم من حياة البادية ، حيث لا يرى إلا المناظر المُعاداة من حَلْبٍ لشاة ، أو إشعال نار ، ولا يسمع كأهل الحضر صوت المُعَنِّين المشهورين في ذلك الزمن؛ بل يسمع صوت الصَّبَّاعِ العاوية ، ولا يأكل مثل أهل الحضر ما قام بِطُهْيِهِ الطُّهَّاء؛ بل يأكل اللبن وهو ما تقدمه لهم الماشية .

وتردُّ ليلي المتعصِّبة للبادية :

قد اعتسفتُ هِنْدُ يا ابنَ جَرِيحٍ ... وكانت على مَهْدِها قَاسِيه

فَمَا البِيدُ إِلَّا دِيَارُ الكِرَامِ ... ومنزِلَةُ الدِّمَمِ الوَاقِيه

لها قِبْلَةُ الشمسِ عند البُرُوعِ ... وللحضر القبله الثانيه

ونحنُ الرِّياحِينِ ملءُ الفضاءِ ... وهُنَّ الرِّياحِينُ في آنيه

ويَقْتُلُنَا العِشْقُ والحاضِرَاتُ ... يَقْمَنَ من العِشْقِ في غَاميه

وقولها « اعتسفت » يعني « ظلمت » ، أي : أن هندا ظلمت البيد يا ابن جريج ، ثم جاءت

بميزات البدو؛ فأوضحت أن نبات البادية كالرياحين المزروعة في الفضاء الواسع ، عكس نبات

الحضر التي تشبه الواحدة منهن الريحانة المزروعة في أصص الزرع ، أو أي آنية أخرى .

ثم تأتي إلى القيم؛ فتفخر أن بنت البادية يقتلها العشق ، ولا تنال ممن تعشق شيئاً؛ فتنسل وتموت

، أما بنت الحضر؛ فصحتها تأتي على الحب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يشكر يوسف ما منَّ به الله عليه ، وعلى أهله الذين

جاء بهم سبحانه من البادية ، ليعيشوا في مصر ذات الحضارة الواسعة؛ وبذلك يكون قد ضمَّ

الفرق بين ما كانوا يعيشون فيه من شَطَفِ العيش إلى حياة اللين والدعة .

ثم يلمس ما كان من إخوته تجاهه فيقول : { مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي . . . } {

[ يوسف : 100 ]

وهذا مَسٌّ لطيف لما حدث ، وقد نسبه يوسف للشيطان؛ وصَوَّرَهُ على أنه « نَزَعَ » .

أي : أنه لم يكن أمراً مستقراً على درجة واحدة من السوء . أي : أن ما فعله الشيطان هو مجرد

وَحْزَةٌ تُنَبِّهُ إلى الشيء الضار فيندفع له الإنسان ، وهي مأخوذة من المَهْمَاز الذي يُرَوِّضُ به

مدرّب الخيل أيَّ حصان ، فهو ينغره بالمَهْمَاز نزعاً خفيفة ، فيستمع وينفذ ما أمره به ، فالنَّغْزُ

تنبيه لمهمة ، ويختلف عن الطَّن .

والحق سبحانه ينهنا إلى ما يفعله الشيطان؛ فيقول لنا : { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ

فاستعد بالله . . . } [ الأعراف : 200 ]

وكلُّنا منا يعلم أن الشيطان عدوٌّ له عداوة مُسْبِقة ، وحين تستعيد بالله من الشيطان ، فأنت

تكتسب حَصَانَهُ من الشيطان .

وسبحانه القائل : { . . . إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } [ الأعراف : 201 ]

أي : أن الإنسان حين يتذكر العداوة بينه وبين الشيطان؛ فعليه أن يشحن نفسه بالمناعة الإيمانية ضد هذا التزغ .

ويُدبِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقول يوسف : { . . . إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [ يوسف : 100 ]

فسبحانه هو المدير الذي لا تخفى عليه خافية أبداً ، وكلمة « لطف » ضد كلمة « كثافة » فاللطيف هو الذي له جِزْمٌ دقيق ، والشيء كلما لطف عُنْفَ؛ لأنه لا توجد عوائق تمنعه . ولا شيء يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شيء ، فهو يجمع بين اللطف والخبرة ، فُلطفه لا يقف أمامه أي شيء ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شيء ، وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلمه سبحانه مُطلق ، وهو حكيم يُجري كل حَدَثٍ بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحد أي شيء ، فهو صاحب الكمال المطلق .  
ويذكر الحق سبحانه بعد ذلك مناجاة يوسف لله سبحانه :

{ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ . . . }

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

ونعلم أن الربوبية تعني الخلق من عدم ، والإمداد من عدم؛ والإفاته لاستبقاء الحياة ، والتزواج لاستباق النسل ، وتسير كل هذه العمليات في تناسق كبير .  
فالخلق سبحانه أوجد من عدم ، واستبقى الحياة الذاتية بالقوت ، واستبقى الحياة النوعية بما أباح من تزواج وتكاثر .  
وكل مخلوق له حَظٌّ في عطاء الربوبية ، مؤمناً كان أم كافراً ، وكل مخلوقات الكون مُسَخَّرَةٌ لكل الخلق ، فسبحانه هو الذي استدعى الخلق إلى الوجود؛ ولذلك تكفل بما يحقق لهم الحياة .  
ويختص الحق سبحانه عباده المؤمنين بعطاء آخر بالإضافة لعطاء الربوبية؛ وهو عطاء الألوهية المتمثل في المنهج .

يقول يوسف عليه السلام مناجياً ربه : { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ . . . } [ يوسف : 101 ]  
أي : أنه سبحانه هو الذي أعطاه تلك السيادة ، وهذا النفوذ والسلطان؛ فلا أحد يملك قهراً عن الله ، وحتى الظالم لا يملك قهراً عن الله؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى من القرآن : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [ آل عمران : 26 ]

وإتيان المُلْك لا توجد فيه مقاومة مَن يملك؛ ولكن نَزَع المُلْك هو الذي يقاومه المنزوع منه .  
والحق سبحانه هو أيضاً الذي يُعز من يشاء ، وهو الذي يُذل من يشاء .  
وحين تتغلغل هذه الآية في نفس المؤمن؛ فهو يُوقن أنه لا مفر من القدر ، وأن إتياء المُلْك خير ،  
وأن نزع المُلْك خير ، وأن الإعزاز خير والإذلال خير؛ كي لا يطغى الإنسان ، ولا يتكبر ، ولا  
يُعدّل في إيمان غيره .

وكان بعض الناس يقولون : لا بد أن تُقدر محذوفاً في الآية .  
وهم قد قالوا ذلك بدعوى الظن أن هناك خيرين في الآية وشَرَّين محذوفين .  
وأقول : لا ، إن ما تظنه أيها الإنسان أنه شر إنما هو خير يريد الله؛ فكل ما يُجربه الله خير .

وقول يوسف عليه السلام : { آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ . . . } [ يوسف : 101 ]

يقتضي أن نفهم معنى « المُلْك »؛ ومعنى « المُلْك » ، ولنا أن نعرف أن كل إنسان له شيء  
يملكه؛ مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته ، ومثل ذلك من أشياء ، وهذا ما يُسمّى : « المُلْك »  
. أما « المُلْك » فهو أن تملك من يملك .

وقد ملَّك الله بعضاً من خَلقه لخلقه ، ملَّكهم أولاً ما في حوزتهم ، وملَّكهم غيرهم ، وسبحانه  
ينزع المُلْك من واحد ويهبه لآخر ، كي لا تصبح المسألة رتابة ذات .  
ومثال هذا : هو ما حدث لشاه إيران ، وكان له المُلْك ، وعنده كل أسباب الحضارة ، وفي طَوْعه  
جيش قوي ، ثم شاء الحق سبحانه أن ينزع منه المُلْك ، فقام غيره بتفكيك المسامير غير المرئية  
التي كان الشاه يُثبَّت بها عرشه؛ فزال عنه المُلْك .

وأنت في هذه الدنيا تملك السيطرة على جوارحك؛ تقول لليد « إضر بي فلان » فتضرب يَدك  
فلاناً ، إلى أن يأتي اليوم الآخر فلا يملك الإنسان السيطرة على جوارحه؛ لأن المُلْك يومها يكون  
لله وحده ، فسبحانه القائل : { لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [ غافر : 16 ]  
ففي اليوم الآخر تنتفي كل الولايات ، وتكون الولاية لله وحده .

وبجانب « المُلْك » و « المُلْك »؛ هناك الملكوت ، وهو ما لا تراه بأجهزة الحواس .  
وسبحانه يقول : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } [ الأنعام : 75 ]  
أي : أن الحق سبحانه قد كشف لإبراهيم أسرار العالم الخفية من المخلوقات ، وأنت ترى العلماء  
وهم يتتبعون أسرار ممالك النباتات والحيوانات؛ فتتعجب من دِقَّة خَلْق الله .

وَمَنْ وهبه الله دِقَّة العلم وبصيرة العلماء ، يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ،  
ويستخرج الأسرار ، ويستنبط الحقائق .

ويضيف يوسف عليه السلام في مناجاته لربه : { وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ . . . } [ يوسف

وهو يعترف بفضل الله عليه حين اختصّه بالقدرة على تأويل الأحاديث؛ تلك التي أوّل بها رؤيا  
الفتيين اللذين كانا معه في السجن؛ وأوّل رؤيا الملّك؛ هذا التأويل الذي قاده إلى الحكم ، وليس  
هذا غريباً أو عجبياً بالنسبة لقدرة الله سبحانه .

ويقول يوسف شاكرًا لله : { فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } [ يوسف : 101 ]  
ومادام سبحانه هو خالق كل شيء؛ فليس غريباً أن يُعلّمه سبحانه ما شاء ، وكأنّ إيمان يوسف  
قد وصل به إلى أن يعلم ما قاله الحق سبحانه : { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [  
الملك : 14 ]

ونحن في حياتنا نجد الذي صنع جهازاً يستفيد منه غيره؛ يوضح مواصفات استعمال الجهاز أو  
الأداة ، حتى ولو كانت نورجاً أو محرّثاً؛ وذلك ليضمن للجهاز الحركة السويّة التي يؤدي بها  
الجهاز عمله .

والواحد منا إن تعطلت منه السيارة يستدعي الميكانيكي الذي ينظر ما فيها؛ فإن كان أميناً ،  
فهو يُشخّص بدقة ما تحتاجه السيارة ، ويُصلحها ، وإن كان غير أمين ستجده يُفسد الصالح ،  
ويزيد من الأعمال التي لا تحتاجها السيارة .

وهكذا نرى أن كل صانع في مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى؟  
إنه خبير عليم بكل شيء .

ولماذا قال يوسف عن الحق سبحانه : { فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } [ يوسف : 101 ]  
لأنه يعلم أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان؛ والإنسان له بداية ونهاية ، لا يعلمها أحد غير الله  
سبحانه ، فقد يموت الإنسان وعمره يوم ، أو يموت في بطن أمه ، أو بعد مائة سنة ، وتمر على  
الإنسان الأعمار .

أما السماوات والأرض فهي مخلوقات ثابتة ، فالشمس لا تحتاج إلى قطعة غيار ، ولم تقع ،  
وتعطي الدفء للأرض ، وهي مرفوعة عن الأرض؛ لا تقع عليها بمشيئة الله .  
والحق سبحانه هو القائل : { . . . وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ  
لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ }

[ الحج : 65 ]

واسمع قوله الحق : { خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
يَعْلَمُونَ } [ غافر : 57 ]

فالإنسان يتغير ويموت؛ أما السماوات والأرض فتأبث إلى ما شاء الله .

ويقول يوسف عليه السلام مواصلاً المناجاة لله : { أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . . . } [

يوسف : 101 ]

وصحيح أن الحق سبحانه وليّ ليوسف في الدنيا ، وقد نصره وقربه وأعانه؛ بدليل كل مرّة به من عقبات ، ويرجو يوسف ويدعو ألاّ يقتصر عطاء الله له في الدنيا الفانية ، وأن يثيبه أيضاً في الباقية ، والآخرة .

ومادام سبحانه وليّ في الدنيا والآخرة؛ فيوسف يدعو : { . . . تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [ يوسف : 101 ]

وقوله : { تَوَفَّنِي مُسْلِمًا . . . } [ يوسف : 101 ]

إنما بسبب أن يكون أهلاً لعطاء الله له في الآخرة؛ فقد أخذ يوسف عطاء الدنيا واستمتع به ، ومتّع به ، ومشى فيه بما يرضى الله .

وعند تمّي يوسف للوفاة وقف العلماء ، وقالوا : ما تمنّاها أحد إلا يوسف .

فالإنسان إن كان موفقاً في الدنيا ، تجده دائم الطموح ، وتوافقاً إلى المزيد من الخير .

وتحمل لنا ذاكرة التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه قيل الإمارة ، حينما كانوا يجيئون له بثوب ناعم؛ كان يطلب الأكثر منه نعومة ، وإذا جيء له بطعام لئن كان يطلب الأكثر ليوونة .

وحين صار خليفة؛ كانوا يأتونه بالثوب؛ فيطلب الأكثر خشونة وذن من حوله أنه لم يعد منطقياً مع نفسه ، ولم يفهموا أن له نفساً تواقّة إلى الأفضل؛ تستشرف الأعلى دائماً ، فحينما تاق إلى الإمارة جاءته؛ وحين تاق إلى الخلافة جاءته ، ولم يبق بعدها إلا الجنة .

ونجد ميمون بن مهران وكان ملازماً له؛ رضي الله عنهما؛ دخل عليه مرة فوجده يسأل ربّه الموت . فقال : يا أمير المؤمنين ، أتسأل ربك الموت وقد صنع الله على يدك خيراً كثيراً؛ فأحييت سنناً وأمتت بدعاً؛ وبقاؤك خير للمسلمين؟

فقال عمر بن عبد العزيز : ألا أكون كالعبد الصالح حينما أتمّ الله عليه نعمته قال : { . . . }

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [ يوسف : 101 ]

وقوله : { تَوَفَّنِي مُسْلِمًا . . . } [ يوسف : 101 ]

مكونة من شقين :

الشق الأول : طلب الموت .

والشق الثاني : أن يموت مسلماً .

وكُلُّنا يُتَوَفَّى دون أن يطلب ، وعلى ذلك يكون الشق الأول غير مطلوب في ذاته؛ لأنه واقع لا محالة ، ويصبح المطلوب إذن هو الشق الثاني ، وهو أن يتوفاه الله مسلماً؛ ولذلك حين تأتي إلى القبور نقول : السلام عليكم ديار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون .

وإن قال سائل : ولماذا نقول إن شاء الله بكم لاحقون ، رغم أننا سنموت حتماً؟

نقول : إن قولنا « إن شاء الله » سببه هو رغبتنا أن نلحق بهم كمؤمنين .

وأيضاً قد يسأل سائل : لماذا يقول نبي لربه : { . . . وَأَخْفِي الصالحين } [ يوسف : 101 ] وهل هناك صالح يأتي إلى هذا العالم دون أن يهتدي بمنهج نبي مرسل؟  
نقول : إن كلمة « الصالحين » تضم الأنبياء وغيرهم من الذين آمنوا برسالة السماء .

وهكذا انتهت قصة يوسف عليه السلام؛ ولذلك ينتج الحق سبحانه من بعد تلك النهاية إلى المراد من القصة التي جاءت مكتملة في سورة كاملة ، غير بقية فُصص القرآن التي تتناثر أي منها في لقطات متفرقة بمواقع مختلفة من القرآن الكريم .  
وذلك باستثناء قصة نوح التي جاءت مكتملة أيضاً ، لدرجة أن بعض السطحيين قالوا « إن هذا تكرار للقصة في لقطات مختلفة » ودائماً أقول رداً على ذلك : إنه تأسيس للقطات؛ إن اجتمعت جاءت القصة كاملة .

وشاء الحق سبحانه أن تأتي اللقطات متفرقة؛ لأن كل لُقطة إنما جاءت لمناسبة ما ، وكل الفُصص القرآني قد جاء لتثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه خلال عمره الرّسالي الذي استمر ثلاثة وعشرين عاماً تعرّض لأحداث جسام . وكل لحظة كانت تحتاج لتثبيت ، فيُنزل الحق سبحانه ما يُثبِت به فؤاد رسوله صلى الله عليه وسلم فيوضح له في موقع ما : لا تحزن؛ لأن مَنْ سبقك من الرسل حدث معهم كذا .

بل قد تجد في الواقعة الواحدة لقطتين ، مثلما جاء في العداوة بين موسى وفرعون .  
قال الحق سبحانه : { فَالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً . . . } [ القصص : 8 ]  
وهنا تكون العداوة من طرف موسى .

ويقول في نفس المسألة أيضاً : { يَاخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ . . . } [ طه : 39 ]  
وهنا تكون العداوة من جهتين؛ لأن العداوة تتفاعل حين تكون من جهتين ، فلا يمكن أن يستمر عداً من طرف واحد ، وتقوم من أجل هذا العداوة معركة ، لكن حين تكون العداوة من جهتين فهذا يُطيل أمد المعركة .

والمثل الثاني هو قول الحق سبحانه في نفس قصة موسى؛ وهي لقطة متقدمة حدثت في الأيام الأولى من حياة موسى ، وقبل أن تُلقيه أمه في اليم؛ فقد مهّد الله لها الأمر .

يقول الحق سبحانه عن ذلك : { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي . . . } [ القصص : 7 ]

وهذا شَحْدٌ لِهَمَّتْهَا قبل الحادث ، وتنبية لها من قبل أن يقع ، ولحظة أن جاء الحادث نفسه أوحى لها الحق سبحانه : { أَنْ اِقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَأَلْقِيهِ اليَمِّ بِالسَّاحِلِ يَاخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ . . . } [ طه : 39 ]

والذين قالوا : إن قصص القرآن جاء مُبعثراً ، قد نسوا أن قصة نوح جاءت في موقع واحد ،

وجاءت سورة يوسف مَحْبُوكَة من أول الرؤيا إلى تولى المَلِك ، وجمع سَمَل العائلة .  
ونزلت القصة في سورة واحدة بعد أن سألوا عنها؛ وهم يعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم  
يجلس إلى مُعَلِّم ، ولم يقرأ في كتاب ، وتاريخه معروف بالنسبة لهم ، وحين يأتي لهم مُوضِحاً أن الحق  
سبحانه قد أنزل عليه ، فكذبوه؛ وادَّعَوْا أنه يسمع لقطة من هنا؛ ولقطة من هناك . حين سأله  
أن يأتي بقصة يوسف جاء بها كاملة؛ من أولها إلى آخرها .  
ويقول الحق سبحانه في نهاية القصة :  
{ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ . . . }

**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102)**

و « ذلك » إشارة إلى هذه القصة ، والخطاب مُوجَّه إلى محمد صلى الله عليه وسلم أي : أنك يا  
محمد لم تكن معهم حين قالوا : { لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا . . . } [ يوسف : 8 ]  
فالحق سبحانه أخبرك بأنباء لم تكن حاضراً لأحداثها ، والغيب كما علمنا من قبل هو ما غاب  
عنا ، ولم يَغِبْ عن غيرك ، وهو غيب نسبي؛ وهناك الغيب المُطلق ، وهو الذي يغيب عنك  
وعن أمثالك من البشر .

والغيب كما نعلم له ثلاثة حواجز :

الأول : هو حاجز الزمن الماضي الذي لم تشهده؛ أو حاجز الزمن المستقبل الذي لم يَأْتِ بعد .  
والثاني : هو حاجز المكان .

والثالث : هو حاجز الحاضر ، بمعنى أن هناك أشياء تحدث في مكان أنت لا توجد فيه ، فلا  
تعرف من أحداثه شيئاً . و { نُوحِيهِ إِلَيْكَ . . . } [ يوسف : 102 ]

أي نُعَلِّمُك به بِطَرَفٍ خَفِيٍّ ، حين اجتمعوا ليتفقوا ، إما أن يقتلوا يوسف ، أو يُلقوه في غيابة  
الجب .

وكشف لك الحق سبحانه حجاب الماضي في أمر لم يُعلمه لرسول الله؛ ولم يشهد صلى الله عليه  
وسلم ما دار بين الإخوة مباشرة ، أو سماعاً من مُعَلِّم ، ولم يقرأ عنه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم  
أُمِّي لم يتعلم القراءة أو الكتابة .

وسبحانه يقول عن رسوله صلى الله عليه وسلم : { وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ  
بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمِبْطُلُونَ } [ العنكبوت : 48 ]

وهم بشهادتهم يعلمون كل حركة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث؛ إقامة وتزحلاً  
والتقاءً بأي أحد .

فلو علموا أنه قرأ كتاباً لكانت لهم حُجَّةٌ ، وحتى الأمر الذي غابت عنهم فطنتهم فيه؛ وقالوا :  
إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . } [ النحل : 103 ]

فرد عليهم الحق سبحانه : { . . . لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } [ النحل : 103 ]

وأبطل الحق سبحانه هذه الحجة ، وقد قصَّ الحق سبحانه على رسوله الكثير من أبناء الغيب ، وسبق أن قلنا الكثير عن : « ما كُنَّات القرآن » ، مثل قوله تعالى : { . . . وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [ آل عمران : 44 ] وقوله الحق : { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [ القصص : 44 ]

فكأن مصدر علم الرسول بكل ذلك هو من إخبار الله له .  
وقد استقبل أهل الكهف ما طلبوا أن يعرفوه من قصة يوسف باللدود والجحود وهم قد طلبوا مطلبهم هذا بتأسيس من اليهود وهو صلى الله عليه وسلم جاء لهم بقصة يوسف في مكان واحد ، ودفعة واحدة ، وفي سورة واحدة ، لا في لقطات متعددة منثورة كأغلب قصص القرآن .  
وقد جاء لهم بما كاملة؛ لأنهم لم يطلبوا جزئية منها؛ وإنما سألوه عن القصة بتمامها ، وتوقعوا أن يعزف عن ذلك ، لكنه لم يعزف ، بل جاء لهم بما طلبوه .

وكان يجب أن يلتفتوا إلى أن الله هو الذي أرسله ، وهو الذي علمه؛ وهو الذي أنبأه ، لكنهم لم يؤمنوا ، وعزَّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح له سبحانه : لا تبتس ولا تيأس : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [ الشعراء : 3 ] ويقول له سبحانه : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } [ الكهف : 6 ]

فأنت يا رسول الله عليك البلاغ فقط ، ويذكر الحق ذلك لِيُسَلِّي رسوله صلى الله عليه وسلم حين رأى لدود الكافرين؛ بعد أن جاء لهم بما طلبوه ، ثم جحدوه : { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . . . } [ النمل : 14 ]

وهم قد جحدوا ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم حرصوا على السلطة الزمنية فقط ، وكان من الواجب أن يؤمنوا بما جاءهم به ، لكن العناد هو الذي وقف بينهم وبين حقيقة اليقين وحقيقة الإيمان .

وأنت لا تستطيع أن تواجه المعاند بحجة أو بمنطق ، فهم يريدون أن يظل الضعفاء عبيداً ، وأن يكونوا مسيطرين على الخلق بجبروتهم ، والدين سيَّسوي بين الناس جميعاً ، وهم يكرهون تلك المسألة .

ويأتي الحق سبحانه بعد ذلك بقضية كونية ، فيقول :

{ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ } . . .

## وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103)

فأنت يا محمد لن تجعل كل الناس مؤمنين؛ ولو حرصت على ذلك ، وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على أن يؤمن قومه ، فهو منهم .

ويقول فيه الحق سبحانه : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [ التوبة : 128 ]

لكنهم جحدوا ما جاءهم به؛ وقد أحزنه ذلك الأمر . وفي الحرص نجد آية خاصة باليهود؛ هؤلاء الذين دفعوا أهل مكة أن يسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف؛ يقول الحق سبحانه : { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ . . . } [ البقرة : 96 ] وكان على أهل مكة أن يؤمنوا مادام قد ثبت لهم بالبينات أنه رسول من الله .

وجاء قول الحق : { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [ يوسف : 103 ] جاء ذلك القول تسلياً من الحق سبحانه لرسوله ، وليؤكد له أن ذلك ليس حال أهل مكة فقط ، ولكن هذه هي طبيعة معظم الناس . لماذا؟

لأن أغلبهم لا يُحسن قياس ما يعطيه له منهج الله في الدنيا والآخرة ، والإنسان حين يُقبل على منهج الله ، يقيس الإقبال على هذا المنهج بما يُعطيه له في الآخرة؛ فلسوف يعلم أنه مهما أعطى لنفسه من مُتَع الدنيا فَعُمُرُه فيها مَوْفُوت بِالْقَدْرِ الذي قَدَرَه له الله ، والحياة يمكن أن تنتهي عند أية لحظة .

والحق سبحانه حين خبا عن الناس أعمارهم في الدنيا ، لم يَكُنْ هذا الإخفاء إبهاماً كما يظن البعض ، وهذا الإبهام هو في حقيقته عَيْنُ البَيَان ، فإشاعة حدوث الموت في أي زمن يجعل الإنسان في حالة تَرْقُب .

ولذلك فميتات الفُجَاءة لها حكمة أن يعرف كل إنسان أن الموت لا سبب له ، بل هو سبب في حِلِّ ذاته؛ سواء كان الموت في حادثة أو بسبب مرض أو فجأة ، فالإنسان يتمتع في الدنيا على حسب عمره المحدد الموقوت عند الله ، أما في الآخرة فإنه يتمتع على قدر إمدادات الخالق سبحانه .

والإنسان المؤمن يقيس استمتاعه في الآخرة بقدرته الله على العطاء ، وبإمكانات الحق لا إمكانات الخلق .

وهَبْ أن إنساناً معزولاً عن أمر الآخرة ، أي : أنه كافر بالآخرة وأخذها على أساس الدنيا فقط ، نقول له : انظر إلى ما يُطلب منك نهيًا؛ وما يُطلب منك أمراً ، ولا تجعله لذاتك فقط ، بل اجعله للمقابل لك من الملايين غيرك .

سوف تجد أن نواهي المنهج إن منعتك عن شر تفعله بغيرك؛ فقد منعت الغير أن يفعل بك الشر

، في هذا مصلحة لك بالمقاييس المادية التي لا دَخَل للدين بها .  
ويجب أن نأخذ هذه المسألة في إطار قضية هي « دَرءُ المفسدة مُقَدِّمٌ على جَلْبِ المصلحة » .  
وهَبْ أن إنساناً مُحِبّاً لك أمسك بتفاحة وأراد أن يقذفها لك ، بينما يوجد آخر كاره لك ،  
ويحاول أن يقذفك في نفس اللحظة بحجر ، وأطلق الاثنان ما في أيديهما تجاهك ، هنا يجب أن  
تردّ الحجر قبل أن تلتقط التفاحة ، وهكذا يكون دَرءُ المفسدة مُقَدِّمًا على جَلْبِ المصلحة .

وعلى الإنسان أن يقيس ذلك في كل أمر من الأمور؛ لأن كثيراً من أدوات الحضارات أو  
ابتكارات المدنية أو المخترعات العلمية قد تعطينا بعضاً من النفع ، ولكن يثبت أن لها من بعد  
ذلك الكثير من الضرر .

مثال هذا : هو اختراع مادة « د . د . ت » التي قتلت بعض الحشرات ، وقتلت معها الكثير  
من الطيور المفيدة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . } [ الإسراء : 36 ]  
وعليك أن تدرس أيُّ مُخْتَرَعٍ قبل استعماله؛ لترى نفعه وضرره قبل أن تستعمله .  
وقد رأينا مَنْ يُدْخِلُونَ الكهرباء إلى بيوتهم ، يحاولون أن يرفعوا موقع « فِيش » الكهرباء عن  
مستوى تناول الأطفال؛ كي لا يضيع طفل أصابعه في تلك الفتحات فتصعقهم الكهرباء ،  
ووجدنا بعضاً من المهندسين قد صَمَّمُوا أجهزة تفصل الكهرباء آلياً إن لمستها يدُ بشر .  
وهذا هو دَرءُ المفسدة المُقَدِّم على جَلْبِ المنفعة ، وعلينا أن نحتاط لمثل هذه الأمور .  
وفي الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها نجد الحق سبحانه يقول : { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ  
بِمُؤْمِنِينَ } [ يوسف : 103 ]

وهل قوله : { أَكْثَرُ النَّاسِ . . . } [ يوسف : 103 ]

نسبة للذين لا يؤمنون ، يعني أن المؤمنين قلة؟

نقول : لا؛ لأن « أكثر » قد يقابله « أقل » ، وقد يقابله « الكثير » .

ويقول الحق سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ  
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ . . . } [

الحج : 18 ]

وهكذا نجد أن كلمة « كثير » قد يقابلها أيضاً كلمة « كثير » .

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه لو حرص ما استطاع أن يجعل أكثر  
الناس مؤمنين ، والحرص هو تعلُّق النفس وتعبئة مجهود للاحتفاظ بشيء نرى أنه يجلب لنا نفعاً أو  
يذهب بضراً ، وهو استمساك يتطلب جهداً .

ولذلك يوضح له الحق سبحانه : أنت لن تهدي مَنْ تحرص على هدايته .

ويقول سبحانه : { إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ . . . } [ النحل : 37 ]  
ومن هذه الآية نستفيد أن كل رسول عليه أن يوطن نفسه على أن الناس سيعقدون مقارناتٍ بين  
البدائل النفعية؛ وسيقعون في أخطاء اختيار غير الملائم لفائدتهم على المدى الطويل؛ فوطنُ  
نفسك يا محمد على ذلك .

وإذا كنتَ يا رسول الله قد حملتَ الرسالة وتساءلهم الإيمان لفائدتهم ، فأنت تفعل ذلك دون أجر؛  
رغم أنهم لو فَطِنُوا إلى الأمر لكان يجب أن يقدرُوا أجراً لمن يهديهم سواء السبيل ، لأن الأجر  
يُعْطَى لمن يقدم لك منفعة .

والإنسان حريص على أن يدفع الأجر لمن يُعينه على منفعة؛ والمنفعة إما أن تكون موقوتة بزمن  
دنيوي ينتهي ، وإما أن تكون منفعة ممتدة إلى ما لا نهاية؛ راحة في الدنيا وسعادة في الآخرة .

ويأتي القرآن بقول الرسل : { لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا . . . } [ الأنعام : 90 ]

ولم يَقُلْ ذلك اثنان هما : إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه السلام .

وكان العقل يقول : كان يجب على الناس لو أنها تُقدَّر التقدير السليم؛ أن تدفع أجراً للرسول  
الذي يُفسِّر لهم أحوال الكون ، ويُطمئنهم على مصيرهم بعد الموت ، ويشرح لهم منهج الحق ،  
ويكون لهم أسوة حسنة .

ونحن نجد في عالمنا المعاصر أن الأسرة تدفع الكثير للمدرس الخصوصي الذي يُلَقِّن الابن مبادئ  
القراءة والكتابة ، فما بالناس بمن يضيء البصر والبصيرة بالهداية؟

ومقتضى الأمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقدم نفعاً أبدياً لمن يتبعه ، لكنه لم يطلب أجراً .  
ويقول الحق سبحانه :

{ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ . . . }

**وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (104)**

وفي هذا القول الكريم ما يوضح أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يسأل قومه أجراً على هدايته  
لهم؛ لأن أجره على الله وحده .

والحق سبحانه هو القائل : { أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّعْرَمٍ مُّثْقَلُونَ } [ الطور : 40 ]

والحق سبحانه يقول على لسان رسوله في موقع آخر : { قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ  
أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ . . . } [ سبأ : 47 ]

وهو هنا يُعْلي الأجر ، فبدلاً من أن يأخذ الأجر من محدود القدرة على الدَّفْع ، فهو يطلبها من  
الذي لا تُحدِّ قدرته في إعطاء الأجر؛ فكأن العمل الذي يقوم به لا يمكن أن يُجازى عليه إلا من  
الله؛ لأن العمل الذي يؤديه بمنهج الله ومن الله ، فلا يمكن إلا أن يكون الأجر عليه من أحد غير

الله .

ولذلك يقول سبحانه : { . . . إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } [ يوسف : 104 ]  
والذكر يُطلق إطلاقات متعددة ، ومادة « ذال » و « كاف » و « راء » مأخوذة من الذاكرة .  
وعرفنا من قبل أن الإنسان له آلات استقبال هي الحواس الإنسانية ، وتنتقل المعلومات أو  
الخبرات منها إلى العمليات العقلية ، وتمرُّ تلك المعلومات ببؤرة الشعور ، لِتُحفظ لفترة في هذه  
البؤرة ، ثم تنتقل إلى حاشية الشعور ، إلى أن تستدعيها الأحداث ، فتعود مرة أخرى إلى بؤرة  
الشعور .

ولذلك أنت تقول حين تتذكر معلومة قديمة « لقد تذكرتها »؛ كأن المعلومة كانت موجودة في  
مكان ما في نفسك؛ لكنها لم تكن في بؤرة الشعور . وحين جاءت عملية الاستدعاء ، فهي تنتقل  
من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

والتذكر هو : استدعاء المعلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

والحق سبحانه يقول : { وَذَكَّرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ . . . } [ إبراهيم : 5 ]  
أي : ذكّرهم بما مرَّ عليهم من أحداث أجزاها الله؛ وهي غير موجودة الآن في بؤرة شعورهم .  
وسمّي القرآن ذكراً؛ لأنه يُذكّر كل مؤمن به بالله الذي تفضّل علينا بالمنهج الذي تسير به حياتنا  
إلى خير الدنيا والآخرة .

فالذكر إذن يكون للعاقل معونة له ، وهو من ضمن رحمة الله بالخلق ، فلم يترك الخلق منشغلين  
بالنعمة عن مَنْ أنعمها عليهم ، فهذا الكون منظم بدقة بديعة ، وفي كل مقومات حياة البشر .  
ومن فضل الله عليهم أنه أرسل الرسل مُذكّرين لهم بهذا العطاء الرباني .  
وكلمة « ذكر » تدل على أن الفطرة في الإنسان كان يجب أن تظل واعية ذاكرة لله ، وقد قدر  
الله غفلة الأحداث ، فجعل لهم الذكر كله في القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ . . . }

وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105)

وإذا سمعت « كآين » افهم أن معناها كثير كثير كثير؛ بما يفوق الحصر ، ومثل « كآين » كلمة «  
كم » ، والعدُّ هو مظنة الحصر ، والشيء الذي فوق الحصر؛ تنصرف عن عدّه ، ولا أحد يحصر  
رمال الصحراء مثلاً ، لكن كلاً منا يعدُّ النقود التي يرُدُّها لنا البائع ، بعد أن يأخذ ثمن ما اشتريناه .

إذن : فالانصراف عن العدِّ معناه أن الأمر الذي نريد أن نتوجه لعدّه فوق الحصر ، ولا أحد يعدُّ  
النجوم أو يحصيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُبَيِّنُنا إلى هذه القضية ، لإسباغ نعمه على خلقه ، ويقول : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا . . . } [ إبراهيم : 34 ]

و « إن » هي للأمر المشوك فيه ، وأنتم لن تعدُّوا نعمة الله؛ لأنَّها فوق الحصر ، والمعدود دائماً يكون مُكرِّراً ، وذكر الحق هنا نعمة واحدة ، ولم يحددها؛ لأنَّ أيَّ نعمة تستقبلها من الله لو استقصيتها لوجدتَ فيها نِعْماً لا تُحصَر ولا تُعدُّ .

إذن : فكلمة « كآين » تعني « كم » ، وأنت تقول للولد الذي لم يستذكر دروسه : كم نصحتك؟ وأنت لا تقولها إلا بعد أن يفيض بك الكيل .

وتأتي « كم » ويُراد بها تضخيم العدد ، لا منك أنت المتكلم ، ولكن مَن توجَّه إليه الكلام ، وكأنك تستأنمه على أنه لن ينطق إلا صدقاً ، أو كأنك استحضرتَ النصائح ، فوجدتها كثيرة جداً .

والسؤال عن الكمية إما أن يُلقَى من المتكلم ، وإما أن يُطلب من المخاطب؛ وطلبه من المخاطب دليل على أنه سَيَقْر على نفسه ، والإقرار سيد الأدلة .

وحين يقول سبحانه : { وَكَأَيِّن . . . } [ يوسف : 105 ] فمعناها أن ما يأتي بعدها كثير .

وسبحان القائل : { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } [ آل عمران : 146 ] وهكذا نفهم أن ( كآين ) تعني الكثير جداً؛ الذي بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرر لنا العذر أمام الغير إن لم نُحصِه .

والآيات هي جمع « آية »؛ وهي الشيء العجيب ، المُلْفِت للنظر ويُقال : فلان آية في الذكاء . أي : أن ذكائه مضرب المثل ، كأمر عجيب يفوق ذكاء الآخرين . ويُقال : فلان آية في الشجاعة؛ وهكذا .

ومعنى الشيء العجيب أنه هو الخارج عن المألوف ، ولا يُنسى .

وقد نشر الحق سبحانه في الكون آياتٍ عجيبة ، ولكل منشور في الكون حكمة . وتنقسم معنى الآيات إلى ثلاث :

الأول : هو الآيات الكونية التي تحدثنا عنها ، وهي عجائب؛ وهي حُجَّة للمتأمل أن يؤمن بالله الذي أوجدها؛ وهي تلفتُك إلى أن مَنْ خلقها لا بُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدِّقة ، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه .

وقد نشر الحق سبحانه هذه الآيات في الكون .

وحيثما أعلن الله بواسطة رسوله أنه سبحانه الذي خلقها ، ولم يُقَلَّ أحد غيره : « أنا الذي خلقت  
« فهذه المسألة مسألة الخلق تثبت له سبحانه ، فهو الخالق وما سواه مخلوق ، وهذه الآيات قد  
خلقت من أجل هدف وغاية .

وفي سورة الروم نجد آيات تجمع أغلب آيات الكون؛ فيقول الحق سبحانه : { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ  
تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ \* وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ \* يُخْرِجُ الْحَيَّ  
مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ \* وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ  
مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ \* وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا  
وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ \* وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ \* وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ  
وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ \* وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا  
وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ \*  
وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ } [ 25-17 ]  
الروم : 17-25 ]

كل هذه آيات تنبه الإنسان الموجود في الكون أنه يتمتع فيه طبقاً لنواميس عليا؛ فيها سرُّ بقاء  
حياته؛ فيجب أن ينتبه إلى مَنْ أوجدها .

وبعد أن ينتبه إلى وجود واحد أعلى؛ كان عليه أن يسأل : ماذا يريد منه هذا الخالق الأعلى؟  
هذه الآيات تفرض علينا عقلياً أن يوجد مَنْ يبلغنا مطلوبَ الواحد الأعلى ، وحيثما يأتي رسول  
يقول لنا : إن مَنْ تبحثون عنه اسمه الله؛ وهو قد بعثني لأبلغكم بمطلوبه منكم أن تعبدوه؛ فاتبعوا  
أوامره وتجنبوا نواهيه .

والنوع الثاني من الآيات هي آيات إعجازية ، والمراد منها تثبيت دعوة الرسل ، فكان ولا بُدَّ أن  
يأتي كل رسول ومعه آية؛ لتثبت صدق بلاغه عن الله؛ لأن كل رسول هو من البشر ، ولا بد له  
من آية تخرق النواميس ، وهي المعجزات التي جاءت مع الرسل .

وهناك آيات حُكْمِيَّة ، وهي النوع الثالث ، وهي الفواصل التي تحمل جُملاً ، فيها أحكام القرآن  
الكريم؛ وهو المنهج الخاتم .

وهي آياتٌ عجيبة أيضاً؛ لأنك لا تجد حُكماً من أحكام الدين إلا وبمسُّ منطقياً حاجة من  
حاجات النفس الإنسانية ، والبشر وإن كفروا سيضطرون إلى كثير من القضايا التي كانوا ينكرونها  
، ولكن لا حلَّ للمشكلات التي يواجهونها ، ولا تحلَّ إلا بها .

والمثل الواضح هو الطلاق ، وهم قد عابوا مجيء الإسلام به؛ وقالوا : إن مثل هذا الحل للعلاقة  
بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير من القسوة على الأسرة ، لكنهم لجأوا إليه بعد أن عصتهم  
أحداث الحياة ، وهكذا اهتدى العقل البشري إلى حكم كان يناقضه .

وكذلك أمر الربا الذي يحاولون الآن وَضَع نظام ليتحللوا من الربا كله ، ويقولون : لا شيء يمنع العقل البشري من التوصل إلى ما يفيد .

وهكذا نجد الآيات الكونية هي عجائب بكل المقاييس ، والآيات المصاحبة للرسول هي معجزات خَرَقَت النواميس ، وآياتُ القرآن بما فيها من أحكام تَقِي الإنسان من الداء قبل أن يقع ، وتُجبرهم معضلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها . وهم يُعرضون عن كل الآيات ، يُعرضون عن آيات الكون التي إن دَقَّقوا فيها لَثَبَتْ لهم وجود إله خالق؛ ولأخذوا عطاءً من عطاءات الله ليسري تربية وتنمية ، وكل الاكتشافات الحديثة إنما جاءت نتيجةً لملاحظاتٍ ظاهرةٍ ما في الكون .

وسبق أن ضربتُ المثل بالرجل الذي جلس ليطهو في قدر؛ ثم رأى غطاء القدر يعلو؛ ففكَّر وتساءل : لماذا يعلو غطاء القدر؟ ولم يُعرض الرجل عن تأمل ذلك ، واستنباط حقيقة تحوُّل الماء إلى بخار؛ واستطاع عن طريق ذلك أن يكتشف أن الماء حين يتبخر يتمدد؛ ويحتاج إلى حَيِّزٍ أكبر من الحَيِّز الذي كان فيه قبل التمدد .

وكان هذا التأمل وراء اكتشاف طاقة البخار التي عملتُ بها البواخر والقطارات ، وبدأ عصر سُمِّي « عصر البخار » . وهذا الذي رأى طَفُو طبقٍ على سطح الماء وتأمل تلك الظاهرة ، ووضع قاعدة باسمه ، وهي « قاعدة أرشميدس » .

وهكذا نجد أن أي إنسان يتأمل الكون بِدِقَّةٍ سيجد في ظواهره ما يفيد في الدنيا؛ كما استفاد العالم من تأملات أرشميدس وغيره؛ مَن قَدَّموا تأملاتهم كملاحظات ، تتبعها العلماء ليصلوا إلى اختراعات تفيد البشرية .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يَضِنُّ على الكافر بما يفيد العالم مادام يتأمل ظواهر الكون ، ويستنبط منها ما يفيد البشرية .

إذن فقوله تعالى : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا . . . } [ يوسف : 105 ]

إن أردتها وسيلة للإيمان بالله؛ فهي تقودك إلى الإيمان؛ وإن أردتها لفائدة الدنيا فالحق لم يبخل على كافر بأن يُعطيَه نتيجة ما يبذل من جهد .

فكل المطلوب ألا تَمُرَّ على آيات الله وأنت مُعرض عنها؛ بل على الإنسان أن يُقبِل إقبال الدارس ، إما لتنتهي إلى قضية إيمانية تُثري حياتك؛ وتعطيك حياة لا نهاية لها ، وهي حياة الآخرة ، أو تُسعد حياتك وحياة غيرك ، بأن تبتكر أشياء تفيدك ، وتفيد البشرية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ . . . }

## وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106)

وهكذا نرى المصافي التي يمر بها البشر ليصلوا إلى الإيمان .

المصفي الأول : قوله تعالى : { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [ يوسف : 103 ]  
أي : أن الكثير من الناس لن يصلوا إلى الإيمان ، حتى ولو حرص الرسول صلى الله عليه وسلم  
أن يكونوا مؤمنين .

وقلنا : إن مقابل « كثير » قد يكون « قليل » ، وقد يكون « كثير » ، وبعض المؤمنين قد  
يشوب إيمانهم شبهة من الشرك ، صحيح أنهم مؤمنون بالإله الواحد ، ولكن إيمانهم ليس يقينياً ،  
بل إيمان متذبذب ، ويشركون به غيره .

والمصفي الثاني : قوله تعالى : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [ يوسف : 106 ]  
ومثال هذا : كفار قريش الذين قال فيهم الحق سبحانه : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ  
... } [ الزخرف : 87 ]

ويقول فيهم أيضاً : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... } [ لقمان :  
25 ]

ورغم قولهم هذا إلا أنهم جعلوا شفعاء لهم عند الله ، وقالوا : إن الملائكة بنات الله ، وهكذا  
جعلوا لله شركاء . ومعهم كل من ادعى أن لله ابناً من أهل الكتاب .  
وأيضاً مع هؤلاء يوجد بعض من المسلمين الذي يخلصون قوماً أقوياء بالخضوع لهم خضوعاً لا  
يمكن أن يُسمى في العرف مودة؛ لأنه تقرب ممتلى بالدلة؛ لأنهم يعتقدون أن لهم تأثيراً في النفع  
والضرر؛ وفي هذا لون من الشرك .  
ويأتي الواحد من هؤلاء ليقول لمن يتقرب منه : أرجو أن تقضي لي الأمر الفلاني . ويرد صاحب  
النفوذ : اعتمد على الله ، وإن شاء الله سيقضي الله لك حاجتك .  
لكن صاحب الطلب يتمادى في الدلة ، ليقول : وأنا اعتمد عليك أيضاً ، لتقضي لي هذه  
الحاجة .

أو يرد صاحب النفوذ ويقول : أنا سوف افعل لك الشيء الفلاني؛ والباقي على الله .  
وحين أسمع ذلك فأنا أتساءل : وماذا عن الذي ليس باقياً ، أليس على الله أيضاً؟  
وينشر الله حكماً في أشياء تمنّاها أصحابها؛ ففُضِّيتْ؛ ثم تبين أن فيها شراً ، وهناك أشياء تمنّاها  
أصحابها؛ فلم تُفُضْ؛ ثم تبين أن عدم قضائها كان فيه الخير كل الخير .  
نجد الأثر يقول :

وَاطْلُبُوا الْأَشْيَاءَ بَعْرَةَ الْأَنْفُسِ ... فَإِنَّ الْأُمُورَ تَجْرِي بِمَقَادِيرِ

وربما منعك هذا فكرهته ، وكان المنع لك خيراً من قضائه لك ، فإن المنع عين العطاء ، ولذلك

فعلى الإنسان أن يعرف دائماً أن الله هو الفاعل ، وهو المسبب ، وأن السبب شيء آخر .  
ودائماً أذكرُ بأننا حين نحجُ أو نعتمر نسعى بين الصفا والمروة لنتذكر ما فعلته سيدتنا هاجر التي  
سَعَتْ بين الصفا والمروة؛ لتطلب الماء لوليدها بعد استنفدت أسبابها؛ ثم وجدت الماء تحت رجل  
وليدها إسماعيل .

فقد أخذتُ هي بالأسباب ، فجاء لها رب الأسباب بما سألت عنه . ولم يأت لها الحق سبحانه  
بالماء في جهة الصفا أو المروة؛ ليثبت لها القضية الأولى التي سألت عنها إبراهيم عليه السلام  
حين أنزلها في هذا المكان .

فقد قالت له : ءأنزلتنا هنا برأيك؟ أم أن الله أمرك بهذا؟ قال : نعم أمرني ربِّي . قالت : إذن لا  
يضيعنا .

وقد سَعَتْ هي بحثاً عن الماء أخذاً بالأسباب ، وعثرتُ على الماء بقدره المسبب الأعلى .  
وقول الحق سبحانه : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [ يوسف : 106 ]  
يتطلب منا أن نعرف كيف يتسرَّب الشرك إلى الإيمان ، ولنا أن نتساءل : مادام يوجد الإيمان؛  
فمن أين تأتي لحظة الشرك؟

ويشرح الحق سبحانه لنا ذلك حين يقول : { فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفَلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ  
فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ \* لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [  
العنكبوت : 65-66 ]

هم إذن قد آمنوا وهم في الفلك ، وأخذوا يدعون الله حين واجهتهم أزمة في البحر؛ لكنهم ما أن  
وصلوا إلى الشاطئ حتى ظهر بينهم الشرك .  
حين يسألهم السائل : ماذا حدث؟

فيجيبون : أنهم كانوا قد أخذوا حذرهم ، واستعدوا بقوارب النجاة . ونسوا أن الله هو الذي  
أنقذهم فانطبق عليهم قول الحق سبحانه : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدْنَاداً لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ  
مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [ إبراهيم : 30 ]

وفي حياتنا اليومية قد تذهب لتقضي حاجة لإنسان؛ وبعد أن يُسهَّل لك الله قضاء تلك الحاجة؛  
تلتفت فلا تجده ، ولا يفكر في أن يُوجِّه لك كلمة الشكر .

وحين تلقاه يقول لك : كل ما طلبته منك وجدته مقضياً ، لقد كَلَّمْتُ فلاناً فقضاها .  
وهو يقول لك ذلك ليُبعد عنك ما أسبغه الله عليك من فضل قضائك لحاجته؛ وذلك لأنه لحظة  
أن طلب منك مساعدته في قضاء تلك الحاجة تذللَّ وخضع ، وبعد أن تنقضي يتصرف كفرعون  
ويتناسى .

ولا ينزعه من فرعنته إلا رؤياك؛ لأنه يعلم أنك صاحب جميل عليه ، بل قد يريد بك الشر؛ رغم

أنك أنت مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ ، لماذا؟ لأن هذه هي طبيعة الإنسان .

يقول تعالى : { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ \* أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلَىٰ } [ العلق : 6-7 ]

ولذلك يقول في المثل : « اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ » .

وأنت تتقي شره ، بأن تحذر أن تَمُنَّ عليه بالإحسان؛ كي لا تنمي فيه غريزة الكره لك .

والنصح يحتسب أي مساعدة منه لغيره عند الله؛ فيأخذ جزاءه من خالقه لحظة أداء فعل الخير ،

ولا ينتظر شيئاً مَمَّنْ فعل الخير له؛ لأنك لا تعلم ماذا فُكِّرَ لحظة أن أَدَّيْتَ له الخدمة ، فحين يجد

ترحيب الناس بك في الجهة التي تُؤدِّي له الخدمة فيها؛ قد يتساءل : لماذا يحترمونك أكثر منه؟

وهو يسأل هذا السؤال لنفسه على الرغم من أنك مُتواجد معه في هذا المكان لتخدمه .

ولذلك يقول العامة هذا المثل : « اعمل الخير وارمه في البحر »؛ لأن الله هو الذي يجازيك

وليس البشر؛ فاجعل كل عملك مُوجَّهاً لله ، وانسَ أنك فعلتَ معروفاً لأحد .

والمعروف المنكُور هو أجدى أنواع المعروف عليك؛ لأن الذي يُجَازِي عليه هو الله؛ وهو سبحانه

مَنْ سيناوَلك أجره وثوابه بيده؛ ولذلك عليك أن تنسى مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ؛ كي يُعَوِّضَكَ اللهُ بالخير

على ما فعلت .

ويقال في الأثر : إن موسى عليه السلام قال : يا رَبِّ ، إني أسألك ألا يُقال فيّ ما ليس فيّ .

فأوضح له الله : يا موسى لم أصنعها لنفسي؛ فكيف أصنعها لك .

ويعرض الحق سبحانه هذه المسألة في القرآن بشكل آخر فيقول سبحانه : { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ

صُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } [ الزمر : 8 ]

والإنسان لحظة أن يمسه الصُّرُّ؛ فهو يدعو الربوبية المتكفلة بمصالحه : يا رَبِّ أنت الذي خلقتني ،

وأنت المتكفِّل بتربيّتي؛ وأنا أتوكل عليك في مصالحي ، فأنقذني ممَّا أنا فيه .

ومثل هذا الإنسان كمثل الرُّبان الذي ينقذه الله بأعجوبة من العاصفة؛ لكنه بعد النجاة يحاول أن

ينسب نجاة السفينة من الغرق لنفسه .

ولذلك أقول دائماً : احذروا أيها المؤمنون أن تنسُوا المُنعمَ المُسبِّب في كل شيء ، وإياكم أن

تُفتنوا بالأسباب؛ فتغفلوا عن المُسبِّب؛ وهو سبحانه مُعطي الأسباب .

وأقول ذلك حتى لا تقعوا في ظلم أنفسكم بالشرك بالله؛ فسبحانه القائل : { الَّذِينَ آمَنُوا وَمَ

يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [ الأنعام : 82 ]

والظلم كما نعلم هو أن تُعطي الحق لغيره صاحبه؛ فكيف يَجْرؤُ أحد على أن يتجاهل فَضْلَ اللهِ

عليه؛ فيقع في الشرك الخفي ، والظلم الأكبر هو الشرك .

وسبحانه القائل : { . . . إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [ لقمان : 13 ]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ . . . }

**أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107)**

ألم يحسب هؤلاء حساب انتقام الله منهم بعذاب الدنيا الذي يَعْمُ؛ لأن الغاشية هي العقاب الذي يَعْمُ ويُعْطَى الجميع؛ أم أنهم استبطئوا الموت ، واستبطئوا القيامة وعذابها؛ رغم أن الموت مُعْلَقٌ على رقاب الجميع ، ولا أحد يعلم ميعاد موته .

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من مات قامت قيامته » .

فما الذي يُبْطِئهم عن الإيمان بالله والإخلاص التوحيدي لله ، بدون أن يمسهم شرك؛ قبل أن تقوم قيامتهم بغتة؛ أي : بدون جرس تمهيدي .

ونعلم أن مَنْ سبقونا إلى الموت لا يطول عليهم الإحساس بالزمن إلى أن تقوم قيامة كُلِّ الخلق؛ لأن الزمن لا يطول إلا على مُتتبع أحداثه .

والنائم مثلاً لا يعرف كم ساعة قد نام؛ لأن وَعْيَهُ مفقود فلا يعرف الزمن ، والذي يوضح لنا أن الذين سبقونا لا يشعرون بمرور الزمن هو قوله الحق : { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ

ضُحَاهَا } [ النازعات : 46 ]

ويأتي قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

{ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو . . . }

**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)**

أي : قل يا محمد هذا هو منهجي . والسبيل كما نعلم هو الطريق ، وقوله الحق : { هذه سبيلي

. . . } [ يوسف : 108 ]

يدل على أن كلمة السبيل تأتي مرة مُؤنثة ، كما في هذه الآية ، وتأتي مرة مُذكّرة؛ كما في قوله

الحق : { وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . . . } [

الأعراف : 146 ]

وأعلِنُ يا محمد أن هذه الدعوة التي جئتُ بها هي للإيمان بالله الواحد؛ وسبحانه لا ينتفع بالمنهج

الذي نزل عليك لِيُطَبِّقَه العباد ، بل فيه صلاح حياتهم ، وسبحانه هو الله؛ فهو الأول قبل كل

شيء بلا بداية ، والباقي بعد كل موجود بلا نهاية؛ ومع خَلْق الخلق الذين آمنوا هو الله؛ وإن

كفروا جميعاً هو الله ، والمسألة التكليفية بالمنهج عائدة إليكم أنتم ، فَمَنْ شاء فليؤمن ، وَمَنْ

شاء فَلْيَكْفُر .

ولنقرأ قول الحق : { إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ \* وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } [ الانشقاق : 1-2 ]

فهي تنشقُّ فَوَرَّ سماعها لأمر الله ، وتأتي لحظة الحساب .

وقوله الحق : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ . . . } [ يوسف : 108 ]

أي : أدعو بالطريق الموصِّل إلى الله إيماناً به وتقبُّلاً لمنهجه ، وطلباً لما عنده من جزاء الآخرة؛ وأنا على بصيرة مما أدعو إليه .

والبصر كما نعلم للمُحَسَّنَات ، والبصيرة للمعنويات .

والبصر الحسيُّ لا يُؤدِّي نفس عمل البصيرة؛ لأن البصيرة هي يقينٌ مصحوب بنور يُقنع النفس

البشرية ، وإن لم تَكُنْ الأمور الظاهرة مُلجئة إلى الإقناع .

ومثال هذا : أم موسى حين أوحى الله لها أن تقذف ابنها في اليمِّ ، ولو قاستُ هي هذا الأمر

بعقلها لما قبِلته ، لكنها بالبصيرة قبِلته؛ لأنه وارد من الله لا مُعاندَ له من النفس البشرية .

فالبصيرة إذن : هي يقين ونور مبني على برهان من القلب؛ فيطيعه العبد طاعة بتفويض ، ويُقال

: إن الإيمان طاعة بصيرة .

ويمكن أن نقرأ قوله الحق : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ . . . } [ يوسف : 108 ]

[

وهنا جملة كاملة؛ ونقرأ بعدها : { أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي . . . } [ يوسف : 108 ]

أو نقرأها كاملة : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا

مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [ يوسف : 108 ]

وقول الحق : { وَسُبْحَانَ اللَّهِ . . . } [ يوسف : 108 ]

أي : أنه سبحانه مُنزَّه تنزيهاً مطلقاً في الذات ، فلا ذات تُشبهه؛ فذاته ليست محصورة في

القالب المادي مثلك ، والمنفوخة فيه الروح ، وسبحانه مُنزَّه تنزيهاً مُطلقاً في الأفعال ، فلا فعل

يشبه فعله؛ وكذلك صفاته ليست كصفات البشر ، فحين تعلم أن الله يسمع ويرى ، فخذُ ذلك

في نطاق : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [ الشورى : 11 ]

وكذلك وجوده سبحانه ليس كوجودك؛ لأن وجوده وجود واجد أزلي ، وأنت حدتُ طارئ على

الكون الذي خلقه سبحانه .

ولذلك قاس بعض الناس رحلة الإسراء والمعراج على قدرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولم

ينتبهوا إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقد أُسري بي » .

ونزل قول الحق سبحانه : { سُبْحَانَ الَّذِي أُسْرِيَ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [ الإسراء : 1 ]

وهكذا تعلم أن الفعل لم يكن بقوة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن بقوة من خلق الكون كله

، القادر على كل شيء ، والذي لا يمكن لمؤمن حق أن يشرك به ، أمام هذا البرهان . ويقول  
الحق سبحانه من بعد ذلك :

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا . . . }

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ  
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109)

وينتقل الحق سبحانه هنا إلى الرسل الذين سبقوا محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فالحق سبحانه  
يقول : { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } [ الإسرائ : 94 ]

أي : أنهم كانوا يطلبون رسولاً من غير البشر ، وتلك مسألة لم تحدث من قبل ، ولو كانت قد  
حدثت من قبل؛ لقالوا : « ولماذا فعلها الله مع غيرنا؟ » .  
ولذلك أراد سبحانه أن يردُّ لهم عقولهم؛ فقال تعالى : { قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ  
مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا } [ الإسرائ : 95 ]  
والملائكة بطبيعتها لا تستطيع أن تحيا على الأرض ، كما أنها لا تصلح لأن تكون قُدوة أو أسوة  
سلوكية للبشر .

فالحق سبحانه يقول عن الملائكة : { . . . لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [ التحريم : 6 ]

والملاك لا يصلح أن يكون أسوة للإنسان؛ لأن المَلَك مخلوق غيبي غير مُحسِّن من البشر؛ ولو  
أراده الله رسولاً لجَسَدَه بشراً؛ ولو جعله بشراً لبقيت الشبهة قائمة كما هي .  
أو : أن الآية جاءت لتسُدَّ على الناس ذرائع انفتحت بعد ذلك على الناس في حروب الردة حين  
ادَّعت سجاح أنها نبيبة مُرسلة .

لذلك جاء الحق سبحانه من البداية بالقول : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ  
أَهْلِ الْقُرَى . . . } [ يوسف : 109 ]

ليوضح لنا أن المرأة لا تكون رسولاً منه سبحانه؛ لأن مهمة الرسول أن يلتحم بالعالم التحام بلاغ  
، والمرأة مطلوب منها أن تكون سكتاً .

كما أن الرسول يفترض فيه ألاَّ يسقط عنه تكليف تعبدية في أي وقت من الأوقات؛ والمرأة  
يسقط عنها التكليف التعبدية أثناء الطمث ، ومهمة الرسول تقتضي أن يكون مُستوفي الأداء  
التكليفية في أيِّ وقتٍ .

ثم كيف يطلبون ذلك ولم تأت في مهام الرسل من قبل ذلك إلا رجلاً ، ولم يسأل الحق أيّاً منهم ،  
ولم يستأذن من أيِّ واحد من الرسل السابقين ليتولى مهمته؛ بل تلقى التكليف من الله دون

اختيار منه ، ويتلقى ما يؤمر أن يبلغه للناس ، ويكون الأمر بواسطة الوحي .  
والوحي كما نعلم إعلام بخفاء ، ولا ينصرف على إطلاقه إلا للبلاغ عن الله . ولم يوجد رسول  
مُفَوَّضٌ ليلبغ ما يجب أو يُشَرِّع؛ لكن كل رسول مُكَلَّفٌ بأن ينقل ما يُبلِّغ به ، إلا محمد صلى الله  
عليه وسلم ، فقد فَوَّضَهُ الحق سبحانه في أن يُشَرِّع ، ونزل في القرآن : { مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ  
فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا . . . } [ الحشر : 7 ]  
ويقول الحق سبحانه عن هؤلاء الرسل السابقين أنهم : { مَنْ أَهْلِ الْقُرَى . . . } [ يوسف :  
109 ]

والقرية كانت تأخذ نفس مكانة المدينة في عالمنا المعاصر . وأنت حين تزور أهل المدينة تجد  
عندهم الخير عكس أهل البادية ، فالبدويّ من هؤلاء قد لا يجد ما يُقدِّمه لك ، فقد يكون ضرع  
الماشية قد جفّ؛ أو لا يجد ما يذبحه لك من الأغنام .

والفارق بين أهل القرية وأهل البادية أن أهل القرية لهم توطُّنٌ؛ ويملكون قدرة التعايش مع الغير ،  
وترتبط مصالحهم ببعضهم البعض ، وترقُّ حاشية كل منهم للآخر ، وتتسع مداركهم بمعارف  
متعددة ، وليس فيهم غلظة أهل البادية .  
فالبدويّ من هؤلاء لا يملك إلا الرِّحْلَ على ظهر جملة؛ ويطلب مساقط المياه ، وأماكن الكلاء لما  
يرعاه من أغنام .

وهكذا تكون في أهل القرية رِقَّةٌ وعِلْمٌ وأدبٌ تناولٍ وتعاملٍ؛ ولذلك لم يأتِ رسول من البدوي  
لا تكون معلوماته قاصرة ، ويكون جافاً ، به غلظة قول وسلوك .  
والرسول يُفترض فيه أن يستقبل كل مَنْ يلتقي به بالرِّفق واللين وحُسن المعاشرة؛ لذلك يكون من  
أهل القرية غالباً؛ لأنهم ليسوا قساة؛ وليسوا على جهل بأمور التعايش الاجتماعي .  
ويتابع الحق سبحانه : { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . . }  
{ يوسف : 109 ]

أي : أنهم إن كانوا غير مؤمنين بآخرة يعودون إليها؛ ولا يعلمون متى يعودون؛ فليأخذوا الدنيا  
مقياساً؛ ولينظروا في رُقعة الأرض؛ وينظروا ماذا حدث للمُكذِّبين بالرسول ، إنهم سيجدون أن  
الهلاك والعذاب قد حاقا بكل مُكذِّب .  
ولو أنهم ساروا في الأرض ونظروا نظرة اعتبار ، لرأوا قُرَى مَنْ نَحْتُوا بِيوتهم في الجبال وقد عصف  
بها الحق سبحانه ، ولرأوا أن الحق قد صَبَّ سَوَاطِ العذاب على قوم عاد وآل فرعون ، فإن لم  
تُخَفْ من الآخرة؛ فعليك بالخوف من عذاب الدنيا .

وقول الحق سبحانه : { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . . }  
[ يوسف : 109 ]

وهذا القول هو من لفتات الكونيات في القرآن ، فقديمًا كنا لا نعرف أن هناك غلافًا جويًا يحيط بالأرض ، ولم نكن نعرف أن هذا الغلاف الجوي به الأكسجين الذي نحتاجه للتنفس . ولم نكن نعرف أن هذا الغلاف الجوي من ضمن تمام الأرض ، وأنت حين تسير على اليابسة ، فالغلاف الجوي يكون فوقك؛ وبذلك فأنت تسير في الأرض؛ لأن ما فوقك من غلاف جوي هو من ملحقات الأرض .

والسَّيرُ في الأرض هو للسياحة فيها ، والسياسة في الأرض نوعان : سياحة اعتبار ، وسياحة استثمار .

ويُعبرُ الحق سبحانه عن سياحة الاعتبار بقوله : { أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . . } [ الروم : 9 ]

ويعبر سبحانه عن سياحة الاستثمار بقوله : { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ . . . } [ العنكبوت : 20 ]

إذن : فالسياحة الاعتبار هي التي تَلْفَتُكَ لقدرة الله سبحانه ، وسياحة الاستثمار هي من عمارة الأرض ، يقول الحق سبحانه : { وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً . . . } [ النساء : 100 ] .

وأنت مُكَلَّفٌ بهذه المهمة ، بل إن ضاق عليك مكان في الأرض فابحث عن مكان آخر ، بحسب قول الحق سبحانه : { أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا . . . } .

### [ النساء : 97 ]

ولك أن تستثمر كما تريد ، شرط ألا يُلْهِيكَ الاستثمار عن الاعتبار .

ويتابع الحق سبحانه : { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . . } [ يوسف : 109 ]

ويا لَيْتَ الأمر قد اقتصر على النكال الذي حدث لهم في الدنيا؛ بل هناك نكالٌ أشدُّ وطأة في انتظارهم في الآخرة .

يقول الحق سبحانه : { . . . وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [ يوسف : 109 ]

وحديث الحق سبحانه عن مصير الذين كَذَّبُوا؛ يظهر لنا كمقابل لما ينتظر المؤمن ، ولم تذكر الآية مصير هؤلاء المُكذِّبين بالتعبير المباشر ، ويُسمُّون ذلك في اللغة بالاحتباك .

مثل ذلك قوله الحق : { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . } [ الرعد : 41 ]

وكل يوم تنقص أرض الكفر ، وتزيد رقعة الإيمان .

وهكذا يأتي العقاب من جانب الله ، ونأخذ المقابل له في الدنيا؛ ومرة يأتي بالثواب المقيم

للمؤمنين ، ونأخذ المقابل في الآخرة .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يُقَلِّ الحق سبحانه أنه سوف يأتي لهم بما هو أشدَّ شرًّا من عذاب الدنيا

في اليوم الآخر؟

وأقول : إن السياق العقلي السطحي الذي ليس من الله؛ هو الذي يمكن أن يُذَكِّرهم بأن عذاب الآخرة هو أشدُّ شراً من عذاب الدنيا .

ولكن الحق سبحانه لا يقول ذلك؛ بل عدل عن هذا إلى المقابل في المؤمنين؛ فقال : { . . .

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [ يوسف : 109 ]

فإذا جاء في الدنيا بالعذاب للكافرين؛ ثم جاء في الآخرة بالثواب للمؤمنين؛ أخذ من هذا المقابل أن غير المؤمنين سيكون لهم حسابٌ عسير ، وقد حذف من هنا ما يدل عليه هناك؛ كي نعرف كيف يُجَبِّك النظم القرآني .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

{ حتى إِذَا استيأس الرسل . . . }

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110)

وكلمة : { حتى } [ يوسف : 110 ]

تدل على أن هناك غاية ، ومادامت هناك غاية فلا بُدَّ أن بداية ما قد سبقتها ، ونقول : « أكلت السمكة حتى رأسها » . أي : أن البداية كانت أكل السمكة ، والنهاية هي رأسها .

والبداية التي تسبق : { استيأس الرسل . . . } [ يوسف : 110 ]

هي قوله الحق : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ . . . } [ يوسف : 109 ]

ومادام الحق سبحانه قد أرسلهم؛ فهم قد صَمِنُوا النصر ، ولكن النصر أبطأ؛ فاستيأس الرسل ، وكان هذا الإبطاء مقصوداً من الحق سبحانه؛ لأنه يريد أن يُحَمِّل المؤمنين مهمة هداية حركة الحياة في الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فيجب ألا يضطلع بها إلا المُخْتَبَر اختباراً دقيقاً .

ولابدَّ أن يمر الرسول الأُسوة لمن معه ومن يتبعه من بعد بمحن كثيرة ، ومن صبر على المِحْن وخرج منها ناجحاً؛ فهو أهلٌّ لأن يحمل المهمة .

وهو الحق سبحانه القائل : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْتَبِينَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ . . . } [

البقرة : 214 ]

إذن : لابدَّ من اختبار يُمَحِّص . ونحن في حركة حياتنا نُؤَهِّل التلميذ دراسياً؛ ليتقدم إلى شهادة

إتمام الدراسة الابتدائية ، ثم نُؤَهِّله لِنَيْل شهادة إتمام الدراسة الإعدادية؛ ثم نُؤَهِّله لِنَيْل شهادة

إتمام الدراسة الثانوية ، ثم يلتحق بالجامعة ، ويتم اختباره سنوياً إلى أن يتخرج من الجامعة .

وإن أراد استكمال دراسته لنيل الماجستير والدكتوراه ، فهو يبذل المزيد من الجُهد .

وكل تلك الرحلة من أجل أن يذهب لتولي مسؤولية العمل الذي يُسند إليه وهو جدير بها ، فما  
 بأننا بعملية بعث رسول إلى قوم ما؟  
 لأبداً إذن من تمحيصه هو ومن يتبعونه ، وكى لا يبقى على العهد إلا الموقن تمام اليقين بأن ما  
 يفوته من خير الدنيا؛ سيجد خيراً أفضل منه عند الله في الآخرة .  
 ولقائل أن يقول : وهل من المعقول أن يستتس الرسل؟  
 نقول : فلنفهم أولاً معنى « استتس »؛ وهناك فرق بين « يأس » و « استتس » ، ف « يأس »  
 تعني قطع الأمل من شيء . و « استتس » تعني : أنه يُلح على قطع الأمل .  
 أي : أن الأمل لم ينقطع بعد . ومن قطع الأمل هو من ليس له منفذ إلى الرجاء ، ولا ينقطع أمل  
 إنسان إلا إن كان مؤمناً بأسبابه المعزولة عن مسببه الأعلى .  
 لكن إذا كان الله قد أعطى له الأسباب ، ثم انتهت الأسباب ، ولم تصل به إلى نتيجة ، فالمؤمن  
 بالله هو من يقول : أنا لا تهمني الأسباب؛ لأن معي المسبب .  
 ولذلك يقول الحق سبحانه : { . . . وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبِئْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ  
 الْكَافِرُونَ }

### [ يوسف : 87 ]

ولذلك نجد أن أعلى نسبة انتحار إنما تُوجد بين الملاحدة الكافرين؛ لأنهم لا يملكون رصيذاً إيمانياً  
 ، يجعلهم يؤمنون أن لهم رباً فوق كل الأسباب؛ وقادر على أن يخرق النواميس .  
 أما المؤمن فهو يأوي إلى ركن شديد ، هو قدرة الحق سبحانه مسبب كل الأسباب ، والقادر على  
 أن يخرق الأسباب .  
 ولماذا يستتس الرسل؟

لأن حرصهم على تعجل النصر دفع البعض منهم أن يسأل مثلما سأل المؤمنون : { متى نصرُ  
 الله . . . } [ البقرة : 214 ]

فضلاً عن ظنهم أنهم كذبوا ، والحق سبحانه يقول هنا : { وظنوا أنهم قد كذبوا . . . } [ يوسف  
 : 110 ]

ومادة « الكاف » ، و « الذال » و « الباء » منها « كذب » ، و « كذب عليه » و « كذب  
 » . والكذب هو القول المخالف للواقع ، والعاقل هو من يُورد كلامه على ذهنه قبل أن ينطق به .

أما فاقد الرشد الذي لا يمتلك القدرة على التدبر؛ فينطق الكلام على عواهنه؛ ولا يمرر الكلام  
 على ذهنه؛ ولذلك يقال عنه « مخرف » .

وقد سبق لنا أن شرحنا الصدق ، وقلنا : إنه تطابق النسبة الكلامية مع الواقع ، والكذب هو

ألا تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع .

ومن يقول كلاماً يعلم أنه لا يطابق الواقع؛ يقال عنه : إنه مُتَعَمِّدُ الكذب ، ومن يقول كلاماً بغالبية الظن أنه لا يطابق الواقع ، ونقله عن غيره؛ فهو يكذب دون أن يُحسب كذبه افتراءً ، والإنسان الذي يتوَحَّى الدِّقَّةَ ينقل الكلام منسوباً إلى مَنْ قاله له؛ فيقول « أخبرني فلان » فلا يُعَدُّ كاذباً .

ولذلك أقول دائماً : يجب أن يُفَرِّقَ العلماء بين كذب المُفْتِنِ ، وكذب الخبر؛ وكذب المُخْبِرِ .  
فالخبر الكاذب مسئول عنه مَنْ تَعَمَّدَ الكذب ، أما الناقل للخبر مادام قد نسبته إلى مَنْ قاله ، فموقفه مختلف .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد لها قراءتين؛ قراءة هي : « وظنوا أنهم قد كذبوا » أي : حدّثهم غيرهم كذباً؛ وقراءة ثانية هي : « وظنوا أنهم قد كذبوا » وهي تعني : أنهم قد ظنّوا أن ما قيل لهم من كلام عن النصر هو كذب .

ولقائل أن يسأل : كيف يظن الرسل ذلك؟

وأقول : إن الرسول حين يطلب من قومه الإيمان؛ يعلم أن ما يُؤكِّد صدق رسالته هو مجيء النصر؛ وتمرُّ عليه بعض من الخواطر خوفاً أن يقول المقاتلون الذين معه : « لقد كذب علينا »؛ لأن الظن إخبار بالراجح .

ولا يخطر على بال الرسل أن الله سبحانه وتعالى معاذ الله قد كذبهم وعده ، ولكنهم ظنّوا أن النصر سيأتيهم بسرعة؛ وأخذوا بطء مجيء النصر دليلاً على أن النصر لن يأتي .  
أو : أنهم خافوا أن يُكذِّبهم الغير .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُعَلِّمُ رسله أن النصر سيأتي في الموعد الذي يحدده سبحانه ، ولا يعرفه أحد ، فسبحانه لا يَعَجَلُ بعجلة العبادة حتى تبلغ الأمور ما أراد .

ويقول سبحانه : { وظنوا أنهم قد كذبوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا . . . } [ يوسف : 110 ]

وهكذا يأتي النصر بعد الزلزلة الشديدة؛ فيكون وَقَعَهُ كَوَقَعِ الماء على ذي الغلَّةِ الصَّادِي ، ولنا أن نتخيل شَوْقَ العطشان لكوب الماء .

وأيضاً فإن إبطاء النصر يعطي غروراً للكافرين يجعلهم يتمادون في الغرور ، وحين يأتي النصر تتضاعف فرحة المؤمنين بالرسول ، وأيضاً يتضاعف عَمُّ الكافرين به .

ومجيء النصر للمؤمنين يقتضي وقوع هزيمة للكافرين؛ لأن تلك هي مشيئة الله الذي يقع بأسه وعذابه على الكافرين به .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . . . }

لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ  
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

ونلاحظ أن هذه الآية جاءت في سورة يوسف؛ أي : إن أردت قصة يوسف وإخوته؛ ففي السورة كل القصة بمراميتها وأهدافها وعظمتها ، أو المهم في كل قصص الأنبياء .  
يقول الحق سبحانه : { وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرِّسَالِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . . . } [ هود :  
[ 120 ]

ونعلم أن معنى القصص مأخوذ من قص الأثر؛ وتتبعه بلا زيادة أو نقصان .  
ويقول الحق سبحانه هنا : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ . . . } [ يوسف : 111 ]

وفي أول السورة قال الحق : { . . . إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } [ يوسف : 43 ]  
ونعرف أن مادة « العين » و « الباء » و « الراء » تفيد التعدية من جلي إلى خفي .  
والعبرة في هذه القصة قصة يوسف وكذلك قصص القرآن كلها؛ نأخذ منها عبرة من الجلي فيها إلى الخفي الذي نواجهه؛ فلا نفعل الأمور السيئة؛ ونقدم على الأمور الطيبة .  
وحيث نقبل على العمل الطيب الذي جاء في أي قصة قرآنية؛ وحيث نبتعد عن العمل السيئ الذي جاء خبره في القصة القرآنية؛ بذلك نكون قد أحسننا الفهم عن تلك القصص .  
وعلى سبيل المثال : نحن نجد الظالم في القصص القرآني؛ وفي قصة يوسف تحديداً؛ وهو ينتكس ،  
فيأخذ الواحد من العبرة ، ويبني حياته على ألا يظلم أحداً . وحيث يرى الإنسان منا المظلوم وهو ينتصر؛ فهو لا يجزن إن تعرض لظلم؛ لأنه أخذ العبرة لما ينتصر؛ فهو لا يجزن إن تعرض لظلم؛ لأنه أخذ العبرة لما ينتظره من نصر بإذن الله .

ونحن نقول : « عبر النهر » أي : انتقل من شاطئ إلى شاطئ .  
وكذلك قولنا « عبر الرؤيا » أي : تووؤها؛ لأن الرؤيا تأتي رمزية؛ وتعبرها أي : تشرحها وتنقلها  
من خفي إلى جلي؛ وإيضاح المطلوب منها .  
ونصف الدمعة بأما « عبرة »؛ والحزن المدفون في النفس البشرية تدل عليه الدمعة .  
وهنا قال الحق سبحانه : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ . . . } [ يوسف : 111 ]

والعبرة قد تمر ، ولكن لا يلتفت إليها إلا العاقل الذي يُمخّص الأشياء ، أما الذي يمر عليها مُرور الكرام؛ فهو لا يستفيد منها .

و « أولو الألباب » هم أصحاب العقول الراجعة ، و « الألباب » جمع « لب » . واللب :  
هو جوهر الشيء المطلوب؛ والقرش موجود لصيانة اللب ، وسُمي العقل « لباً » لأنه ينتثر

القشور بعيداً ، ويعطينا جوهر الأشياء وخيرها .

ويتابع الحق سبحانه : { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ . . . } [ يوسف :

[ 111

أي : أن ما جاء على لسانك يا محمد وأنزله الحق وحيّاً عليك ليس حديث كذبٍ مُتعمّد؛ بل هو الحق الذي يطابق الكتب التي سبقته .

ويقال : « بين يديك » أي : سبقك؛ فإذا كنت تسير في طابور؛ فَمَنْ أَمَامَكَ يُقَالُ لَهُ « بين يديك » ، وَمَنْ وَرَاءَكَ يُقَالُ لَهُ « مَنْ خَلْفَكَ » .

والقرآن قد جاء ليصدق الكتب التي سبقته؛ وليست هي التي تُصدّق عليه؛ لأنه الكتاب المهيمن ، والحق سبحانه هو القائل : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . . . } [ المائدة : 48 ]

ويضيف الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ . . . } [ يوسف : 111 ]

فالقرآن يُصدّق الكتب السابقة ، ويُفصّل كل شيء؛ أي : يعطي كل جزئية من الأمر حُكمها في جزئية مناسبة لها . فهو ليس كلاماً مُجملاً ، بل يجري تفصيل كل حُكم بما يناسب أيّ أمر من أمور البشر .

وفي أعرافنا اليومية نقول : « فلان قام بشراء بذلة تفصيل » . أي : أن مقاساتها مناسبة له تماماً؛ ومُحكّمة عليه حين يرتديها .

وفي الأمور العقديّة نجد والعياذ بالله مَنْ يقول : إنه لا يوجد إله على الإطلاق ، ويقابله مَنْ يقول : إن الآلهة مُتعددة؛ لأن كل الكائنات الموجودة في الكون من الصعب أن يخلقها إله واحد؛ فهناك إله للسماء ، وإله للأرض؛ وإله للنبات؛ وإله للحيوان .

ونقول لهم : كيف يوجد إله يقدر على شيء ، ويعجز عن شيء آخر؟

وإن قال هؤلاء : « إن تلك الآلهة تتكاتف مع بعضها » .

نرد عليهم : ليست تلك هي الألوهية أبداً ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [ الزمر : 29 ]

وحين يكون الشركاء مختلفين؛ فحال هذا العبد المملوك لهم يعيش في ضنكٍ وعذاب؛ أما الرجل المملوك لرجل واحد فحالُه يختلف؛ لأنه يأتمر بأمر واحد؛ لذلك يحيا مرتاحاً .

ونجد الحق سبحانه يقول عن الآلهة المتعددة : { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا

لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ } [ المؤمنون : 91 ]

أما مَنْ يقول بأنه لا يوجد إله في الكون ، فنقول له : وهل يُعقل أن كل هذا الكون الدقيق المُحكّم بلا صانع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يُفصّل هذا الأمر ليؤكد أنه لا يوجد سوى إله واحد في الكون ، ونجد القرآن يُفصّل لنا الأحكام؛ ويُنزل لكل مسألة حُكماً مناسباً لها؛ فلا ينتقل حُكم من مجال إلى آخر .

وكذلك تفصيل الآيات ، فهناك المُحكّم والمُتَشابه؛ والمثل هو قول الحق سبحانه . { وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ . . . } [ آل عمران : 114 ]

ويقول في موقع آخر : { وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . . . } [ آل عمران : 133 ]  
جاء مرة بقول « إلى » ، ومرة بقول « في » ؛ لأن كلاً منها مناسبة ومُفصّلة حسب موقعها .  
فالمُسارعة إلى المغفرة تعني أن مَنْ يسارع إليها موجود خارجها ، وهي الغاية التي سيصل إليها ،  
أما مَنْ يسارع في الخيرات؛ فهو يجي في الخير الآن ، ونطلب منه أن يزيد في الخير .

وأيضاً نجد قوله الحق : { . . . واصبر على مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [ لقمان : 17 ]

ونجد قوله الحق : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [ الشورى : 43 ]  
وواحدة منهما وردت في المصائب التي لها غريم ، والأخرى قد وردت في المصائب التي لا غريم فيها؛ مثل المرض حيث لا غريم ولا حُصومة .

أما إذا ضربني أحد؛ أو اعتدى على أحد أبنائي؛ فهو غريمي وتوجد خصومة؛ فوجوده أمامي يهيج الشر في نفسي؛ وأحتاج لضبط النفس بعزيمة قوية ، وهذا هو تفصيل الكتاب .

والحق سبحانه يقول : { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ . . . } [ فصلت : 3 ]

أي : أن كل جزئية فيه مناسبة للأمر الذي نزلت في مناسيته .

ومثال هذا هو قوله سبحانه : { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ . . . } [

الإسراء : 31 ]

وقوله الحق : { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . . } [ الأنعام : 151 ]

وكل آية تناسب موقعها ، ومعناها مُتَّسِق في داخلها ، وتمّ تفصيلها بما يناسب ما جاءت له ،

فقوله : { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ . . . } [ الأنعام : 151 ]

يعني أن الفقر موجود ، والإنسان مُنشغل برزقه عن رزق ابنه .

أما قوله : { حَشِيَّةً إِمْلَاقٍ . . . } [ الإسراء : 31 ]

أي : أن الفقر غير موجود ، وهناك خَوْف أن يأتي إلى الإنسان؛ وهو خوف من أمر لم يَطْرأ بعد .

وهكذا نجد في القرآن تفصيلاً لكل شيء تحتاجونه في أمر دنياكم وآخرتكم ، وهو تفصيل لكل

شيء ليس عندك؛ وقد قال الهدهد عن ملكة سبأ بلقيس : { وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . . . } [ النمل : 23 ]

وليس معنى هذا أنها أوتيت من كل شيء في هذه الدنيا ، بل هي قد أوتيت من كل شيء تملكه ، أو يُمكن أن تملكه في الدنيا .

وقول الحق سبحانه : { وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ . . . } [ يوسف : 111 ]

لا يعني أن نسأل مثلاً : « كم رغيفاً في كيلة القمح؟ » .

وقد حدث أن سأل واحد الإمام محمد عبده هذا السؤال؛ فجاء بخباز ، وسأله هذا السؤال؛

فأجاب الخباز؛ فقال السائل : ولكنك لم تأتِ بالإجابة من القرآن؟ فقال الإمام محمد عبده :

لماذا لا تذكر قوله الحق : { . . . فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون } [ النحل : 43 ]

وهكذا نعلم أنه سبحانه لم يُفَرِّط في الكتاب من شيء .

ويُذِيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : { . . . وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

{ [ يوسف : 111 ]

ونعلم أن الهدى هو الطريق المؤدي إلى الخير ، وهذا الطريق المؤدي إلى الخير ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الوقاية من الشر لمن لم يقع فيه .

والقسم الثاني : علاج لمن وقع في المعصية .

وإليك المثال : هب أن أناساً يعلمون الشر؛ فنرددهم عنه ونشفيهم منه؛ لأنه مرض ، وهو رحمة

بمعنى ألا يقعوا في المرض بداية .

إذن : فهناك ملاحظتان يشيران إلى القسمين :

الملاحظة الأولى : أن المنهج القرآني قد نزل وقاية لمن لم يقع في المعصية .

والملاحظة الثانية : أن المنهج يتضمن العلاج لمن وقع في المعصية .

ويُجَدِّد الحق سبحانه مَنْ يستفيدون من المنهج القرآني وقاية وعلاجاً ، فيقول : { . . . وَهُدًى

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [ يوسف : 111 ]

أي : هؤلاء الذين يؤمنون بإله واحد خلقهم وخلق الكون ، ووضع للبشر قوانين صيانة حياتهم ،

ومن المنطقي أن يسمع المؤمن كلامه ويُنفذه؛ لأنه وضع المنهج الذي يمكنك أن تعود إليه في كل

ما يصون حياتك ، فإن كنت مؤمناً بالله؛ فُخِّد الهدى ، وُخِّد الرحمة .

ونسأل الله أن نُعْطِي هذا كله .

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1)

وقد سبق لنا أن تكلمنا طويلاً في خواطرننا عن الحروف التي تبدأ بما بعض من سور القرآن الكريم

: مثل قوله الحق : { الم } [ البقرة : 1 ]

وقوله : { المر . . . } [ الرعد : 1 ]

ومثل قوله : { المص } [ الأعراف : 1 ]

وغير ذلك من الحروف التوقيفية التي جاءت في أول بعض من فواتح السور .  
ولكن الذي أحب أن أؤكد عليه هنا هو أن آيات القرآن كلها مبنية على الوصل؛ لا على الوقف؛ ولذلك تجدها مشكولة؛ لأنها موصولة بما بعدها .  
وكان من المفروض لو طبقنا هذه القاعدة أن نقرأ « المر » فننطقها : « أَلْفٌ » « لَامٌ » « مِيمٌ » « رَاءٌ » ، ولكن شاء الحق سبحانه هنا أن تأتي هذه الحروف في أول سورة الرعد مبنية على الوقف ، فنقول : « أَلْفٌ » « لَامٌ » « مِيمٌ » « رَاءٌ » .  
وهكذا قرأها جبريل عليه السلام على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهكذا نقرأها نحن .

ويتابع سبحانه : { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ . . . } [ الرعد : 1 ]

أي : أن السورة القادمة إليك هي من آيات الكتاب الكريم القرآن وهي إضافة إلى ما سبق وأنزل إليك ، فالكتاب كله يشمل من أول { بسم الله الرحمن الرحيم } [ الفاتحة : 1 ] في أول القرآن ، إلى نهاية سورة الناس .  
ونعلم أن الإضافة تأتي على ثلاث معانٍ؛ فمرة تأتي الإضافة بمعنى « من » مثل قولنا « أردب قمح » والمقصود : أردب من القمح .  
ومرة تأتي الإضافة بمعنى « في » مثل قولنا : « مذاكرة المنزل » والمقصود : مذاكرة في المنزل .  
ومرة تالفة تأتي الإضافة بمعنى « اللام » وهي تتخذ شكلين .  
إمّا أن تكون تعبيراً عن ملكية ، كقولنا « مالٌ زيدٌ لزيد » .  
والشكل الثاني أن تكون اللام للاختصاص كقولنا « لجام الفرس » أي : أن اللجام يخص الفرس؛ فليس معقولاً أن يملك الفرس لجاماً .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا : { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ . . . } [ الرعد : 1 ]

يعني تلك آيات من القرآن؛ لأن كلمة « الكتاب » إذا أُطلقت؛ فهي تنصرف إلى القرآن الكريم .

والمثل هو القول « فلان الرجل » أي : أنه رجل حقاً؛ وكأن سلوكه هو معيار الرجولة ، وكأن خصال الرجولة في غيره ليست مُكتملة كاتماها فيه ، أو كقولك « فلان الشاعر » أي : أنه شاعر مُتميز للغاية .

وهكذا نعلم أن كلمة « الكتاب » إذا أُطلقت ينصرف في العقائد إلى القرآن الكريم ، وكلمة الكتاب إذا أُطلقت في النحو انصرفت إلى كتاب سيبويه الذي يضم قواعد النحو .

ويتابع سبحانه في وصف القرآن الكريم : { . . . } والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر

الناس لَا يُؤْمِنُونَ { [ الرعد : 1 ]

ونعلم أن مراد الذي يخالف الحق هو أن يكسب شيئاً من وراء تلك المخالفة .

وقد قال سبحانه في أواخر سورة يوسف : { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [ يوسف :

[ 103

ثم وصف القرآن الكريم ، فقال تعالى : { . . . مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ

يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [ يوسف : 111 ]

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يريد الكسب منكم ، لكنه شاء أن يُنزل هذا الكتاب لتكسبوا

أنتم : { . . . وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ } [ الرعد : 1 ]

أي : أن أكثر مَنْ دعوهم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه نزل إليك من ربك؛ لأنهم

لم يُحسِنوا تأمل ما جاء فيه؛ واستسلموا للهوى . وأرادوا السلطة الزمنية ، ولم يلتفتوا إلى أن ما

جاء بهذا الكتاب هو الذي يعطيهم خير الدنيا والآخرة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

{ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ . . . }

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ

يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)

وكلمة « الله » عَلَّمَ على واجب الوجود؛ مَطْمُورَةٌ فيه كُلُّ صفات الكمال؛ ولحظة أن تقول « الله »

« كأنك قُلْتَ « القادر » « الضار » « النافع » « السميع » « البصير » « المُعْطِي » إلى آخر

أسماء الله الحسنى .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ عمل لا يبدأ باسم الله هو أبطر » .

لأن كل عمل لا يبدأ باسمه سبحانه؛ لا تستحضر فيه أنه سبحانه قد سَخَّرَ لك كُلَّ الأشياء ، ولم

تُسَخِّرَ أنت الأشياء بقدرتك .

ولذلك ، فالمؤمن هو مَنْ يدخل على أيِّ عمل بحيثية « بسم الله الرحمن الرحيم »؛ لأنه سبحانه

هو الذي ذلَّلَ للإنسان كل شيء ، ولو لم يُذللها لَمَا استجابت لك أيها الإنسان .

وقد أوضح الحق سبحانه ذلك في أمثلة بسيطة؛ فنجد الطفل الصغير يُمسِكُ بجبل ويربطه في عنق

الجمل ، ويأمره بأن « ينخ » ويركع على أربع؛ فيمثل الجمل لذلك .

ونجد البرغوث الصغير؛ يجعل الإنسان ساهراً الليل كُلَّهُ عندما يتسلل إلى ملابسه؛ ويبدل هذا

الإنسان الجهدَ الجهدَ لِيُمسِكَ به؛ وقد يستطيع ذلك؛ وقد لا يستطيع .

وهكذا نعرف أن أحداً لم يُسَخِّرَ أي شيء بإرادته أو مشيئته ، ولكن الحق سبحانه هو الذي

يذلل كل الكائنات لخدمة الإنسان .

والحق سبحانه هو القائل : { وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [ يس : 72 ]  
وأنت حين تُقبِل على أي عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : « باسم القادر الذي أعطاني بعض القدرة  
» .

وإن أقبلت على عمل يحتاج مالا؛ تقول : « باسم الغني الذي وهبني بعضاً من مال أفضي به  
حاجتي » .

وفي كل عمل من الأعمال التي تُقبِل عليها تحتاج إلى قدرة؛ وحكمة؛ وغيى ، وبسط؛ وغير ذلك  
من صفات الحق التي يُسخر بها سبحانه لك كل شيء؛ فشاءت رحمته سبحانه أن سهّل لنا أن  
نفتتح أي عمل باسمه الجامع لكل صفات الجمال والكمال « بسم الله الرحمن الرحيم » .  
ولذلك يُسمونه « علم على واجب الوجود » .

وبقية الأسماء الحسنى صفات لا توجد بكمالها المطلق إلا فيه؛ فصارت كالاسم .  
فالعزيز على إطلاقه هو الله . ولكننا نقول عن إنسان ما « عزيز قومه » ، ونقول « الغي » على  
إطلاقه هو الله ، ولكن نقول « فلان غي » و « فلان فقير » .  
وهكذا نرى أنها صفات أخذت مرتبة الأسماء؛ وهي إذا أُطلقت إنما تشير إليه سبحانه .  
وعرفنا من قبل أن أسماء الله؛ إما أن تكون أسماء ذات؛ وإما أن تكون أسماء صفات؛ فإن كان  
الاسم لا مقابل له فهو اسم ذات؛ مثل : « العزيز » .

أما إن كان الاسم صفة الصفة والفعل ، مثل « المعز » فلا بُد أن له مقابلاً ، وهو هنا « المُذل »

ولو كان يقدر أن يُعز فقط؛ ولا يقدر أن يُذل لما صار إلهاً ، ولو كان يضر فقط ، ولا ينفع أحداً  
لما استطاع أن يكون إلهاً ، ولو كان يقدر أن يبسط ، ولا يقدر أن يقبض لما استطاع أن يكون  
إلهاً .

وكل هذه صفات لها مُقابِلها؛ ويظهر فعلها في الغير؛ فسبحانه على سبيل المثال عزيز في ذاته؛  
ومُعز لغيره ، ومُذل لغيره .

وكلمة « الله » هي الاسم الجامع لكل صفات الكمال ، وهناك أسماء أخرى علمها الله لبعض من  
خلقه ، وهناك أسماء ثلاثة سنعرفها إن شاء الله حين نلقاه : { وَجُوهٌ يَوْمئذٍ نَاصِرَةٌ \* إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ }  
[ القيامة : 22-23 ]

ونلاحظ أن الحق سبحانه بدأ هذه الآية بالحديث عن العالم العلوي أولاً؛ ولم يتحدث عن الأرض؛

فقال : { الله الذي رَفَعَ السماوات . . . } [ الرعد : 2 ]

وكلمة « رفع » إذا استعملتها استعمالاً بشرياً؛ تدل أن شيئاً كان في وضع ثم رفعته عن موضعه

إلى أعلى؛ مثل قول الحق سبحانه : { وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ . . . } [ يوسف : 100 ]  
فقد كان أبوا يوسف في موضع أقل؛ ثم رفعهما يوسف إلى موضع أعلى مما كانا فيه ، فهل كانت  
السماء موضوعة في موضع أقل؛ ثم رفعها الله؟ لا ، بل خلقها الله مرفوعة .

ورحم الله شيخنا عبد الجليل عيسى الذي قال : « لو قلت : سبحان الله الذي كبر الفيل؛ فهل  
كان الفيل صغيراً ثم كبره الله؛ أم خلقه كبيراً؟ لقد خلقه الله كبيراً . وإن قلت : سبحان الله الذي  
صغر البعوضة؛ فهل كانت كبيرة ثم صغرها الله؟ لا بل خلقها الله صغيرة » .

وحين يقول سبحانه : { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ . . . } [ الرعد : 2 ]  
فهذا يعني أنه خلقها مرفوعة ، وفي العرف البشري نعرف أن مُقتضى رَفَعِ أيّ شيء أن تُوجد من  
تحتة أعمدة ترفعه .

ولكن خلق الله يختلف؛ فنحن نرى السماء مرفوعة على امتداد الأفق؛ ويظهر لنا أن السماء  
تنطبق على الأرض؛ ولكنها لا تنطبق بالفعل .

ولم نجد إنساناً يسير في أيّ اتجاه ويصطدم بأعمدة أو بعمود واحد يُظنُّ أنه من أعمدة رَفَعِ  
السماء؛ وهي مرئية هكذا؛ فهل هناك أعمدة غير مرئية؛ أم لا توجد أعمدة أصلاً؟ .

وقد يكون وراء هذا الرَفَعِ أمر آخر؛ فقد قلنا : إن الشيء إذا رَفَعِ؛ فذلك بسبب وجود ما  
يُمسكه أو ما يَحْمِلُهُ؛ وسبحانه يقول في أمر رفع السماء : { . . . وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى  
الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [ الحج : 65 ]  
فإذا كانت مَمْسُوكَةٌ من أعلى؛ فهي لا تحتاج إلى عَمَدٍ ، وقوله الحق : ( يمسك ) يعني أنه سبحانه  
قد وضع لها قوانينها الخاصة التي لم نعرفها بَعْدُ .

وقد قام العلماء المعاصرون بِمَسْحِ الأرض والفضاء بواسطة الأقمار الصناعية وغيرها ، ولم يجدوا  
عَمَدًا ترفع السماوات أو تُمسِكُهَا .

والمهندسون يتبارزون في عصرنا ليرفعوا الأُسْتُفَفَ بغير عَمَدٍ؛ لكنهم حتى الآن؛ مازالوا يعتمدون  
على الحوائط الحاملة .

وهكذا نعلم أنه سبحانه إمَّا أنه حمل السماء على أعمدة أدق وألطف من أن تراها أعيننا؛  
ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

و « عَمَدٌ » اسم جمع لا جمع ومفردا « عمود » أو « عِمَادٌ » وقد جاءت هذه الآية بمثابة  
التفسير لِمَا أُجْمِلَ في قول الحق سبحانه في سورة يوسف : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [ يوسف : 105 ]

وجاء سبحانه هنا بالتفصيل؛ فأوضح لنا أنه : { رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . } [

الرعد : 2 ]

أي : لا ترونها أنتم بِحُكْمِ قانون إبصاركم . ولا تعجب من أن يوجد مخلوق لا تراه؛ لأن العين وسيلة من وسائل الإدراك ، ولها قانون خاص؛ فهي ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى . هذا بدليل أنك إذا نظرتَ إلى إنسان طوله مِتران يتحرك مُبتعداً عنك؛ تجد يَصْغُرُ تدريجياً إلى أن يتلاشى من مجال رؤيتك؛ لكنه لا يتلاشى بالفعل . وهذا معناه أن قانون إبصارك مُحْكوم بقانون؛ له مدى مُحدّد .

وهناك قوانين أخرى مثل : قانون السمع؛ وقانون الجاذبية؛ وقانون الكهرباء؛ وكلها ظواهر نستفيد بآثارها ، ولكِنّا لا نراها ، فلا تعجب من أن يوجد شيء لا تدركه؛ لأن قُوَى إدراكك لها قوانين خاصة .

ويشاء الحق سبحانه أن يُدَلِّلَ على صدق ذلك بأن يجعل ما يكتشفه العلماء في الكون من أشياء وقُوَى لم تُكُنْ معروفة من قبل؛ ولكننا كنا نستفيد منها دون أن ندري؛ مما يدلُّ على أن إدراك الإنسان غَيْرُ قادر على إدراك كل شيء .

وذلك يوضح لنا أن رؤيتنا للسماء مرفوعة بغير عَمَدِ نراها؛ قد يعني وجود أعمدة مصنوعة بطريقة غير معروفة لنا؛ أو هي مرفوعة بغير عَمَدٍ على الإطلاق .

وقول الحق سبحانه : { بَغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . } [ الرعد : 2 ]

هو كلام خبري ، والمثل من حياتنا حين تقول لابنك : « أنا خارج إلى العمل؛ وذاكر أنت دروسك » ، وبذلك تكون قد أوضحت له : « ذاكر دروسك » وهذا كلام خبري؛ لكن المراد به إنشائي .

وإبراز الكلام الإنشائي في مَقَامِ الكلام الخبري له مَلْحَظ ، مثلما تقول : « فلان مات رحمه الله » وقولك « رحمه الله » كلام خبري؛ فأنت تخبر أن الله قد رحمه .

على الرغم من أنك لا تدري : هل رحمه الله أم لا؛ ولكنك قلت ذلك تفاعلاً أن تكون الرحمة واقعة به ، وكان من الممكن أن تقول : « مات فلان يا ربي ارحمه » ، وأنت بذلك تطلب له الرحمة .

كذلك قول الحق سبحانه : { بَغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .

. . } [ الرعد : 2 ]

أي : دَقِّقُوا وَأَمِعُوا النظر إليها ، واجتثوا فيما يعينكم على ذلك إن استطعتم ، وإذا لفتك المتكلم إلى شيء لِيُحَرِّكْ فيك حواسَّ إدراكك فمعنى ذلك أنه واثق من صَنَعته .

والمثل من حياتنا والله المثل الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّه عن أن يكون له مثل حين تدخل لتشتري صُوفاً؛ فيقدم لك البائع قماشاً؛ فتسأله : هل هذا صوف مائة في المائة؟ « فيقول لك البائع : » نعم إنه صوف مائة في المائة ، وهاتِ كبريتاً لنشعل فتلة منه لترى بنفسك » .

ويوضِّح الحق سبحانه هنا : أن السماوات مرفوعة بغير عَمَدٍ ، وانظروا أنتم؛ بِمَدِّ البصر ، ولن تجدوا أعمدة على هذا الامتداد ، وضمان عدم وجود أعمدة مُتَحَقِّقٍ لك ولغيرك على مدى أفق أيِّ منكم .

ولكُلِّ إنسان أفقه الخاص على حسب قدرة بصره ، فهناك من تنطبق السماء على الأرض أمام عيونه؛ فنقول له : أنت تحتاج إلى نظارة طبية تعالج هذا الأمر .  
فالآفاق تختلف من إنسان إلى آخر ، وفي التعبير اليومي الشائع يقال : « فلان ضيق الأفق لا يرى إلا ما تحت قدميه » .

ولقائل أن يقول : إن هذا يحدث معي ومع مَنْ يعيشون الآن ولا أحد يرى أعمدة ترفع السماوات؛ فهل سيحدث ذلك مع من سيأتون مَنْ بعدنا؟

ونقول : لقد مسح الأقمار الصناعية من الفضاء الخارجي كل مساحات الأرض؛ ولم يجد أحدٌ أية أعمدة ترفع السماء عن الأرض .

وهذا دليل صدق القضية التي قالها الحق سبحانه في هذه الآية : { اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . } [ الرعد : 2 ]

والسماوات جمع « سماء » وهي كل ما علاك فأظلك ، والحق سبحانه يقول : { وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ . . . } [ البقرة : 22 ]

ونعلم أن المطر إنما نزل من السُّحُب التي تعلو الإنسان ، وتبدو مُعلَّقة في السماء ، وإذا أُطلقت السماء انصرفت إلى السماء العليا التي تُظلل كل ما تحتها .

وحين أراد الناس معرفة كُنه السماء ، وهل لها جِزْم أم ليس لها جِزْم؛ وهل هي امتداد أجواء وهواء؟ لم يتفق العلماء على إجابة .

وقد نثر الحق سبحانه أدلة وجوده ، وأدلة قدرته ، وأدلة حكمته وأدلة صُنْعته في الكون؛ ثم أعطاك أيها الإنسان الأدلة في نفسك أيضاً؛ وهو القائل سبحانه : { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . . . } [ الذاريات : 21 ]

وانظر إلى نفسك تجد العلماء وهم يكتشفون في كل يوم شيئاً جديداً وسراً عجبياً ، سواء في التشريح أو علم وظائف الأعضاء .

وسوف تعجب من أمر نفسك ، وأنت ترى تلك الاكتشافات التي كانت العقول السابقة تعجز عن إدراكها ، وقد يُدرك بعضها الآن ، ويُدرك بعضها لاحقاً .

وإدراك البعض للمجهول في الماضي يُؤدِّن بأنك سوف تدرك في المستقبل أشياء جديدة .

وإن نظرت خارج نفسك ستجد قول الحق سبحانه : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . . . } [ فصلت : 53 ] ومعنى { سَنُرِيهِمْ . . . } [ فصلت : 53 ]

أن الرؤية لا تنتهي؛ لأن « السين » تعني الاستقبال ، ومَنْ نزل فيهم القرآن قرءوها هكذا ،

ونحن نقرأها هكذا ، وستظل هناك آيات جديدة وعطاء جديد من الله سبحانه إلى أن تقوم الساعة .

وسبحانه القائل : { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [ غافر : 57 ]

وأنت حين تفكر في خَلْقِ السماوات والأرض ستجده مسألة غايةً في الضخامة؛ ويكفيك أن تتحير في مسألة خَلْقِكَ وتكوينك؛ وأنت مجرد فرد محدود بحدود ، ولك عمر محدود ببداية ونهاية ، فما بِكَ بِخَلْقِ السماوات والأرض التي وُجِدَتْ من قبلك ، وستستمر من بعدك إلى أن تنشق بأمر الله ، وتتكسر لحظتها النجوم .  
ولابد أن خَلْقَ السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ، فالسماوات والأرض تشمل الكون كله .

وحين تُحدِّث عنها إياك أن تخلط فيها بوهلك؛ أو بتخمينك؛ لأن هذه مسألة لا تُدرك في المعامل ، ولا تستطيع أن تُجري تحليلات لمعرفة كيفية خَلْقِ السماوات والأرض .  
ولذلك عليك أن تكتفي بمعرفة ما يطلبه منك مَنْ خلقها؛ وماذا قال عنها ، وتذكر قول الحق سبحانه : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . } [ الإسراء : 36 ]

وقد حجز الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين؛ فلا داعي أن تُرهق نفسك فيهما :  
الأمر الأول : هو كيفية خَلْقِ الإنسان؛ وهل كان قرداً في البداية ثم تطوّر؟ تلك مسألة لا تخصُّك ، فلا تتدخل فيها بافتراضات تؤدي بك إلى الضلال .  
والأمر الثاني : هو مسألة خَلْقِ السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى وقائع .

وتذكر قول الحق سبحانه : { مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ . . . } [ الكهف : 51 ]

ولو كان الحق سبحانه قد أراد أن تعلم شيئاً عن تفاصيل هذين الأمرين لأشهد خلقهما لبعض من البشر ، لكنه سبحانه نفى هذا الإشهاد؛ لذلك ستظل هذه المسألة لغزاً للأبد؛ ولن تحل أنت هذا اللغز أبداً؛ بل يحلُّه لك البلاغ عن الحق الذي خلق .  
وقد أوضح لك أنه قد خلقك من طين ، ونفخ فيك من روحه ، فاسمع منه كيفية خَلْقِكَ و خَلْقِ الكون كله .

ويدل الإعجاز البياني في القرآن على أن بعضاً ممن يملكون الطموح العقلي أرادوا أن يأخذوا من القرآن أدلة على صحّة تلك النظريات التي افترضها بعض من العلماء عن خَلْقِ الإنسان و خَلْقِ الأرض ، فيبلغنا الحق سبحانه مقدّماً ألاّ نصدقهم .

ويقول لنا : { مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا } [ الكهف : 51 ]

والمُضِلُّ هو مَنْ يُضِلُّكَ في المعلومات ، هكذا أثبت لنا الحق سبحانه أن هناك مُضِلِّينَ سيأتون ليقولوا كلاماً افتراضياً لا أساس له من الصِّحة .  
وأوضح لنا سبحانه أن أحداً لم يتلصَّصْ عليه ، ليعرف كيفية خَلْقِ الشمس أو الأرض ، وَمَنْ يدعي معرفة ذلك فهو من المُضِلِّينَ؛ لأنهم قَفَّوْا ما ليس لهم به علم .  
ومادام الحق سبحانه قد قال ذلك ، فنحن نُصَدِّق ما قال .

وقد أثبتت التحليلات صِدْق ما قاله سبحانه عن خَلْقِ الإنسان ، فسبحانه قد خلق الكون أولاً ، ثم خلق السيد لهذا الكون وهو الإنسان ، وكل الكون مُسَخَّرٌ للإنسان ويخدم هذا الخليفة في الأرض ، وكل ما في الكون يسير بنظام وانتظام .  
والمُتَمَرِّد الوحيد في الكون هو الإنسان ، فيأتي الحق سبحانه إلى هذا المتمرِّد؛ ليجعل الآية فيه؛ وليثبت صِدْق الغيب في الأرض .

وأوضح سبحانه أنه خلق آدم من الطين؛ والإنسان من نسل آدم الذي سَوَّاه الله ، ونفخ فيه من روحه ، وبعد ذلك أمر الملائكة؛ من المُدَبِّرَاتِ أمراً ومن الحَفَظَةِ؛ أن تسجد للإنسان .  
وهذا السجود هو إعلان الطاعة لأمر الله بخدمة الإنسان . هذا الذي بدأت حكاية خَلْقِهِ من تراب ، ثم خُلط التراب بالماء؛ ليصير طيناً؛ ثم تُرِكَ قليلاً ليصير حَمَماً مَسْنُوناً؛ ثم يَجَفُّ الحَمَماً ليصير صَلْصَالاً كالفخَّار؛ ثم ينفخ فيه الحق بالروح .

فإذا ما انتهى الأجل؛ فأول ما يُنْقَضُ هو خروج الروح؛ ثم يتصلَّب الجثمان ، وبعد أن يُوَارَى التراب يصير الجثمان رَمَةً؛ ثم يتسرَّب الماء الموجود في الجثة إلى الأرض ، وتبقى العظام إلى أن تتحول هي الأخرى إلى تراب .

وهكذا يتحقق نَفْضُ كل بناء؛ فما يُبْنَى في نهاية أيِّ بناء هو ما يُنْقَضُ أولاً ، وهكذا يتأكد لنا صدق الحق سبحانه حين نرى صدق المقابل فيما أخبرنا به سبحانه عن كيفية الخلق .  
وعندما يُخْبِرنا الحق سبحانه أن كيفية خَلْقِ السماوات والأرض ليست في مُتَنَاوَلِنَا؛ فقد أعطانا من قبل الدليل على صِدْق ما جاء به ، فيما أخبرنا به عن أنفسنا .

وفي الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها يقول سبحانه : { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ . . . } [ الرعد : 2 ]

وكلمة « السماوات » في اللغة جمع ، وفي آية أخرى ، يقول سبحانه : { فَفَقَّضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا . . . } [ فصلت : 12 ]  
وقديماً كانوا يقولون : إن المقصود بالسبع سماوات هو الكواكب السبعة : الشمس ، والقمر ،

وعطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمشتري .

وشاء سبحانه أن يُكذِّبَ هذا القول وأصحابه أحياء؛ فرأى علماء الفلك كواكبَ أخرى مثل : نبتون وبلوتو؛ وكان في ذلك لَفْتَةٌ سماوية لِمَن قالوا : إن المقصود بالسموات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بحُسن نية وبرغبة في رَبُّط القرآن بالعلم؛ لكنهم نَسُوا أن يُدَقِّقُوا الفهم لِمَا في كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن الشمس والقمر والكواكب زينة السماء الدنيا ، فما بالنَّا بطبيعة وزينة بقية السماوات؟

ويتابع سبحانه : { تَمَّ استوى عَلَى العرش . . . } [ الرعد : 2 ]

وهذه قضية هي أهمُّ قضية كلامية ناقشها علماء الكلام؛ قضية الاستواء والعرش ، وحتى نفهم أيَّ قضية لا بُدَّ أن نُحَلِّلَ ألفاظها لتتفق على معانيها ، ثم نبحثها جملة واحدة ، لكن أن نُجسِّدَ لتتجادل ونحن غير مُتواردِين ومتفقين على فِهم واحد؛ فهذا أمرٌ لا يليق .

ولننظر الآن معنى « الاستواء » ومعنى « العرش » ، ونحن حين نستقرئ كلمة « استوى » في القرآن نجدها قد وردت في آيات متعددة .

وجاءت مرّة واحدة بمعنى الاستواء أي : النضج ، في قول الحق سبحانه : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

واستوى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا . . . } [ القصص : 14 ]

أي : أنه قد بلغ نُضْجَه الكمالي ، ويستطيع أن يكون رجلاً صالحاً لممارسة ما يُبقي نوعه ، وإن تزوج فسُلوْف يُنْجِب مثله؛ وهذا استواء لمخلوق هو الإنسان .

ومرة أخرى يقول القرآن : { ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى \* وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى } [ النجم : 6-7 ]

والمعنى هنا هو : صعد؛ والمقصود هو صعود محمد وجبريل عليهما السلام إلى الأفق الأعلى .

وهناك قوله الحق : { تَمَّ استوى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ . . . } [ البقرة : 29 ]

أي : أنه سبحانه قد استوى إلى السماء؛ وإياك أن تظن أن استواءه سبحانه إلى السماء مساو

لاستواء البشر؛ لأننا قلنا من قبل : إن كل شيء بالنسبة لله إنما نأخذه في إطار : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَيْءٌ . . . } [ الشورى : 11 ]

وبذلك يكون استواؤه سبحانه إلى السماء هو استواء يليق بذاته ، والاستواء المطلق شيء مختلف

عن الاستواء على العرش .

وهكذا نجد استواءً لغير الله من إنسان؛ وهناك استواء لغير الله من إنسان ومن ملك؛ وهناك

استواء من الله إلى غير العرش . وبجانب ذلك هناك استواء على العرش .

وقد وردَ الاستواء على العرش في سبعة مواقع بالقرآن؛ في : سورة الأعراف؛ وسورة يوسف؛

والرعد ، وطه ، والفرقان ، والسجدة ، والحديد .

وورد ذكر العرش في القرآن بالنسبة لله واحداً وعشرين مرة ، وورد بالنسبة لبلقيس أربع مرات؛

فهو القائل سبحانه : { . . . وَهَذَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [ النمل : 23 ]

وقال : { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا . . . } [ النمل : 38 ]

ثم قال : { نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا . . . } [ النمل : 41 ]

وقال : { أَهَكَذَا عَرْشُكَ . . . } [ النمل : 41 ]

وبالنسبة ليوسف قال سبحانه : { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ . . . } [ يوسف : 100 ]

وإيّاك أن تأخذ الاستواء بالنسبة لله على أن معناه « التُّضَج »؛ لأن التُّضَجَ إشعارٌ بكمالٍ سبقه نَقْصٌ .

ولذلك نجد العلماء المُدَقِّقِينَ قد عَلِمُوا أن ذِكْرَ استواءِ الله على العرش قد ورد في سبعة مواضع بالقرآن الكريم وقالوا :

وَذِكْرُ اسْتِوَاءِ اللَّهِ فِي كَلِمَاتِهِ عَلَى ... الْعَرْشِ فِي سَبْعِ مَوَاضِعٍ فَاعْدُدْ

فَفِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ثَمَّةٌ يُؤْنَسُ ... وَفِي الرَّعْدِ مَعَ طِهِ فَلِلْعَدِّ أَكِّدْ

وَفِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ ثَمَّةٌ سَجْدَةٌ ... كَذَا فِي الْحَدِيدِ أَفْهَمُهُ فَهَمْ مُؤَيَّدٌ

وقالوا في المعنى :

فَلَهُمْ مَقَالَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعَةٌ ... قَدْ حُصِلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَانِ

وَهِيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلَا ... وَكَذَلِكَ ارْتَفَعَ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ

وَكَذَلِكَ قَدْ صَعَدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ ... بِتِمَامِ أَمْرٍ مِنْ حِمَى الرَّحْمَانِ

والصعود إلى العرش هو حركة انتقال من وضع إلى وضع لم يكن فيه .

وهكذا نجد أن المعاني التي تتمشى مع الاستواء في عُرْفِنَا البشري لا تتناسب مع كمال الله .

واختلف العلماء : قال واحد منهم : « سَأَخَذَ اللَّفْظَ كَمَا قَالَهُ اللَّهُ » .

ونردُّ على هذا بسؤال : وهل يمكنك أن تُعَيِّبَ : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [ الشورى : 11 ]

[

طبعاً ، لا أحد يستطيع ذلك ، وعليك أن تأخذ كل فَمِّهِمْ لشيء يخصُّ الذات العلية في إطار :

{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [ الشورى : 11 ]

ولذلك نجد أهل الدِّقَّةِ يقولون : « الاستواء معلوم ، والكَيْفُ مجهول ، والسؤال عنه الكيفية

بدعة؛ لأن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسألوا عن تلك الكيفية ، رغم أنهم

سألوا عن كثير من الأمور .

وهناك آيات متعددة تبدأ بقول الحق سبحانه : { يَسْأَلُونَكَ . . . } [ البقرة : 189 ]

وكان السؤال وارداً بالنسبة لهم؛ لكنهم بملكتهم العربية الفطرية قد فهموا الاستواء كشيء يناسب

الله ، فلم يسألوا عنه .

وجاء السؤال من المتأخرين الذين تمحّكوا ، فقال واحد : سأخذ الألفاظ بمعناها؛ فإن قال : إن له صعوداً؛ فهو يصعد ، وإن قال : إن له استواء فهو يستوي .

ولمَنْ قال ذلك نردُّ عليه : إن ما تقوله صالحٌ للأغيار ، ولا يليق أن تقول ذلك عن الذي يُغَيَّر ولا يتغيَّر . وإذا سألت عن معنى كلمة « استواء » فهو « استتب له الأمر » . وهل كان الأمر غير مستتب له سبحانه؟

ونقول : نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى صفات متعددة ، وهذه الصفات كانت موجودة قبل أن يخلق الله الخلق والكون؛ فسبحانه موصوفٌ أنه خالق قبل أن يخلق الخلق ، ومُعزٌّ قبل أن يخلق مَنْ يُعزّه ، ومُدلِّ قبل أن يخلق مَنْ يُدلّه ، وله سبحانه صفات الكمال المطلق .

وبهذه الصفات خلق الخلق ، يقول الحق : { . . . رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } [

طه : 50 ]

وكذا نؤمن بأن صفة الخلق كانت في ذاته قبل أن يخلق خلقه ، وحين خلق سبحانه السماوات والأرض أبرز الصفة التي كانت موجودة فيه وليس لها مُتعلِّق؛ فأوجد هو سبحانه المُتعلِّق ، وهكذا استتبَّ له الأمر سبحانه .

إذن : إذا ذُكِر استواء الله ، فهذا يعني تمام المُراد له ، فصار للصفات التي كانت فيه ، وليس لها مُتعلِّق أو مَقْدور؛ مُتعلِّق ومَقْدور .

وإذا وُجِدَتْ هذه الصفة في البشر مثل بلقيس التي وصفها سبحانه : { . . . وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ }

[ النمل : 23 ]

فهي تختلف عن صفة الله؛ لأنها لم تجلس على العرش إلا بعد أن خلقها الله ، ولا يستتب الأمر لملك أو ملكة إلا بمتاعب ومعارك ، وقد ينشغل هذا الشخص في معارك وحروب ، ثم يستتب له الأمر .

وهكذا يختلف استواء الله عن استواء خَلق الله ، وإذا ذُكِر استواء الله على العرش؛ فنحن نُنزِّه الله

عن كل استواء يناسب البشر ، ونقول : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . } [ الشورى : 11 ]

واستواؤه هو تمام الأمر له ، لأن أمره صادر ، وعند تحقيق أمره في توقيته المراد له يكون تمام

الأمر ، وتمام الأمر استواؤه ، أما كلمة « العرش » فنحن نجدُها في القرآن بالنسبة لله .

إما مُضَافاً لاسم ظاهر : { وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ . . . } [ الحاقة : 17 ]

وإما مُضَافاً للضمير المخاطب أو الغائب : { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ . . . } [ هود : 7 ]

وإما مُضَافاً للتنسيب : { . . . فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [ الأنبياء : 7 ]

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .

. . { [ الرعد : 2 ] }

والتسخير هو طلب المُسَخَّر أن يكون كما أَرَادَهُ تسخيراً ، بحيث لا تكون له رغبة ، ولا رأي ، ولا هوى ، والتسخير ضِدُّهُ الاختيار .

والكائن المُسَخَّر لا اختيارَ له ، أما الكائن الذي له اختيار فهو إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل .

وقُلْنَا قديماً : إن الحق سبحانه قد خَيَّرَ الإنسان : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ والجبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } [ الأحزاب :

[ 72 ]

وبذلك قَبِلَ الإنسان أداء الأمانة وَقَتَ أدائها؛ لا وَقَتَ تحمُّلها ، ووقت الأداء غير وقت التحمُّل ، وضربتُ المثلُ بمن يقول لصديقه « عندي ألف جنيه؛ وأخاف أن يضيعوا مِنِّي؛ فاحفظهم لي معك؛ وحين أحتاجهم أعطهم لي » .

ويقول الصديق : « هَاتِ النقودِ وسأعطيها لك وقت أن تطلبها » .

والصديق صادقٌ وقت تحمُّل الأمانة؛ لكن ظروفاً تمرُّ عليه ، فيتصرَّف في هذه الأمانة؛ وحين يطلبها صاحبها؛ قد يعجز حامل الأمانة عن رَدِّها ، وهو بذلك ضَمِنَ نفسه وقت التحمُّل؛ لكنه لم يضمن نفسه وقت الأداء .

وكان من الواجب عليه أن يقول لصديقه لحظة أن طلب منه ذلك : « أرجوك ، ابتعد عني لأني لا أضمن نفسي وَقَتَ الأداء » .

وقد أَبَتِ السماء والأرض والجبال تحمُّل الأمانة وَقَتَ عَرْضِها؛ وقَبِلَتْ كل منهم التسخير؛ فلا الجبال ولا السماوات ولا الأرض لها قدرة الاختيار ، ولا هوى لأَيِّ منها في هذه القدرة؛ مثلها في ذلك مثل كل أجناس الكون ما عدا الإنسان؛ ولم نجد فساداً في الأرض قد نشأ من ناحية المُسَخَّرَاتِ .

أما الإنسان فقد قَبِلَ تحمُّل الأمانة؛ لأن له عقلاً يُفَكِّرُ ويختار؛ ومن الاختيار ونتيجة للهوى جاء الفساد في الكون ، ولو أقبل الإنسان على العمل وكأنه مُسَخَّر خاضع لمنهج الله؛ لاستقام عمل الإنسان مثلما يستقيم عمل كل الكائنات المُسَخَّرَة بأمر الله .

فإن أردتم أن تستقيم أموركم فيما لكم فيه اختيار ، فطَبِّقُوا قول الحق سبحانه : { أَلَّا تَطْغَوْا فِي المِيزانِ \* وَأَقِيمُوا الوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا المِيزانَ } [ الرحمن : 8-9 ]

وانظروا ماذا يطلب الحق منكم في منهجه ، فإن نَفَذْتُمُ المنهجَ تَسْتَقِيمُ أموركم ، كما استقامت الكائنات المُسَخَّرَة .

ولا يأتي الخلل إلا من أننا نحن البشر نقوم ببعض الأعمال باختيارنا ، وتكون مخالفة لمنهج المُشْرَع ، أما إذا كنا نُؤدِّي أعمالنا ونضع نُصُبَ أعيننا قول الحق سبحانه : { أَلَّا تَطْغَوْا فِي المِيزانِ } [

## [ 8 : الرحمن ]

فلسوف تكون أعمالنا مُطابِقة لمنهج الله ، وسنجد في أعمالنا ما يَسْرُنَا مثل سرورنا حين نجد الأفلاك منتظمة بدقة وحساب .

إذن : فالفساد لا يأتي إلا من الاختيار غير المُرتجى لمنهج مَنْ خلق فينا الاختيار ، وإن كنت تريد أن تكون مختاراً؛ فعليك أن تلتزم بمنهج مَنْ خَيْرَك .  
ولذلك نجد الصالحين من خَلَقَ اللهُ قد ساروا على منهج ربهم؛ والتزموا باختيار مراد ربهم فيما لهم فيه اختيار؛ فصاروا وكأهم مُسَخَّرُونَ لمُرَادَاتِ اللهُ .

وهؤلاء يسمونهم « العباد » لا « العبيد »؛ فكل مملوك لله من العبيد؛ آمن به أو كفر؛ أطاع أو عصى؛ أما العباد فَهُمْ مَنْ جعلوا مرادات الله هي اختيارهم ، يقول تعالى : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } [ الفرقان : 63 ]  
هؤلاء هم مَنْ اتجهوا بالاختيار إلى ما يختاره لهم الله .

ونجد الحق سبحانه يقول في الملائكة : { عِبَادٌ مُكْرَمُونَ \* لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ }  
[ الأنبياء : 26-27 ]

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه في حال الاختيار؛ فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم؛ لأنهم مَقْهُورُونَ بالتسخير؛ بينما تتمتع أنت بالاختيار؛ وآثرتَ منهج ربك .  
ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها : { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا لِيَجْرِيَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى . . . } [ لقمان : 29 ]

ولحظةً تجد التنوين مثل « كلٌّ » فهذه يعني كلاً من السابق . أي : الشمس والقمر . أما الجري إلى أَجَلٍ مُسَمًّى؛ فيقتضي مينا أن نفهم معنى الجري؛ وهو تقليل الزمن عن المسافة .  
فحين تريد الوصول إلى مكان مُعَيَّن فقد تمشي الهوينا؛ لتتصلَ في ساعة زمن ، وقد تجري لتقطع نفس المسافة في نصف ساعة؛ والجري بطبيعة الحال ملحوظ مِّن يراك .

لكن : هل يرى أحدنا الشمس وهي تجري؟

لا ، لأنها تجري في ذاتها؛ ويُسمى هذا النوع من الجري « جري انسيابي » . أي : لا تدركه بالعين المجردة ، وهناك ما يُسمى « انتقال قفزي » ، وهناك ما يُسمى « انتقال انسيابي » .

وانظر إلى عقارب الساعة؛ ستجد عقربَ الثواني أسرعَ من عقرب الدقائق الذي يبدو ساكناً رغم أنه يتحرك؛ وأنت ترى حركة عقرب الثواني؛ لأنها تتم قفزاً؛ بينما لا ترى حركة عقرب الدقائق؛ لأنه يتحرك تبعاً لدورة هادئة من التروس داخل الساعة؛ وكل جزئية في حركة التروس الخاص بعقرب الدقائق تتأثر بحركة تُرْسِ عقرب الثواني؛ والحركة القفزية لعقرب الثواني تتحول إلى حركة انسيابية في عقرب الدقائق .

وحركة كل من العقربين تتحول إلى حركة أكثر انسيابية في عقرب الساعات ، وهذا يعني أن كل جزئية من الزمن فيها جزئية من الحركة .

وحتى في النمو بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات ، تجد عملية النمو غير ظاهرة لك؛ لأن الكائن الذي ينمو إنما ينمو بقدر بسيط غير ملحوظ ، وهذا القدر البسيط شائع في اليوم كله . وإن أردت أن تعرف هذه المسألة أكثر ، انظر إلى الظل ، وأنت ترى الظل واضحاً ساعةً سطوع الشمس ، ثم ينحسر الظل بانحسار الشمس .

واقراً قول الحق سبحانه : { أَمْ تَرَى إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً } [ الفرقان :

[ 45

أي : أن الظل متحرك وغير ثابت ، وكل جزئية من الزمن تؤثر في حركة الشمس ، فيتأثر بها الظل .

وهكذا يجب أن نُفَرِّق بين الحركة القفزية والحركة الانسيابية ، وحين تقدمنا في العلم نجدهم يقولون : سنزيد من الحركة الانسيابية عن الحركات القفزية » .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . } [ الرعد :

2 ] والأجل هو المدة المحدودة للشيء؛ وهي محدودة زمنياً إن أردنا ظرف الزمان؛ أو محدودة بالمسافة إن أردنا المكان .

والمقصود هنا بالأجل؛ إما الأجل النهائي لوجود الشمس والقمر؛ ثم إذا انشقت السماء كُورَت الشمس ، وانكدرت النجوم .

أو : أن المقصود هنا بالأجل هو للتعبير عن عملها اليومي .

وقد عرفنا أن هناك مطالع متعددة للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة؛ لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا في بعض المعابد طاقاتٍ وفتحاتٍ في البناء

فتطلع الشمس كُلَّ يوم من أحد هذه الطاقات؛ فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها ، ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُّسَمًّى أي يومياً .

وُنُسَمِّي نحن تلك المنازل « البروج » كبرج الحَمَل؛ والجدي؛ والثور؛ والأسد؛ والسنبلة؛ والقوس؛ والحوت؛ ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة ، وبرودة ، ومطر ،

وغير ذلك ، ذلك أن كُلَّ برج له زمن ، ويمكن تعريف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة .

ولكن بعضاً من تصرفات الإنسان تفسد عملية التحديد الدقيق في الكون ، مثلما يشعل البعض

الحرائق في الغابات؛ فتحرق النار الأكسوجين الذي يحتاجه البشر والحيوانات للتنفس ، ويحاول

الغلاف الجوي أن يتوازن ، فيشُدُّ كميات من الهواء من منطقة أخرى ، فيختل ميزان الطقس

لأيام .

وكذلك يفسد الجو من التجارب الذرية التي تُجرىها الدول أعضاء النادي الذري؛ تلك التجارب التي تقوم بتفريغ الهواء ، فتجعل الطقس غير مُستقر وغير منضبط؛ وهذا ما يفسد استخدامنا للأبراج كوسيلة لمعرفة تقلبات الطقس .

وقد أوجز الشاعر تلك الأبراج في قوله :

حَمَلِ الثَّورُ جَوْزَةَ السَّرَطَانِ ... ورعى الليث سنبل الميزان

عَقْرَبِ القَوْسِ جَدِي دَلُو وَحُوتِ ... مَا عَرَفْنَا مِنْ أُمَّةِ السُّرْيَانِ

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها : { . . . يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ

الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } [ الرعد : 2 ]

وسبحانه قد أوضح من أول الآية مسألة رُفَعِ السماوات بغير عَمَدٍ ، واستوائه على العرش ، وتسخير الشمس والقمر ، وكيف يجري كلُّ شيء لأجل مُسمى .

وكلُّ ذلك يتطلب تدبيراً للأمر بعد أن أبرز القدرة؛ ثم يصون ذلك كله ، فكما قَدَّرَ فخلق ، فهو يُدَبِّرُ بقبوميته ، فهو القائم على كل شيء ، وسبحانه كل يوم هو في شأن .

وأقول هذا المثل لأوضح لا لأشبهه فسبحانه مُنَزَّهٌ عن التشبيه ونحن نقول : فلان فكَرَّ أولاً ثم دَبَّرَ ، والتفكير هو العملية التي تبحث فيها عن الشيء لإخراج المطلوب منه؛ كأن تأتي بقليل من حبوب القمح لتفركه بيدك لتخرج القمحة من قشرته .

هذا هو التفكير الذي يطلب منك أن تبحث وتُنَقِّبَ إلى أن تصل إلى لبِّ الأشياء .

والندبُّر يقتضي ألا تقتنع بما هداك إليه فكرك في نفس اللحظة ، ولكن أن تُمَحِّصَ الأمر لترى ماذا سينتج عن تنفيذ ما وصل إليه فكرك؟

فرما ما فكرت فيه يُسَعِّفك ويُعِينك في لحظتك الحالية؛ لكنه سيأتي لك بعَطَبٍ بعد قليل .

والمثل الذي أضربه على مثل هذه الحالة دائماً هو اختراع المبيدات الحشرية؛ ولم يَفْطِنُوا إلى أن هذه المبيدات لا تقتل الحشرات الضارة وحدها ، بل تُسَمِّمُ الطيور التي كانت تفيد الفلاح . ووصل الأمر إلى حَدِّ تحريم استخدام هذه المبيدات؛ وجاء هذا التحريم ممن تفاخروا من قَبْلَ على كل شعوب الأرض باختراعهم لتلك المبيدات ، فقد فَطِنُوا إلى أن ما جاءهم من خَيْرٍ عن طريق تلك المبيدات هو أقلُّ بكثير من الضَّرِّ الذي وقع بسببها .

وهذا يعني أنهم لم يتدبروا اختراعهم لتلك المبيدات؛ فقاموا بتصنيعها لفائدة عاجلة ، دون أن يتلفتوا إلى الخطورة الآجلة ، وكان لا بُدَّ لهم أن يتدبروا الأمر ، لأن الندبُّر معناه النظر في دُبُرِ الأشياء .

والحق سبحانه هو القائل : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [ محمد : 24 ]

أي : لا تنظر إلى واجهة الآية فقط ، بل انظر في أعماقها ، ولذلك يقول لنا سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « تَوَرَّوا القرآن » .

أي : استخرجوا منه الكنوز بالتدبر؛ لأن التدبر يحمي من حماقة التفكير ، والمثل البسيط المتكرر في بيوتنا هو أننا نغسل أفواهنا بعد تناول الطعام ونتمضمض مِمَّا بَقِيَ في الفم من بقايا .  
ونجد من بين هذه البقايا بعضاً من « الفتايات الصلبة بعض الشيء » ، ثم نغسل حوض المياه بتيار متدفق من ماء الصنبور ، ونُفَاجَأ بعد فترة من الزمن بانسداد ماسورة الصرف الخاصة بالحوض؛ وحين يفتح السباك ماسورة الصرف هذه يجدها مليئة برواسب من بقايا الأطعمة .  
وأنت حين تمضمضت لم تلتفت إلا لنظافة الفم من البقايا ، ولم تدبر أمر تلك البقايا ، ولو أنك تدبرت ذلك لَقُمْتَ بتركيب ماسورة صرف للحوض أكبر من الماسورة التقليدية الضيقة؛ ولَجَعَلْتَ صندوق الطرد الخاص بالحوض أكبر من الحجم المعتاد والمُجَهَّز لصرف المياه فقط .  
وهكذا نرى أن الفكر يَحْتَكُّ على أن تبحث عن مطلوب لك؛ ولكن عليك أن تنظر وتُدَقِّق :  
هل يحقق لك ما يقترحه عليك فكرك؛ ما يفيدك أم ما يضررك؟  
هذا هو التدبر ، وهو ما نُسمِّيه صيانة الأشياء .

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية : { . . . يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } [ الرعد

: 2 ]

وتفصيل الآيات يعني أنه جعل لكل أمر حُكْمًا مناسباً له . ودائماً أقول لمن يسألني عن فتوى؛ ويُبَحِّثُ أن تتوافق الفتوى مع مراده : « نحن لا نُفَصِّلُ الفتوى من أجل هواك؛ لأن ما عندي هي فتاوى جاهزة؛ وعليك أن تضبط مقاسك أنت على الفتوى ، لا أن نُفَصِّلُ لك الفتوى على هواك » .

أقول ذلك؛ لأن المسألة ليست حياة تنتهي إلى العدم ، ولكن هناك حياة أخرى تُحاسب فيها على كل تصرف ، فالحق سبحانه هو القائل : { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً

مُنثُورًا } [ الفرقان : 23 ]

وهو القائل سبحانه أيضاً جَلَّ وعلا : { كَرَّمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ . . . } [ إبراهيم : 18 ]

ولذلك فعليك أن تُقْبِلَ على كل عمل وأنت مُوقِنٌ بأن هذا العمل لا ينتهي بتركك للحياة الدنيا ، ولكن لكل عمل آثاره في حياة باقية ، وإذا كانت الدنيا تحمل لك راحة موقوتة أو تعباً موقوتاً ، فالراحة في الآخرة باقية أبداً؛ والتعب فيها غير موقوت .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ . . . }

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُجُجِينَ أَنْثِينَ يُغَشِّي  
اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)

ويتابع الحق سبحانه سرّد آياته الكونية في هذه الآية : { مَدَّ الْأَرْضَ . . . } [ الرعد : 3 ]  
يعني أنها موجودة أمامك وممتدة ، وبعض الناس يفهمون المَدَّ بمعنى البسط ، ونقول : إن البَسْطَ  
تابع للمَدِّ .

ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا : ومن قال إن الأرض كُرْوِيَّة؟

إن الحق سبحانه قال : إنها مبسوطة ، وهو سبحانه الذي قال : إنه قد مَدَّ الْأَرْضَ .

وقلتُ لهؤلاء العلماء : فلنفهم كلمة المَدِّ أولاً ، ولنفهم أيضاً كلمة « الأرض » وهي التي تقف  
عليها أنت وغيرك ، وتعيش عليها الكائنات ، وتمتد شمالاً إلى القُطْب الشمالي ، وجنوباً إلى  
القُطْب الجنوبي ، أيّاً ما كُنْتَ في أيِّ موقع فهي ممدودة شرقاً وغرباً .

ومعنى : { مَدَّ الْأَرْضَ . . . } [ الرعد : 3 ]

تعني أنك إن وقفتَ في مكان وتقدمتَ منه؛ تجد الأرض ممدودة أمامك؛ ولا توجد حافة تنتهي لها  
، ولو أنها كانت مبسوطة لكانَ لها نهاية ، ولكانت على شكل مُثلث أو مُربع أو مستطيل؛  
ولكانَ لها حافة؛ ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحافة ، هو يقول : « لقد وصلتُ لحافة الأرض؛  
وأمامي الفراغ » ولم يحدث أن قال ذلك واحد من البشر .

وإذا ما سار إنسان على خط الاستواء مثلاً؛ فسيظل ماشياً على اليابسة أو راكباً لمركب تقطع به  
البحر أو المحيط ليصل إلى نفس النقطة التي بدأ منها سَيرَه .

وهكذا نجد الأرض ممدودة غير محدودة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض مُكَوَّرَة ، بحيث إذا  
مشيت مُتَّبِعاً أيَّ خط من خطوط العرض أو خطوط الطول لانتَهتْ إلى النقطة التي بدأت منها  
سَيرَكَ .

وكان هذا هو الدليل الذي يقدمه العلماء على كروية الأرض؛ قبل أن يخترعوا فكرة التصوير من  
خارج الغلاف الجوي .

ونأخذ من قول الحق سبحانه : { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ . . . } [ الرعد : 3 ]

معنى آخر هو ضرورة أن ينظر الإنسان في هذا الامتداد؛ ومنّ تضيق به الحياة في مكان يُمكنه أن  
يرحلَ إلى مكان آخر ، فأرضُ الله واسعة ، والحق سبحانه هو القائل : { أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً  
فَتُتَّهَجَرُوا فِيهَا . . . } [ النساء : 97 ]

ونعلم أن فساد العالم في زمننا إنما نشأ من فساد السياسات وزيادة الاضطرابات ، وذلك واحد  
من نتائج تعوق مَدَّ الْأَرْضِ فساعة يحاول إنسان أن يترك حدود موطنه؛ يجد الحراسات والعوائق  
عند حدود البلاد المجاورة ، وتناسى الجميع قَوْل الحق سبحانه : { وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ } [

## [ 10 : الرحمن ]

فسبحانه قد سَخَّرَ الأرض وأخضعها للأنام كل الأنام ، وإذا لم يتحقق هذا المبدأ القرآني؛ سيظل العالم في صراع؛ وستظلُّ بعض من البلاد في حاجة للبشر وبعض من البلاد في ضيق من الرزق؛ لزيادة السكان عن إمكانات الأرض التي يعيشون عليها .  
وستظل هناك أرض بلا رجال؛ ورجال بلا أرض ، نتيجة للحواجز المصطنعة بين البلاد .  
وحتى تُحل هذه القضية كما قلنا في الأمم المتحدة لابد من تطبيق المبدأ القرآني :

### { وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ } [ الرحمن : 10 ]

ومنّ تضيق به الأرض التي نشأ فيها فليسمح له بالهجرة .

ويتابع سبحانه في نفس الآية : { وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَهْمَارًا . . . } [ الرعد : 3 ]

والرواسي هي جمع « رأس » وهو الشيء الثابت .

وسبحانه يقول : { وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا } [ النازعات : 32 ]

وهكذا جاء الحق بالحكم الذي شاء أن تكون عليه الجبال ، وفي آية أخرى يأتينا الله بعله كونها

رواسي؛ فيقول : { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ . . . } [ الأنبياء : 31 ]

أي : لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات؛ لما احتجنا إلى

الجبال الرواسي كي تُثَبِّتَهَا ، ولكن الأرض مخلوقة متحركة ، وهي عُرضة للاضطراب ، ولولا

الجبال الرواسي لَمَادَتْ الأرض .

ولسائل أن يقول : ولكننا نقطع الآن الجبال ، ونأخذ الجرانيت من جبل لِثْرَيْنٍ به أرضية بعض

المناطق؛ ونقطع الرخام من جبل آخر لنصنع منه حماماتٍ وأحواضاً ودرجات السلام ، ونقطع

بعض أحجار أنواع معينة من الجبال؛ لنستخلص اليورانيوم منها؟

ونقول : انظر إلى حكمة الحق تبارك وتعالى حين خلق؛ وحكمته حين دَبَّرَ ، فهذه الأرض لها

محيط؛ ولها مركز؛ ولها أقطار ، وكلما اقتربت من مركز الأرض فالقطر يَقِلُّ .

ومثال هذا هو البطيخة؛ فأنت إن استخلصت القشرة الخارجية لها يكون لديك كرة من القشرة

الخضراء؛ وكرة أخرى من مُكوّنات البطيخة التي نأكلها ، ولو استخلصت كرة أخرى من

مكونات الألياف الحمراء التي تتكون منها البطيخة ، لصار عندك كرة أخرى ، ولصار قُطْرُ الكرة

الجديدة أصغر بطبيعة الحال من الكرة الخضراء .

وكلما استخلصت كُرَيَاتٍ أخرى من مُكوّنات البطيخة؛ صَغُرَتْ الأقطار؛ لأنك تقترب من مركز

الدائرة ، والمحيط الأخضر الذي يحيط بالبطيخة وهو القشرة؛ يشبه المحيط الذي يوجد على الكرة

الأرضية؛ وهذه القشرة التي توجد حول الكرة الأرضية صُلْبَةٌ؛ أما ما بداخل الأرض وجَوْفُهَا؛

فهو مُكوّن من أشياء ومواد متعددة ، منها ما هو سائل ومنها ما هو صَلْبٌ .

وكلما اقتربنا من مركز الأرض؛ وجدنا ارتفاعاً في درجة الحرارة؛ وتدلُّنا على ذلك كُتَل الحَمَم التي تخرج فَوَّارة من فُوهات البراكين؛ وهي حُمَم ذات حرارة مرتفعة للغاية؛ وهي حُمَم مُحْرِقة .  
وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل بطن الأرض سائلاً ، رحمةً بنا؛ ذلك أننا حين نبي بيوتاً؛ أو نقتطع أحجاراً من الجبال؛ أو نستخدم مُكوّنات الجبال في أي غرض؛ إنما ننقل بعضاً من مُكوّنات الأرض من موقع إلى آخر .

وحين ينتقل ثقل من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر؛ فالسائل الذي في باطن الأرض ينتقل من المنطقة التي زاد عليها الثقل إلى المنطقة التي خَفَّ من فوقها الثقل ليتحقق التوازن ، ولو لم يحدث ذلك لَتساقطت العمارات الشاهقة التي نراها أثناء دوران الأرض .  
والمثل الذي يُوضِّح ذلك أنك لو وضعتَ قطعة من العجين على سطح بطيخة أو كرة ، وجعلت البطيخة أو الكرة في حالة دوران لَطردت الكرة أو البطيخة قطعة العجين من على سطحها .

وقد شرح العلماء في « علم الحركة » ذلك فقالوا : إن كل شيء مستدير يتحرك؛ إنما تنشأ عن حركته عملية اسمها الطرد الذاتي؛ لأن قطعة العجين أو أي شيء نضعه على شيء مستدير يتحرك تكون له كثافة وثقل على المنطقة التي يوجد فيها ، ويصل هذا الثقل إلى المركز ، ولكي تستمر الحركة الدائرية متوازنة لا بد أن يطرد الشيء المستدير ما فوقه من ثقل زائد .  
ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل نِصفي الكرة الأرضية من أي موقع تتخيله ، متساوياً في الوزن مع النصف الآخر ، ومهما أخذتَ من مواد ونقلتها من موقع إلى آخر ، فالوزن يتعادل نتيجة لحركة السوائل التي في بطن الأرض .

وهذا يدلُّ على عظمة الخالق الذي خلق بتدبير دقيق ، وبكفي أن ننظر إلى عظمة الحق الذي لم يجعل الجبال رواسي ليمنع الأرض من أن تميدَ بنا ، بل جعل في الجبال والصحاري ما استتجدنا به حين ضاقت الأرض بنا؛ فذهبنا إلى الجبال؛ لنستخرج منها المواد الخام؛ ونصَدِّرها؛ ثم نشترى بثمنها القمح .

ونرى من حولنا الصحاري حيث كان المقيمون فيها يلهثون قديماً من العطش ، ولا يجدون شجرة يستظلون بها؛ فيُفجِّر فيها الحق آبار البترول .

وهكذا نرى أن كل قطاع من الأرض فيه خير مُساوٍ لأي قطاع آخر من الأرض ، وجعل الله لكل أمر زمناً يمكن للبشر أن يستفيدوا من هذا الأمر في ذلك الزمن .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في الجبال : { قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ } [ فصلت : 9-10 ]

أي : أنه سبحانه بارك في الجبال ، ، وهي جزء من الأرض ، وشاء أن يُقدِّر الأقوات في الجبال

والأرض؛ ويكفي أن نعلم أن المطر حين يتساقط من السماء على الجبال؛ فيحمل المطر بعضاً من الطّني من على أسطح تلك الجبال ، فتتجدد خصوبة الأرض .

ولو كانت الجبال هشة لذابت الجبال من عدد قليل من مرات سقوط المطر ، ولذابت القشرة الخصبية التي تغذي النبات حين نزرعه في الأرض .

ولكنه سبحانه شاء أن تمرّ الظروف الجوية باختلافها وتنوعها في تتابع يُوفّر من الحرارة والرطوبة ما يجعل الأرض تتشقق؛ فيصير سطح الجبال الصلبة هشاً لينزل مع المطر؛ وليغذي الأرض بالخصوبة من أجل أن يستمر استبقاء الحياة بإنتاج ما نحتاجه من نباتات مزروعة .

ونلاحظ قوله سبحانه في نفس الآية : { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا . . . } [ الرعد : 3 ]

وهنا يجمع الحق بين الرواسي وهي الثوابت ، وبين الأنهار وهي التي تحمل الماء السائل ، وهذا جمع بين الأضداد .

والنهر يُطلق على ما يحمل المياه العذبة؛ أما البحر فهو المكوّن من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضت أنهار الدنيا كلها؛ ستجد أن مجاريها تصبُّ في البحار ، وهذا دليل على أن منسوب النهر أعلى دائماً من منسوب البحر ، ولو كان الأمر بالعكس؛ لَطغى ماء البحر على مياه النهر ، ولما استطعنا أن نشرب أو نزرع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الماء العذب هو الأعلى؛ لأن له مهمة يُؤدّيها قبل أن يصبُّ في البحر . أقول ذلك حتى نعلم الحكمة في قول الحق سبحانه : { بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ } [ الرحمن : 20 ]

ومن العجيب أن البرزخ الذي يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر في مياه البحر بما يَحقق سهولة في هذا الانتقال ، ومن العجيب أيضاً أنك إن حفرت عند شاطئ البحر قد تعثر على الماء العذب .

ولذلك حين نزرع العريش نجد شاطئاً باسم شاطئ النخيل؛ ونحن نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العذب ، وكأن الحق سبحانه قد جعل في هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العذب من هذا المكان الذي يوجد على البحر؛ وقد تكون له جداول عذبة .

فسبحانه القائل : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ . . . } [ الزمر : 21 ]

ونحن في الريف نجد من يحفر بئراً ويكون ماؤه عذباً؛ وآخر يحفر بئراً ويكون ماؤه مالحاً . وهذا دليل على أن الماء في بطن الأرض غير مختلط ، بل لكل ماء مسارب تختلف باختلاف نوعية المياه .

ويُرتّب الحق سبحانه في نفس الآية مجيء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت الجبال كمصدر

للغرين وخصوبة الأرض ، وعلى وجود الأنهار التي تحمل الماء اللازم للري ، وهكذا يكون مجيء الثمرات أمراً طبيعياً .

والثمرة كما نعلم هي الغاية من أي زرع .

وفي نفس الآية يواصل الحق ذكر عطائه ، فيقول سبحانه : { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ . . . } [ الرعد : 3 ]

ويستعمل البعض كلمة « زوج » ويراد به شيان كقولنا « زوج أحذية » مع أن التعبير الدقيق يقتضي أن نقول « زوجان من الأحذية » كتوصيف لفردة حذاء يُمنى وفردة حذاء يسرى؛ لأن كلمة « زوج » مرد ، وتستخدم في الشيء الذي له مثل؛ ولذلك نجد العدد الفردي والعدد الزوجي؛ والعدد الزوجي مُفرد له مثيل؛ وفي الإنسان هو الذكر والأنثى .

وسبحانه القائل : { وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ } [ الذاريات : 49 ]

ويخطئ الناس أيضاً في فهم كلمة التوأم ، ويظنون أنها تعني الاثنين اللذين يولدان معاً ، ولكن المعنى الدقيق للتوأم وهو الفرد الذي يُولد مع آخر ، ويقال لاثنين معاً « التوأمان » .  
وهنا يقول الحق سبحانه : { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ . . . } [ الرعد : 3 ]

ولم يخلق الحق سبحانه أي شيء إلا وشاء له أن يتكاثر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

{ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ } [ يس : 36 ]

وكلُّ تكاثر إنما يحتاج إلى زوجين ، وكنا نعتقد قديماً أن التكاثر يحدث فقط في النبات؛ مثلما نُلَقِّح النخلة بالذكور ، وفي الحيوان يخصب الفحل الأنثى ، ثم كشف لنا العلم بعد ذلك أن الكهرباء على سبيل المثال لا الحصر تتكون من سالب وموجب وغير ذلك كثير ، وكل ما قدمه العلم من كشاف يؤيد صدقه سبحانه : { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا . . . } [ يس : 36 ]

ويتابع سبحانه في نفس الآية : { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ . . . } [ الرعد : 3 ]

أي : أن تأتي الظلمة على النهار فتُغْطِيه؛ وهو القائل في موقع آخر من القرآن : { فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . . . } [ الإسراء : 12 ]

وذلك تحقيقاً لمشيئته التي قالها : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً . . . } [ الفرقان : 62 ]

وإن سأل سائل : هل الليل هو الذي خُلِقَ أولاً أم النهار؟

أقول : نحن نرى الآن الليل والنهار ، كُلُّ منهما يُؤَدِّي مَهْمَّتَهُ في نصف ما في الكرة الأرضية ، وكل منهما يخلف الآخر ، ولا بد أن الأمر كذلك من أول الخلق .

فإن كان سبحانه قد أوجد الأرض مبسوطة وفي مواجهتها الشمس ، لكان النهار هو الأسبق في الخلق ، وإن كان قد خلق الشمس غير مواجهة للأرض؛ يكون الليل هو الذي سبق النهار في الخلق .

ويوضح الحق سبحانه هذا الأمر قليلاً في سورة يس حين يقول : { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [ يس : 40 ] وكان العرب قديماً يظنون أن الليل هو الذي سبق النهار في الخلق؛ لأنهم كانوا كانوا يُورثون الشهور بالقمر؛ فيدخل الشهر بليله لا بنهاره ، ونحن نعلم أن رمضان يأتينا بأول ليلة فيه . وقد أوضح الحق سبحانه لهم على قدر معارفهم ، ثم ثبت لنا أن الليل والنهار قد وُجدا في وقت واحد بعد أن وضحت لنا أن صورة الأرض كروية ، وأنه سبحانه قد خلقها كذلك ، فما واجه الشمس كان نهاراً؛ وما غابت عنه الشمس كان ليلاً ، ويخلف كل منهما الآخر . وهكذا وضَّح لنا أنهما موجودان في آنٍ واحد .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : { . . . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [ الرعد : 3 ]

أي : أن على الإنسان مسئولية التفكير فيما يراه من حوله ليصل إلى لبِّ الحقائق . ويقول سبحانه بعد ذلك :

{ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ . . . }

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

هذه الآية جاءت بشيء من التفصيل لقول الحق سبحانه في أواخر سورة يوسف : { وَكَأَيِّنْ مِنْ

آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [ يوسف : 105 ]

وتلك آية تنضم إلى قوله تعالى : { رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . . } [ الرعد : 2 ]

وتنضم إلى : { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ . . . } [ الرعد : 2 ]

وتنضم إلى قوله سبحانه : { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

جَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ ثَمِينٍ يُعْشَى الْيَلِيلَ النَّهَارِ . . . } [ الرعد : 3 ]

وحين نتأمل قول الحق سبحانه : { وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ . . . } [ الرعد : 4 ]

نجد أننا لا نستطيع أن نعرفها بأنها التي يعيش عليها أمثالنا؛ تلك هي الأرض ، ولو أردنا تعريفها لأبهمناها ، فهي أوضح من أن تُعرَّف .

وكلمة « قِطْعٌ » تدلُّ أول ما تدلُّ على « كل » ينقسم إلى أجزاء ، وهذا الكلُّ هو جنس جامع للكلية؛ وفيه خصوصية تميز قطع عن قطع .

وأنت تسمع كلام العلماء عن وجود مناطق من الأرض تُسمى حزام القمح ، ومناطق أخرى تُسمى حزام الموز؛ ومناطق حارة؛ وأخرى باردة .

وقول الحق سبحانه : { قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ . . . } [ الرعد : 4 ]

هو قول يدل على الإعجاز؛ فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاً منها تناسب الطقس الذي توجد فيه؛ فزراعة الذرة تحتاج مناخاً مُعيناً؛ وكذلك زراعة الموز . وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه ، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية ، لا بل هي تربة مناسبة للجو الذي توجد به .

ومن العجيب أن فيها الأسرار التي يحتاجها الإنسان؛ هذا السيد الذي تحدمه كل الكائنات ، فليست الأرض سائلة في التماثل؛ بل تختلف بما يناسب الظروف ، فهناك قطعة سبخة لا تنبت؛ وأخرى خصبة تنبت .

بل وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر؛ ومن قطعة إلى أخرى؛ فثمرة الجوافة من شجرة معينة في منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة في منطقة أخرى؛ والقمح في منطقة معينة يختلف عن القمح في منطقة أخرى؛ ويقال لك « إنه قمح فلان » . ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسقى بماء واحد .

ويقول العلماء البعيدون عن منطق السماء : « إن السبب في الاختلاف هو عملية الاختيار والانتخاب » . وكأنهم لا يعرفون أن الاختيار يتطلب مُختاراً ، وأن يكون له عقل يُفكر به ليختار ، وكذلك الانتخاب فهل البُدَيَات تملك عقلاً تُفكر به وتختار؟ طبعاً لا .

ويقولون : إن النبات يتغذى بالخاصية الشعرية ، ونعلم أن الأنابيب الشعرية التي نراها في المعامل تكون من الزجاج الرفيع؛ وإذا وضعناها في حوض ماء ، فالماء يرتفع فيها على مستوى الإناء . وإن صدّقنا العلماء في ذلك ، فكيف نصدّقهم في أن شجرة ما تأخذ ماءً من الشجرة الأخرى؛ وتنتج كل منهما نفس الثمار؛ لكن ثمار شجرة تختلف عن الأخرى في الطعم؟ ونقول : إن كل شجرة تأخذ من الأرض ما ينفعها؛ ولذلك تختلف النباتات ، ويحدث كل ذلك بقدرة الذي قَدَّر فهدى .

وهكذا نرى الأرض قطعاً متجاورات؛ منها ما يصلح لزراعة تختلف عن زراعة الأرض الأخرى . وقد يقول بعض من الملاحدة : إن هذا الاختلاف بسبب الطبيعة والبيئة .

وهؤلاء يتجاهلون أن الطبيعة في مجموعها هي الشمس التي تعطي الضوء والحرارة والإشعاع ، والقمر أيضاً يعكس بعضاً من الضوء ، والنجوم تهدي من يسير في الفلاة ، وتيارات الهواء تتناوب ولها مسارات ومواعيد .

ورغم كل ذلك فهناك أرض خصبة تنتج ، وأرض سبخة لا تنتج ، وأرض حمراء؛ وأخرى سوداء ،

وثالثة رملية ، وكلها متجاورة .

لابد إذن من وجود فاعل مختار يأمر هذه أمراً مختلفاً عن تلك .

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية : { وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٍ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ . . . }

{ [ الرعد : 4 ] }

وجاء الحق سبحانه هنا بالمُرْفَهَاتِ أولاً؛ فتحدث عن الفاكهة؛ ثم تحدث عن الزرع الذي منه القوت الأساسي ، ونحن في حياتنا نعمل ذلك؛ فحين تدخل على مائدة أحد الكبار؛ تجد الفاكهة مُعدَّة على أطباق بجانب المائدة الرئيسية التي يُقدَّم عليها الطعام .

ويأتي الحق سبحانه بعد الأعناب والزرع الذي منه القوت الضروري بالنخيل ، وهو الذي ينتج

غذاء ، وقد يكون التمر الذي ينتجه ترفاً يتناوله الإنسان بعد تناول الطعام الضروري .

وقول الحق سبحانه : { صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ . . . } { [ الرعد : 4 ] }

يتطلب منا أن نعرف ما الصنوان؟ ونجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « العم صنو أيبك

« أي : أن الصنُو هو المثل .

وبهذا يكون معنى الصِنَوَانِ هو المِثْلَانِ . ونرى ذلك واضحاً في النخيل؛ فنرى أحياناً أصلاً واحداً

تخرج منه نخلتان؛ أو ثلاث نخلات؛ وأحياناً يخرج من الأصل الواحد أربع أو خمس نخلات .

ويطلق لقب « الصنوان » على الأصل الواحد الذي يتفرع إلى نخلتين أو أكثر؛ فكلمة « صنوان

« تصلح للمثنى وللجمع ، ولكنها في حالة المثنى تعامل في الإعراب كالمثنى؛ فيقال « أثمرت

صنوان » و « رأيت صنوين » أما في حالة الجمع فيقال « رأيت صنواناً » و « مررتُ بصنوان »

. والمفرد طبعاً هو « صنو » .

ويقول سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها : { وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٍ وَنَخِيلٍ

صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يَسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ . . . } { [ الرعد :

[ 4 ]

ومن العجيب أن كل شجرة تأخذ عبر جذورها كمية من الماء والغذاء اللازم لإنتاج ثمار ذات

شكل وطعم مختلف .

وهذا ما جعلنا نقول من قَبْلُ : إن افتراضات العلماء المتخصصين في علوم النبات عن أن

النباتات تتغذى بخاصية الأنايب الشعيرية هو افتراض غير دقيق .

فلو كان الأمر كذلك لأخذت الأنايب الشعيرية الخاصية بنبات المواد التي أخذتها الأنايب

الشعيرية الخاصة بنبات آخر .

والأمر ليس كذلك ، فكل نبات يأخذ من الأرض ما يخصه فقط ، ويترك ما عدا ذلك .

ذلك أن الثمار لكل نبات تختلف ولا تتشابه؛ بل إن الشجرة الواحدة تختلف ثمارها من واحدة

إلى أخرى .

مثال هذا : هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة ، ويمكنك أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك تنتقي من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك ، وترفض غيرها من الثمار ، وسترى أنك تنتقي من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروق لك؛ وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة .  
و حين تذهب لشراء الفاكهة؛ فأنت تشتري حسب موقفك في الادخار؛ فإن كنت تحب الادخار فسوف تشتري الفاكهة التي من الدرجة الثانية؛ وإذا كنت تحب أن تستمتع بالطيب من تلك الفاكهة فسوف تشتري من الفاكهة المتميزة .

وأتحدى أن يقف واحد أمام قفص للفاكهة ، وينتقي الثمار غير الجميلة الشكل والرؤوق ، بل يحاول كل إنسان أن يأخذ الجميل والطيب من تلك الفاكهة ، وحين يدفع ثمن ما اشترى سنجده يدفع النقود الورقية القديمة التي تُوجد في جيبه ، وسيحتفظ لنفسه بالنقود الجديدة .  
وهذا الموقف يغلب على مواقف أي إنسان ، فهو مُقبل دائماً على رَفْض أخذ السيئ؛ وخائف دائماً من التفريط في الحَسَن .

والحق سبحانه يقول : { قُل لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ . . . }

{ [ الإسراء : 100 ] }

وأنت لا تجد في الثمار تشابهاً ، بل اختلافاً في الطَّعم من نوع إلى نوع؛ كذلك تجد اختلافاً في طريقة تناولها؛ فلا أحد منّا يأكل البلحة بكاملها ، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أن نُخرج منها النواة؛ ونأكل ثمرة التين بأكملها ، ونخرج ما في قلب حَبَّة المشمش من بذرة جامدة ، ثم نأكل المشمشة من بعد ذلك .

فكل ثمرة لها نظام خاص؛ وليست مسألة ميكانيكية في عطاء الله لثمار متشابهة؛ بل هناك اختلاف ، ويمتد هذا الاختلاف إلى أدق التفاصيل؛ لدرجة أنك حين تتناول قِطْفاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حَبَّات العنب عن غيرها .

ونحن لا نُفَضِّل بعضاً من الفاكهة على البعض الآخر في الأكل فقط ، بل نُفَضِّل في الصنف الواحد بعضاً من ثماره عن البعض الآخر .

و حين تقرأ : { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ . . . } [ الرعد : 4 ]

فاعلم أنه لا يوجد شيء أو أمر مُفَضَّل على إطلاقه ، وأمر آخر مفضول على إطلاقه ، فما دُمنا نُفَضِّل بعضه على البعض الآخر؛ فهذا يعني أن كلاً منهما مُفَضَّل في ناحية ، ومفضول عليه في ناحية أخرى .

والمثل الواضح أمامنا جميعاً أننا حين نجلس إلى مائدة عليها ديك رومي قد تجد يدك تتجه إلى طبق « المخلل » قبل أن تمتد يدك إلى الديك الرومي؛ لأن « نفسك » قد طلبته أولاً ، فلا تُقَلِّ : إن هناك شيئاً مفضولاً عليه طوال الوقت ، أو شيئاً مفضلاً كل الوقت .

وكذلك الناس؛ إياك أن تظن أن هناك إنساناً فاضلاً على إطلاقه؛ وآخر مفضولاً على إطلاقه؛ بل هناك إنسان فاضل في ناحية ومفضول عليه في ناحية أخرى .

والمثل : هو صاحب السيارة الفارهة؛ ثم ينفجر إطار سيارته؛ فيتمنى أن يرزقه الله بمن يمر عليه ليقوم بتغيير إطار السيارة؛ فيمرُّ عليه هذا الإنسان صاحب الملابس غير النظيفة بما عليها من شحوم؛ فيكون هذا الإنسان أفضل منه في قدرته على فكِّ الإطار المنفجر بالإطار السليم الاحتياطي .

وهكذا نشر الله الفضل على الناس ليحتاج بعضهم لبعض؛ ولذلك أقول : حين تجد نفسك فاضلاً في ناحية إياك أن تقع في الغرور؛ واسأل نفسك : ما الذي يُفضَّل عليك فيه غيرك؟ وتذكر قول الحق سبحانه : { لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ . . . } [ الحجرات : 11 ]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يُوزع الفضل بين الناس ، ليحتاج كل منهم الآخر ، وليتكامل المجتمع . وكذلك وزَّع سبحانه الفضل في الأطعمة والفواكه والثمار ، وانظر إلى نفسك لحظة أن تُقدِّم لك أصناف متعددة من الفاكهة؛ فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ ثمرة من التفاح؛ فساعة طلبت نفسك ثمرة الجميز صارت في تقدير الموازين والتبادل هي الأفضل ، وكل إنسان يمكن أن يجد ذلك فيما يخصُّه أو يُحبه .

والحق سبحانه هو القائل : { . . . وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ } [ الرعد : 8 ]  
ولذلك نجد الإنسان وهو يُلوّن ويتفنن في صناعة الطعام ، ويختلف إقبال الأفراد على الأطعمة المنوَّعة ، وقد تجد اثنين يقبلان على لحم الدجاج؛ لكن أحدهما يُفضِّل لحم الصدر؛ والآخر يُفضِّل لحم « الورك » ، وتجد ثالثاً يُفضِّل لحم الحمام؛ وتجد رابعاً يفضل تناول السمك . بل إنك تجد اختلافاً في طريقة تناول من يجبون السمك؛ فمنهم من يجب أكل رأس السمكة ، ومنهم من يجب لحم السمكة نفسها ، ولا أحد يملك معرفة السبب في اختلاف الأمزجة في الانجذاب إلى الألوان المختلفة من الأطعمة .

وحين تتأمل تلك المسألة قد يأتي إلى خاطرك قول الحق سبحانه : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ . . . } [ البقرة : 28 ]

والسؤال هنا من الله للتعجب؛ والتعجب عادة يكون من شيء خفي سببه ، فهل يخفى سبب على الله ليتعجب؟

طبعاً لا ، فسبحانه مُنزه عن ذلك ، وسبحانه يعلم سبب كفر الكافرين؛ لكنه ينكر عليهم أسباب الكفر .

والمثل من حياتنا والله المثل الأعلى فأنت تجد نفسك وأنت تنطق بكلمة « كيف تسب أباك؟ » لإنسان يوجه كلمات جارحة لوالده؛ فتتعجب لتنكر ما فعله هذا الإنسان .

وكذلك القول : كيف تكفرون بالله؟ لأن الكفر شيء لا يتأتى من عاقل . وكان لنا شيخ هو فضيلة العالم أحمد الطويل؛ وكان يحدثنا عن شيخ له حين كان يقرأ قول الحق سبحانه : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ . . . } [ البقرة : 28 ]

كان يقول : إن الخطاب هنا عام لكل إنسان؛ لأن الحق بعدها يأتي بالقضية العامة :

{ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ . . . } [ البقرة : 28 ]

وهذا القول للعموم . وكان شيخنا يحكي عن شيخه أنه حدثهم أن إنساناً كان مُسْرِفاً على نفسه؛ ثم انصبت عليه الهداية مرة واحدة؛ وراه كل من حوله وهو مُقْبِل على الله؛ فسألوه عن سبب الهداية ، فقال :

كنت أجلس في بستان ، ثم راق لي عنقود من العنب؛ فقطفتُ العنقود ، وأخذتُ أتأمل فيه؛ فوجدت غِشاءً رقيقاً شفافاً وهو قشرة حبة العنب يشفُ عما تحته من لحم العنب الممتلئ بالعصير .

وحين وضعتُ حبة العنب في فمي؛ صارت ماء رطباً ، وأخذني العجب من احتفاظ حبة العنب ببرودتها ورطوبتها رغم حرارة جَوِّ شهر بؤونة؛ ثم وجدت بذرة الحبة ولها طعم المسك؛ فلما غمرني السرور من طعم وجمال العنب سمعت هاتفاً يهتف بي : « كيف تكفر بالله وهو خالق العنب؟ » فهتفت : آ ن يا رب أن أو من بك .

وكل منّا له أن ينظر إلى شيء يعجبه؛ وسيجد الشيء كأنه يقول له : كيف تكفر بالله وهو خالقي؟ وهكذا سجد كل إنسان وهو مُخاطب بهذه العبارة ، لأنه ما من كائن إلا وله شيء يعجبه في الكون .

وهكذا نفهم معنى قول الحق سبحانه : { وَنُفِّصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ . . . } [ الرعد : 4 ]

ونجد أي شيء هو فاضل في وقت الحاجة إليه وطلبه؛ وكل شيء مُفْضُول عليه في وقت ما؛ وإن كان فاضلاً عند مَنْ يحتاجه . ونجد أن التفضيل هنا عند الأكل .

والأكل هو ما يُؤْكَل؛ لا الآن فقط إنما ما يُؤْكَل الآن أو بعد ذلك وسبحانه القائل : { كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ . . . } [ البقرة : 265 ]

وسبحانه يقول أيضاً : { أَكُلْهَا دَائِمًا . . . } [ الرعد : 35 ]

وكذلك قال : { تَوَدَّى أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . . . } [ إبراهيم : 25 ]

وهكذا نجد أن الأكل مقصود به ما يُؤْكَل الآن ، وما بعد الأكل أيضاً .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : { . . . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [ الرعد :

وبعض الناس يظنون أن العقل يعني أن يمرح الإنسان في الأشياء ، وأنه يعطي الإنسان الحرية المطلقة ، ومثل هذا الظن خاطئ؛ لأن العقل جاء ليُبصِّر الإنسان بعواقب كلِّ فعل ونتائجه ، فيقول للإنسان : « إياك أن يستهويك الأمر الفلاني لأن عاقبته وخيمة » . ومن مادة العين والقف واللام عقل . ويقال : عقلتُ البعير .

ومن مهام العقل أن يُفرز الأشياء ، وأن يفكر فيها ليستخرج المطلوب ، وأن يتدبر كل أمر ، فعمليات العقل هي الاستقبال الإدراكي والبحث فيه لاستخلاص الحقائق والنتائج ، وأن يتدبر الإنسان كل أمر كي يتجنب ما فيه من ضرر .

والمثل : هو ما توصل إليه بعض من العلماء من اكتشاف لأدوية يستخدمونها لفترة ما ، ثم يعلنون عن الاستغناء عنها؛ لأن آثارها الجانبية ضارة جداً؛ وهذا يعني أنهم لم يتدبروا الأمر جيداً؛ وخطوا خطوات إلى ما ليس لهم به كامل العلم .

وقول الحق سبحانه : { . . . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [ الرعد : 4 ]

نلاحظ فيه توجيهاً بالتعاون بين العقول ، لتبحث في آيات ربِّ العقول؛ فلا يأخذ أحد قراراً بعقله فقط؛ بل يسمع أيِّ مَنَّا لرأي عقل ثانٍ وعقل ثالث ورابع؛ ليستطيع الإنسان تدبُّر ما يمكن أن يقع؛ ولتتكاتف العقول في استنباط الحقائق النافعة التي لا يتأتَّى منها ضرر فيما بعد؛ لأن من استبد برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركهم في عقولهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ . . . }

وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5)

والعجب هو أن تُبدي دهشة من شيء لا تعرف سببه ، وهذا التعجب لا يتأتَّى من الله؛ لأنه سبحانه يعلم كل شيء ، فإذا صدر عجب من الله مثل قوله الحق : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ . . . } [ البقرة : 28 ]

فمعنى هذا أنه سبحانه يُنكر أن يكفر الإنسان مع قيام الأدلة على الإيمان؛ لكن بعضاً من الناس رغم ذلك يكفر بالله .

وقول الحق سبحانه : { وَإِنْ تَعْجَبَ . . . } [ الرعد : 5 ]

هو خطاب مُوجَّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعجب من أنهم كانوا يُسمُّونه قبل أن يبعثه الله رسولاً بالصادق الأمين؛ وبعد ما جاءت الرسالة قالوا : إنه ساحر كذاب .

فكيف يكون صادقاً أميناً بشريته وذاتيته؛ ثم إذا أمده الحق سبحانه بالمدد الرِّسالي تتهمونونه

بالكذب؟ ألم يكن من الأجدر أن تقولوا إنه صار أكثر صدقاً؟ وهل من الممكن أن يكون صادقاً عندكم ، ثم يكذب على الله؟

والتعجب أيضاً من أنهم أنكروا البعث من بعد الموت ، رغم أنه سبحانه أوضح الأدلة على ذلك؛ ولكن المؤمنين وحدهم هم الذين استقبلوا أمر البحث بالتصديق؛ بمجرد أن أبلغهم به رسول الله مُبْلِغاً عن ربه .

ونجد الحق سبحانه وتعالى قد احترم فضول العقل البشري ، فأوضح سبحانه ذلك ونصّب الأدلة عليه؛ وأبلغنا أنه لم يعجز عن الخلق الأول؛ لذلك لن يعجز عن البعث .

فقد جاء بنا سبحانه من عدم ، وفي البعث سيأتي بنا من موجود ، ومن الغباء إذن أن يتشكك أحد في البعث ، والمُسْرِف على نفسه إنما يُنكر البعث؛ لأنه لا يقدر على ضبط النفس؛ ويظن أنه بإنكار البعث لن يلقى المصير الأسود الذي سيلقاه في الآخرة .

ولذلك تجد المسرفين على أنفسهم يحاولون التشكيك في البعث ويأتي الحق سبحانه بتشكيكهم هذا في قول الحق سبحانه : { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ .

. . { [ الجاثية : 24 ]

ولو أن الواحد منهم وضع مسألة البعث في يقينه لانصرف عن شهواته ، بينما هو يريد أن ينطلق بالشهوات؛ ولذلك نجدهم يقولون : { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ . . . { [ السجدة : 10 ]

وهم يقصدون بذلك أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ، ويعودون إلى الأرض كعناصر وتراب تذرره الرياح ، فكيف سيأتي بهم الله للبعث ، ويُنشئهم من جديد؟

ويقول سبحانه : { وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُلْ يُحْيِيهَا

الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ { [ يس : 78-79 ]

ومن الكافرين من قال : سنصير تراباً ، ثم نختلط بالتربة ، ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج

عناصرنا بما تنبتة الأرض من فواكه وخضر وأشجار؛ ثم يأكل طفل من الثمرة التي تغدّت

بعناصرنا؛ فيصير بعض منّا في مكونات هذا الطفل؛ والقياس يُوضّح أننا سوف نتناثر؛ فكيف يأتي

بنا الله؟

كل ذلك بطبيعة الحال من وسوسة الشيطان ووحيه : { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ . . .

{ [ الأنعام : 121 ]

وأقول : لنفترض أن إنساناً قد مرض؛ وأصابه هُزَال ، وفقد ثلاثين كيلوجراماً من وزنه ، وما نزل

من هذا الوزن لا بُدَّ أنه قد ذهب إلى الأرض كعناصر اختلطت بها ، ثم جاء طبيب قام بتشخيص

الداء وكتب الدواء ، وشاء الله لهذا المريض الشفاء واستردَّ وزنه ، وعاد مرة أخرى لحالته

الطبيعية؛ فهل الثلاثين كيلو جراماً التي استردّها هي نفس الكمية بنوعيتها وخصوصيتها التي

سبق أن فقدوها؟ طبعاً لا .

وهكذا نفهم أن التكوين هو تكوين نسبي للعناصر ، كذا من الحديد؛ كذا من الصوديوم؛ كذا من المغنسيوم؛ وهكذا .

إذن : فالجزء في اليوم الآخر عملية عقلية لازمة ، يقول الحق : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [ البقرة : 28 ]

مادام هناك أمر؛ وهناك نهي؛ وهناك نهي؛ وهناك منهج واضح يُبين كل شيء . وإن كنت تعجب يا محمد من الكفار وما يثرونه من أقضية ، فَلَكَ أَنْ تعجب لأنها أمور تستحق العجب .  
والحق سبحانه حين يخاطب الخلق فهو يخاطبهم إمّا في أمر يشكّون فيه ، أو في أمر لا يشكّ فيه أحد .

والمثل من حياتنا والله المثل الأعلى حين تخاطب أنت واحداً في أمر يشكّ هو فيه؛ فأنت تحاول أن تؤكد هذا الأمر بكل الطرق ، وهكذا وجدنا بعضاً من الناس ينكرون البعث والحساب؛ ووجدنا الحق سبحانه وتعالى يُذكّرهم به عبر رسوله ويؤكد لهم .

وأيضاً خاطبهم الحق سبحانه فيما لم يشكّوا فيه؛ وهو الموت؛ وقال : { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ . . . } [ آل عمران : 185 ]

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » .  
فالموت يقين ، ولكن لا أحد يحاول التفكير في أنه قادم ، وسبحانه يقول : { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ } [ المؤمنون : 15 ]

وهذا تأكيد لأمر يُجمع الناس على أنه واقع ، لكنهم لغفلتهم عنه بدؤوا كالمُنكرين له ، لذلك خاطبهم خطاب المنكرين ، ثم قال بعد ذلك : { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } [ المؤمنون : 16 ]

ولم يُقل : « ولتبعثون » لأن البعث مسألة لا تحتاج إلى تأكيد ، وعدم التأكيد هنا أكد من التأكيد ، لأن أمر الموت واضح جداً رغم الغفلة عنه ، أما البعث فهو واقع لا محالة بحيث لا يحتاج إلى تأكيد .

والمثل من حياتنا والله المثل الأعلى يذهب الإنسان إلى الطبيب؛ فيقول له الطبيب بعد الكشف عليه « اذهب فلن أكتب لك دواء » . وهذا القول يعني أن هذا الإنسان في تمام الصحة؛ وكان كتابة الدواء يحمل شبهة أن هناك مرضاً .

وكذلك الحق سبحانه يخاطب الخلق في الشيء الذي ينكرونه وعليه دليل واضح؛ فيأتي خطابه لهم بلا تأكيد؛ وهو يوضح بتلك الطريقة أنهم على غير حق في الإنكار ، أما الشيء الذي يتأكدون منه وهم غافلون عنه؛ فهو يؤكد لهم؛ كي لا يغفلوا عنه .

وكذلك في القَسَم؛ فنجده سبحانه قد أقسم بالتين والزيتون؛ وأقسم بالقرآن الحكيم؛ وأقسم بغير ذلك ، ونجده في مواقع أخرى يقول : { لَأُقْسِمُ بِمَا بَلَدُ \* وَأَنْتَ حِلٌّ بِمَا بَلَدُ \* وَوَالِدٍ وَمَا وَكَلَدُ } [ البلد : 1-3 ]

والعجيب أنه يأتي بجواب القسم ، فيقول : { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ } [ البلد : 4 ]  
وقد يقول قائل : كيف يقول : { لَأُقْسِمُ . . . } [ البلد : 1 ]  
ثم يأتي بجواب القسم؟

وأقول : لقد جاء هنا بقوله : { لَأُقْسِمُ . . . } [ البلد : 1 ]  
وكانه يُوضِّحُ الأَحقَّ لكم في الإنكار؛ ولذلك ما كان يصحَّ أن أقسم لكم ، ولو كنت مُقسِّماً؛  
لأقسمتُ بكذا وكذا وكذا .

وسبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنها : { وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْمُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . . } [ الرعد : 5 ]  
وهو جَلٌّ وعلا يُدَكِّرهم بما كان يجب ألا ينسوه؛ فقد خلقهم من تراب؛ وخلق التراب من عدم ،  
وهو القائل : { أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ ق : 15 ]  
إذن : فسبحانه يتعجب من أمر هؤلاء؛ ويزيد من العجب أنهم كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم  
بعد أن جربوا فيه الصدق ، ولمسوا منه الأمانة؛ وقالوا عنه ذلك من قبل أن يُبعث؛ وفوق ذلك  
أنكروا البعث مع قيام الدليل عليه .

ويفسهم الحق سبحانه : { أولئك الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ . . . } [ الرعد : 5 ]  
أي : أن هؤلاء المكذبين لك يا محمد والمنكرين للبعث لم يكفروا فقط بالله الذي أوجب التكليف  
العبادي؛ بل هم يكفرون بالربوبية التي تعطي المؤمن والكافر؛ والطائع والعاصي ، وتآمر بأمرها  
الأسباب لتستجيب لأي مجتهد يتبع قوانين الاجتهاد ، فيأخذ من عطاءات الربوبية؛ وهي  
عطاءات التشريف التي تضمن الرزق ، بينما عطاءات الألوهية؛ هي تكاليفات بالطاعة للأوامر  
التعبدية؛ الممثلة في « افعل » و « لا تفعل » . وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا بعد أن يبلغ  
الإنسان درجة النضج التي تؤهله؛ لأن ينبج مثيلاً له؛ وقد ترك الحق سبحانه كل إنسان يرتع في  
خير النعم التي أسبغها سبحانه على البشر ، وكان على الإنسان أن يسعى إلى الإيمان فور أن  
تصله الدعوة من الرسول المبلغ عن الله؛ هذا الرسول المشهود له بالصدق والأمانة . ولذلك نجد  
الحق سبحانه وهو يصف المنكرين للإيمان : { أولئك الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ . . . } [ الرعد : 5 ]  
ويضيف : { . . . وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [

الرعد : 5 ]

والغُلّ : هو طَوْقُ الحديد الذي له طرف في كل يد لِيُقَيِّدها؛ وطرف مُعلَّق في الرقبة لِيُقَلِّلَ من  
مساحة حركة اليبدين ، ولمزيد من الإذلال .

وهم أصحاب النار؛ وكلمة « صاحب » تُطلق على مَنْ تعرفه معرفةً تروق كيائك وذاتك؛ فهناك مَنْ تصاحبه؛ وهناك من تصادقه؛ وهناك من تؤاخيه؛ وهناك من تعرفه معرفةً سطحية ، ولا تقيم علاقة عميقة معه .

إن المعرفة مراتب ، والصحبة تآلف وتجادب بين اثنين؛ ومَنْ يصاحب النار فهو مَنْ تعشقه النار ، ويعشق هو النار ، ويجب كل منهما ملازمة الآخر ألا تقول النار لربها يوم القيامة : { . . . هلْ

من مَزِيدٍ { [ ق : 30 ]

أي : أن العذاب نفسه يكون مَشُوقاً أَنْ يصلَ إلى العاصي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ . . . }

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6)

والاستعجال أن تطلب الشيء قبل زمنه ، وتقصير الزمن عن الغاية ، فأنت حين تريد غاية ما؛ فأنت تحتاج لزمن يختلف من غاية لأخرى ، وحين تتعجل غايةً ، فأنت تريد أن تصل إليها قبل زمنها .

وكل اختيار للتعجل أو الاستبطاء له مميزات وعيوبه ، فهل الاستعجال هنا لمصلحة أمر مطلوب؟ إنهم هنا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، وهذا دليل على اختلال وحُلف موازين تفكيرهم ، وقد سبق لهم أن قالوا : { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً \* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلالَهَا تَفْجِيراً \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِيفًا . . . } [ الإسراء : 90-92 ]

وهكذا نجد هؤلاء الكافرين وهم يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، كما استعجلوا أن تنزل عليهم الحجارة ، وهم لا يعرفون أن كل عذاب له مدة ، وله ميعاد موقوت . ولم يفكروا في أن يقولوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه » .

بل إنهم قالوا : { . . . اللهم إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ

اِئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ { [ الأنفال : 32 ]

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه ما وصلوا إليه من خلل في نفوسهم وفسادها؛ ذلك أن مقاييسهم انتهت إلى الكفر ، وليس أدلّ على فساد المقاييس إلا استعجالهم للسيئة قبل الحسنة؛ لأن العاقل حين يُجَيَّر بين أمرين؛ فهو يستعجل الحسنة؛ لأنها تنفع ، ويستبعد السيئة .

ومادامت نفوس هؤلاء الكافرين فاسدة؛ ومادامت مقاييسهم مُخْتَلَةٌ ، فلا بد أن السبب في ذلك هو الكفر .

إذن : فاستعجال السيئة قبل الحسنه بالنسبة للشخص أو للجماعة؛ دليل حُجْم الاختيار في البدائل؛ فلو أنهم أرادوا الاستعجال الحقيقي للنافع لهم؛ لاستعجلوا الحسنه ولم يستعجلوا السيئة .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسيئَةِ قَبْلَ الحسنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المثلات . . . [ الرعد : 6 ]

فلماذا يستعجلون العذاب؟ ألم ينظروا ما الذي حاق بالذين كذبوا الرسل من قبلهم؟  
وحين يقول الرسول : احذروا أن يصيبكم عذاب ، أو احذروا أن كذا وكذا؛ فهل في ذلك كذب؟ ولماذا لم ينظروا للعبر التي حدثت عبر التاريخ للأقوام التي كذبت الرسل من قبلهم؟  
و « المثلات » جمع « مثله »؛ وفي قول آخر « مثله » . والحق سبحانه يقول لنا : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . . [ النحل : 126 ]

ويقول أيضاً : { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا . . . [ الشورى : 40 ]  
وهكذا تكون « مثلات » من المثل؛ أي : أن تكون العقوبة مُماثلة للفعل .  
وقول الحق سبحانه : { وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المثلات . . . [ الرعد : 6 ]  
يعني : أنه سبحانه سبق وأنزل العذاب بالمثل لهم من الأمم السابقة التي كذبت الرسل؛ إما بالإبادة إن كان ميئوساً من إيمانهم ، وإما بالقهر والنصر عليهم .  
ويتابع سبحانه في نفس الآية : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ .

. . . [ الرعد : 6 ]

أي : أنه سبحانه لا يُعَجِّلُ العذاب لِمَنْ يكفرون؛ لعل رجلاً صالحاً يوجد فيهم ، وقد صبر سبحانه على أبي جهل؛ فخرج منه عكرمة بن أبي جهل؛ وهو الصحابي الصالح؛ وصبر على خالد بن الوليد فصار سيف الله المسلول ، بعد أن كان أحد المقاتلين الأشداء في معسكر الكفر .  
وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف قاتل عكرمة بن أبي جهل؛ إلى أن أصيب إصابة بالغة ، فينظر إلى خالد بن الوليد قائلاً : أهذه ميتة تُرضي عني رسول الله؟  
وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف حزن واحد من المقاتلين المسلمين لحظة أن أفلت من خالد بن الوليد أيام أن كان على الكفر؛ وهو لا يعلم أن الحق سبحانه قد ادخر خالداً ليكون سيف الله المسلول من بعد إسلامه .

وهكذا شاء الحق أن يُفلت بعض من صنديد قريش من القتل أيام أن كانوا على الكفر ، كي يكونوا من خيرة أهل الإسلام بعد ذلك .

ويتابع سبحانه : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ . . . [ الرعد : 6 ]  
فمع أن الناس ظالمون؛ فسبحانه يغفر لهم؛ لأنه سبحانه أفرح بعبده النائب المؤمن من أحدكم ،

وقد وقع على بعيره ، وقد أضلّه في فلاة .

ولذلك أرى أن مَنْ يُعَيِّرُ عبداً بذنب استغفر منه الله؛ هو إنسان آثم؛ ذلك أن العبد قد استغفر الله؛ فلا يجب أن يحشر أحد أنفه في هذا الأمر .

ونلاحظ هنا قول الحق سبحانه : { عَلَى ظُلْمِهِمْ . . . } [ الرعد : 6 ]

وفي هذا القول يجد بعض العلماء أن الله قد استعمل حرفاً بدلاً من حرف آخر؛ فجاءت « على بدلاً من « مع » .

ونلاحظ أن « على » هي ثلاثة حروف؛ و « مع » مكونة من حرفين؛ فلماذا حذف الحق

سبحانه الأخرى وأتى ب « على »؟ لا بد أن وراء ذلك غاية .

أقول : جاء الحق سبحانه ب « على » في قوله : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ . . . }

. [ الرعد : 6 ] .

ليؤكد لنا أن ظلم الناس كان يقتضي العقوبة؛ ولكن رحمته سبحانه تسيطر على العقوبة .

وهكذا أدت كلمة « على » معنى « مع » ، وأضافت لنا أن الحق سبحانه هو المسيطر على

العقوبة؛ وأن رحمة الله تَطْفِي على ظلم العباد .

ومثل ذلك قوله سبحانه : { وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ . . . } [ الإنسان : 8 ]

أي : أنهم يُجِبُونَ الطَّعَامَ حَبًّا جَمًّا؛ لكن إرادة الحفاوة والكرم تَطْفِي على حُبِّ الطَّعَامِ .

ولكن لا يجب أن يظن الناس أن رحمة الله تطفئ على عقابه دائماً؛ فلو ظن البعض من المجترئين هذا الظن؛ وتوهموا أنها قضية عامة؛ لفسد الكون؛ ولذلك يُنْهِي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله

: { . . . وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [ الرعد : 6 ]

أي : أنه سبحانه قادر على العقاب العظيم ، وهكذا جمعت الآية بين الرجاء والتخويف .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . . }

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7)

ونحن نعلم أن « لولا » إن دخلت على جملة اسمية تكون حرف امتناع لوجود؛ مثل قولك « لولا

زيد عندك لُزُرْتُكَ » ، أي : أن الذي يمنعك من زيارة فلان هو وجود زيد .

ولو دخلت « لولا » على جملة فعلية؛ فالناطق بها يجب أن يحدث ما بعدها؛ مثل قولك « لولا

عظفت على فلان » أو « لولا صفحت عن ولدك » ، أي : أن في ذلك حَصْباً على أن يحدث

ما بعدها .

وظاهر كلام الكفار في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها أنهم يطلبون آية لتأييد صدق

الرسول صلى الله عليه وسلم في البيان الذي يحمله من الحق لهم ، وكأنهم بهذا القول يُنْكِرُونَ

المعجزة التي جاء بها صلى الله عليه وسلم وهي القرآن الكريم ، رغم أنهم أمة بلاغة وأدب وبيان ، وأداء لغوي رائع؛ وأقاموا أسواقاً للأدب ، وخصصوا الجوائز للنبوغ الأدبي؛ وعلّقوا القصائد على جدران الكعبة ، وتفاخرت القبائل بمنْ أُجبتهم من الشعراء ورجال الخطابة .  
فلما نزل القرآن من جنس نبوغكم؛ وتفوّق على بلاغتكُم؛ ولم تستطيعوا أن تأتوا بآية مثل آياته؛ كيف لم تعتبروه معجزة؛ وتطالبون بمعجزة أخرى كمعجزة موسى عليه السلام؛ أو كمعجزة عيسى عليه السلام؟

لقد كان عليكم أن تفخروا بالمعجزة الكاملة التي تحمل المنهج إلى قيام الساعة .  
ولكن الحُمق جعلهم يطلبون معجزة غير القرآن ، ولم يلتفتوا إلى المعجزات الأخرى التي صاحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يلتفتوا إلى أن الماء قد نبع من أصابعه صلى الله عليه وسلم ؛ والطعام القليل أشبع القوم وفاض منه ، والغمامة قد ظللته ، وجذع النخلة قد أنْ بصوت مسموع عندما نقل رسول الله منبره؛ بعد أنْ كان صلى الله عليه وسلم يخطب من فوق الجذع .  
وقد يكونون أصحاب عُذر في ذلك؛ لأنهم لم يَرَوْا تلك المعجزات الحِسِّيّة؛ بحكم أنهم كافرون؛ واقتصرت رؤياهم على مَنْ آمنوا برسالته صلى الله عليه وسلم .

وهكذا نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُحرم من المعجزات الكونية؛ تلك التي تحدث مرة واحدة وتنتهي؛ وهي حُجّة على مَنْ يراها؛ وقد جاءت لتثبت إيمان القلّة المضطهدة؛ فحين يروْنَ الماء مُتفجراً بين أصابعه ، وَهُمْ مَزْلُزَلُونَ بالاضطهاد؛ هنا يزداد تمسُّكهم بالرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكن الكافرين لم يَرَوْا تلك المعجزات . وكان عليهم الاكتفاء بالمعجزة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القرآن كافيي » .

والقرآن معجزة من جنس ما نبغتم فيه أيها العرب ، ومحمد رسول من أنفسكم ، لم يأت من قبيلة غير قبيلتكم ، ولسانه من لسانكم ، وتعلمون أنه لم يجلس إلى معلم؛ ولا عَلِمَ عنه أنه خطب فيكم من قبل ، ولم يَقْرَضِ الشعر ، ولم يُعرف عنه أنه خطب من خطباء العرب .

ولذلك جاء الحق سبحانه بالقول على لسانه : { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [ يونس : 16 ]  
أي : أنني عِشْتُ بينكم ولم أتكلّم بالبالغة؛ ولم أنافس في أسواق الشّعْرِ؛ وكان يجب أن تؤمنوا أنه قول من لَدُنْ حكيم عليهم .

ولكن منهم مَنْ قال : « لقد كان يكتُم موهبته وقام بتأجيلها » .  
وهؤلاء نقول لهم : هل يمكن أن يعيش طفل يتيم الأب وهو في بطن أمه؛ ثم يتيم الأم وهو صغير ، ويموت جدّه وهو أيضاً صغير ، ورأى تساقط الكبار من حوله بلا نظام في التساقط؛ فقد ماتوا

دون مرض أو سبب ظاهر؛ أكان مثل هذا الإنسان يأمنُ على نفسه أن يعيش إلى عمر الأربعين ليعلم عن موهبته؟

ثم من قال : إن العبقريّة تنتظر إلى الأربعين لتظهر؟ وكلنا يعلم أن العبقريات تظهر في أواخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث .

ورغم عدم اعترافكم بمعجزة القرآن؛ هاهو الحق سبحانه يُجري على ألسنتكم ما أخفيتموه في قلوبكم؛ ويُظهره الناس في مُحكم كتابه : { وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ { [ الزخرف : 31 ]

وهكذا اعترفتمُ بعظمة القرآن؛ وحاولتمُ أن تغالطوا في قيمة المنزل عليه القرآن . ويقول سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ . . . { [ الرعد : 7 ]

فلماذا إذن قُلتُم واعترفتم أن له رباً؟ أما كان يجب أن تعترفوا برسالته وتُعلنون إيمانكم به وبالرسالة ، وقد سبق أن قالوا : إن ربَّ محمد قد قلاه .

وهذا القول يعني أنهم اعترفوا بأن له رباً؛ فلماذا اعترفوا به في الهجر وأنكروه في الوصل . وإذا كانوا يطلبون منك معجزة غير القرآن فاعلم يا محمد أن ربك هو الذي يرسل المعجزات؛ وهو الذي يُحدِّد المعجزة بكل رسول حسب ما نبع فيه القوم المُرسَل إليهم الرسول ، وأنت يا محمد مُنذر فقط؛ أي مُحدِّر : { . . . إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ { [ الرعد : 7 ] فكل قوم لهم هادٍ ، يهديهم بالآيات التي تناسب القوم؛ فبنو إسرائيل كانوا مُتفوقين في السحر؛ لذلك جاءت معجزة موسى من لُونِ ما نبغوا فيه؛ وقوم عيسى كانوا مُتفوقين في الطب؛ لذلك كانت معجزة عيسى من نوع ما نبغوا فيه .

وهكذا نرى أن لكل قوم هادياً ، ومعه معجزة تناسب قومه؛ ولذلك رَدَّ اللهُ عليهم الرد المُفحم حين قالوا : { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً \* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيراً \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفاً أَوْ تَأْتِي بَالِئًا وَمَلَائِكَةً قَبِيلاً \* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفِي فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ . . . {

### [ الإسراء : 90-93 ]

فيقول الحق سبحانه : { . . . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا \* وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا \* قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا { [ الإسراء : 93-95 ]

ويأتي الرد من الحق سبحانه : { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ . . . { [

## [ 59 : الإسراء ]

أي : أن قوماً قبلكم طلبوا ما أرادوا من الآيات؛ وأرسلها لهم الله؛ ومع ذلك كفروا؛ لأن الكفر يجلع ثوب العناد على الكافر؛ لأن الكافر مُصَيِّمٌ على الكفر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ . . . }

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8)

وما المناسبة التي يقول فيها الحق ذلك؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يؤكد مسألة أن لكل قوم هادياً ، وأن رسوله صلى الله عليه وسلم هو منذر ، وأن طلبهم للآيات المعجزة هو ابنٌ لرغبتهم في تعجيز الرسول صلى الله عليه وسلم . ولو جاء لهم الرسول بآية مما طلبوا لأصروا على الكفر ، فهو سبحانه العالم بما سوف يفعلون ، لأنه يعلم ما هو أخفى من ذلك؛ يعلم على سبيل المثال ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد .

ونحن نعلم أن كل أنثى حين يشاء الله لها أن تحبل؛ فهي تحمل الجنين في رحمها؛ لأن الرحم هو مُسْتَقَرُّ الجنين في بطن الأم .

وقوله تعالى : { وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ . . . } [ الرعد : 8 ]

أي : ما تنقص وما تذهب من السَّقَط في أي إجهاض ، أو ما ينقص من المواليد بالموت؛ فغاضت الأرحام ، أي : نزلت المواليد قبل أن تكتمل خَلْقَتِهَا؛ كأن ينقص المولود عيناً أو إصبعاً؛ أو تحمل الخِلْفَةَ زيادة تختلف عما نألفه من الخَلْق الطبيعي؛ كأن يزيد إصبع أو أن يكون برأسين . أو أن تكون الزيادة في العدد؛ أي : أن تلد المرأة تَوْأماً أو أكثر ، أو أن تكون الزيادة متعلقة بزمن الحَمَل .

وهكذا نعلم أنه سبحانه يعلم ما تغيض الأرحام . أي : ما تنقصه في التكوين العادي أو تزيده ، أو يكون النظر إلى الزمن؛ كأن يحدث إجهاض للجنين وعمره يوم أو شهر أو شهران ، ثم إلى ستة أشهر؛ وعند ذلك لا يقال إجهاض؛ بل يقال ولادة .

وهناك مَنْ يولد بعد ستة شهور من الحمل أو بعد سبعة شهور أو ثمانية شهور؛ وقد يمتد الميلاد لسنتين عند أبي حنيفة؛ وإلى أربع سنوات عند الشافعي؛ أو لخمس سنين عند الإمام مالك ، ذلك أن مدة الحمل قد تنقص أو تزيد .

ويقال : إن الضحاك وُلِدَ لسنتين في بطن أمه ، وهرم بن حيان وُلِدَ لأربع سنين؛ وظل أهل أمه يلاحظون كِبَرَ بطنها؛ واختفاء الطَّمْث الشهري طوال تلك المدة؛ ثم ولدت صاحبنا؛ ولذلك سموه « هرم » أي : شاب وهو في بطنها .

وهكذا نفهم معنى « تغيض » نقصاً أو زيادة؛ سواء في الخَلقة أو للمدة الزمنية .

ويقول الحق سبحانه : { . . . وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ } [ الرعد : 8 ]

والمقدار هو الكمية أو الكيف؛ زماناً أو مكاناً ، أو مواهب ومؤهلات .

وقد عدَّد الحق سبحانه مفاتيح الغيب الخمس حين قال : { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ

الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ . . . } [ لقمان : 34 ]

وقد حاول البعض أن يقيموا إشكالاً هنا ، ونسبوه إلى الحضارة والتقدم العلمي ، وهذا التقدم

يتطرق إليه الاحتمال ، وكل شيء يتطرق إليه الاحتمال يبطل به الاستدلال ، وذلك بمعرفة

نوعية الجنين قبل الميلاد ، أهو ذكر أم أنثى؟ وتناسوا أن العلم لم يعرف أهو طويل أم قصير؟ ذكي

أم غبي؟ شقي أم سعيد؟ وهذا ما أعجز الأطباء والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم .

ثم إن سألت كيف عرف الطبيب ذلك؟

إنه يعرف هذا الأمر من بعد أن يحدث الحَمْلُ؛ ويأخذ عينة من السائل المحيط بالجنين ، ثم يقوم

بتحليلها ، لكن الله يعلم دون أخذ عينة ، وهو سبحانه الذي قال لواحد من عباده : { يَا زَكَرِيَّا

إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى . . . } [ مريم : 7 ]

وهكذا نعلم أن عِلْمَ الله لا ينتظر عَيِّنة أو تجربة ، فعِلْمُه سبحانه أزلِّي؛ منزه عن القصور ، وهو

يعلم ما في الأرحام على أي شكل هو أو لون أو جنس أو ذكاء أو سعادة أو شقاء أو عدد .

وشاء سبحانه أن يجلي طلاقة قدرته في أن تحمل امرأة زكريا عليه السلام في يحيى عليه السلام ،

وهو الذي خلق آدم بلا أب أو أم؛ ثم خلق حواء من أب دون أم؛ وخلق عيسى من أم دون أب

، وخلقنا كلنا من أب وأم ، وحين تشاء طلاقة القدرة؛ يقول سبحانه : { . . . كُنْ فَيَكُونُ } [

يس : 82 ]

والمثل كما قلت هو في دخول زكريا الخراب على مريم عليها السلام؛ فوجد عندها رزقاً؛ فسألها :

{ أُنَى لَكَ هَذَا . . . } [ آل عمران : 37 ]

قالت : { . . . هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [ آل عمران : 37 ]

وكان زكريا يعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب؛ ولكن هذا العلم كان في حاشية شعوره؛

واستدعاه قول مريم إلى بُؤرة الشعور ، فزكريا يعلم عِلْمَ اليقين أن الله هو وحده من يرزق بغير

حساب .

وما أن يأتي هذا القول مُحَرِّكاً لتلك الحقيقة الإيمانية من حافة الشعور إلى بُؤرة الشعور؛ حتى يدعو

زكريا ربه في نفس المكان ليرزقه بالولد؛ فيبشره الحق بالولد .

وحين يتذكر زكريا أنه قد بلغ من الكبر عتياً ، وأن امرأته عاقرة؛ فيذكره الحق سبحانه بأن عطاء

الولد أمر هَيِّنٌ عليه سبحانه : { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ

شَيْئاً { [ مريم : 9 ]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

{ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . . . }

### عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)

وَمَنْ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ؛ لا يغيب عنه شيء أبداً ، وما يحدث لأيِّ إنسان في المستقبل بعد أن يُولَد هو غيب؛ لكن المُطَّلِع عليه وحده هو الله .

وكان هناك « نموذجاً » مُصَغَّرًا يعلمه الله أولاً؛ وإن اطلع عليه الإنسان في أواخر العمر؛ لوجده مطابقاً لما أَرَادَهُ وعلمه الله أولاً؛ فلا شيء يتأبَّى عليه سبحانه؛ فكلُّ شيء عنده بمقدار .

وهو عالم الغيب والشهادة؛ يعلم ما خَفِيَ من حجاب الماضي أو المستقبل ، وكلُّ ما غاب عن الإنسان ، ويعلم من باب أَوْلَى المشهود من الإنسان ، فلم يقتصر علمه على الغيب ، وترك المشهود بغير علم منه؛ لا بل هو يعلم الغيب ويعلم المشهود : { عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ

المتعال } [ الرعد : 9 ]

والكبير اسم من أسماء الله الحسنى؛ وهناك مَنْ تساءل : ولماذا لا يوجد « الأكبر » ضمن أسماء

الله الحسنى؛ ويوجد فقط قولنا « الله أكبر » في شعائر الصلاة؟

وأقول : لأن مقابل الكبير الصغير ، وكل شيء بالنسبة لمُوجِده هو صغير . ونحن نقول في أذان الصلاة « الله أكبر »؛ لأنه يُخْرِجُكَ من عملك الذي أوكله إليك ، وهو عمارة الكون؛ لتستعين به خلال عبادتك له وتطبيق منهجه ، فيمدُّك بالقوة التي تمارس بها إنتاج ما تحتاجه في حياتك من مأكَل ، وملبَس ، وسِتْرٍ عورة .

إذن : فكلُّ الأعمال المطلوبة حتى لإقامة العبادة ، فإياك أن تقول : إن الله كبير والباقي صغير ،

لأن الباقي فيه من الأمور ما هو كبير من منظور أنها نعم من المنعم الأكبر؛ ولكن الله أكبر منَّا؛

ونقولها حين يُطلَب منا أن نخرج من أعمالنا لنستعين بعبادته سبحانه .

ونعلم أن العمل مطلوب لعمارة الكون ، ومطلوب حتى لإقامة العبادة ، ولن توجد لك قوة لتعبد

ربك لو لم يُفَوِّكَ ربُّكَ على عبادته؛ فهو الذي يستبقي لك قُوَّتَكَ بالطعام والشراب ، ولن تطعم

أو تشرب؛ لو لم تحرث وتبذر وتصنع ، وكل ذلك يتيح لك قوة لتُصَلِّي وتُحُجَّ؛ وكل ما لا

يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وسبق أن قُلت : إن الحق سبحانه حينما نادانا لصلاة الجمعة قال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }

[ الجمعة : 9 ]

وهكذا يُخْرِجُنَا الحق سبحانه من أعمالنا إلى الصلاة الموقوتة؛ ثم يأتي قول الحق سبحانه : { فَإِذَا

قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغَوْا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [ الجمعة : 10 ]

وهكذا أخرجنا سبحانه من العمل ، وهو أمر كبير إلى ما هو أكبر؛ وهو أداء الصلاة .  
وقول الحق سبحانه في وصف نفسه ( المتعال ) يعني أنه المنزّه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً؛ فلا ذات  
كذاته؛ ولا صفة كصفاته ، ولا فعل كفعله ، وكل ما له سبحانه يليق به وحده ، ولا يتشابه أبداً  
مع غيره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

{ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ . . . }

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10)

وساعة تسمع كلمة « سواء » فالمقصود بها عدد لا يقل عن اثنين ، فنقول « سواء زيد وعمرو  
» أو « سواء زيد وعمرو وبكر وخالد » .

والمقصود هنا أنه مادام الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة؛ فأبي سر يوجد لا بد أن يعلمه  
سبحانه ، وهو سبحانه القائل : { الرحمن عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى \* لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي  
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى \* وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } [ طه : 5-7 ]  
وهل السر هو ما ائتمنت عليه غيرك؟ إذا كان السر هو ذلك؛ فالأخفى هو ما بقى عندك ، وإن  
كان السر بمعنى ما يوجد عندك ولم تقله لأحد؛ فسبحانه يعلمه قبل أن يكون سراً .

ويتابع سبحانه : { . . . هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } [ الرعد : 10 ]

وهكذا جمع الحق سبحانه هنا كل أنواع العمل؛ فالعمل كما نعلم هو شغل الجوارح بمتعلقاتها؛  
فعمل اللسان أن يقول وأن يذوق ، وعمل الأيدي أن تفعل ، وعمل الأذن أن تسمع ، وعمل  
القلب هو النية ، والعمل كما نعلم يكون مرّة قولاً ، ومرّة يكون فعلاً .  
وهكذا نجد « القول » وقد أخذ مساحة نصف « العمل » ، لأن البلاغ عن الله قول ، وعمل  
الجوارح خاضع لمَقُولِ القول من الحق سبحانه وتعالى .

ولذلك أوضح لنا الحق سبحانه أن العمل هو كُلُّ فعل متعلق بالجوارح؛ وأخذ القول شقاً بمفرده؛  
وأخذت أفعال الجوارح الشَّقَّ الآخر؛ لأن عمل بقية الجوارح يدخل في إطار ما سمع من منهج الله

ولذلك تجمع الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها كل العمل من قَوْلٍ وفعل : { سَوَاءٌ مِنْكُمْ

مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } [ الرعد : 10 ]

وَمَنْ يَسْتَخْفِي بِاللَّيْلِ لِأَبَدٍ أَنَّهُ يُدَبِّرُ أَمْرًا؛ كأن يريد أن يتسمع ما وراء كل حركة؛ أو ينظر ما يمكن  
أن يشاهده ، وكذلك مَنْ يبرز ويظهر في النهار فالله عالم به .

وكان على الكفار أن ينتبهوا لأمر عجيب كانوا يُسرُّونه في أنفسهم؛ لحظة أن حكى الله؛ فقال :

{ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ . . . } [ المجادلة : 8 ]

فكيف عَلِمَ الله ذلك لولا أنه يعلم السِّرَّ وأخْفَى؟

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

{ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ . . . }

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِمَّنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)

وكلمة ( له ) تنفيذ النفعية ، فإذا قلت « لك كذا » فهي عكس أن نقول « عليك كذا » .

وحين يقول سبحانه : { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ . . . } [ الرعد : 11 ]

فكأنَّ المُعَقِّبَاتِ لصالح الإنسان . و « مُعَقِّبَاتٍ » جمع مؤنث ، والمفرد « مُعَقِّبَةٌ » ، أي : أن للحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحفظه ليلاً ونهاراً من الأشياء التي لا يمكن الاحتراز منها .

والمثلُّ هو تلك الإحصاءات التي خرجت عن البشر الذين تلدغهم الثعابين ، فقد ثبت أنها لا تلدغهم وهم نائمون؛ بل في أثناء صَحْوَتِهِمْ؛ أي : ساعة يكونون في سُرِّ النوم فهناك ما يحفظهم؛ أما في اليقظة فقد يتصرَّف الإنسان بطَيْشٍ وَغَفْلَةٍ فتلدغه الأفعى .

ونحن نقول في أمثالنا الشعبية : « العين عليها حارس »؛ ونلاحظ كثيراً من الأحداث التي تبدو لنا غريبة كأن يسقط طفل من نافذة دور علوي؛ فلا يُصَاب بسوء؛ لأن الحق سبحانه شاء أن تحفظه الملائكة المُعَقِّبَاتِ من السُّوء؛ لأن مهمة الحَفَظَةِ أن يحفظوا الإنسان من كُلِّ سوء .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدَّ للإنسان الكونَ قبل أن يخلقه ليستخلفه فيه؛ أعدَّ السماوات وأعدَّ الأرض؛ وسَخَّرَ الشمس والقمر؛ وأخرج الثمرات؛ وجعل الليل يَغْشَى النهار . وكُلُّ ذلك أعدَّه سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة؛ وهو سبحانه قَبِيومٍ على هذا الخليفة؛ فيصونه أيضاً بعد الخلق ، ولا يَدْعُهُ لمقومات نفسه ليدافع عنها فيما لا يستطيع الدفاع عنها ، ويكَلِّفُ الله الملائكة المُعَقِّبَاتِ بذلك .

وقد ينصرف معنى المُعَقِّبَاتِ إلى الملائكة الذين يتعقَّبون أفعال الإنسان وكتابه حسناته وكتابه سيئاته ، ويمكن أن يقوموا بالعملين معاً؛ حَفَظَهُ وكتابه أعماله ، فإن كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه .

ولقائل أن يقول : ولكنهم سيكتبون السيئات؛ وهذه على الإنسان وليست له . وأقول : لا؛ ويَحْسُنُ أن نفهم جيداً عن المُشْرَعِ الأعلى؛ ونعلم أن الإنسان إذا ما عرف أن السيئة ستُحْسَبُ عليه وتُحْصَى؛ وتُكْتَبُ؛ يمسك كتابه ليقراء؛ فلسوف يبتعد عن فعل السيئات .

وهكذا يكون الأمر في مصلحته ، مثله مثل الطالب الذي يرى المراقب في لجنة الامتحان ، فلا يكرهه؛ لأنه يحمي حقه في الحصول على التقدير الصحيح؛ بدلاً من أن يَغشَّ غيره ، فيأخذ فرصة أكبر منه في التقدير والنجاح؛ فضلاً عن أن كل الطلبة يعلمون أن وجود المراقب اليقظ هو دافع لهم للمذاكرة .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تكره أن يكون لك أعداء؛ لأن الذي يَغُرُّ الإنسان في سلوكه هو نفاق أصحابه له ، أما عدوك فهو يفتح عينيه عليك طوال الوقت؛ ولذلك فأنت تحذر أن تقع في الخطأ .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

عَدَايَ هُمْ فَضَّلَ عَلَيَّ ... فَتَعَدَّى لَهُمْ شُكْرَ عَلَيَّ نَفَعَهُمْ لِيَا  
فَهُمْ كَالدَّوَاءِ وَالشِّفَاءِ لِمُزْمِنٍ ... فَلَا أْبْعُدُ الرَّحْمَانَ عَنِّي الْأَعَادِيَا  
هُمُ بَحَثُوا عَنِّي فَاجْتَنِبْتُهَا ... فَأَصْبَحْتُ مِمَّا ذَلَهُ الْعَرَبُ خَالِيَا

إذن : فكتابة الحسنات والسيئات هي مسألة لصالح الإنسان؛ وحين يتعاقبون على الإنسان؛ فكأنهم يصنعون دوريات لحماية الفرد؛ ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر؛ فيصعد إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتكم عبادي؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » .  
وكان الملائكة دوريات .

ويقول الحق سبحانه : { . . . إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } [ الإسراء : 78 ]

أي : أن ملائكة الليل يشهدون؛ ومعهم ملائكة النهار .

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ملحوظ فيه الوقت الزمني للحركة الإنسانية؛ فكل حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى العصر ، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك؛ ثم ينام .

والمُعَقَّبَاتُ يَكُنُّنَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ الْإِنْسَانِ وَمِنْ خَلْفِهِ؛ وَ ( مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ) مِنْ أَجْلِ الرِّصْدِ ، وَلِذَلِكَ وَجَدْنَا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَثْنَاءَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ كَانَ يَسِيرُ بَعْضَ الْوَقْتِ أَمَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَكَانَ يَسِيرُ الْبَعْضَ الْآخَرَ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

كان أبو بكر رضي الله عنه يتقدم ليرقب : هل هناك مَنْ يرصد الرسول أم لا؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب : أهنالك مَنْ يتتبعهما؟ وهكذا حرص أبو بكر على أن يحمي الرسول صلى الله عليه وسلم من الرصد أو التريص .

ويقول الحق سبحانه : { لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . . . } [ الرعد

[ 11 :

والسطحيّ يقول : إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله .  
ونقول : إن الله لم يُنزل الملائكة ليعارضوا قَدْرَه؛ وهذا الحفظ لا يكون من ذات الإنسان لنفسه ،  
أو من الملائكة ضد قَدْر الله؛ والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله .  
ولذلك نجد في القرآن قول الحق سبحانه : { مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا . . . } [ نوح : 25 ]  
أي : بسبب خطيئتهم أغرقوا ، فإياك أن تظن أن الملائكة يحفظون الإنسان من قَدْر الله؛  
لأننا نعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أمراً فلا رادَّ له .

ويتابع سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . . . } [ الرعد : 11 ]  
وهو سبحانه الذي خلق الكون الواسع بكل أجناسه؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وأفلاكاً وأملاكاً؛  
وجعل كل ذلك مُسَخَّراً للإنسان؛ ثم يحفظ الحق سبحانه الإنسان ويصونه بقيوميته .  
وقد يقول قائل : ولماذا إذن تحدث الابتلاءات لبعض من الناس؛ رغم أنه سبحانه قد قال إنه  
يحفظهم؟

ونقول : إن تلك الابتلاءات إنما تجري إذا ما غيّرَ البشر من منهج الله؛ لأن الصيانة تُقَوِّم ما قام  
بالمنهج .

واقروا قول الحق سبحانه : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ  
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ }  
[ النحل : 112 ]

وهكذا نعلم أن الصيانة للإنسان والحفظ له والإمداد له من قبل أن يُؤلِّد؛ كُئِل ذلك لن يرجع عنه  
الله مادام الإنسان يمشي على صراط مستقيم؛ لكن إذا ما حادَّ الإنسان عن الصراط المستقيم؛  
فيلفته الله ببعض من العبر والعظات ليعود إلى الصراط المستقيم .

والتغيير الذي يُجرِّبه الله على البشر حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم؛ يشمل الإمدادات الفرعية؛ أما  
الإمدادات الأصلية فلا يمنعها عنهم مثل الشمس والقمر والنجوم والهواء؛ ولم يمنع الأرض أن  
تُخرج لهم المياه .

ويصيبهم في الأشياء التي من الممكن أن يسير الكون في انتظامه رغم حدوثها؛ كالمصيبة في المال  
أو المصيبة في النفس؛ ويظل الكون على مسيرته المنتظمة .

ولهذا نجد أحد الفلاسفة وقد قال : « إن الله لا يتغير من أجلكم؛ ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من  
أجل الله » .

وسبق أن قال الحق سبحانه : { . . . فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } [ طه : 123 ]  
وهو القائل سبحانه : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً . . . } [ طه : 124 ]

وأنت ترى في عالمنا المعاصر مجتمعاتٍ مُتَرَفَّةٍ؛ نستورد منهم أدوات الحضارة المعاصرة؛ لكنهم يعيشون في الصَّنَكِ النفسي البالغ؛ وهذا ما يُثبت أن الثراء المادي بالنقود أو أدوات الحضارة؛ لا يُحَقِّق للإنسان التوازن النفسي أو السعادة؛ وينطبق عليهم ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله :

ليس الحملَ ما أطاقَ الظَّهْرُ ... ما الحملُ إلاَّ ما وَعَاهُ الصَّدْرُ

فقد يكون الثراء المادي في ظَنِّ البعض هو الحُلْمُ؛ فيجرح الإنسان إلى الطريق غير السَّوي بما فيه من عُمولات؛ وعدم أمانة؛ ورغم النقود التي قد يكتنزها هذا الإنسان ، إلا أن الأمراض النفسية أو الأمراض العضوية تفتكُ به .

وهكذا نجد الحق سبحانه وهو يُعَيِّر ولا يتغيَّر؛ فهو المُعَيِّر لا المُتغيِّر .

وقول الحق سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . . . } [ الرعد : 11 ]

يُوضِّح لنا أن أعمال الجوارح ناشئةٌ من تَبَعِ نفس تُحَرِّك الجوارح؛ وحين تصلح النفس؛ تصبح

الجوارح مستقيمة؛ وحين تفسد النفس تصير الجوارح غير مستقيمة .

فالحق سبحانه وتعالى أخضع كل الجوارح لِمرادات النفس ، فلو كانت النفسُ مخالفةً لمنهج الله؛ فاللسان خاضع لها؛ ولا ينطق رغم إرادته بالتوحيد؛ لأن النفسَ التي تديره مخالفةٌ للإيمان .

والمثل : هم هؤلاء الذين نسبوا الرسل الذين اختارهم الله؛ فادَّعَوْا أنهم أبناءُ الله؛ وسبحانه مُنَزَّةٌ عن ذلك؛ أما إذا كانت النفس مؤمنةً فهي تأمرُ اللسان أن يقول كلمة التوحيد؛ ويسعد هو بذلك؛ لكنه في الحالتين لا يعصي النفس التي سَحَّره لها الله .

وهكذا تكون الجوارح مُنفَعلةٌ لإرادة صاحبها ، ولا تنحلُّ الإرادة البشرية عن الجوارح إلا حين يشاء الله ذلك في اليوم الآخر ، وفي الموقف الحق .

ولحظتها لن يستطيع أحد أن يسيطر على جوارحه؛ لأن المَلِك يومئذ للواحد القهار؛ وسقطت ولاية الفَرْد على جوارحه؛ وتشهد هذه الجوارح على صاحبها بما فعلته وَقَتَ أن كانت مقهورة لإرادته .

وهكذا نعلم أن التغيير كل في النفس التي تدير الجوارح .

وقول الحق سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ . . . } [ الرعد : 11 ]

يَدُلُّنا أنه سبحانه لا يتدخَّل إلا إذا عَنَّت الأمور؛ وفسد كل المجتمع؛ واختفت النفس اللوامة من هذا المجتمع؛ واختفى مَنْ يَقْدرون على الرَّدْع ولو بالكلمة من هذا المجتمع؛ هنا يتدخل الحق سبحانه .

وحين يُعَيِّر الناس ما بأنفسهم ، ويُصَحِّحون إطلاق الإرادة على الجوارح؛ فتصلح أعمالهم؛

وإياكم أن تظنوا أن هناك شيئاً يتأبى على الله .

ولذلك يتابع سبحانه في نفس الآية : { إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سَوَاءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ . . . } [ الرعد : 11 ]

وعليكم أن تأخذوا الأمرين معاً : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . . . } [ الرعد : 11 ]

و { وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سَوَاءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ . . . } [ الرعد : 11 ]  
ثم يقول الحق سبحانه : { . . . وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } [ الرعد : 11 ]  
إياك أن تفهم أن هناك سلطة تحول دون أن يُغَيِّرَ اللهُ ما يريد تغييره؛ ولن يجدوا صَدْرًا حُنُونًا آخر يُرَبِّتُ عليهم إذا ما أراد الله بهم السُّوء ، فليس هناك وَالٍ آخر يأخذهم من الله ويتولى شئونهم وأمورهم من جَلْبِ الخير ودَفْعِ الشر .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { . . . وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } [ الرعد : 11 ]  
وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن ظاهرة في الكون لها وجهان وتُستقبل استقبالين؛ أحدهما : سَارَ ، والآخر : مُزْعَجٌ؛ سواء في النفس الواحدة أو في الجماعة الواحدة .  
فيقول الحق سبحانه :

{ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ . . . }

### هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12)

وكُنَّا يعرف البرق ، ونحن نستقبله بالخوف مما يُزْعَجُ وبالطمع فيما يُجَبُّ وَيُرْعَبُ ، فساعة يأتي البرق فنحن نخاف من الصواعق؛ لأن الصواعق عادة تأتي بعد البرق؛ أو تأتي السحابات المُمَطَّرَة .

وهكذا يأتي الخَوْفُ والطَّمَعُ من الظاهرة الواحدة . أو : أن يكون الخوف لقوم؛ والرجاء والطمع لقوم آخرين .

والمثل الذي أضربه لذلك دائماً هو قول أحد المقاتلين العرب وصف سيفه بأنه « فَتَحَ لِأَحِبَابِهِ ، وَحَتَفَ لِأَعْدَائِهِ » .

والمثل الآخر الذي أضربه ما رواه لنا أمير بلدة اسمها « الشريعة » وهي تقع بين الطائف ومكة؛ وقد حدثنا أمير الشريعة عام 1953 عن امرأة صالحة تحفظ القرآن؛ اسمها « آمنة » .

هذه المرأة كان لها بنتان؛ تزوجتا؛ وأخذ كُلُّ زَوْجٍ زوجته إلى مَحَلِّ إقامته؛ وكان أحدُ زَوْجِي البنين يعمل في الزراعة؛ والآخر يعمل بصناعة « الشُّرْكُ » . وقالت آمنة لزوجها : ألا تذهب لمعرفة

أحوال البنيتين؟ فذهب الرجل لمعرفة أحوال البنيتين ، فكان أول مَنْ لقي في رحلته هي ابنته

المتزوجة مِمَّنْ يحرث ويبذر ، فقال لها : كيف حالك وحال زوجك وحال الدنيا معك أنت

وزوجك؟

قالت : يا أبتِ ، أنا معه على خير ، وهو معي على خير ، وأما حال الدنيا؛ فَاذْعُ لنا الله أن يُنزل المطر؛ لأننا حرثنا الأرض وبنزنا البذور؛ وفي انتظار ربي السماء .  
فرجع الأب يديه إلى السماء وقال : اللهم إني أسألك العيث لها .  
وذهب إلى الأخرى؛ وقال لها : ما حالك؟ وما حال زوجك؟ فقالت : خير ، وأرجوك يا أبي أن تدعوا لنا الله أن يجمع المطر؛ لأننا قد صنعنا الشراك من الطين؛ ولو أمطرت لفسدت الشراك ، فدعا لها .

وعاد إلى امرأته التي سألته عن حال البنيتين؛ فبدا عليه الضيق وقال : هي سنة سيئة على واحدة منهما ، وروى لها حال البنيتين؛ وأضاف : ستكون سنة مُرهقة لواحدة منهما .  
فقالت له آمنة : لو صبرت؛ لقلتُ لك : إن ما تقوله قد لا يتحقق؛ وسبحانه قادر على ذلك .  
قال لها : ونعم بالله ، قولي لي كيف؟ فقال آمنة : ألم تقرأ قول الله : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ مِمَّا جَعَلَهُ رُكُومًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ . . . } [ النور : 43 ]

فسجد الرجل لله شكراً أن رزقه بزوج تُعينه على أمر دينه ، ودعا : اللهم اصرف عن صاحب الشراك المطر؛ وأفض بالمطر على صاحب الحرث . وقد كان .

وهذا المثل يوضح جيداً معنى الخوف والطمع عند رؤية الرعد : { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا . . . } [ الرعد : 12 ]

إما من النفس الواحدة بأن يخاف الإنسان من الصواعق ، ويطمع في نزول المطر ، أو من متقابلين؛ واحد ينفعه هذا؛ وواحد يضره هذا .

ويضيف الحق سبحانه : { . . . وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ } [ الرعد : 12 ]  
ونحن نعلم أن السحاب هو الغيم المتراكم؛ ويكون ثقيلاً حين يكون مُعبئاً؛ وهو عكس السحاب الخفيف الذي يبدو كُنتفِ القطن .

ويقال عند العرب : « لا تستبطئ الحيل؛ لأن أبطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحاب مشياً أحفلها » .

فحين تنزل الدلو في البئر؛ وترفعه؛ فالدلو المملآن هو الذي يُرهقك حين تشده من البئر؛ أما الدلو الفارغ فهو خفيف لحظة جذبته خارج البئر؛ وكذلك السحاب الثقال تكون بطيئة لما تحمله من ماء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . . . }

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ  
فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13)

وسبق أن جاء الحق سبحانه بذكر البرق وهو ضوئي؛ وهنا يأتي بالرعد وهو صوتي ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء أسرع من سرعة الصوت؛ ولذلك جاء بالبرق أولاً ، ثم جاء بالرعد من بعد ذلك .

وحين يسمع أحد العامة واحداً لا يعجبه كلامه؛ يقول له « سمعت الرعد »؛ أي : يطلب له أن يسمع الصوت المزعج الذي يُتعب مَنْ يسمعه . ولنا أن نتنبه أن المُرْعِجات في الكون إذا ما ذكرت مُسَبَّحةً لربها فلا تنزعج منها أبداً ، ولا تظن أنها نعمة نَشَّازٌ في الكون ، بل هي نعمة تمتزج ببقية أنعام الكون .

ونحن نفهم أن التسييح للعاقل القادر على الكلام ، ولكن هذا عند الإنسان؛ لأن الذي خلق الكائنات كلها علّمها كيف تتفاهم ، مثلما علّم الإنسان كيف يتفاهم مع بني جنسه؛ وكذلك علّم كل جنس لغته .

وكلنا نقرأ في القرآن ماذا قالت النملة حين رأت جنودَ سليمان : { ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وسليمان وأجنوده وهم لا يشعرون } [ النمل : 18 ]

وقد سمعها سليمان عليه السلام؛ لأن الله علّمه منطِق تلك اللغات ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه علّم سليمان منطق الطير ، قال تعالى : { عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطير . . . } [ النمل : 16 ]

ألم يتخاطب سليمان عليه السلام مع الهدهد وتكلّم معه؟ بعد أن فكّ سليمان بتعليم الله له شفرة حديث الهدهد؛ وقال الهدهد لسليمان : { أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ \* إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [ النمل : 22-23 ]

إذن : فكُلُّ شيء له لغة يتفاهم بها لقضاء مصالحه ، ومن يفيض الله عليه من أسرار خلقه يُسمِعه هذه اللغات ، وقد فاض الحق سبحانه على سليمان بذلك ، ففهم لغة الطير وتكلّم بها مع الهدهد؛ وقال له : { اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون } [ النمل : 28 ]

وهكذا عرفنا بقصة سليمان وبلقيس؛ وكيف فهم سليمان منطِق الطير وتكلّم بها مع الهدهد؟ وهكذا علّمنا كيف يتعلّم الإنسان لغاتٍ متعددة؛ فحين يذهب إنسان إلى مجتمع آخر ويبقى به مُدَّة؛ فهو يتعلم لغة ذلك المجتمع ، ويمكن للإنسان أن يتعلم أكثر من لغة .

وقد عرض الحق سبحانه مسألة وجود لغاتٍ للكائنات في قصة النملة وقصة الهدهد مع سليمان؛ وهما من المرتبة التالية للبشر ، ويعرض الحق سبحانه أيضاً قضية وجود لغة لكل كائن من مخلوقاته

في قوله : { . . . وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ } [ الأنبياء : 79 ]

وكان الجبال تفهم تسييح داود وتردده من خلفه .

أيضاً يقول الحق سبحانه : { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ \* وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ } [ ص : 18-19 ]

وكذلك يخاطب الله الأرض والسماء ، فيقول : { فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً . . . } [ فصلت : 11 ]

فيمثلان لأمره : { . . . قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }

[ فصلت : 11 ]

وهكذا نعلم أن لكل جنس لغةً يتفاهم بها ، ونحن نلاحظ أن لكل نوع من الحيوانات صوتاً يختلف من نوع إلى آخر ، ويدرس العلماء الآن لغةً الأسماك ، ويحاولون أن يضعوا لها مُعْجِماً .

إذن : فساعة تسمع : { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . } [ الإسراء : 44 ]

فافهم أن ما من كائن إلا وله لغة ، وهو يُسَبِّحُ بها الخالق الأكرم .

ثم يقول تعالى : { وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . } [ الإسراء : 44 ]

مثلاً لا يفقه جاهل بالإنجليزية لغة الإنجليز .

وقال البعض : إن المراد هنا هو تسييح الدلالة على الخالق؛ وقد حكم سبحانه بأننا لا نستطيع فهم تسييح الدلالة .

ولكني أقول : إن العلم المعاصر قد توصل إلى دراسة لغات الكائنات وأثبتها؛ وعلى ذلك يكون التسييح من الكائنات بالنطق والتفاهم بين مُتَكَلِّمٍ وسماع ، بل ولتلك الكائنات عواطف أيضاً .

ونحن نرى العلماء في عصرنا يدرسون عواطف الشجر تجاه مَنْ يسقيه من البشر ، وهنا تجربة تتحدث عن قياس العلماء لذبذبة النبات أثناء رِيِّهِ بواسطة مُزَارِعٍ مسئول عنه؛ ثم مات للرجل؛

فقاوسوا ذبذبة تلك النباتات؛ فوجدوها ذبذبة مضطربة؛ وكان تلك النباتات قد حزنت على مَنْ كان يعتني بها؛ وهكذا توصل العلماء إلى معرفة أن النباتات لها عواطف .

وقد بين لنا الحق سبحانه أن الجمادات لها أيضاً عواطف؛ بدليل قوله عن قوم فرعون : { فَمَا

بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ . . . } [ الدخان : 29 ]

فالسما والارض قد استراحتا لذهاب هؤلاء الأشرار عن الأرض ، فالسماوات والأرض ملتزمتان مع الكون التزاماً لا تخرج به عن مُرَادَاتِ اللَّهِ ، وحين يأتي كافر ليصنع بكفره نشاراً مع الكون؛

فهي تفرح عند اختفائه ولا تحزن عليه .

ومادامت السماء والأرض لا تبكيان على الكافر عند رحيله؛ فلا بد أنها تفرحان عند هذا

الرحيل؛ ولا بد أنهما تبكيان عند رحيل المؤمن .

ولذلك نجد قَوْل الإمام علي كرم الله وجهه : إذا مات ابن آدم بكى عليه موضعان؛ موضع في السماء ، وموضع في الأرض؛ وأما موضعه في الأرض فمَوْضِعُ مُصَلَّاهُ؛ وأما موضعه في السماء فمَصْعَدُ عمله . . .

وهكذا نجد أن معنى قول الحق سبحانه : { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . . . } [ الرعد : 13 ] أي : يُنَزِّهُ الرَّعْدُ وَيُجِدِّدُ اسْمَ الْحَقِّ تِبَارَكَ وَتَعَالَى تَسْبِيحاً مَصْحُوباً بِالْحَمْدِ .

ونحن حين نُنَزِّهُ ذات الله عن أن تكون مثل بقية الذوات ، وحين ننزه فعل الله عن أن يكون كأفعال غيره سبحانه ، وحين ننزه صفات الله عن أن تكون كالصفات ، فلا بد أن يكون ذلك مصحوباً بالحمد له سبحانه؛ لأنه مُنَزَّهٌ عن كل تلك الأعيان ، وعلينا أن نُسَرِّرَ من أنه مُنَزَّهٌ .

ويقول تعالى : { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ . . . } [ الرعد : 13 ] ولقائل أن يتساءل : كيف تخاف الملائكة من الله؟ وهم الذين قال فيهم الحق سبحانه : { . . .

لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [ التحريم : 6 ] وأقول : إن الملائكة يخافون الله خيفة المَهَابَةِ ، وخيفة الجلال .

ونحن نرى في حياتنا مَنْ يجب رئيسه أو قائده؛ فيكون خوفه مَهَابَةً؛ فما بالناس بالخوف سبحانه وتعالى الذي تُحِبُّه ملائكته وتَهَابُ جلاله وكماله ، صحيح أن الملائكة مقهورون ، لكنهم يخافون رَبَّهُم من فوقهم .

وساعة تسمع الملائكة الرَّعْدَ فهم لا يخافون على أنفسهم؛ ولكنهم يخافون على الناس؛ لأنهم حفظة عليهم؛ فالملائكة تعي مهمتها كحفظة على البشر؛ وتخشى أن يريكم أيُّ أمر؛ وهم يستغفرون لِمَنْ في الأرض .

إذن : فقوله : { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ . . . } [ الرعد : 13 ] يُبَيِّنُ لنا أن الملائكة تخاف على البشر من الرعد؛ فَهُمْ مُكَلَّفُونَ بحمايتهم ، مع خوفهم من الله مهابة وإجلالاً .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : الله أعط منفقاً خلفاً . ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » . وقد يظنُّ ظانٌّ أن هذه دعوة ضد المُمَسِّكِ؛ ولكني أقول : لماذا لا تأخذها على أنها دعوة خَيْرٍ؟ فالمُنْفِقُ قد أخذ ثواباً على ما أَدَّى من حسنات؛ أما المُمَسِّكُ فحين يتلبه الله بتلفٍ بعض من ماله؛ ويصبر على ذلك؛ فهو يأخذ جزاء الصبر .

ويتابع سبحانه في نفس الآية : { . . . وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ } [ الرعد : 13 ]

ولابدُّ من وجود حَدَثٍ أليم في الكون لينتبه هؤلاء الناس من غفلتهم؛ وها هو ذا رسول الله صلى

الله عليه وسلم ؛ وقد جاءه اثنان من المعاندين الكبار أريد بن ربيعة؛ أخو لبيد بن ربيعة ، وعامر بن الطفيل؛ لِيُجادلاه بهدف التلْكُؤُ والبحث عن هَفُوةٍ فيما يقوله أو عَجَزٍ في معرفته ، والمثل ما قاله مجادلون مثلهم ، وأورده القرآن الكريم : { . . . إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [ المؤمنون : 82 ]

وكذلك استعجال بعض من المجادلين للعذاب .

وجاء هذان الاثنان وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل ربنا مصنوع من الحديد أم من النحاس؟ وهما قد قالوا ذلك لأنهما من عبدة الأصنام المصنوعة من الحجارة ، والأقوى من الحجارة هو الحديد أو النحاس؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت صاعقة؛ فأحرقتهمما .

وإرسال الصواعق هنا آية قرآنية ، ولا بد وأن تأتي آية كونية تصدقها؛ وقد حدثت تلك الآية الكونية .

ويقول الحق سبحانه : { وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ . . . } [ الرعد : 13 ]  
والجدال في الله أنواع متعددة؛ جدال في ذاته؛ وجدال في صفاته ، أو جدال في الحسنة والسيئة ، وقد جادلوا أيضاً في إنزال آية مادية عليه؛ لأنهم لم يكتفوا بالقرآن كآية؛ على الرغم من أن القرآن آية معجزة ومن جنس ما برعوا فيه ، وهو اللغة .  
وقد جادلوا أيضاً في الرعد؛ وقالوا : إن الرعد ليس له عقل لِيُسيح؛ والملائكة لا تكليف لها؛ فكيف تُسيح؟

ولكن الحق سبحانه قال : إنه قادر على أن يُرسل الصواعق ويصيب بها مَنْ يشاء؛ فيأتي بالخير لِمَنْ يشاء؛ ويصيب بالضرر مَنْ يشاء .

فهل هم يملكون كل الوقت لهذا الجدل؛ بعد أن خلق كل هذا الكون؟

هل لديكم الوقت لكل تلك المماراة بقصد الجدال والعناد المذموم؟

فالجدل في حد ذاته قد يَحْسُن استخدامَه وقد يُسَاء استخدامَه؛ والحق سبحانه قال لنا : { وَلَا

تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن . . . } [ العنكبوت : 46 ]

وقال أيضاً : { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتشتكي إِلَى اللَّهِ . . . } [ المجادلة : 1 ]  
وهذا جدل المراد منه الوصول إلى الحق .

ويذيل الله آية سورة الرعد بقوله : { . . . وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ } [ الرعد : 13 ]

ويقال : « محل فلان بفلان » أي : كاد له كيداً خفياً ومكر به ، والحال هو الكيد والتدبير الخفي ، ومن يلجأون إليه من البشر هم الضعاف الذين يعجزون عن مواجهة الخصم علانية ، فيبييتون له بإخفاء وسائل الإيلام .

وهذا يحدث بين البشر وبعضهم البعض؛ لأن البشر لا يعلمون الغيب؛ لكن حين يكيد الله؛ فلا أحد بقادر على كَيْدِه ، وهو القائل سبحانه : { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا \* وَأَكِيدُ كَيْدًا \* فَمَهْلِكُ

الكافرين أَمْهَلُهُمْ رُؤِيدًا } [ الطارق : 15-17 ]

لأن كيد الله لا غالب له؛ وهو كَيْدٌ غير مفضوح لأحد ، ولذلك قال تعالى : { . . . وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [ الأنفال : 30 ]

هُمُ أَرَادُوا أَنْ يُبَيِّنُوا لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَأَرَادُوا قَتْلَهُ ؛ وَجَاءُوا بِشَابٍ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ لِيَمْسِكَ سَيْفًا كَيْ يَتَوَزَعُ دَمُهُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ ، وَتَرَصَّدُوا لَهُ الْمُرْصَادَ ؛ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ تَصَاحِبُهُ الْعَنَاءُ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مَلْهُمًا قَوْلَهُ تَعَالَى : { فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } [ يس : 9 ]

وبذلك أوضح لهم أنهم لن يستطيعوا دَفْعَ دعوة الإسلام؛ لا مُجَاهِمَةً وَمُجَاهِرَةً؛ وَلَا كَيْدًا وَتَبْيِينًا؛ حَتَّى وَلَوْ اسْتَعْتَمُّ بِالْجَنِّ؛ فَالْإِنْسَانَ قَدْ يَمْكُرُ وَيُجَاهِدُ ، وَحِينَ يَفْشَلُ قَدْ يَجَاوِلُ الْإِسْتِعَانَةَ بِقُوَّةٍ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ لَهُ سُلْطَانٌ كَسُلْطَانِ الْجِنِّ ، وَحَتَّى ذَلِكَ لَمْ يَفْلَحْ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَقَدْ حَاوَلُوا بِالْسِحْرِ؛ فَكَشَفَ اللَّهُ لَهُ بِالرُّؤْيَا مَوْقِعَ وَضْعِ السِّحْرِ .

وذهب بعض من صحابته ليستخرجوا السِّحْرَ مِنَ الْمَوْقِعِ الَّذِي حَدَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ لَهُمْ .

وهكذا أوضح لهم الحق سبحانه أن كل ما يفعلونه لن يَحِقِّقَ بِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛

فسبحانه : { غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . . . } [ يوسف : 21 ]

وهكذا كان الحق سبحانه وما زال وسيظل إلى أن يَرِثَ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

{ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ . . . }

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)

وسبحانه قد دعانا إلى أن نؤمن بإله واحد وهي دعوة حق ، والذين من دونه يدعون لإله غير حق . والضمير هنا قد يعود إلى الله فكأن الله قد دعا خَلْقَهُ إِلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ وَهِيَ « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ قَدْ شَهِدَ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؛ وَشَهِدَتْ الْمَلَائِكَةُ شَهَادَةَ الْمَشْهَدِ ، وَشَهِدَ بِهَا أُولُو الْعِلْمِ شَهَادَةَ الْإِسْتِدْلَالِ؛ تِلْكَ هِيَ دَعْوَةُ الْحَقِّ .

أو « له » أي : لِلْإِنْسَانِ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ ، وَحِينَ يَدْعُو الْإِنْسَانَ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَمْرًا قَدْ خَرَجَ عَنْ نِطَاقِ أَسْبَابِهِ؛ لِذَلِكَ يَدْعُو مَنْ يَعِينُهُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ .

والدعاء لَوْثٌ مِنَ الطَّلَبِ ، إِلَّا أَنَّ الطَّلِبَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ مِنْهُ؛ فَإِنَّ كَانَ الطَّالِبُ أَدْنَى مِنَ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ لَا يُقَالُ لَهُ فَعَلَ أَمْرًا؛ كَقَوْلِكَ « اغْفِرْ لِي يَا رَبِّ » وَهَذَا لَا يُقَالُ لَهُ

فعل أمر؛ بل يقال له دعاء .

وهكذا نرى أنه إن كان فعل الأمر من الأدنى للأعلى؛ لا نسميه فعل أمر بل نسميه دعاءً ،  
والطالب الذكي هو مَنْ يلحظ أثناء الإعراب إن كان المطلوب هو من الأدنى إلى الأعلى؛ فهو لا  
يقول « فعل أمر » بل يقول « فعل دعاء » مثل قول العبد لله : يا رب اغفر لي ، وإن كان  
المطلوب من مُساوٍ؛ فهو يقول « التماس » . وإن كان المطلوب قد صدر من الأعلى للأدنى  
فهو « فعل أمر » .

وحين يدعو الإنسان ربه؛ فهذا يعني أن أسباب العبد قد نفذت؛ وهو يلجأ إلى مَنْ يعلو الكون  
ويملك كل الأسباب ، ولذلك فكلُّ منا يدعو الله؛ لأنه سبحانه القادر على إنفاذ مطلوب العباد؛  
ولا يُعجزه شيء .

ولكن إن دعوت مَنْ لا يستطيع؛ فهو دعوة لا تنفع العبد ، وهم كانوا يدعون الأصنام؛  
والأصنام لا تضر ولا تنفع؛ فالصنم من هؤلاء لا يقدر على نفسه أو لنفسه؛ فقد كان من الحجر

وبطبيعة الحال فالدعاء لمثل تلك الأصنام لا تحقق شيئاً؛ لأنها لا تقدر على أي شيء .  
وهكذا يتأكد لنا أن دعوة الحق هي أن تدعو القادر؛ أما الذين يدعون المعبودات الباطلة فإنها  
تخيب من يدعوها في مقصده ، ولذلك يقول الحق سبحانه هنا : { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ  
مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ . . . } [ الرعد : 14 ]

لأنهم لا يملكون شيئاً فالصنم من هؤلاء لا يسمع فكيف يستجيب؟  
ثم يضرب الحق سبحانه المثل بشيء مُحسِّن؛ نفعله كلنا؛ فيقول : { لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا  
كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ . . . } [ الرعد : 14 ]  
فالعطشان ما أن يرى ماءً حتى يمدَّ يده إليه ليغترف منه؛ لكن يده لا تصل إلى الماء؛ هذا هو  
الحال مَنْ يدعو غير الله؛ فقد سأل غير القادر على إنفاذ مطلبه ، وهكذا يكون دعاء غير الله؛  
وهو دعاء في ضلال وفي غير متاهة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

{ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . }

**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (15)**

والسجود كما نعرفه حركة من حركات الصلاة ، والصلاة هي وقفة العبد بين يدي ربه بعد نداءه  
له ، والصلاة أقوال وأفعال مُبتدأة بالتكبير ومُختتمة بالسلم؛ بفرائض وسنن ومستحبات  
مخصوصة .

والسجود هو الحركة التي تُبرز كامل الخضوع لله؛ فالسجود وَضِعَ لأعلى ما في الإنسان في

مُسْتَوَى الأَدْنَى وَهُوَ قَدَمُ الْإِنْسَانِ؛ وَنَجْدُ الْعَامَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ : « لَا تَرْفَعُ رَأْسَكَ عَلَيَّ » أَي : لَا تَتَعَالَى عَلَيَّ ، لِأَنَّ رَفْعَ الرَّأْسِ مَعْنَاهُ التَّعَالَى ، وَتَخْفِيزُهَا بِالرُّكُوعِ أَوْ السُّجُودِ هُوَ إِظْهَارٌ لِلخُضُوعِ ، فِإِذَا قَالَ اللهُ : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } [ الرعد : 15 ] عَلَيْكَ أَنْ تَفْهَمَ أَنَّ هَذَا مَا يَحْدُثُ فِعْلًا؛ وَإِنْ لَمْ يَتَسَّعْ ذِهْنُكَ إِلَى فَهْمِ السُّجُودِ كَمَا يَحْدُثُ مِنْكَ؛ فَلْيَتَسَّعْ ظَنُّكَ عَلَى أَنَّهُ مُنْتَهَى الخُضُوعِ وَالدَّلِيلَةُ اللهُ الأَمْرُ . وَأَنْتِ تَعْلَمُ أَنَّ الْكُونَ كُلَّهُ مُسَخَّرٌ بِأَمْرِ اللهِ وَالأَمْرُ اللهُ ، وَالْكَوْنُ خَاضِعٌ لَهُ سُبْحَانَهُ؛ فَإِنَّ اسْتِجَابَ الْإِنْسَانِ لِأَمْرِ اللهِ بِالإِيمَانِ بِهِ فَهَذَا خَيْرٌ . وَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبِ الْإِنْسَانُ مِثْلَمَا يَفْعَلُ الْكَافِرُ فَعَلَيْهِ سُوءُ عَمَلِهِ .

وَلَوْ اسْتَقْصَيْتَ الْمَسْأَلَةَ بِدَقَّةِ الْفَهْمِ؛ لَوَجَدْتَ أَنَّ الْكَافِرَ إِنَّمَا يَتَمَرَّدُ بِإِرَادَتِهِ الْمُسَيِّطِرَةَ عَلَى جَوَارِحِهِ؛ لَكِنْ بَقِيَّةُ أَعْضَائِهِ مُسَخَّرَةٌ؛ وَكُلُّهَا تُؤَدِّي عَمَلَهَا بِتَسْخِيرِ اللهِ لَهَا ، وَكُلُّهَا تُنْقِذُ الأَمْرَ الصَّادِرَ مِنَ اللهِ لَهَا؛ وَهَكَذَا يَكُونُ الْكَافِرُ مُتَمَرِّدًا بِبَعْضِهِ وَمُسَخَّرًا بِبَعْضِهِ الأَخْرَ ، فَحِينَ يُمْرِضُهُ اللهُ؛ أَيْسْتَطِيعُ أَنْ يَعْصِي؟

طَبَعًا لَا . وَحِينَ يَشَاءُ اللهُ أَنْ يُوقِفَ قَلْبَهُ أَيْقِدِرُ أَنْ يَجْعَلَ قَلْبَهُ يَخَالِفُ مَشِيئَةَ اللهِ؟ طَبَعًا لَا . إِذَنْ : فَالَّذِي يَتَعَوَّدُ عَلَى التَّمَرُّدِ عَلَى اللهِ فِي الْعِبَادَةِ؛ وَلَهُ ذُرْبَةٌ عَلَى هَذَا التَّمَرُّدِ؛ عَلَيْهِ أَنْ يُجَرِّبَ التَّمَرُّدَ عَلَى مَرَادَاتِ اللهِ فِيمَا لَا اخْتِيَارَ لَهُ فِيهِ؛ وَسَيَقَابِلُ الْعِجْزَ عَنْ ذَلِكَ . وَعَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ لَمْ يَتَمَرَّدْ بِالكُفْرِ إِلاَّ بِمَا أَوْسَعَ اللهُ لَهُ مِنْ اخْتِيَارٍ؛ بِدَلِيلِ أَنَّ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ بِالمِائَةِ مِنْ قُدْرَاتِهِ مُحْكَمٌ بِالقَهْرِ؛ وَوَاحِدٌ بِالمِائَةِ مِنْ قُدْرَاتِهِ مَتْرُوكٌ لِلاخْتِيَارِ ، وَهَكَذَا يَتَأَكَّدُ التَّسْخِيرَ . وَخُضُوعَ الْكَافِرِ فِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ؛ وَتَمَرُّدَهُ فِي الْبَعْضِ الأَخْرَ؛ هُوَ مُنْتَهَى الْعِظَمَةِ اللهُ؛ فَهُوَ لَا يَجْرُؤُ عَلَى التَّمَرُّدِ بِمَا أَرَادَهُ اللهُ مُسَخَّرًا مِنْهُ .

وَلِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ : وَلِمَاذَا قَالَ اللهُ هُنَا : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } [ الرعد : 15 ]

وَلَمْ يَقُلْ : « مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ »؟ وَأَقُولُ : مَا دَامَ فِي الأَمْرِ هُنَا سُّجُودٌ؛ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى قِيَمَةِ الْعَقْلِ؛ وَسُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ السُّجُودَ هُنَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ كَافَةَ الْكَائِنَاتِ تَعْقِلُ حَقِيقَةَ الأُلُوهِيَّةِ؛ وَتَعْبُدُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ . وَهُوَ هُنَا يَقُولُ : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا . . . } [ الرعد : 15 ] وَهَذَا يُعَلِّمُنَا الْحَقَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ كُلَّ الْكَائِنَاتِ تَرْضَخُ اللهُ سُّجُودًا؛ سِوَاءِ المُسَخَّرِ؛ أَوْ حَتَّى أَعْضَاءِ الْكَافِرِ الَّتِي يَسْتَعْمِدُهَا بِإِرَادَتِهِ فِي الْكُفْرِ بِاللَّهِ؛ هَذِهِ الأَعْضَاءُ تَسْجُدُ اللهُ .

وَيَتَابِعُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ : { . . . وَظِلَالُهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ } [ الرعد : 15 ] وَنَحْنُ فِي حَيَاتِنَا اليَوْمِيَّةِ نَسْمَعُ مَنْ يَقُولُ : « فَلَانِ يَتَّبِعُ فَلَانًا كَظَلِّهِ »؛ أَي : لَا يَتَابَعُ عَلَيْهِ أَبَدًا

مطلقاً ، ويلازمه كأنه الظل؛ ونعلم أن ظلَّ الإنسان تابعٌ لحركته .  
وهكذا نعلم أن الظلال نفسها خاضعة لله؛ لأن أصحابها خاضعون لله؛ فالظل يتبع حركته؛ وإياك  
أن تظنَّ أنه خاضع لك؛ بل هو خاضع لله سبحانه .  
وسبحانه هنا يُجَدِّد تلك المسألة بالعدوِّ والآصال؛ و « العدو » جمع « غداة » وهو أول النهار ،  
والآصال هو المسافة الزمنية بين العصر والمغرب .  
وأنت حين تقيس ظلَّك في الصباح ستجد الظلَّ طويلاً ، وكلما اقتربت من الشمس طال الظل ،  
وكلما اقترب الزوال يقصرُ الظلُّ إلى أن يتلاشى؛ وأبزر ما يتمايل الظل بتمايل صاحبه هو في  
الصبح وبعد العصر .  
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . }

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا  
ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا  
كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)

و « قل » هي أمر للرسول أن يقول للكافرين ، وهناك في آيات أخرى يقول سبحانه : { وَلَئِنْ  
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } [ الزخرف : 87 ]  
ولقائل أن يسأل : لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالإجابة؛ ولم يتركها لتأتي منهم؟  
ونقول : إن مجيء الإجابة من الحق هنا عن الذي خلق السماوات والأرض أقوى ممَّا لو جاءت  
الإجابة منهم .

والمثل من حياتنا؛ ولله المثل الأعلى؛ قد تقول لابنك الصغير المتشاحن مع أخيه الكبير : مَنْ  
الذي جاء لك بالحلَّة الجديدة؟ فيرتبك خجلاً؛ لأنه يعلم أن مَنْ جاء له بالحلَّة الجديدة هو أخوه  
الأكبر الذي تشاحن معه؛ فتقول أنت : جاء لك بها أخوك الأكبر الذي تشاحت معه .  
وهنا لحظة أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ما أمره الله أن يقول : { قُلْ مَنْ رَبُّ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } [ الرعد : 16 ]

فسوف يرتكبون؛ فيؤكد لهم بعد ذلك ما أمره الله أن يقول : { قُلِ اللَّهُ . . . } [ الرعد : 16 ]  
ويتتابع أمر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فيقول له الحق سبحانه : { قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ  
أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا . . . } [ الرعد : 16 ]

وهكذا يكشف لهم الرسول ببلاغ الحق سبحانه مدى جهلهم؛ وهم مَنْ سبق لهم الاعتراف بأن  
الله هو خالق السماوات والأرض؛ ولم يجروا واحداً منهم على أن ينسب خلق السماوات والأرض  
للأصنام .

وهنا يوضح لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما أمر الحق سبحانه بإيضاحه : لقد خلق الله السماوات والأرض أفبعد ذلك تتخذون من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا؛ ولا ضرا؟  
بدليل أن الصنم من هؤلاء لا يقدر لهم على شيء .

ويتابع الحق سبحانه : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات والنور أمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ . . . } [ الرعد : 16 ]

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يستوي الأعمى بالمبصر .

وساعة ترى « أم » اعلم أنها ضَرَبَ انتقالي ، وهكذا يستنكر الحق ما فعلوه بالاستفهام عنه؛ لأنه شيء مُنكر فعلاً : { أمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الخلق عَلَيْهِمْ . . . } [ الرعد :

[ 16 ]

أي : لو كان هؤلاء الشركاء قد خلقوا شيئاً مثل خلق الله؛ لكان لهم أن يعقدوا مقارنة بين خلق الله وخلق هؤلاء الشركاء؛ ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوا مشاركين لله في الألوهية لا يُقدرون على خلق شيء؛ فكيف يختارونهم شركاء لله؟

ويأتي الأمر من الحق سبحانه : { . . . قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد القهار } [ الرعد :

[ 16 ]

وفي آية أخرى يُقدِّم الحق سبحانه تفسيراً لتلك الآية : { إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجتمعوا لَهُ . . . } [ الحج : 73 ]

فهؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً ، ولن يستطيع أحد الإدعاء بأن هؤلاء الشركاء عندهم نية الخلق ، ولكن محيي « لن » هنا يؤكد أنهم حتى بتنبههم لتلك المسألة؛ فلَسوف يعجزون عنها؛ لأن نفي المستقبل يستدعي التحدي؛ رغم أنهم آلهة متعددة؛ ولو اجتمعوا فلن يخلقوا شيئاً .

يستمر التحدي في قوله سبحانه : { . . . وَإِن يَسئَلُهُم الذباب شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ

الطالب والمطلوب } [ الحج : 73 ]

أي : لو أخذ الذباب بساقه الرفيعة شيئاً مما يملكون لَمَا استطاعوا أن يستخلصوه منه .

وهكذا يتضح أن الحق سبحانه وحده هو الخالق لكُلِّ شيء؛ وتلزم عبادته وحده لا شريك له؛ وهو جَلَّ وعَلا المتفرد بالربوبية والألوهية؛ وهو القهار المتكبر؛ والغالب على أمره أبداً ، فكيف يكون مَنْ دونه مساوياً له؟

لذلك لا شريك له أبداً .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

{ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . . }

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17)

وهو سبحانه يُنزل الماء من جهة الغلو وهو السماء ، ونعلم أن الماء يتبخر من البحار والأنهار والأرض التي تتفجر فيها العيون ليتجمع كسحاب؛ ثم يتراكم السحاب بعضه على بعض؛ ويمر بمنطقة باردة فيتساقط المطر .

ويقول الحق سبحانه : { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا . . . } [ الرعد : 17 ] والوادي هو المنخفض بين الجبلين؛ وساعة ينزل المطر على الجبال فهو يسيل على الأودية؛ وكل وادٍ يستوعب من المياه على اتساعه .

ولنا أن نلاحظ أن حكمة الله شاءت ذلك كيلا يتحول الماء إلى طوفان ، فلو زاد الماء في تلك الأودية لغرقت نتيجة ذلك القرى ، وخربت الزراعات ، وتهدمت البيوت . والمثل على ذلك هو فيضان النيل حين كان يأتي مناسباً في الكمية لحجم المجرى؛ وكان مثل هذا القدر من الفيضان هو الذي يسعد أهل مصر؛ أما إذا زاد فهو يُمثل خطراً يدهم القرى ويخربها . وهكذا نجد أن من رحمة الحق سبحانه أن الماء يسيل من السماء مطراً على قدر اتساع الأودية؛ اللهم إلا إذا شاء غير ذلك .

والحق سبحانه هنا يريد أن يضرب مثلاً على ما ينفع الناس؛ لذلك جاء بجزئية نزول الماء على قدر اتساع الأودية .

ومن رأى مشهد نزول المطر على هذا القدر يمكنه أن يلاحظ أن نزول السيّل إنما يكنس كل القشّ والقاذورات؛ فتصنع تلك الزوائد رغوّة على سطح الماء الذي يجري في النهر ، ثم يندفع الماء إلى المجرى؛ ليُزيح تلك الرغاوى جانباً؛ ليسير الماء من بعد ذلك صافياً رقيقاً . { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا . . . } [ الرعد : 17 ]

وهذا المثل يدركه أهل البادية؛ لأنها صحراء وجبال ووديان؛ فماذا عن مثل يناسب أهل الحضرة؟ ويأتي الحق سبحانه بهذا المثل المناسب لهم؛ فيقول : { وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ . . . } [ الرعد : 17 ]

وأنت حين تذهب إلى موقع عمل الحداد أو صائغ الذهب والفضة؛ تجده يُوقد النار ليتحول المعدن إلى سائل مصهور؛ ويطفو فوق هذا السائل الزبد وهو الأشياء التي دخلت إلى المعدن ، وليست منه في الأصل؛ ويبقى المعدن صافياً من بعد ذلك .

والصانع يضع الذهب في النار ليخلصه من الشوائب؛ ثم يضيف إليه من المواد ما يُقوي صلابته؛ أو ينقله من حالة النقاء إلى درجة أقل نقاءً ، وحالة النقاء في الذهب هي ما نطلق عليه « عيار

24 « ، والأقل درجة هو الذهب من « عيار 21 » ، والأقل من ذلك هو الذهب من « عيار 18 » .

والذهب الخالص النقاء يكون لِيناً؛ لذلك يُضيفون إليه ما يزيد من صلابته ، ويصنع الصائغ من هذا الذهب الخلي .

وهذا هو المثلُّ المناسب لأهل الحضرة؛ حين يصنعون الخلي ، وهم أيضاً يصنعون أدواتٍ أخرى يستعملونها ويستعملها مثلهم أهل البادية كالسيوف مثلاً ، وهي لا بُدَّ أن تكون من الحديد الصُّلب؛ ذلك أن كل أداة تصنع منه لها ما يناسبها من الصَّلابة؛ فإنَّ أراد الحدَّاد أن يصنع سيفاً فلا بدَّ أن يختار له من الحديد نوعيةً تتناسب مع وظائف السيف .  
والزَّيْد في الماء النازل من السماء إنما يأتي إليه نتيجة مرور المطر أثناء نزوله على سطح الجبال؛ فضلاً عن غسيل مجرى النهر الذي ينزل فيه؛ وعادة ما يتراكم هذا الزَّيْد على الحواف؛ ليبقى الماء صافياً من بعد ذلك .

وحين تنظر إلى النيل مثلاً فأنت تجد الشوائب ، وقد ترسبت على جانبي النهر وحواقه ، وكذلك حين تنظر إلى مياه البحر؛ فأنت تجد ما تلقيه المركب ، وهو طافٍ فوق الأمواج؛ لثقله الأمواج على الشاطئ .

وهكذا ضرب الله المثل لأهل البدو ولأهل الحضرة بما يفيدهم في حياتهم؛ سواء حلية يلبسونها ، أو أداة يقاتلون بها ، أو أداة أخرى يستخدمونها في أوجه أعمالهم الحياتية؛ وهم في كل ذلك يلجئون إلى تصفية المعادن التي يصنعون منها تلك الخلي أو الأدوات الحياتية ليستخلصوا المعادن من الحَبث أو الزَّيْد .

وكذلك يفعل الحق سبحانه : { كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جُفَاءً وأما ما يَنْفَعُ الناس فيمكثُ في الأرض . . . } [ الرعد : 17 ]

وحين يضرب الله الحقَّ والباطل؛ فهو يستخلص ما يفيد الناس؛ ويذهب ما يضرُّهم ، وقوله : { فَيَذْهَبُ جُفَاءً . . . } [ الرعد : 17 ]

أي : يبعده؛ ف « جُفَاءً » يعني « مَطْرُوداً »؛ من الجُفُوءة؛ ويُقال : « فلان جَفَا فلاناً » أي : أبعده عنه .

ويُذِيلُ الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : { . . . كذلك يَضْرِبُ اللهُ الأمثال } [ الرعد : 17 ]  
وشاء سبحانه أن يُبَيِّنَ لنا بالأمور الحِسِّيَّة؛ ما يساوي الأمور المعنوية؛ كي يعلم الإنسان أن الظلم حين يستشري ويعلو ويطمس الحق ، فهو إلى زَوَالٍ؛ مثله مثل الزَّيْد .  
ويقول سبحانه من بعد ذلك :

{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحَسَنَى . . . }

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ  
لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18)

والذين يستجيبون للرب الذي خلق من عدم ، وأوجد لهم مقومات الحياة واستبقاء النوع بالزواج  
والتكاثر؛ فإذا دعاهم لشيء فليعلموا أن ما يطلبه منهم مُتَمِّمٌ لصالحهم؛ الذي بدأه بإيجاد كل  
شيء لهم من البداية .

وهؤلاء الذين يستجيبون لهم الحُسنى؛ فسبحانه جعل الدنيا مزرعة للآخرة ، وأنت في الدنيا  
مَوْكُولٌ لقدرتك على الأخذ بالأسباب؛ ولكنك في الآخرة مَوْكُولٌ إلى المَسِيبِ .  
ففي الدنيا أنت تَبْدُرُ وتَحْرُثُ وتروي وتخصد ، وقد تختلف حياتك شظفًا وترَفًا بقدرتك على  
الأسباب .

فإذا استجبتَ لله واتبعتَ منهجه؛ فأنت تنتقل إلى حياة أخرى؛ تحيا فيها مع المسبب؛ لا  
الأسباب؛ فإذا خطر ببالك الشيء تَجَدُّهُ أمامك؛ لأنك في الحياة الأخرى لا يكلك الله إلى  
الأسباب ، بل أنت مَوْكُولٌ لذات الله ، والموكول إلى الذَّاتِ باقٍ ببقاء الذات .  
ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ .  
.. } [ النساء : 175 ]

وبعض المُفسِّرِينَ يقولون « إنها الجنة » وأقول : هذا تفسير مقبول؛ لأن الجنة من رحمة الله؛ ولكن  
الجنة باقية بإبقاء الله لها؛ ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله .

وهنا يقول الحق سبحانه : { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ . . . } [ الرعد : 18 ]  
ويقول تعالى في آية أخرى : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ . . . } [ يونس : 26 ]  
والحسنى هي الأمر الأحسن؛ وسبحانه خلق لك في الدنيا الأسباب التي تكدر فيها؛ ولكنك في  
الآخرة تحيا بكل ما تتمنى دون كدر ، وهذا هو الحسن .

وهب أن الدنيا ارتقت؛ والذين يسافرون إلى الدول المتقدمة؛ وينزلون في الفنادق الفاخرة؛ يُقال  
لهم اضغط على هذا الزر تنزل لك القهوة؛ والزر الآخر ينزل لك الشاي .  
وكل شيء يمكن أن تحصل عليه فَوْرَ أن تطلبه من المطعم حيث يُعَدُّه لك آخرون؛ ولكن مهما  
ارتقت الدنيا فلن تصل إلى أن يأتي لك ما يمرُّ على خاطرك فَوْرَ أن تتمناه؛ وهذا لن يحدث إلا في  
الآخرة .

وكلمة « الحسنى » مُؤنَّثة وأفعل تفضيل؛ ويُقال « حسنة وحسنى »؛ وفي المذكر يُقال « حسن  
وأحسن » . والمقابل لمن لم يستجيبوا معروف .

والحق سبحانه يقول هنا : { وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ  
لَافْتَدَوْا بِهِ . . . } [ الرعد : 18 ]

أي : يقول خذوا ما أملك كله واعتقوني ، لكن لا يُستجاب له .  
ويقول الحق سبحانه : { . . . أولئك هُم سواء الحساب وَمَأْوَاهُم جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد { [ الرعد : 18 ]

لأن الحساب يترتب عليه مرة خَيْرٌ؛ ويترتب عليه مرة أخرى شَرٌّ؛ وجاء الحق سبحانه بكلمة :  
{ وَبِئْسَ المهاد { [ الرعد : 18 ]  
هنا؛ لأن الواحد من هؤلاء والعباد بالله لن يستطيع أن يتصرف لحظة وَضَعَهُ في النار ، كما لا يستطيع الطفل الوليد أن يتصرف في مهاده؛ ومن المؤكد أن النار بِئْسَ المهاد .  
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :  
{ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ . . . }

**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19)**

والمؤمن هو مَنْ يعلم أن القرآن الحامل للمنهج هو الذي أنزله سبحانه على رسوله؛ ولا يمكن مقارنته بالكافر وهو الموصوف هنا من الحق سبحانه : { كَمَنْ هُوَ أَعْمَى . . . } [ الرعد : 19 ]

وجاء هنا ب « علم » و « عمى »؛ لأن الآيات الدالة على القدرة من المرثيات .

ويقول الحق سبحانه : { . . . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ { [ الرعد : 19 ]

أي : أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك عن أولي الألباب :

{ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ . . . }

**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20)**

والواحد من أولي الألباب ساعة آمن بالله؛ فهو يعلم أنه قد تعاهد مع الله عهداً بالألأ يعبد غيره؛  
وألأ يخضع لغيره؛ وألأ يتقرب لغيره؛ وألأ ينظر أو ينتظر من غيره؛ وهذا هو العهد الأول الإجماني .  
ويتفرع من هذا العهد العقدي الأول كلُّ عهد يُقطع سواء بالنسبة لله ، أو بالنسبة لخلق الله؛ لأن  
الناشي من عهد الله مثله مثل عهد الله؛ فإذا كنت قد آمنت بالله؛ فأنت تؤمن بالمنهج الذي أنزله  
على رسوله؛ وإذا أوفيت بالمنهج؛ تكون قد أوفيت بالعهد الأول .

ولذلك نجد كل التكليفات المهمة البارزة القوية في حياة المؤمنين نجد الحق سبحانه يأتي بها في

صيغة البناء؛ فيما يسمى « البناء للمجهول »؛ مثل قوله : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِيَامُ . . . } [

البقرة : 183 ]

وقوله : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ . . . } [ البقرة : 178 ]

وقوله : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ . . . } [ البقرة : 216 ]

وكلُّ التكليفات تأتي مسبوقه بكلمة « كُتِبَ » والذي كتب هو الله؛ وسبحانه لم يُكَلِّفْ إلا من آمن به؛ فساعة إعلان إيمانك بالله؛ هي ساعة تعاقبك مع الله على أن تُفِذَ ما يُكَلِّفُك به . وأنت حُرٌّ في أن تؤمن أو لا تؤمن؛ لكنك لحظة إيمانك بالله تدخل إلى الالتزام بما يُكَلِّفُك به ، وتكون قد دخلت في كتابة التعاقد الإيماني بينك وبين الله .

ولذلك قال الحق سبحانه « كُتِبَ » ولم يُقَلْ : « كُتِبْتُ »؛ لأن العهد بينك وبين الله يقتضي أن تدخل أنت شريكاً فيه ، وهو سبحانه لم يُكَلِّفْ إلا مَنْ آمن به .

وسبحانه هنا يقول : { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ } [ الرعد : 20 ]

أي : أن العهد الإيماني موثَّق بما أخذته على نفسك من التزام .

ويواصل سبحانه وَصَفَ هؤلاء بقوله :

{ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ . . . }

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21)

وأوَّل ما أمر به الله أَنْ يُوصَلَ هو صِلَةَ الرَّحْمِ؛ أي : أن تصل ما يربطك بهم نَسَبٌ . والمؤمن الحقُّ إذا سَلَسَلَ الأنساب؛ فسيدخل كلُّ المؤمنين في صِلَةَ الرَّحْمِ؛ لأن كل المؤمنين رَحِمٌ مُتداخِل؛ فإذا كان لك عَشْرَةٌ من المؤمنين تصلهم بحكم الرَّحْمِ؛ وكل مؤمن يصل عشرة مثلك ، انظر إلى تداخل الدوائر وانتظامها؛ ستجد أن كل المؤمنين يدخلون فيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في الحديث القدسي : « أنا الرحمن؛ خلقت الرحم ، واشتقت لها اسماً من اسمي؛ فمن وصلها وصلته؛ ومن قطعها قطعته » .

وقد رُوِيَتْ من قِبَل قصة عن معاوية رضي الله عنه؛ فقد جاء حاجبه ليعلن له أن رجلاً بالباب يقول : إنه أخوك يا أمير المؤمنين .

ولابد أن حاجب معاوية كان يعلم أن معاوية بن أبي سفيان لا إخوة له ، لكنه لم يَشَأْ أَنْ يتدخَّل فيما يقوله الرجل؛ وقال معاوية لحاجبه : ألا تعرف إخوتي؟ فقال الحاجب : هكذا يقول الرجل . فأذِنَ معاوية للرجل بالدخول؛ وسأله : أي إخوتي أنت؟ أجاب الرجل : أخوك في آدم . قال معاوية : رَحِمَ مقطوعة؛ والله لأكون أوَّل من يصلها .

والتقى الفضيل بن عياض بجماعة لهم عنده حاجة؛ وقال لهم : من أين أنتم؟ قالوا : من خُراسان . قال : اتقوا الله ، وكونوا من حيث شئتم .

وقد أمرنا سبحانه أن نَصِلَ الأهل أولاً؛ ثم الأقارب؛ ثم الدوائر الأبعد فالأبعد؛ ثم الجار ، وكلُّ ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين الخلق؛ ليستطرق النافع لغير النافع ، والقادر لغير القادر ،

فهناك جارك وقريبك الفقير إن وصلتته وصلك الله .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ومن خلاله يأمر كل مؤمن برسالته : { قُلْ

لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . . . } [ الشورى : 23 ]

وقال بعض من سمعوا هذه الآية : قُرباك أنت في قُرباك .

وقال البعض الآخر : لا ، القُربى تكون في الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن القرآن قال في

محمد صلى الله عليه وسلم : { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . . } [ الأحزاب : 6 ]

وهكذا تكون قرابة الرسول أولى لكل مؤمن من قرابته الخاصة .

يستمر قول الحق سبحانه في وصف أولي الألباب : { . . . وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ

{ [ الرعد : 21 ]

والخشية تكون من الذي يمكن أن يُصيب بمكروه؛ ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه؛

أي : أنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُرَبِّهم؛ خوف إجلال وتعظيم .

وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب؛ وأنت تقول : خِفْتُ زيدا ، وتقول : خِفْتُ المرض ،

ففيه شيء تخافه؛ وشيء يُوقِع عليك ما تخافه .

وأولو الألباب يخافون سُوء حساب الحق سبحانه لهم؛ فيدعهم هذا الخوف على أن يصلوا ما أمر

به سبحانه أن يُوصَلَ ، وأن يبتعدوا عن أي شيء يغضبه .

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بالمناقشة واستيفاء العبد لكل حقوقه؛ فسبحانه مُنَزَّه عن ظلم

أحد ، ولكن من يُناقش الحساب فهو من يلقى العذاب؛ ونعوذ بالله من ذلك ، فلا أحد بقادر

على أن يتحمل عذاب الحق له .

ويواصل الحق سبحانه وَصَفَ أولي الألباب فيقول :

{ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ . . . }

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ

السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِقبَى الدَّارِ (22)

ونجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أولي الألباب الذين يتذكرون ويعرفون مواطن

الحق بعقولهم اهتداءً بالدليل؛ الذين يُوفون بالعهد الإيماني بمجرد إيمانهم بالله في كَلِيَّات العقيدة

الوحدانية ، ومُقتضيات التشريع الذي تأتي به تلك العقيدة .

ولذلك جعلها سبحانه صفة أوضحها في قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَاً عَلَيْهِ حَقًّا . . . } [ التوبة :

[ 111 ]

وهي صفة إيجاب وقبول ، والعهد إيجاب وقبول؛ وهو ميثاق مُؤكَّد بالأدلة الفطرية أولاً ،

والأدلة العقلية ثانياً .

وَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَالصَّبْرُ هُوَ تَحَمُّلُ مَتَاعِبٍ تَطْرَأُ عَلَى النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِتُخْرِجَهَا عَنْ وَقَارِ اسْتِقَامَتِهَا وَنَعِيمِهَا وَسَعَادَتِهَا ، وَكُلُّ مَا يُخْرِجُ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ عَنِ صِيَاغَةِ الْإِنْسِجَامِ فِي النَّفْسِ يَحْتَاجُ صَبْرًا .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مَصْبُوراً عليه؛ والمَصْبُور عليه في الأحداث قد يكون في ذات النفس؛ كأن يصبر الإنسان على مشقة التكليف الذي يقول « افعل » و « لا تفعل » .

فالتكليف يأمرك بتترك ما تحب ، وأن تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه ، وكلُّ هذا يقتضي مجاهدة من النفس ، والصبر الذاتي على مشاقِّ التكليف .  
ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً : { . . . وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } [ البقرة

[ 45 :

وهذا صَبْرُ الذَّاتِ عَلَى الذَّاتِ . ولكن هناك صَبْرٌ آخَرُ؛ صبر منك على شيء يقع من غيرك؛ ويُخْرِجُكَ هَذَا الشَّيْءَ عَنِ اسْتِقَامَةِ نَفْسِكَ وَسَعَادَتِهَا .

وهو ينقسم إلى قسمين : قسم تجد فيه غريماً لك؛ وقسم لا تجد فيه غريماً لك .  
فالمرض الذي يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ عَنْ حَيِّزِ اسْتِقَامَةِ الصَّحِيَّةِ وَيُسَبِّبُ لَكَ الْأَلْمَ؛ ليس لك فيه غريم؛ لكنك تجد الغريم حين يعتدي عليك إنساناً بالضرب مثلاً؛ ويكون هذا الذي يعتدي عليك هو الغريم لك .

وكل صبر له طاقة إيمانية تحتمله؛ فالذي يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ غَرِيمٌ؛ يَكُونُ صَبْرُهُ مَعْقُولًا  
بعض الشيء؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره .

أما صبر الإنسان على ألم أوقعه به مَنْ يَرَاهُ أَمَامَهُ؛ فهذا يحتاج إلى قوة صَبْطٍ كَبِيرَةٍ؛ كِي لَا يَهِيجُ الْإِنْسَانَ وَيُفَكِّرُ فِي الْإِنْتِقَامِ .

ولذلك تجد الحق يفصل بين الأمرين؛ يفصل بين شيء أصابك ولا تجد لك غريماً فيه ، وشيء أصابك ولك من مثلك غريمٌ فيه .

ويقول سبحانه عن الصبر ليس لك غريم فيه : { . . . وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [ لقمان : 17 ]

ويقول عن الصبر الذي لك فيه غريم ، ويحتاج إلى كَظْمِ الْغَيْظِ ، وَضَبْطِ الْغَضَبِ : { وَكَلِمَاتٍ صَبْرًا وَغَفْرًا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [ الشورى : 43 ]

وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر؛ فهو لا يطلب ذلك منك وحدك؛ ولكن يطلب من المقابلين لك جميعاً أن يصبروا على إبدائك لهم؛ فكأنه طلب منك أن تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك؛ وأنت فرد واحد .

وطلب من الغير أيضاً أن يصبر على إيدائك ، وهذا هو قمة التأمين الاجتماعي لحياة النفس الإنسانية ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تصبر على من آذاك؛ فقد طلب من الناس جميعاً أن يصبروا على آذاك لهم .

فإذا بدرت منك بادرة من الأغيار؛ وتخطى في حق إنسان آخر وتؤلمه؛ فإن لك رصييداً من صبر الآخرين عليك؛ لأن الحق سبحانه طلب من المقابل لك أن يصبر عليك وأن يعفو .

وإذا كان لك غريم؛ فالصبر يحتاج منك إلى ثلاث مراحل : أن تصبر صبراً أولياً بأن تكظم في نفسك؛ ولكن الغيظ يبقى ، وإن منعت الحركة التزوعية من التعبير عن هذا الغيظ؛ فلم تضرب

ولم تَسُبْ؛ ويسمى ذلك : { الكاظمين الغيظ . . . } [ آل عمران : 134 ]

والكُظْم مأخوذ من عملية رَبَط القربة التي نحمل فيها الماء؛ فإن لم تُحْكِم ربطها انسكب منها الماء؛ ويُقال « كظم القربة » أي : أحكم ربطها .

ثم يأتي الحق سبحانه بالمرحلة الثانية بعد كظم الغيظ فيقول : { والعافين عن الناس . . . } [ آل

عمران : 134 ]

وهنا تظهر المسألة الأرقى ، وهي إخراج الغيظ من الصدر؛ ثم التسامي في مرتبة الصديقين؛ فلا ينظر إلى مَنْ كظم غيظه عنه أولاً؛ بل يعفو عنه ، ولا ينظر له بعداء ، بل بنظرة إيمانية .

والنظرة الإيمانية هي أن مَنْ آذاك إنما يعتدي على حَقِّ الله فيك؛ وبذلك جعل الله في صَفِّكَ وجانبك؛ وهكذا تجد أن مَنْ ظلمك وأساء إليك قد جعلك في معية الله وحمائته؛ وعليك أن تُحسِّن له .

والصبر له دوافع؛ فهناك من يصبر كي يُقال عنه : إنه يملك الجُلْد والصبر؛ وليبين أنه فوق الأحداث؛ وهذا صبر ليس ابتغاء لوجه الله؛ بل صبر كيلا يَشْتَم فيه أعداؤه .

وصبر لأنه قد توصل بعقله أن جزعه لن ينفعه ، ولو كان حصيفاً لَصبر لوجه الله ، لأن الصبر لوجه الله يخفف من قَدَر الله .

ومَنْ يصبر لوجه الله إنما يعلم أن الله حكمة أعلى من الموضوع الذي صبر عليه؛ ولو خيّر بين ما كان يجب أن يقع وبين ما وقع؛ لاختار الذي وقع .

والذي يصبر لوجه الله إنما ينظر الحكمة في مَوْرَد القضاء الذي وقع عليه ، ويقول : أحمدك ربي على كل قضائك وجميل قَدْرَتك؛ حَمَد الرضى بحكمك لليقين بحكمتك .

فمَنْ يصبر على الفاقة؛ ويقول لنفسك : « اصبري إلى أن يفرجها الله » ولا يسأل أحداً؛ سيجد الفرج قد أتى له من الله .

انظر إلى الشاعر وهو يقول :

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَسْتَخْرِجَ الْمَالَ مُنْفَقاً ... عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ فِي زَمَنِ الْعُسْرِ

فَسَلْ نَفْسَكَ الْإِنْفَاقَ مِنْ كَنْزِ صَبْرِهَا ... عَلَيْكَ وَإِنذاراً إِلَى سَاعَةِ الْيُسْرِ  
فَإِنْ فَعَلْتَ كُنْتَ الْغَنِيِّ وَإِنْ أَبَيْتَ ... فَكُلُّ مُنَوَّعٍ بَعْدَهَا وَاسِعُ الْعُدْرِ

أي : إن راودتكَ نفسك لتقترض مالا لتنفقه على شهوات النفس ، ورفضت تلك المزاودة ،  
وطلبت من نفسك أن تعطيك من كَنْزِ الصبر الذي تملكه؛ وإن فعلت ذلك كنت الغني ، لأنك  
قدرت على نفسك .

والذي يلفت إلى الحدّث وحده يتعب؛ والذي يلتفت إلى الحدّث مقروناً بواقعه من ربه؛ ويقول :  
« لا بد أن هناك حكمة من الله وراء ذلك » فهو الذي يصبر ابتغاء وجهه الله . ويريد الله أن  
يُخَصَّ مَنْ يصبر ابتغاء وجهه بمنزلة عالية؛ لأنه يعلم أن الله له حكمة فيما يُجْرِيه من أقدار .  
ويتابع سبحانه وَصَفَ أُولِي الْأَلْبَابِ : { وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . . . }  
[ الرعد : 22 ]

وسبق أن قلنا في الصلاة أقوالاً كثيرة؛ وأن مَنْ يُؤدِّيها على مطلوبها؛ فهو مَنْ يعلم أنها جُلُوة بين  
العبد وربّه ، ويكون العبد في ضيافة ربه .  
وحين تُعْرَضُ الصَّنْعَةُ على صانعها خمس مرات في اليوم فلا بد أن تنال الصَّنْعَةَ رعاية وعناية مَنْ  
صَمَّمَهَا وخلقها ، وكما أن الله غَيَّبَ عنك؛ فكذلك أسباب شفائك من الكروب يكون غيباً  
عنك .

وقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك « فكان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة » . ومن  
عظمة الإيمان أن الله هو الذي يدعوك إلى الصلاة؛ وهو سبحانه لا يمنع عنك القُرب في أيّ وقت  
تشاء؛ وأنت الذي تُحدِّد متى تقف بين يديه في أي وقت بعد أن تُلَبِّي دعوته بالفروض؛ لتؤدي ما  
تحب من النوافل؛ ولا يُنهي سبحانه المقابلة معك كما يفعل عظماء الدنيا؛ بل تُنهي أنت اللقاء  
وقْت أن تريد .

ولقد تأدّب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأدب ربه؛ وتخلّق بالخلق السامي؛ فكان إذا وضع  
أحد يده في يد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فهو لا ينزع يده من يد مَنْ يُسَلِّم عليه؛ إلا أن  
يكون هو النازع .

وقول الحق سبحانه : { وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ . . . } [ الرعد : 22 ]

يعني : أنك لا يجب أن تنظر إلى ما يؤخذ منك ، ولكن انظر إلى أنك إن وصلت إلى أن تحتاج  
من الغير سيؤخذ لك ، وهذا هو التأمين الفعال ، وَمَنْ يخاف أن يترك عياله دون قدرة ، ولو كان  
هذا الإنسان يحيا في مجتمع إيماني ، لوجد قول الحق مُطَبَّقاً : { وَلِيُخَشِ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ  
خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً } [ النساء : 9 ]  
وبذلك لا يشعر اليتيم باليتيم؛ ولا يخاف أحد على عياله ، ولا يسخط أحد على قدر الله فيه .

وسبحانه يضع الميزان الاقتصادي حين يطلب منا الإنفاق ، والإنفاق يكون من مال زائد؛ أو مال بلغ النصاب ، ولذلك فعليك أن تتحرك حركة نافعة للحياة ، ويستفيد منها الغير ، كي يكون لك مال تُنْفِقُ منه ، وعلى حركتك أن تَسْعَكَ وتَسَعَّ غيرك .  
وهناك مَنْ ينفق مِمَّا رزقه الله بأن يأخذ لنفسه ما يكفيها ، وينفق الباقي لوجه الله؛ لأنه يضمن أن له إلهاً قادراً على أن يرزقه ، والمضمون عند الله أكثر مما في يده .

« وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل أبا بكر فيما ناله من غنائم ويقول له : ماذا صنعتَ بها يا أبا بكر؟ فيقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه : تصدَّقْتُ بها كلها . فيقول الرسول : وماذا أبقيت؟ يقول أبو بكر : أبقيت الله ورسوله .  
وسأل رسول الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وماذا فعلت يا عمر؟ فيقول ابن الخطاب : تصدَّقْتُ بنصفها والله عندي نصفها .  
وكانه يقول للرسول : « إن كان هناك مصرف تريدني أن أصرف فيه النصف الباقي لله عندي؛ فلسوف أفعل » .

وهكذا رأينا مَنْ يصرف مِمَّا رزقه الله؛ بكل ما رزقه سبحانه ، وهو أبو بكر الصديق؛ ونجد مَنْ ينفق مِمَّا رزقه الله ومستعد لأن ينفق الباقي إن رأى رسول الله مصرفاً يتطلب الإنفاق .  
ونجد من توجيهات الإسلام أن مَنْ يراعى يتيماً؛ فليستعفف فلا يأخذ شيئاً من مال اليتيم إن كان الوليُّ على اليتيم له مال؛ وإن كان الولي فقيراً فليأكل بالمعروف .  
ولقائل أن يسأل : ولماذا تأتي بالفقير لتكون له ولاية على مال اليتيم؟  
وأقول : كي لا يحرم المجتمع من خبرة قادرة على الرعاية؛ فيأتي الفقير صاحب الخبرة؛ وليأكل بالمعروف .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : { وارزقوهم فِيهَا . . . } [ النساء : 5 ]  
ولم يَقُلْ « ارزقوهم منها » أي : خُذُوا الرزق من المَطْمُورِ فيها يملكون بالحركة في هذا المال .  
وهكذا نفهم كيف يُنْفِقُ الإنسان المؤمن مِمَّا رزقه الله؛ فهناك مَنْ ينفق كل ما عنده؛ لأنه واثق من رصيده عند ربه ، وهناك مَنْ ينفق البعض مما رزقه الله؛ وقد تأخذه الأرحمة والكرم فيعطي كل مَنْ يسأله ، وقد ينفق كل ما عنده؛ مثل مَنْ يجلس في جُرْنِ القمح ويريد أن يُزَكِّي يوم الحصاد؛ فيعطي كل مَنْ يسأله؛ إلى أن يفرغ ما عنده .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : { . . . وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

المُسْرِفِينَ } [ الأنعام : 141 ]

وهنا نجد الحق سبحانه يصف هؤلاء المُتَّفِقِينَ في سبيله : { وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً . . . } [ الرعد : 22 ]

والسر هو الصدقة المندوبة ، أما الإنفاق في العلانية؛ فهي الصدقة الواضحة؛ لأن الناس قد تراك غنياً أو يُشاع عنك ذلك ، ولا يرونك وأنت تُخرج الزكاة ، فتتالك ألسنتهم بالسوء؛ وحين يرونك وأنت تنفق وتتصدق؛ فهم يعرفون أنك تؤدي حقَّ الله ، وتشجعهم أنت بأن يُنفقوا مما رزقهم الله .

وصدقة السرِّ وصدقة العَلن أمرها متروك لتقدير الإنسان؛ فهناك مَنْ يعطي الصدقة للدولة لتتصرف فيها هي؛ ويعطي من بعد ذلك للفقراء سرّاً؛ وهذا إنفاق في العَلن وفي السر؛ وجاء الحق بالسر والعلانية؛ لأنه لا يريد أن يجلب الخير عن أيِّ أحد بأي سبب .

وقد يقول قائل : إن فلاناً يُخرج الصدقة رياءً .

وأقول لِمَنْ يتفوّه بمثل هذا القول : أَلَمْ يَسْتَفِدِ الفقير من الصدقة؟ إنه يستفيد ، ولا أحد يدخل في النوايا .

ويتابع سبحانه : { وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيئَةَ . . . } [ الرعد : 22 ]

والذَّرءُ : هو الدَّفْع بشدة؛ أي : يدفعون بالحسنة السيئة بشدة . وأول حسنة إيمانية هي أن تؤمن بالله؛ وبذلك تدفع سيئة الشرك ، أو دفعت السيئة . أي : دفعت الذنب الذي ارتكبه وذلك بالتوبة عنه؛ لأن التوبة حسنة ، وحين ترى مُنكراً ، وهو سيئة ، فأنت تدفعه بحسنة النَّصْح .

أو : أن يكون معنى : { وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيئَةَ . . . } [ الرعد : 22 ]

هو إن فعلت سيئة فأنت تتبعها بحسنة ، والكمال المطلق لله وحده ولرسوله؛ لنفترض أن واحداً لديه سيئة مُلحّة في ناحية من النواحي؛ فالحقُّ سبحانه يأمره أن يدفع السيئة بأن يفعل بجانبها حسنة .

يقول سبحانه : { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيئَاتِ . . . } [ هود : 114 ]

وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لمعاذ رضي الله عنه : « اتق الله أينما تكون ، وأتبع السيئة حسنة تمّحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ولذلك ، فأنت تجد أغلب أعمال الخير في المجتمع لا تصدر من أيِّ رجل رقيق لا يرتكب السيئات؛ فلا سيئة تطارده كي يفعل الحسنة التي يرجو أن تمحو السيئة .

فالسيدة ساعة تُلهب ضمير من ارتكبتها؛ ولا يستطيع أن يدفعها؛ لأنه ارتكبتها؛ فهو يقول لنفسه « فالأبن مدرسة » أو « أبني مسجداً » أو « أقيم مستشفى » أو « أتصدق على الفقراء » .

وهكذا نجد أن أغلب حركات الإحسان قد تكون من أصحاب السيئات ، فلا أحد بقادر على أن يأخذ شيئاً من وراء الله؛ فمن يرتكب سيئة لا بُدَّ أن تُلحَّ عليه بأحاسيس الدُّنْب؛ لتجده مدفوعاً من بعد ذلك إلى فعل الحسنات؛ لعلَّ الحسنات تُعوّض السيئات .

ومن ذرء الحسنة بالسيئة أيضاً؛ أنه إذا أساء إليك إنسان فأنت تكظم غيظك وتعفو؛ وبذلك

فأنت تحسن إليه .

وتجد الحق سبحانه يقول : { . . . ادفع بالتي هي أحسنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ

حَمِيمٌ } [ فصلت : 34 ]

وإذا أنت جَرَّبْتَهَا في حياتك؛ وأخلصتَ المودة لمن دخل في العداوة معك؛ ستجد أنه يستجيب لتلك المودة ويصبح صديقاً حميماً لك .

ولكن هناك مَنْ يقول : جرَّبتُ ذلك ولم تنفع تلك المسألة .

وأقول لمن يقول ذلك : لقد ظننتُ أنك قد دفعتَ بالتي هي أحسن ، لكنك في واقع الحال كنت تترصب بما يحدث منك تجاه مَنْ دخلتَ معه في عداوة ، ولم تُخلص في الدفع بالتي هي أحسن ، وأخذت تُجرب اختبار قول الله؛ فذهبتُ منك طاقة الإخلاص فيما تفعل؛ وظل الآخر العدو على عداوته .

لكنك لو دفعتَ بالتي هي احسن ستجد أن الآية القرآنية فيها كل الصِّدْق؛ لأن الله لا يقول قضية قرآنية ثم تأتي ظاهرة كونية تُكذِّب القرآن .

ولذلك يقول الشاعر :

يَا مَنْ تُضَايِقُهُ الْفِعَالُ مِنَ التِّي وَمِنَ الَّذِي ... دَفَعِ فِدْيَتِكَ بِالَّتِي حَتَّى تَرَى فَإِذَا الَّذِي

أَي : يَا مَنْ تُضَايِقُهُ أفعال الذي بينك وبين عداوة؛ عليك أن تُحسن الدَّفْع التي هي أحسن ، حتى ترى أن العداوة التي كانت بينك وبين ما ذكره الحق سبحانه في قوله : { . . . فَإِذَا الَّذِي

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [ فصلت : 34 ]

ويتابع الحق سبحانه : { . . . أولئك هُمُ عَقَبَى الدار } [ الرعد : 22 ]

أي : أن المتقدمين أولي الألباب الذين اجتمعت لهم تلك الصفات التسعة؛ بدايةً من أنهم يُوفُونَ بعهد الله؛ ولا ينقضون الميثاق؛ ويصلون ما أمر الله أن يُوصَلَ ويخشون ربهم؛ ويخافون سوء

الحساب؛ وصبروا ابتغاء وجه ربهم؛ وأقاموا الصلاة؛ وأنفقوا مما رزقهم الله سرّاً وعلانية؛ ويذرءون بالחסنة السيئة ، هؤلاء هم الذين لهم عُقْبَى الدار .

وعُقْبَى مأخوذة من العقب؛ فالقدم له مقدم وله عَقَب ، وعقب هو ما يعقب الشيء ، ونقول في أفراحنا « والعافية عندكم في المسرات » أي : أننا نتمنى أن تتحقق لكم مَسْرَةٌ مثل التي عندنا ، وتكون عقب المَسْرَةِ التي فرحنا نحن بها .

وهكذا تكون العقبى هي الشيء الذي يعقب غيره ، والذي يعقب الدار الدنيا هي الدار الآخرة . ولذلك يقول الحق سبحانه في الآية التالية مُوضِحاً العاقبة لهؤلاء :

{ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ . . . }

جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ  
كُلِّ بَابٍ (23)

إذن : فالدار الآخرة التي تعقب الدنيا بالنسبة لأولي الألباب هي جنات عدن . و « العَدْن » هو الإقامة الدائمة؛ و جنات عدن هي جنات الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة . وكل نعيم في الدنيا إما أن تفوته بالموت أو يفوتك بأغيار الحياة . أما جنات عدن فهي دار إقامة دائمة؛ بما أن « عدن » تعني مرافقة دائمة للجنات .

والجنات معناها كما نفهم هي البساتين التي فيها أشجار وفيها ثمار؛ وكل ما تشتهي الأنفس ، مع ملاحظة أن هذه الجنات ليست هي المساكن؛ بل في تلك الجنات مسكن بدليل قول الحق سبحانه : { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ . . . } [ التوبة : 72 ]

فالجنات هي الحدائق؛ وفيها مساكن ، ونحن في حياتنا الدنيا نجد الفيلات في وسط الحدائق ، فما بالنا بما يعد به الله من طيب المساكن وسط الجنات؟  
لا بد أن ينطبق عليه وصف الرسول صلى الله عليه وسلم للجنة في الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه :

« أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .  
وهكذا بين الله سبحانه عقي الدار؛ فهي : { جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ . . . } [ الرعد : 23 ]  
وآباء جمع « أب » أي : يدخلها مع أولي الألباب مَنْ كان صالحاً من الآباء مُتبعاً لمنهج الله . وإن سأل سائل : وأين الأمهات؟

أقول : نحن ساعة نثني المتماثلين نُغلب الذكر دائماً ، ولذلك فآباؤهم تعني الأب والأم ، ألم يقل الحق سبحانه في سورة يوسف : { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ . . . } [ يوسف : 100 ]  
وهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة من أولي الألباب الذين استوفوا الشروط التسعة التي تحدتنا عنها؛ فهل استوفى الآباء والأزواج والأبناء الشروط التسعة؟  
ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يعامل خلقه في الدنيا بمقتضى العواطف الموجودة في الذرية؛ فالواحد منا يُحب أولاده وأزواجه وآباءه؛ ومادام يحبهم وقد صلحوا كُلُّ حَسْب طاقته؛ فالحق سبحانه يُلحقهم به .

ولذلك تأتي آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه : { والذين آمنوا واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينَ } [ الطور : 21 ]  
وهنا يمكس القرآن القضية العقلية في الإلحاق بمعنى أن تُلحق ناقصاً بكامل ، فلو كان مُساوياً له في العمل ما سُمي إلحاقاً ، فكل إنسان يأخذ حَقَّه؛ وقد اشترط الحق سبحانه شرطاً واحداً في

إلحاق الذرية بالآباء ، أو إلحاق الآباء بالذرية في الجنة ، وهو الإيمان فقط .  
وأوضح لنا هنا أن الآباء قد تميّزوا بعمل إيماني بدليل قوله تعالى : { وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ . . . } [ الطور : 21 ]

فلم يأخذ سبحانه عمل الأب الذي عمل؛ الابن الذي لم يعمل ، ومزج الاثنين ، ليأخذ المتوسط ، لا ، وذلك كي لا يظلم مَنْ عمل من الآباء أو الأبناء .

ثم إن ذلك لو حدث؛ لما اعتُبِرَ تواجدُ الآباء مع الأبناء في الجنة إلحاقاً؛ لأن الإلحاق يقتضي أن يبقى حَقُّ كل مَنْ عمل؛ ثم يتكرم سبحانه من بعد ذلك بعملية الإلحاق؛ بشرط واحد هو أن يكون الشخص المُلحق مؤمناً .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ . . . } [ الطور : 21 ]

أي : أن الذرية مؤمنة؛ والأزواج مؤمنون؛ والأهل مؤمنون؛ والأبوين مؤمنان ، ولكن الذي يلحق به هو مَنْ يُكرمه الله بهذا الإلحاق كي يُدخِلَ الفرح على قَلْبِ المؤمن حين يرى أولاده معه في الجنة ماداموا مؤمنين؛ وهذه قمة في العدالة ، لماذا؟

والمثل الذي أضربه على ذلك : هَبْ أَنْ أَباً قَدْ حَرَصَ عَلَى أَنْ يَطْعَمَ أَهْلَهُ مِنْ حَلَالٍ؛ فَقَدْ يَعِيشُ أَوْلَادُهُ فِي ضَيْقٍ وَشَطْفٍ؛ بَيْنَمَا نَجِدُ أَبْنَاءَ الْمُنْحَرِفِ يَعِيشُونَ فِي بُحْبُوحَةٍ مِنَ الْعَيْشِ؛ وَهَكَذَا يَنْتَعِمُ أَبْنَاءُ الْمُنْحَرِفِ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَطْعَمُ أَوْلَادَهُ مِنْ حَرَامٍ؛ بَيْنَمَا يَعَانِي أَبْنَاءُ الْأَمِينِ الَّذِي قَدْ يَعتَبِرُهُ الْبَعْضُ مُتْرَمْتاً؛ لِأَنَّهُ يَرعى حَقَّ اللَّهِ ، وَيَرْفُضُ أَكْلَ الْحَرَامِ .

ومادام أولاده الذين يأكلون من حلال قد يُعانون معه من عدم التَّعْمُّ؛ فالحق سبحانه يلحقهم في الجنة بنعيم يعيشه الأب؛ لا يفوتهم فيه شيء؛ ولا يفوته شيء .

وبذلك تسعد الذرية؛ لأنها جاءت من صُلْبِ رجل مؤمن قضى حياته على جادة الصواب؛ رغم أن بعض الناس قد اهتمته في الدنيا بأنه مُتْرَمْتٌ .

ولقائل أن يقول : ألا يوجد تناقض بين هذا الإلحاق وبين قول الحق سبحانه : { لَا يَجْزِي وَالِدٌ

عَنْ وَاٰلِهِ وَلَا مَوْلُوْهُ هُوَ جَاۤزٍ عَنِ الْوَالِدِ شَيْئًا . . . } [ لقمان : 33 ]

وأقول : لا يوجد تناقض؛ لأننا نصلي على الميت صلاة شرعها المُشْرَعُ؛ وفائدتها أن تصل الرحمة للميت المؤمن؛ والإيمان من عمله .

ولذلك يضيف له الحق سبحانه فوق رصيد الإيمان ما يشاؤه هو سبحانه من الرحمة بصلاة الجنائز التي أقامها المسلمون عليه : { جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ } [ الرعد : 23 ]

وكلمة « زوج » تعني المرأة التي يتزوجها الرجل؛ وتعني الرجل الذي تتزوجه المرأة ، ونحن نخطئ

خطأ شائعاً حين نقول « زوجة »؛ بل الصحيح أن نقول « زوج » عن المرأة المنسوبة لرجل بعلاقة الزواج .

وسبحانه يقول : { وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ . . . } [ الأحزاب : 6 ]  
وهكذا نعلم أن جنات عدنٍ هي مكان ينتظم كل شيء؛ ولهذا المكان أبواب متعددة؛ هي أبواب الطاعات التي أدت إلى خير الجزاءات؛ فباب الصلاة يدخله أناس؛ وباب الزكاة يدخله أناس؛ وباب الصبر يدخله أناس؛ وهكذا تتعدد الأبواب؛ وهي إمّا أبواب الطاعات أو أبواب الجزاءات التي تدخل منها الطيبات : { كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ . . . }

{ [ البقرة : 25 ]

فالباب يكون مفتوحاً؛ تأتي منه الفاكهة والثمرات والخيرات على اختلاف ألوانها؛ فمرة تأتي ثمار المانجو من باب؛ وبعد ذلك تأتي ثمار التفاح .

وتلك الأبواب كما قلت هي إمّا للجزاءات؛ أو هي أبواب الطاعات التي أدت إلى الجزاءات ، وتدخل عليهم الملائكة من كل باب؛ فماذا تقول الملائكة؟  
يقول الملائكة لأهل الجنة :

{ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ . . . }

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّ الدَّارِ (24)

والسلام يعني الاطمئنان والرضا الذي لا تأتي بعده الأغيار؛ لأن السلام في الدنيا قد تُعكّر أمره أغيار الحياة؛ فأنتم أيها المؤمنون الذين دخلتم الجنة بريئون من الأغيار .

وقال صلى الله عليه وسلم عن لحظات ما بعد الحساب : « الجنة أبداً ، أو النار أبداً » .

ولذلك يقول سبحانه عن خيرات الجنة : { لَأَمْقُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ } [ الواقعة : 33 ]

والملائكة كما نعلم نوعان :

الملائكة المهيمون الذين يشغلهم ذكر الله تعالى عن أي شيء ولا يدرون بنا؛ ولا يعلمون قصة الخلق؛ وليس لهم شأنٌ بكل ما يجري؛ فليس في باهم إلا الله وهم الملائكة العالون؛ الذين جاء ذكرهم في قصة السجود لآدم حين سأل الحق سبحانه الشيطان : { أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ

العالين } [ ص : 75 ]

أي : أن العالين هنا هم من لم يشملهم أمرُ السجود ، وليس لهم علاقة بالخلق ، وكلُّ مهمتهم ذكر الله فقط .

أما النوع الثاني فهم الملائكة المُدبِّراتُ أمراً ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد استدعى آدم إلى الوجود هو وذريته ، وأعدَّ له كل شيء في الوجود قبل أن ينجي؛ الأرض مخلوقة والسماء مرفوعة؛ والجبال الرُّواسي بما فيها من قُوتٍ؛ والشمس والقمر والنجوم والمياه والسحاب .

والملائكة المُدَبِّرَات هم مَنْ لهم علاقة بالإنسان الخليفة ، وهم مَنْ قال لهم الحق سبحانه : { اسجدوا لأَدَمَ . . . } [ البقرة : 34 ]

وهم الذين يتولَّون أمر الإنسان تنفيذاً لأوامر الحق سبحانه لهم ، ومنهم الحفظة الذين قال فيهم الحق سبحانه : { لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . . . } [ الرعد : 11 ]

أي : أن الأمر صادر من الله سبحانه ، وهم بعد أن يفرغوا من مهمتهم كحفظة من رقيب وعتيد على كل إنسان ، ولن يوجد ما يكتبونه من بعد الحساب وتقرير الجزاء؛ وهنا سيدخل هؤلاء الملائكة على أهل الجنة ليحملوا الطاف الله والهدايا؛ فهم منوط بهم الإنسان الخليفة .  
وسبحانه حين يُورد كلمة في القرآن بموقعها البياني الإعرابي؛ فهي تُؤدِّي المعنى الذي أراده سبحانه . والمثل هو كلمة « سلام »؛ فضيف إبراهيم من الملائكة : { قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ . . . } [ هود : 69 ]

وكان القياس يقتضي أن يقول هو « سلاماً » ، ولكنها قضية إيمانية ، لذلك قال : { سَلَامٌ . . . } [ هود : 69 ]

فالسلام هنا يأت منصوباً؛ بل جاء مرفوعاً؛ لأن السلام للملائكة أمرٌ ثابت لهم؛ وبذلك حيَّاهم إبراهيم بتحية هي احسن من التحية التي حيَّوه بها .  
فنحن نُسلمُ سلاماً؛ وهو يعني أن نتمنى حدوث الفعل ، ولكن إبراهيم عليه السلام فَطِنَ إلى أن السلام أمرٌ ثابت لهم .

وهكذا الحال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة ، فَهَمْ يقولون : { سَلَامٌ . . . } [ الرعد : 24 ] وهي مرفوعة إعرابياً؛ لأن السلام أمر ثابت مُستقر في الجنة ، وهم قالوا ذلك؛ لأنهم يعلمون أن السلام أمر ثابت هناك؛ لا يتغير بتغيُّر الأعمار؛ كما في أمر الدنيا .

والسلام في الجنة لهؤلاء بسبب صبرهم ، كما قال الحق سبحانه على ألسنة الملائكة : { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ . . . } [ الرعد : 24 ]  
وجاء الصبر في صيغة الماضي ، وهي صيغة صادقة؛ فهم قد صبروا في الدنيا؛ وانتهى زمن الصبر بانتهاء التكليف .

وهم هنا في دار جزاء؛ ولذلك يأتي التعبير بالماضي في موقعه؛ لأنهم قد صبروا في دار التكليف على مشقَّات التكليف؛ صبروا على الإيذاء؛ وعلى الأقدار التي أجراها الحق سبحانه عليهم .  
وهكذا يكون قول الحق سبحانه : { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ . . . } [ الرعد : 24 ] في موقعه تماماً .

وكذلك قوله الحق عَمَّنْ تَوَقَّرَتْ فِيهِمُ التَّسَعُّ صِفَاتٌ ، وهم في الدنيا : { وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءً

وَجْهِ رَبِّهِمْ . . . { [ الرعد : 22 ]

وجاء بالصبر هنا في الزمن الماضي؛ رغم أنهم مازالوا في دار التكليف؛ والذي جعل هذا المعنى مُتَّسِعاً هو مَجِيء كل ما أمر به الله بصيغة المضارع؛ مثل قوله تعالى : { الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ . . . { [ الرعد : 20 ]

وهذه مسألة تحتاج إلى تجديد دائم؛ وقوله : { . . . وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ } [ الرعد : 20 ]

وقوله : { وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ . . . } [ الرعد : 21 ]

و { وَيَخْشَوْنَ . . . } [ الرعد : 21 ] ، { وَيَخَافُونَ . . . } [ الرعد : 21 ]

هكذا نرى كل تلك الأفعال تأتي في صيغة المضارع ، ثم تختلف الصيغة إلى الماضي في قوله : {

وَالَّذِينَ صَبَرُوا . . . } [ الرعد : 22 ]

والمتمأمل لكل ذلك يعلم أن كل تلك الأمور تقتضي الصبر؛ وكأن الصبر يسبق كل هذه الأشياء ، وهو القاسم المشترك في كل عهد من العهود السابقة .

وقد عبر الحق سبحانه لأجل هذه اللقطة بالماضي حين جاء حديث الملائكة لهم وهم في الجنة .

وهكذا تقع كلمة الصبر في موقعها؛ لأن الملائكة تخاطبهم بهذا القول وهم في دار البقاء؛ ولأن

المتكلم هو الله؛ فهو يُوضِّح لنا جمال ما يعيش فيه هؤلاء المؤمنون في الدار الآخرة .

ويُذِيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : { . . . فَنِعْمَ عَقْبَى الدار } [ الرعد : 24 ]

وعلمنا أن « عَقْبَى » تعني الأمر الذي يجيء في العقب ، وحين يعرض سبحانه القضية الإيمانية

وصفات المؤمنين المعايشين للقيم الإيمانية؛ فذلك بهدف أن تستشرف النفس أن تكون منهم ،

ولا بُدَّ أن تنفّر النفس من الجانب المقابل لهم .

والمثل هو قول الحق سبحانه : { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } [ الانفطار : 13 ]

ويأتي بمقابلها بعدها : { وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } [ الانفطار : 14 ]

وساعة تقارن بأنهم لو لم يكونوا أبراراً؛ لكانوا في جحيم؛ هنا نعرف قدر نعمة توجيه الحق لهم ،

ليكونوا من أهل الإيمان .

وهكذا نجد أنفسنا أمام أمرين : سلب مَضْرَّة؛ وجلب منفعة ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً

عن النار : { وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا } [ مريم : 71 ]

أي : كلنا سنرى النار .

ويقول سبحانه : { ثُمَّ لَنُرَؤُنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ } [ التكاثر : 7 ]

وذلك لكي يعرف كل مسلم ماذا صنعت به نعمة الإيمان؛ قبل أن يدخل الجنة ، وبذلك يعلم أن

الله سلب منه مَضْرَّة؛ وأنعم عليه بمنفعة ، سلب منه ما يُشقى؛ وأعطاه ما يُفيد .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { فَمَنْ زُخْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ . . . } [ آل عمران

[ 185 :

وإذا كان الحق سبحانه قد وصف أولي الألباب بالأوصاف المذكورة من قبل؛ فهو يُبَيِّن لنا أيضاً خيبة المقابِلين لهم؛ فيقول سبحانه :  
{ والذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ . . . }

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ  
أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25)

ولقائل أن يسأل : وهل آمن هؤلاء وكان بينهم وبين الله عهد ونقضوه؟

ونقول : يصح أنهم قد آمنوا ثم كفروا ، أو : أن الكلام هنا ينصرف إلى عهد الله الأزلي .

يقول سبحانه : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ  
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى . . . } [ الأعراف : 172 ]

وهنا يوضح سبحانه أن مَنْ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وتأكيدهِ بالآيات الكونية التي تدل على وجود الخالق الواحد : { وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ . . . } [ الرعد : 25 ]  
والمقابل لهم هم أولو الألباب الذين كانوا يصِلون ما أمر سبحانه أن يُوصَلَ وهؤلاء الكفرة نقضة العهد : { وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ . . . } [ الرعد : 25 ]

ولم يأتِ الحق سبحانه بالمقابل لِكُلِّ عمل أذاه أولو الألباب؛ فلم يَقُل : « ولا يخشون ربهم »؛  
لأنهم لا يؤمنون بإله؛ ولم يَقُل : « لا يخافون سوء الحساب » لأنهم لا يؤمنون بالبعث .  
وهكذا يتضح لنا أن كل شيء في القرآن جاء بِقَدْرٍ ، وفي تمام موقعه .

ونحن نعلم أن الإفساد في الأرض هو إخراج الصَّالح عن صلاحه ، فأنت قد أقبلت على الكون ،  
وهو مُعَدٌّ لاستقبالك بكل مُقَوِّمات الحياة من مَأْكَلٍ ومَشْرَبٍ وتنفس؛ وغير ذلك من الرزق ،  
واستبقاء النوع بأن أحلَّ لنا سبحانه أن نتزوج ذكراً وأنثى .

والفساد في الكون أن تأتي إلى صالح في ذاته فتفسده؛ ونقول دائماً : إن كنت لا تعرف كيف  
تزيد الصالح صلاحاً؛ فاتركه على حاله؛ واسمع قول الحق سبحانه : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ  
عِلْمٌ . . . } [ الإسراء : 36 ]

فلا تنظر في أيِّ أمرٍ إلى الخير العاجل منه؛ بل انظر إلى ما يؤول إليه الأمر من بعد ذلك؛ أضرُّ  
أم ينفع؟

لأن الضُرَّ الآجل قد يتلصص ويتسلل ببطء وأناة؛ فلا تستطيع له دَفْعاً من بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه في آخر الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها : { . . . أولئك هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ  
سواء الدار } [ الرعد : 25 ]

ونلاحظ أن التعبير هنا جاء باللام ممَّا يدل على أن اللعنة عشقتهم عشق المال للملوك : { . . . }

وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } [ الرعد : 25 ]

أي : عذابها ، وهي النار والعباد بالله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

{ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ . . . }

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ  
(26)

والبسط هو مدُّ الشيء .

وقد أقام العلماء معركة عند تحديد ما هو الرزق ، فهل الرزق هو ما أحله الله فقط؟ أم أن الرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان سواء أكان حلالاً أم حراماً؟

فمن العلماء مَنْ قال : إن الرزق هو الحلال فقط؛ ومنهم من قال : إن الرزق هو كل ما يُنتفع به سواء أكان حلالاً أم حراماً؛ لأنك إن قُلْتَ إن الرزق محصور في الحلال فقط؛ إذن : فَمَنْ كفر بالله من أين يأكل؟

أم يخاطب الحق سبحانه المكابرين قائلاً : { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . . . } [ يونس : 31 ]

وقال سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ } [ الذاريات : 58 ]  
ويقول تعالى : { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ \* فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ } [ الذاريات : 22-23 ]

إذن : فالرزق هو من الله؛ ومن بعد ذلك يأمر « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » .

وقول الحق سبحانه : { اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ . . . } [ الرعد : 26 ]

أي : أنه سبحانه يمدُّ الرزق لِمَنْ يشاء : { وَيَقْدِرُ . . . } [ الرعد : 26 ]

من القَدْر . أي : في حالة إقداره على المُقَدَّر عليه؛ وهو مَنْ يعطيه سبحانه على قَدْر احتياجه؛ لأن القَدْر هو قَطْع شيء على مساحة شيء ، كأن يعطي الفقير ويبسط له الرزق على قَدْر احتياجه .

والحق سبحانه أمرنا أَنْ نُعْطِيَ الزَّكَاةَ للفقير؛ وبطل الفقير عائشاً على فقره؛ لأنه يعيش على الكفاف .

أو : يقدر بمعنى يُضَيِّقُ؛ وساعة يحدث ذلك إياك أن تظن أن التضيق على الفقير ليس لصالحه ، فقد يكون رزقه بالمال الوفير دافعاً للمعصية؛ ومن العفة ألا يجد .

أو : يقدر بمعنى يُضَيِّقُ على إطلاقها ، يقول سبحانه : { لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } [ الطلاق

[ 7 :

ولأن الله قد آتاه فهذا يعني أنه بسط له بقدره .

ويتابع سبحانه : { وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . } [ الرعد : 26 ]

وطبعاً سيفرح بها مَنْ كان رزقه واسعاً؛ والمؤمن هو مَنْ ينظر إلى الرزق ويقول : هو زينة الحياة الدنيا؛ ولكن ما عند الله خَيْرٌ وأبقى .

أما أهل الكفر فقد قالوا : { . . . لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [

الزخرف : 31 ]

ويردُّ الحق سبحانه عليهم : { أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . . } [ الزخرف : 32 ]

وساعةً تبحث في تحديد هذا البعض المبسوط له الرزق؛ والبعض المُقَدَّر عليه في الرزق؛ لن تجد ثباتاً في هذا الأمر؛ لأن الأغيار قد تأخذ من الغني فتجعله فقيراً؛ وقد تنتقل الثروة من الغني إلى الفقير .

وسبحانه قد ضمن أسباباً عُلياً في الرزق؛ لكل من المؤمن والكافر؛ والطائع والعاصي؛ وكلنا قد دخل الحياة ليأخذ بيده من عطاء الربوبية؛ فإن قصّر واحد؛ فليس لهذا المرء من سبب سوى أنه لم يأخذ بأسباب الربوبية وينتفع بها .

وقد يأخذ بها الكافر وينتفع بها .

والحق سبحانه هو القائل : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ

الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ } [ الشورى : 20 ]

إذن : فليس هناك تضيق إلا في الحدود التي يشاؤها الله ، مثل أن يزرع الإنسان الأرض ، ويتعب في الريِّ والحَرْث؛ ثم تأتي صاعقة أو برد مصحوب بصقيع فيأكل الزرع وتُميته .

وفي هذا لَفَتْ للإنسان؛ بأنه سبحانه قد أخذ هذا الإنسان من رزقه؛ وهو العطاء منه؛ كي لا يُفْتَنَ الإنسان بالأسباب ، وقد يأتي رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر . { الله

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . } [ الرعد : 26 ]

والفرح في حدِّ ذاته ليس ممنوعاً ولا مُحَرَّمًا ، ولكن الممنوع هو فرح البطر كفرح قارون : { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ

إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ . . . } [ القصص : 76 ]

والحق سبحانه قد قال : { . . . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [ القصص : 76 ]

وهذا هو فرح البطر الذي لا يحبه الله؛ لأنه سبحانه قال في موقع آخر : { قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ

فَبَدَّلَكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [ يونس : 58 ]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يأتي بفرحهم؛ وبسبب هذا الفرح وهو الحياة الدنيا؛

أي : أنه سبب تافه للفرح ، لأنها قد تُؤخذ منهم وقد يُؤخذون منها ، ولكن الفرح بالآخرة مختلف ، وهو الفرح الحق .

ولذلك يقول فيه الحق سبحانه : { . . . فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [ يونس : 58 ]

ويقيس الحق سبحانه أماننا فرح الحياة الدنيا بالآخرة ، فيقول : { . . . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ } [ الرعد : 26 ]

ومتاع الرجل هو ما يعده إعداداً يُنفقه في سفر قصير ، كالحقيقة الصغيرة التي تضع فيها بعضاً من الملابس والأدوات التي تحضُّك لسفر قصير .

والعاقل هو مَنْ ينظر إلى أقصى ما يمكن أن يفعله الإنسان في الحياة؛ فقد يتعلم إلى أن يصل إلى أرقى درجات العلم؛ ويسعى في الأرض ما وَسِعَهُ السَّعْيُ؛ ثم أخيراً يموت .

والمؤمن هو مَنْ يصل عمل دُنْيَاهُ بِالْآخِرَةِ؛ ليصلَ إلى النعيم الحقيقي ، والمؤمن هو مَنْ يبذل الجهد ليصلَ نفسه برحمة الله؛ لأنها باقية ببقاء الله ، ولأن المؤمن الحق يعلم أن كل غاية لها بَعْدُ؛ لا تعتبر غاية .

ولذلك فالدنيا في حَدِّ ذاتها لا تصلح غايةً للمؤمن ، ولكن الغاية الحَقَّة هي : إمَّا الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا . . . }

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ (27)

ونعلم أن « لولا » إذا دخلت على جملة اسمية فلها وَضْعٌ يختلف عنه وَضْعُهَا إذا دخلت على جملة فعلية ، فحين نقول : « لولا زيد عندك لُرُرْتُكَ » يعني امتناع حدوث شيء لوجود شيء آخر . وحين نقول : لولا تُدَاكِرُ دروسك . فهذا يعني حُضراً على الفعل .

والحق سبحانه يقول : { لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [ النور : 13 ]

والجملة التي دخلت عليها « لولا » في هذه الآية هي جملة فعلية ، وكان الحق سبحانه يحضُّنا هنا على أن نلتفت إلى الآية الكبرى التي نزلت عليه صلى الله عليه وسلم ، وهي القرآن .

وقد تساءل الكافرون كَذِباً عن مجيء آية؛ وكان تساؤلهم بعد مجيء القرآن ، وهذا كذب واقع؛ يناقضون به أنفسهم؛ فقد قالوا : { وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }

[ الزخرف : 31 ]

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حدَّ الإعجاز وتمنَّوا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين مكة أو الطائف .

وهم مَنْ قالوا أيضاً : { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [ الحجر : 6 ]  
ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبغوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب ، ويتذوقون البيان ، ويتذوقون الفصاحة؛ ويقومون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم في البلاغة والقصائد ، فهم أمة تطرَّب فيها الأذن لما ينطقه اللسان .  
ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتى نزلت على الرسل السابقين عليهم السلام ، ونسوا أن الآية الكونية عمرها مَقْصُور على وقت حدوثها؛ وَمَنْ رآها هو مَنْ يصدقها ، أو يصدقها مَنْ يُخبره بها مصدر موثوق به .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبعوث لتنظيم حركة الحياة في دنيا الناس إلى أن تقوم الساعة؛ ولو أنه قد جاء بآية كونية؛ لأخذت زمامها فقط .  
ولذلك شاء الحق سبحانه أن يأتي بآية معجزة باقية إلى أن تقوم الساعة ، فضلاً عن أنه صلى الله عليه وسلم قد جاءت له معجزات حسيّة؛ كتفجُّر الماء من بين أصابعه؛ وحفنة الطعام التي أشبعت جيشاً؛ وأظلتَّه السحابة؛ وحنَّ جذع الشجرة حيناً إليه ليقف من فوقه خطيباً وجاءه الضبُّ مسلماً .

كل تلك آيات كونية هي حُجَّة على مَنْ رآها ، وكذلك معجزات الرُّسل السابقين ، ولولا أن رواها لنا القرآن لَمَا آمَنَّا بها ، وكانت الآيات الكونية التي جاءت مع الرسل هي مجرد إثبات لِمَنْ عاشوا في أزمان الرسل السابقين على أن هؤلاء الرسل مُبَلِّغون عن الله .  
وقد شرح الحق سبحانه هذا الأمر بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ . . . } [ الإسراء : 59 ]  
أي : أن الرسل السابقين الذين نزلوا في أقوامهم وصحبتهم الآيات الكونية قابلوا أيضاً المُكذِّبين بتلك الآيات ، وقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أيضاً :

{ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً \* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً \* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَت عَلَيْنَا كِسْفاً أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً } [ الإسراء : 90-92 ]

ويقول الحق سبحانه في موقع آخر : { وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا . . . } [ الأنعام : 111 ]  
وهكذا يُبَيِّن لنا الحق سبحانه أنهم غارقون في العناد ولن يؤمنوا ، وأن أقوالهم تلك هي مجرد حُجَج يتلکأون بها .

وهم هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقولون : { لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِّن رَّبِّهِ . . . } [ الرعد : 27 ]

وهكذا نجد أنهم يعترفون أن له رباً؛ على الرغم من أنهم قد اتهموه من قبل أنه ساحر ، وأنه والعياذ بالله كاذب ، وحين فَتَرَ عنه الوحي قالوا : « إن ربَّ محمد قد قَلَاهُ » .  
وأنزل الحق سبحانه الوحي : { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى \* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى \*  
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى } [ الضحى : 3-5 ]  
أي : أن الوحي سوف يستمر ، وهكذا فضح الله كذبهم على مرِّ سنوات الرسالة المحمدية .  
وهم هنا يتعنتون في طلب الآية الحِسِّيَّة الكونية؛ وكلمة آية كما عرفنا من قبل هي : إما آية كونية تُلْفِت إلى وجود الخالق .

أو : آية من القرآن فيها تفصيلٌ للأحكام؛ وليست تلك هي الآية التي كانوا يطلبونها .  
أو : آية معجزة تدلُّ على صدق الرسالة .  
وكأنَّ طلب الآيات إنما جاء لأنهم لم يقتنعوا بآية القرآن؛ وهذا دليل غبائهم في استقبال أدلَّة اليقين بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن القرآن جاء معجزةً ، وجاء منهجاً .  
والمعجزة كما أوضحنا إنما تأتي من جنس ما نبغ فيه القوم ، ولا يأتي سبحانه بمعجزة لقوم لم يُحْسِنُوا شَيْئاً مِّثْلَهَا ولم ينبغوا فيه .  
فالذين كانوا يمارسون السِّحْر جاءت المعجزة مع الرسول المرسل إليهم من نفس النوع ، والذين كانوا يعرفون الطبَّ ، جاء لهم رسول ، ومعه معجزة مما نبغوا فيه .  
وقد جاءت معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم من جنس ما نبغوا فيه؛ فضلاً عن أن القرآن معجزة ومنهج في آنٍ واحد ، بخلاف معجزة التوقيت والتقييد في زمن .  
ومع ذلك ، فإن كفار مكة تعنتوا ، ولم يكتفوا بالقرآن معجزةً وآيات تدلُّهم إلى سواء السبيل؛ بل اقترحوا هم الآية حسب أهوائهم؛ ولذلك نجدهم قد ضلُّوا .  
ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : { . . . قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ }

[ الرعد : 27 ]

وهنا نقف وَفْقَةً؛ لأن البعض يحاول أن يُسْقِط عن الإنسان مسؤولية التكليف؛ ويدَّعي أن الله هو الذي يمنع هداية هؤلاء الكافرين .

ونقول : إننا إن استقرنا آيات القرآن؛ سنجد قَوْل الحق سبحانه : { . . . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [ البقرة : 264 ]

ونجد قول الحق سبحانه : { . . . إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [ المائدة : 51 ]

ويقول سبحانه أيضاً : { . . . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [ المائدة : 108 ]

ومن كل ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذي يجعله سبحانه لا يهديهم ، لأن الإنسان مادام قد جاء له حُكْمٌ أعلى ، ويؤمن بمصدر الحكم؛ فمن أنزل هذا الحكم يُعطي للإنسان معونة ، لكن مَنْ يكذب بمصدر الحُكْمِ الأعلى فسبحانه يتركه بلا معونة .  
أما مَنْ يرجع إلى الله؛ فسبحانه يهديه ويدلُّه ويعينه بكل المدد .  
ويواصل الحق ما يمنحه سبحانه من اطمئنان لمن يُتَّيَّب إليه ، فيقول :  
{ الذين آمنوا وتطمئنُّ . . . }

### الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)

ومعنى الاطمئنان سكون القلب واستقراره وأنسه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل ليناقشها من جديد .

ونعلم أن الإنسان له حواسٌ إدراكية يستقبل بها المحسَّات؛ وله عقل يأخذ هذه الأشياء ويهضمها؛ بعد إدراكها؛ ويفحصها جيداً ، ويتلمس مدى صدقها أو كذبها؛ ويستخرج من كل ذلك قضية واضحة يُبقيها في قلبه لتصبح عقيدة ، لأنها وصلت إلى مرحلة الوجدان المحب لاختيار المحبوب .

وهكذا تمرُّ العقيدة بعدة مراحل؛ فهي أولاً إدراك حسي؛ ثم مرحلة التفكير العقلي؛ ثم مرحلة الاستجلاء للحقيقة؛ ثم الاستقرار في القلب لتصبح عقيدة .

ولذلك يقول سبحانه : { وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ . . . } [ الرعد : 28 ]

فاطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة؛ وقد يمرُّ على القلب بعضٌ من الأغيار التي تزلزل الإيمان ، ونقول لمن تمرُّ به تلك الهواجس من الأغيار : أنت لم تُعطِ الربوبية حقها؛ لأنك أنت المعلوم في أي شيء ينالك .

فلو أحسنت استقبال القدر فيما يمرُّ بك من أحداث ، لعلمتَ تقصيرك فيما لك فيه دُخْلٌ بأيِّ حادث وقع عليك نتيجة لعملك ، أما ما وقع عليك ولا دُخْلٌ لك فيه؛ فهذا من أمر القدر الذي أَرادَه الحقُّ لك لحكمة قد لا تعلمها ، وهي خير لك .

إذن : استقبال القدر إن كان من خارج النفس فهو لك ، وإن كان من داخل النفس فهو عليك . ولو قُمتَ بإحصاء ما ينفعك من وقوع القدر عليك لوجدته أكثر بكثير مما سلَّبه منك . والمثل هو الشاب الذي استذكر دروسه واستعدَّ للامتحان؛ لكن مرضاً داهمه قبل الامتحان ومنعه من أدائه .

هذا الشاب فعل ما عليه؛ وشاء الله أن ينزل عليه هذا القدر لحكمة ما؛ كأن يمنع عنه حسد جيرانه؛ أو حسد مَنْ يكرهون أمه أو أباه ، أو يحميه من الغرور والفتنة في أنه مُعتمد على الأسباب لا على المُسبَّب . أو تأخير مرادك أمام مطلوب الله يكون خيراً .

وهكذا فعلى الإنسان المؤمن أن يكون موصولاً بالمُسَبِّبِ الأعلى ، وأن يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأن يعلم أن التوكل على الله يعني أن تعمل الجوارح ، وأن تتوكل القلوب؛ لأن التوكل عملٌ قلبي ، وليس عمل القوالب .  
وليُنْتَبِهْ كُلُّ مَنْ إِلَى أَنْ اللَّهُ قَدْ يُعْجِبُ الْأَسْبَابَ كَيْ لَا نَعْتَرِ بِهَا ، وبذلك يعتدل إيمانك به؛ ويعتدل إيمان غيرك .

وقد ترى شاباً ذكياً قادراً على الاستيعاب ، ولكنه لا ينال المجموع المناسب للكلية التي كان يرغبها؛ فيسجد لله شكراً؛ مُتَقَبِّلاً قِضَاءَ اللَّهِ وَقَدْرَهُ؛ فَيُؤَفِّقُهُ اللَّهُ إِلَى كَلِيَّةٍ أُخْرَى وَيَنْبَغُ فِيهَا؛ لِيَكُونَ أَحَدَ الْبَارِزِينَ فِي الْمَجَالِ الْجَدِيدِ .

ولهذا يقول الحق سبحانه : { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [ البقرة : 216 ]  
وهكذا نجد أن مَنْ يَقْبَلُ قَدْرَ اللَّهِ فِيهِ ، ويذكر أن له رباً فوق كل الأسباب؛ فالاطمئنان يغمُر قلبه أمام أيِّ حَدَثٍ مَهْمَا كَانَ .

وهكذا يطمئن القلب بذكر الله؛ وتهون كُلُّ الْأَسْبَابِ؛ لأن الأسباب إن عجزت؛ فلن يعجز المُسَبِّبُ .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه الآية في معرض حديثه عن التشكيك الذي يُثِيرُهُ الْكَافِرُونَ ، وحين يسمع المسلمون هذا التشكيك؛ فقد توجد بعض الخواطر والتساؤلات : لماذا لم يأت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسّية مثل الرُّسُلِ السَّابِقِينَ لتنفض هذه المشككة ، وينتهي هذا العناد؟

ولكن تلك الخواطر لا تنزع من المؤمنين إيمانهم؛ ولذلك يُنْزِلُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ قَوْلَهُ الَّذِي يُطْمَئِنُّ : {  
الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ . . . } [ الرعد : 28 ]

والذِّكْرُ فِي اللُّغَةِ جَاءَ لِمَعَانٍ شَتَّى؛ فمِرَّةٌ يُطْلَقُ الذِّكْرُ ، وَيُرَادُ بِهِ الْكِتَابُ أَيْ : الْقُرْآنُ : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [ الحجر : 9 ]

ويأتي الذكر مرّة ، ويُراد به الصِّبْتِ والشهرة والنباهة ، يقول تعالى : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ } [ الزخرف : 44 ]

أي : أنه شَرَفٌ عَظِيمٌ لَكَ فِي التَّارِيخِ ، وكذلك لقومك أن تأتي المعجزة القرآنية من جنس لغتهم التي يتكلمون بها .

وقد يطلق الذكر على الاعتبار؛ والحق سبحانه يقول : { . . . وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا } [ الفرقان : 18 ]

أي : نسوا العِبْرَ التي وقعت للأمم التي عاشت من قبلهم؛ فنصر الله الدين رغم عناد هؤلاء .

وقد يطلق الذكر على كُلِّ ما يبعثه الحق سبحانه على لسان أيِّ رسول : { . . . فاسألوا أهل  
الذكر إن كنتم لا تعلمون } [ النحل : 43 ]  
وقد يُطلق الذِّكْر على العطاء الخيّر من الله .

ويُطلق الذِّكْر على تذكر الله دائماً؛ وهو سبحانه القائل : { فاذكروني أذكركم . . . } [ البقرة :  
152 ]

أي : اذكروني بالطاعة أذكركم بالخير والتجليات ، فإذا كان الذِّكْر بهذه المعاني؛ فنحن نجد  
الاطمئنان في أيِّ منها ، فالذكر بمعنى القرآن يُورث الاطمئنان .  
ويقول الحق سبحانه : { يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً \* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً \* هُوَ  
الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظلمات إِلَى النور وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً } [  
الأحزاب : 4143 ]

فكُلُّ آية تأتي من القرآن كانت تُطمئنُ الرسول صلى الله عليه وسلم أنه صادقُ البلاغ عن الله؛  
فقد كان المسلمون قلة مُضطهدة ، ولا يقدرّون على حماية أنفسهم ، ولا على حماية ذويهم .  
ويقول الحق سبحانه في هذا الظرف : { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } [ القمر : 45 ]  
ويتساءل عمر رضي الله عنه : أيُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا؛ وقد هاجر  
بعضنا إلى الحبشة خوفاً من الاضطهاد؟

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير إلى بدر ، ويُحدِّد أماكن مصارع كبار رموز الكفر من  
صناديد قريش؛ ويقول : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »؛ بل ويأتي بالكيفية التي يقع  
بها القتل على صناديد قريش؛ ويتلو قول الحق سبحانه : { سَنَسِمُهُ عَلَى الخِرطوم } [ القلم :

[ 16 ]

وبعد ذلك يأتيون برأس الرجل الذي قال عنه رسول الله ذلك؛ فيجدون الضربة قد جاءت على  
أنفه .

فمن ذَا الذي يتحكم في مواقع الموت؟

إن ذلك لا يتأتى إلا من إله هو الله؛ وهو الذي أخبر محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا الخبر :  
{ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } [ القمر : 45 ]

وقد طمأن هذا القولُ القومَ الذين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا يعلم الغيب ،  
ولا يعلم الكيفية التي يموت عليها أيُّ كافر وأيُّ جبار؛ وهو صلى الله عليه وسلم يخبرهم بها وهم  
في منتهى الضَّعْف .

وهذا الإخبار دليل على أن رصيده قويٌّ عند علام الغيوب .

إذن : فقول الحق سبحانه : { . . . أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [ الرعد : 28 ]

يعني : أن القلوب تطمئن بالقرآن وما فيه من أخبار صادقة تمام الصدق ، لتؤكد أن محمداً صلى الله عليه وسلم مُبَلِّغ عن ربه؛ وأن القرآن ليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم بل هو من عند الله .

وهكذا استقبل المؤمنون محمداً صلى الله عليه وسلم وصدّقوا ما جاء به؛ فهذا هي خديجة رضي الله عنها وأرضاها لم تكن قد سمعت القرآن؛ وما أن أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخاوفه من أن ما يأتيه قد يكون جنأً ، فقالت : « إنك لتصل الرّحم ، وتحمل الكّل ، وتكسب المعدوم ، وتقرّي الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، والله ما يخزيك الله أبداً » .

وهاهو أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه يصدق أن محمداً رسول من الله ، فَوَرَّ أن يخبره بذلك . وهكذا نجده صلى الله عليه وسلم قد امتلك سماتاً؛ وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل من حوله يُصدّقون كلّ ما يقول فَوَرَّ أن ينطق .

ونلاحظ أن الذين آمنوا برسالته صلى الله عليه وسلم ؛ لم يؤمنوا لأن القرآن أخذهم؛ ولكنهم آمنوا لأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكذبهم القول ، وسيرته قبل البعثة معجزة في حدّ ذاتها ، وهي التي أدّت إلى تصديق الأوّلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الكفار فقد أخذهم القرآن؛ واستمال قلوبهم ، وتمنّوا لو نزل على واحد آخر غير محمد صلى الله عليه وسلم .

وحين يرى المؤمنون أن القرآن يُخبرهم بالمواقف التي يعيشونها ، ولا يعرفون لها تفسيراً؛ ويخبرهم أيضاً بالأحداث التي سوف تقع ، ثم يجدون المستقبل وقد جاء بها وفقاً لما جاء بالقرآن ، هنا يتأكد لهم أن القرآن ليس من عند محمد ، بل هو من عند ربّ محمد صلى الله عليه وسلم .

ولذلك فحين يُثير الكفار خزعبلاتهم للتشكيك في محمد صلى الله عليه وسلم يأتي القرآن مُطمئناً للمؤمنين؛ فلا تؤثر فيهم خزعبلات الكفار .

والمؤمن يذكر الله بالخيرات؛ ويعتبر من كل ما يمرُّ به ، وبكل ما جاء بكتاب الله؛ وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئنُ بذكر الله؛ لأنه قد آمن إيماناً صدقاً .

وقد لمس المؤمنون أن أخبار النبي التي يقولها لهم قد تعدّت محيطهم البيئيّ المحدود إلى العالم الواسع بجناحيه الشرقي في فارس ، والغربي في الروم .

وقد أعلن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل المثال خبر انتصار الروم على الفرس ، حين أنزل الحق سبحانه قوله : { الم \* غَلَبَتِ الروم \* في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون \* في بضع سنين . . } [ الروم : 1-4 ]

فأروني أي عبقرية في العالم تستطيع أن تتحكم في نتيجة معركة بين قوتين تصطرعان وتقتتلان؛ وبعد ذلك يحدد من الذي سينتصر ، ومن الذي سيُهزم بعد فترة من الزمن تتراوح من خمس إلى

تَسَع سنوات؟

وأيضاً تأتي الأحداث العالمية التي لا يعلم عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، وتوافق ما جاء بالقرآن .

وكُلُّ ذلك يجعل المؤمنين بالقرآن في حالة اطمئنان إلى أن هذا القرآن صادق ، وأنه من عند الله ، ويُصدّق هذا قول الحق سبحانه : { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

القلوب } [ الرعد : 28 ]

ونعلم أن الكون قد استقبل الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام استقبالاً ، وقد هَيَّئ له فيه كُلُّ شيء من مُقَوِّمات الحياة؛ وصار الإنسان يعيش في أسباب الله ، تلك الأسباب الممدودة من يد الله؛ فَنَأْخُذُ بِهَا وَتَتَرَقَّى حَيَاتُنَا بِقَدْرِ مَا نَبْذُلُ مِنْ جَهْدٍ .

وما أنْ نَمُوتَ حَتَّى نَصِلَ إِلَى أَرْقَى حَيَاةٍ؛ إِنْ كَانَ عَمَلُنَا صَالِحاً وَحَسَنَ إِيمَانِنَا بِاللَّهِ؛ فَبَعْدَ أَنْ كُنَّا نَعِيشُ فِي الدُّنْيَا بِأَسْبَابِ اللَّهِ الْمَمْدُودَةِ؛ فَنَحْنُ نَعِيشُ فِي الْآخِرَةِ بِالْمُسَبَّبِ فِي جَنَّتِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْمُتَّقِينَ .

وقول الحق سبحانه : { . . . أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [ الرعد : 28 ]

يعني : أن الاطمئنان مُسْتَوْعِبٌ لِكُلِّ الْقُلُوبِ؛ فَكُلُّ إِنْسَانٍ لَهُ زَاوِيَةٌ يَضْطَرِبُ فِيهَا قَلْبُهُ؛ وَمَا أَنْ يَذْكَرَ اللَّهُ حَتَّى يَجِدَ الْاطْمَئِنَانَ وَيَتَثَبَّتَ قَلْبُهُ .

وقد حاول المستشرقون أن يقيموا ضَجَّةً حَوْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى : { . . . أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

{ [ الرعد : 28 ]

وتساءلوا : كيف يقول القرآن هنا أن الذِّكْرَ يُطْمَئِنُّ الْقَلْبُ؛ ويقول في آية أخرى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . . } [ الأنفال : 2 ]

فأَيُّ الْمَعْنِيَيْنِ هُوَ الْمُرَادُ؟

ولو أن المستشرقين قد استقبلوا القرآن بالملكة العربية الصحيحة لَعَلِمُوا الْفَارِقَ بَيْنَ : { . . . أَلَا

بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [ الرعد : 28 ]

وبين قول الحق سبحانه : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . . } [ الأنفال :

[ 2

فكأنه إذا ذُكِرَ اللَّهُ أَمَامَ النَّاسِ؛ وَكَانَ الْإِنْسَانُ فِي عَقْلَةٍ عَنِ اللَّهِ؛ هُنَا يَنْتَبِهُ الْإِنْسَانُ بِوَجَلٍ .

أو : أن الحق سبحانه يخاطب الخلق جميعاً بما فيهم من غرائز وعواطف ومواجيد؛ فلا يوجد

إنسان كامل؛ وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ هَفْوَةٌ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ .

وحين يتذكر الإنسان إسرافه من جهة سيئة؛ فهو يَوجَلُ؛ وحين يتذكر عَفْوَ اللَّهِ وَتَوْبَتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ

يَطْمَئِنُ .

ويقول سبحانه بعد ذلك :  
{ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا . . . }

### الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا ب (29)

وطُوبَى من الشيء الطيب؛ أي : سِلاَقُونَ شيئاً طيباً في كلِّ مظهره : شكلاً ولَوْناً وطَعْمًا ومزاجاً وشهوة ، فكلُّ ما يشتهيهِ الواحد منهم سيجده طيباً؛ وكأن الأمر الطيب موجوداً لهم .

وقول الحق سبحانه : { وَحَسُنَ مَا ب } [ الرعد : 29 ]

أي : حُسْنُ مرجعهم إلى مَنْ خلقهم أولاً ، وأعاشهم بالأسباب؛ ثم أخذهم ليعيشوا بالمُسَبِّب الأعلى؛ وبإمكانية « كُنْ فيكون » .

ويريد الحق سبحانه من بعد ذلك أن يُوضِّح لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه رسول من الرُّسُل؛ وكان كل رسول إلى أيِّ أمة يصحب معه معجزة من صِنْف ما نبغ فيه قومه .

وقد أرسل الحق سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم ومعه المعجزة التي تناسب قومه؛ فَهَمُّ قد نبغوا في البلاغة والبيان وصناعة الكلام ، وقَوْلُ القصائد الطويلة وأشهرها المُعلِّقات السبع؛ ولهم أسواقٌ أدبية مثل : سوق عكاظ ، وسوق ذي الحجاز .

ولذلك جاءت معجزته صلى الله عليه وسلم من جنس ما نبغوا فيه؛ كي تأتيهم الحُجَّة والتعجيز . ولو كانت المعجزة في مجال لم ينبغوا فيه؛ لقالوا : « لم نعالج أمراً مثل هذا من قبل؛ ولو كُنَّا قد عالجنه لنبغنا فيه » .

وهكذا يتضح لنا أن إرسال الرسول بمعجزة في مجال نبغ فيه قومه هو نوعٌ من إثبات التحدي وإظهار تفوق المعجزة التي جاء بها الرسول .

وهكذا نرى أن إرسال محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن وإن لم يُنفع الكفار إنما كان مُطابِقاً لمنطق الوحي من السماء للرسالات كلها .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

{ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ . . . }

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهِنَّ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ  
بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب (30)

فكما أرسلك الله إلى أمتك؛ فقد سبق أن أرسل سبحانه رسلاً إلى الأمم التي سبقت؛ ولم يُرسل مع أيِّ منهم معجزة تناقض ما نبغ فيه قومه؛ كي لا يقول واحدٌ أن المعجزة التي جاءت مع الرسول تتناول ضرباً لم يألفوه؛ ولو كانوا قد أَلْفَوْه لَمَا تَفَوَّقَ عليهم الرسول .

وقول الحق : { كَذَلِكَ . . . } [ الرعد : 30 ] يعني : كهذا الإرسال السابق للرسول جاء بَعَثَكَ إلى أميتك ، كنتك الأمم السابقة .

ويأتي الحق سبحانه هنا بالاسم الذي كان يجب أن يُقدروه حَقَّ قَدْرِهِ وهو « الرحمن » فلم يُقَلْ : وهم يكفرون بالله بل قال : { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ . . . } [ الرعد : 30 ] فهم يعيشون رغم كُفْرِهِمْ في رزق من الله الرحمن ، وكل ما حولهم وما يُقَيِّتُهُمْ وما يَسْتَمْتَعُونَ به من نِعَمِ عَطَاءَاتٍ من الله .

وهم لا يقومون بأداء أيِّ من تكاليف الله؛ فكان من اللياقة أن يذكرُوا فَضْلَ الله عليهم؛ وأن يؤمنوا به؛ لأن المطلوب الألوهية هو القيام بالعبادة .

وهو سبحانه هنا يأتي باسمه « الرحمن »؛ والذي يفيد التطوع بالخير؛ وكان من الواجب أن يقدرُوا هذا الخير الذي قَدَّمَهُ لهم سبحانه ، دون أن يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

وكان يجب أن يعتبروا ويعلموا أنهم يتجهون إليه سبحانه بالعبادة؛ وأن يُنْقِذُوا التكليف العبادي . وفي صلح الحديبية دارت المفاوضات بين المسلمين وكفار قريش الذين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخول مكة ، ولكنهم قَبِلُوا التعاقد معه ، فكان ذلك اعترافاً منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وصَحْبِهِ الذين صاروا قوة تُعَاهِدُ؛ تأخذ وتعطي .

ولذلك نجد سيدنا أبا بكر رضي الله عنه يقول : « ما كان في الإسلام نصرٌ أعظم من نصر الحديبية » .

فقد بدأت قريش في الحديبية الاعتراف برسول الله وأمة الإسلام؛ وأخذوا هُدْنَةَ طويلة تمكَّن خلالها محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته من أن يغزوا القبائل التي تعيش حول قريش؛ حيث كانت تذهب سريةً ومعها مُبَشِّرٌ بدين الله؛ فتسلم القبائل قبيلةً من بعد قبيلة . وهكذا كانت الحديبية هي أعظم نصر في الإسلام؛ فقد سكنت قريش؛ وتفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه لدعوة القبائل الخيطة بما للإسلام .

ولكن الناس لم يتسع ظنُّهم لما بين محمد وربِّه . والعباد دائماً يَعْجَلُونَ ، والله لا يَعْجَلُ بِعَجَلَةِ العباد حتَّى تبلغَ الأمور ما أراد .

« وحين جاءت لحظة التعاقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش في الحديبية ، وبدأ عليُّ بن أبي طالب في كتابة صيغة المعاهدة ، كتب « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فاعترض سهيل بن عمرو وقال : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو » .

وأصر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن تُكتب صفة محمد كرسول ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني . اكتب محمد بن عبد الله » . ولكن علياً كَرَّمَ اللهُ وجهه يُصِرُّ على أن يكتب صفة محمد كرسول من الله؛ فيُنطق الحق سبحانه

رسوله صلى الله عليه وسلم ليقول لعلّي : « ستسام مثلها فتقبل  
 » . ولما تولى عليّ كرم الله وجهه بعد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، وقامت  
 المعركة بين علي ومعاوية؛ ثم اتفق الطرفان على عَقْد معاهدة؛ وكتب الكاتب « هذا ما قاضى  
 عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » فقال عمرو بن العاص مندوب معاوية : « اكتب اسمه  
 واسم أبيه ، هو أميركم وليس أميرنا » .  
 وهنا تذكّر علي كرم الله وجهه ما قاله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستسام مثلها  
 فتقبل » وقبّلها فقال : « امحُ أمير المؤمنين ، واكتب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب » .

وتحققت مقولة الرسول صلى الله عليه وسلم .  
 ومن الوقائع التي تُثَبِّتُ الإيمانَ؛ نجد قصة عمار بن ياسر ، وكان ضمن صُفوف علي كرم الله  
 وجهه وأرضاه في المواجهة مع معاوية؛ وقتله جُنود معاوية؛ فصرخ المسلمون وقالوا : « ويح عمار  
 ، تقتله الفئة الباغية . وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال .  
 وبذلك فهم المسلمون أن الفئة الباغية هي فئة معاوية ، وانتقل كثير من المسلمين الذين كانوا في  
 صفّ معاوية إلى صفّ علي بن أبي طالب؛ فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : تفشّت في  
 الجيش فاشية ، إن استمرت لن يبقى معنا أحد؛ فقد قتلنا عمار بن ياسر؛ وذكر صحابة رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ويح عمار ، تقتله الفئة الباغية » وقد فهم المقاتلون معنا أن  
 الفئة الباغية هي فتننا .  
 وكان معاوية من الدهاء بمنزلة؛ فقال : اسع في الجيش وقل : « إنما قتله مَنْ أخرجته » ويعني عليّاً  
 . ولما وصل هذا القول لعلّي قال : ومَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ، وقد أخرجته للقتال محمد  
 صلى الله عليه وسلم !؟

وهنا في قول الحق سبحانه : { كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ . . . } [ الرعد

: 30 ]

إنما يعني أن الحق قد أرسلك يا محمد بمعجزة تناسب ما نبغ فيه قومك ، وطلب غير ذلك هو  
 جهل بواقع الرسالات وتعتت يقصد منه مزيد من ابتعادهم عن الإيمان .  
 وقول الحق سبحانه : { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي .

. . } [ الرعد : 30 ]

أي : أنهم حين يعلنون الكفر فأنت تصادمهم بإعلان الإيمان ، وتقول : { هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

. . } [ الرعد : 30 ]

وكلمة « ربي » تنسجم مع كلمة « الرحمن » الذي يُنعم بالنعمة كلها؛ وهو المتولّي تربيتي؛ ولو لم

يفعل سِوَى خَلْقِي وتربيتي ومَدِّي بالحياة ومُقَوِّمَاتِهَا؛ لَكَانَ يَكْفِي ذلك لأعبده وحده ولا أشرك به أحداً .

ولو أن الإنسان قد أشرك بالله؛ لالتفت مرة لذلك الإله؛ ومرة أخرى للإله الآخر؛ ومرة ثالثة للإله الثالث وهكذا ، وشاء الله سبحانه أن يريح الإنسان من هذا التشتت بعقيدة التوحيد .  
ويأتي القرآن ليطمئن القلوب أيضاً وليذكر : { ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [ الزمر : 29 ]  
وهكذا يعرض لنا القرآن صورتين :

الصورة الأولى : لرجل يملكه أكثر من سيد ، يعارضون بعضهم البعض .

والصورة الثانية : لرجل آخر ، يملكه سيد واحد .

ولابد للعقل أن يعلم أن السيد الواحد افضل من الأسياد المتعددين؛ لأن تعدد الأسياد فساد وإفساد ، يقول الحق سبحانه : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [ الأنبياء : 22 ]

والعقل هو مَنْ لا يُسَلِّم نفسه إلا لسيد واحد يثق أنه أمين عليه ، ونحن في حياتنا نقول : ما يحكم به فلان أنا أرضى به؛ وقد وكَلْتَه في كذا . ولا أحد مِنَّا يُسَلِّم نفسه إلا لمن يرى أنه أمين على هذا الإسلام ، ولا بُدَّ أن يكون أميناً وقوياً ، ويقدر على تنفيذ مطلوبه .

والرسول صلى الله عليه وسلم في المعركة العنيفة مع صناديد قريش قال : « إِيَّيْ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » ، وهذه شهادة منه على أنه توكل على القوي الأمين الحكيم؛ والرسول لم يَقُلْ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ؛ ولكنه قال : { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . . . } [ الرعد : 30 ]

والفارق بين الْقَوْلَيْنِ كبير ، فحين تقول « عليه توكلت » فأنت تَقْصِر التوكل عليه وحده؛ ولكن إن قُلْتَ : « توكلت عليه » . فأنت تستطيع أن تضيف وتعطف عدداً آخر ممن يمكنك التوكل عليهم .

ولذلك نقول : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ . . . } [ الفاتحة : 5 ]

ونحصر العبادة فيه وله وحده سبحانه؛ فلا تتعداه إلى غيره؛ ولو أنها أُخْرِتْ لَجَازَ أَنْ يعطف عليه . ويُقَالُ في ذلك « اسم قصر » أي : أن العبادة مَقْصُورَةٌ عليه؛ وكذلك التوكل . { قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . . . } [ الرعد : 30 ]

أي : أنني لا آخذ أوامري من أحد غيره ومرجعي إليه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

{ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ . . . }

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتَى بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ  
يُنَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا  
قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31)

و ( لو ) حَرْفُ شَرْطٍ يُلْزِمُ لَهَا جَوَابُ شَرْطٍ ، وَقَدْ تَرَكَ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ جَوَابُ الشَّرْطِ هُنَا اعْتِمَادًا  
عَلَى يَقِظَةِ الْمُسْتَمْعِ . وَإِنْ كَانَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ نَاقِصًا حِينَ نَنْطِقُ نَحْنُ بِهِ ، فَهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ حِينَ  
يَأْتِي مِنَ قَوْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ؛ فَهُوَ كَامِلٌ فِيمَنْ تَكَلَّمَ ، وَقَدْ تَرَكَهَا لِيَقِظَةِ الْمُسْتَمْعِ لِلْقُرْآنِ الَّذِي يَبْتَدِرُ  
الْمَعَانِي ، وَيَتَذَكَّرُ مَعَ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ الْحَقُّ : { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ  
لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [ الْأَنْعَامُ : 7 ]  
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ : { وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ  
شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ } [ الْأَنْعَامُ : 111 ]  
إِذَنْ : مِنْ كُلِّ نَظَائِرِ تِلْكَ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ خَوَاطِرِنَا عَنْهَا نَأْخُذُ جَوَابَ الشَّرْطِ الْمُنَاسِبِ لَهَا  
مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ؛ فَيَكُونُ الْمَعْنَى : لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ، أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، أَوْ كُتِبَ  
بِهِ الْمَوْتَى لَمَا آمَنُوا .

وَيُرْوَى أَنَّ بَعْضًا مِنْ مُشْرِكِي قَرِيشٍ مِثْلَ : أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي أُمِيَّةٍ جَلَسَا خَلْفَ الْكَعْبَةِ  
وَأَرْسَلَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ : إِنْ سَرَّكَ أَنْ تَتَّبِعَكَ فَسَيَّرْ لَنَا  
جِبَالَ مَكَّةَ بِالْقُرْآنِ ، فَأَذْهَبَهَا عَنَّا حَتَّى تَنْفَسِحَ ، فَإِنَّمَا أَرْضٌ ضَيْقَةٌ ، وَاجْعَلْ لَنَا فِيهَا عَيْونًا وَأَنْهَارًا  
، حَتَّى نَغْرَسَ وَنَزْرِعَ ، فَلَسْتَ كَمَا زَعَمْتَ بِأَهْوَنَ عَلَى رَبِّكَ مِنْ دَاوُدَ حِينَ سَخَّرَ لَهُ الْجِبَالَ تَسِيرًا  
مَعَهُ ، وَسَخَّرَ لَنَا الرِّيحَ فَتَرَكِبُهَا إِلَى الشَّامِ نَقِضِي عَلَيْهَا مَبْرَتَنَا وَحَوَائِجِنَا ، ثُمَّ نَرْجِعُ مِنْ يَوْمِنَا ، فَقَدْ  
سَخَّرْتَ الرِّيحَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ، وَلَسْتَ بِأَهْوَنَ عَلَى رَبِّكَ مِنْ سُلَيْمَانَ ، وَأُحْبَبِي لَنَا قَصَبٌ  
جَدِّكَ ، أَوْ مَنْ شِئْتَ أَنْتَ مِنْ مَوْتَانَا نَسْأَلُهُ ، أَحَقُّ مَا تَقُولُ أَنْتَ أَمْ بَاطِلٌ؟ فَإِنْ عَيْسَى كَانَ يُحْيِي  
الْمَوْتَى ، وَلَسْتَ بِأَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ ، فَأَنْزَلَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَمَا قَبْلَهَا لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ .  
وَكَانَتْ تِلْكَ كُلُّهَا مَسَائِلَ يَتَلَكَّكُونَ بِهَا لِيَتَّعِدُوا عَنِ الْإِيمَانِ؛ فَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ  
جَاءَ بِمَعْجَزَةٍ مِنْ جِنْسِ مَا نَبَغُوا فِيهِ؛ وَجَاءَ الْقُرْآنُ يَحْمِلُ مِنْهُجَ السَّمَاءِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ .  
وَقَدْ طَلَبُوا أَنْ تَبْتَدِعَ جِبَالَ مَكَّةَ لِيَكُونَ الْوَادِي فَسِيحًا؛ لِيَزْرَعُوا وَيَحْصِدُوا؛ وَطَلَبُوا تَقْطِيعَ الْأَرْضِ ،  
أَيَ : فَصْلَ بَقْعَةٍ عَنْ بَقْعَةٍ؛ وَكَانَ هَذَا يَحْدِثُ بِحُفْرٍ جَدَاوِلَ مِنَ الْمِيَاهِ ، وَقَدْ قَالَ الْكَافِرُونَ : { لَنْ  
نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا } [ الْإِسْرَاءُ : 90 ]

وَالْمُرَادُ مِنْ تَقْطِيعِ الْأَرْضِ حَسَبَ مَطْلُوبِهِمْ أَنْ تَقْصُرَ الْمَسَافَةُ بَيْنَ مَكَانٍ وَآخَرَ ، بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ  
السَّائِرُ أَنْ يَسْتَرِيحَ كُلَّ فِتْرَةٍ؛ فَالْمَسَافِرُ يَتْرِكُ فِي كُلِّ خَطْوَةٍ مِنْ خَطَوَاتِهِ أَرْضًا؛ وَيَصِلُ إِلَى أَرْضٍ  
أُخْرَى ، وَكُلُّ يَقْطَعِ الْأَرْضَ عَلَى حَسَبِ قُدْرَتِهِ وَوَسِيلَةَ الْمَوَاصِلَاتِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا .

فالمُتَرْف يريد أن يكون المسافة كبيرة بين قطعة الأرض والأخرى؛ لأنه يملك الجياد التي يمكن أن يقطع بها المسافة بسهولة ، أما مَنْ ليس لديه مطية؛ فهو يجب أن تكون المسافات قريبة ليستطيع أن يستريح .

ونلاحظ أن ذلك في زماننا المعاصر ، فحين زاد الترف صارت السيارات تقطع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية دون توقُّف؛ عكس ما كان يحدث قديماً حين كانت السيارات تحتاج إلى راحة ومعها المسافرون بها ، فيتوقفون في مُنتَصَفِ الطريق .

ومثل ذلك قد حدث في مملكة سبأ ، يقول الحق سبحانه : { فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . . . } [ سبأ : 19 ]

أي : اجعل المسافة بين مكان وآخر بعيدة ، كي يتمتع المُسَافِرُ القادرُ بالمناظر الطيبة .  
ولاحظنا أيضاً تمادي المشركين من قريش في طلب المعجزات الخارقة؛ بأن طلبوا إحياء المَوْتَى في قول الحق سبحانه : { أَوْ كَلِّمْ بِهِ الْمَوْتَى . . . } [ الرعد : 31 ]  
وبعضهم طلب إحياء قصي بن كلاب الجد الأكبر لرسول الله ولقريش؛ ليسألوه : أَحَقُّ ما جاء به محمد؟ ولكن القرآن لم يَأْتِ لِمِثْلِ تلك الأمور؛ وحتى لو كان قد جاء بها لَمَا آمنوا .  
ومهمة القرآن تتركز في أنه منهج خَاتَمٌ صالح لكل عصر؛ وتلك معجزته .

ويقول سبحانه : { بَلِ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعاً . . . } [ الرعد : 31 ]  
وكلمة « أمر » تدلُّ على أنه شيء واحد ، وكلمة « جميعاً » تدل على مُتَعَدِّد ، وهكذا نجد أن تعدُّد الرسائل والمعجزات إنما يدلُّ على أن كُلَّ من أمر تلك الرسائل إنما صدرَ عن الحق سبحانه؛ وهو الذي اختار كلَّ مُعْجِزَةٍ لتناسب القومَ الذين ينزل فيهم الرسول .  
ويتابع سبحانه : { أَفَلَمْ يَبْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً . . . } [ الرعد : 31 ]

وكلمة « يبأس » يُقَالُ إنها هنا بمعنى « يعلم »؛ فهي لغة بلهجة قريش ، أي : ألم يعلم الذين آمنوا أن هؤلاء الكفار لم يهتدوا؛ لأن الله لم يَشَأْ هدايتهم .  
وكان المؤمنون يودُّون أن يؤمنَ صناديدُ قريش كي يَخْفَ الجهد عن الفنة المسلمة؛ فلا يضطهدوهم ، ولا يضايقوهم في أرزاقهم ولا في عيالهم .

وبوضوح الحق سبحانه هنا أن تلك المسألة ليست مُرتبطة برغبة المؤمن من هؤلاء؛ بل الإيمان مسألة تتطلب أن يُخْرِجَ الإنسان ما في قلبه من عقيدة ، وينظر إلى القضايا بتجرُّد ، وما يقتنع به يُدْخِلُهُ في قلبه .

وبذلك يمتلئ الوعاء العقدي بما يُفيد؛ كي لا تدخل في قلبك عقيدة ، ولا تأتي عقيدة أخرى تطرُدُ العقيدة ، أو تُزيغ قلبك عمَّا تعتقد ، يقول تعالى : { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . . }

#### { [ الأحزاب : 4 ] }

فالوعاء القلبي كالوعاء الماديّ تماماً؛ لا يقبل أن يتداخل فيه جِزْمان أبداً ، فإن دخل جِزْم على جِزْم؛ إن كان أقوى فهو يطرد من القلب الأذنى منه .  
والمثلُّ على ذلك : لنفترض أن عندنا إناءً ممتلئاً عن آخره؛ ويحاول واحدٌ منا أن يضع فيه كُرَةً صغيرة من الحديد؛ هنا سيجد أن الماء يفيضُ من حَوائِجِ الإناءِ بما يُوازي حجم كرة الحديد ، وهذا ما يحدث في الإناء الماديّ ، وكذلك الحال في الإناء العَقْدِيّ .

ولذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي :

« لا يجتمع حيي وحب الدنيا في قلب » .

وهكذا نرى أن هناك حَيِّزاً للمعاني أيضاً مثلما يوجد حَيِّزٌ للمادة ، فإذا كنت تريد حقيقةً أن تُدخِلَ المعاني العَقْدِيَّةَ الصحيحة في قلبك؛ فلا بُدَّ لك من أن تطرُدَ أولاً المعاني المناقضة من حَيِّزِ القلب ، ثم ابْحَثْ بالأدلة عن مدى صلاحية أيِّ من المعنيين؛ وما تجده قويِّ الدليل؛ صحيح المنطق؛ موفورَ القوة والحُجَّة؛ فأدخِله في قلبك .

ولم يفعل الكفار هكذا؛ بل تماذوا في العيِّ إصراراً على ما يعتقدون من عقيدة فاسدة؛ أما مَنْ أسلم منهم فقد أخرج من قلبه العقيدة القديمة؛ ولم يُصِرْ على المُعتنق القديم؛ بل درسَ وقارنَ؛ فأسرع إلى الإسلام .

أما مَنْ كان قلبه مشغولاً بالعقيدة السابقة؛ ويريد أن يُدخِلَ العقيدة الإسلامية في قلبه؛ فهو لم ينجح في ذلك؛ لأن قلبه مشغولٌ بالعقيدة القديمة .

وإذا كنت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم تريد من هؤلاء أن يؤمنوا؛ فلا بد أن يعتمد ذلك على إرادتهم ، وأن يُخرجوا من قلوبهم العقيدة الفاسدة؛ وأن يبحثوا عن الأصح والأفضل بين العقيدتين .

ولذلك يعلمنا الحق سبحانه كيف نصل إلى الحقائق بسهولة ، فيقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : { قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِئَةٍ . . . } :

#### [ سبأ : 46 ]

أي : قُلْ يا محمد لِمَنْ كُفِرَ بِكَ : إِيَّيْ أَعْظَمُكُمْ عِظَةً ، وأنت لا تعظ إلا مَنْ تحب أن يكون على الحق؛ وهذا يُفسر قول الحق سبحانه : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [ التوبة : 128 ]

ولهذا يريد صلى الله عليه وسلم أن تكونوا مؤمنين؛ لذلك يدعوكم أن تقوموا لله؛ لا لجأه أحد غيره؛ لأن جأه أي كائن سيزول مَهْمَا كان هذا الواحد ، ولا تقولن لنفسك : إن العبيد

سيتساوون معك .

بل قُمْ لله إما مثني أي أن تكون قائماً ومعك آخر؛ أو يقوم غيرك اثنين اثنين ليناقدش كل منكم مع من يجلس معه؛ ولا يتحيز أحد منكم لفكر مُسبق بل يُوجّه فكره كله متجرداً لله .  
وليتساءل كل واحد : محمد هذا ، صفته كذا وكذا ، وقد فعل كذا ، والقرآن الذي جاء به يقول كذا ، وسيجد الواحد منكم نفسه وقد اهتدى للحق بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مَنْ جلس معه ليناقدشه فيستعرضان معه تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به .  
وحين يتناقش اثنان لن يخاف أيّ منهما أن يهزمه الآخر ، لكن لو انضمَّ إليهما ثالثٌ؛ فكل واحد يريد أن يعتز برأيه؛ ويرفض أن يقبل رأي إنسان غيره ، ويخشى أن يُعتبر مهزوماً في المناقشة؛ ويرفض لنفسه احتمال أن يستصغره أحد .

ولذلك قال الحق سبحانه : { مثني وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ . . . } [ سبأ :

[ 46

و « الجِنَّة » هي اختلال العقل؛ أي : أن مَنْ به جِنَّةٌ إنما يتصرف ويسلك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ويقرن الحق سبحانه بين العقل وبين الخُلُق ، فيقول : { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [ القلم : 4 ]  
ويُقَال : فلان على خُلُق . أي : يملك من الصفات ما يجعله على الجادّة من الفضائل؛ مثل الصِدْق والأمانة؛ وهذه صفاتٌ يَنْظِمُهَا في مواقفها الفِكر العَقْلِيّ؛ وهو الذي يُمَيِّز لنا أيّ المواقف تحتاج إلى شِدَّةٍ؛ أو لِينٍ؛ أو حِكْمَةٍ ، وكلُّ هذه أمور يُرْتَبِهَا العقل .  
والخُلُق الرفيع لا يصدر عن مجنون؛ لأنه لا يعرف كيف يختار بين البدائل؛ لذلك لا نحاسبه نحن؛ ولا يحاسبه الله أيضاً .

وحين يأمرهم الحق سبحانه أن يبحثوا : هل محمد يعاني من جِنَّةٍ؟ فالحق سبحانه يعلم مُقدِّماً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادتهم يتمتع بكمال الخلق؛ بدليل أن أهمّ ما كانوا يملكونه كانوا يستأنون عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبدليل أنه صلى الله عليه وسلم حينما دخل عليهم وكانوا مختلفين في أمر بناء الكعبة؛ ارتضوه حَكَمًا .

ولذلك يقول سبحانه : { ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ \* مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } [ القلم : 1-

[ 2

وهكذا رأينا أن هؤلاء الكفار ما كانوا ليؤمنوا؛ ولم يكن الله ليهدِيهم؛ لأنهم كانوا لا يملكون أدنى استعداد للهداية؛ وكأنهم أدمنوا الكفر والعياذ بالله؛ وقد طبع الله على قلوبهم فزادهم كُفْرًا؛ فما في تلك القلوب من كفر لا يخرج منها؛ وما بخارجها لا يدخل فيها .

وقد ظنَّ بعض من المسلمين أن كُفْر هؤلاء قد يُشقي المؤمنين بزيادة العنتِ من الكافرين ضدهم؛

لذلك يوضح الحق سبحانه لأهل الإيمان أن نصره قريب ، فيقول سبحانه : { . . . وَلَا يَزَالُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ  
الْمِيعَادَ } [ الرعد : 31 ]

أي : اطمئنوا يا أهل الإيمان؛ فلن يظلَّ حال أهل الكفر على ما هو عليه؛ بل ستصيبهم  
الكوارث وهم في أماكنهم ، وسيشاهدون بأعينهم كيف ينتشر الإيمان في المواقع التي يسودونها؛  
وتتسع رقعة أرض الإيمان ، وتضيق رقعة أهل الكفر؛ ثم يأتي نصر الله وقد جاء نصر الله ولم يبق  
في الجزيرة العربية إلا مَنْ يقول : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .  
وهكذا تبتأت الآية بمجيء الأمل بعد اليأس ، كي لا يظلَّ اليأس مُسَيِّطراً على حركة المسلمين  
وعلى نفوسهم ، واستجاب الحق سبحانه لدعوته صلى الله عليه وسلم حين دعاه قائلاً : « اللهم  
اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف » .

وقُتِلَ صناديدهم واحداً وراء الآخر؛ ولكن عنادهم استمر؛ وبلغ العناد حدَّ أن ابني رسول الله  
صلى الله عليه وسلم كانتا مُتزوَّجتين من ابني أبي هَبِّ؛ فلما أعلن النبي صلى الله عليه وسلم  
رسالته؛ قال أبو هَبِّ وزوجته : لا بد أن يُطَلَّقَ أبناؤنا بنات محمد؛ فلما طَلَّقَ أَوْلَهُمَا بنت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً :

« أما إني أسأل الله أن يسلط عليه كلبه » .

وها هو أبو هَبِّ الكافر يقول : « لا تزال دعوة محمد على ابني تشغل بالي وتُقلِّبني ، وأخاف أن  
أبعث بولدي إلى رحلة الشام كي لا تستجيب السماء لدعوة محمد » .  
وكان من المناسب ألا يخاف ، وجاء ميعاد السفر لقافلة الشام . وسافر أبو هَبِّ مع ولديه ،  
وحين جاء ميعاد النوم أمر أبو هَبِّ الرجال أن يقيموا سباحاً حول ولده وكأن الرجال حوله كخط  
بارليف الذي بنته إسرائيل على قناة السويس ليمنع عنها صَيْحَةُ النصر التي حملت صرخة الله  
أكبر ثم أصبح الصبح فوجدوا أن وحشاً قد نهش ابن أبي هَبِّ .  
وقال الناس : كان أبو هَبِّ يخشى دعوة محمد؛ ورغم ذلك فقد تحققت . فقال واحد : ولكن  
محمداً دعا أن ينهشه كلب وقال له « أكلك كلب من كلاب الله » ولم يُقَلِّ فلينهشك سبع ،  
فرد عليه مَنْ سمعه : وهل إذا نُسب كلب الله أيكون كلباً؟ لا بد أن يكون الكائن المنسوب لله  
كبيراً .

وهكذا دَقَّت القارعة بيت الرجل الذي أصرَّ على الكفر ، وتحقق قول الله : { وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ . . . } [ الرعد : 31 ]

نعم ، فهم قد أسرفوا في الكُفْرِ والعِنَادِ؛ فجاءتهم القارعة؛ والقارعة هي الشيء الذي يطرق بعنف  
على هادئ ساكن ، ومنها نأخذ قَرَع الباب ، وهناك فَرَق بين « نَقَر الباب » و « قَرَع الباب »

وَقَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : { أَوْ تَخُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ . . . } [ الرعد : 31 ]  
يُوضِّحُهُ أَمْرُ صَلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ الَّذِي جَاءَ بِشَارَةً لِلْمُسْلِمِينَ؛ فَقَدْ صَارَ كِفَارَ قَرِيشٍ يَفَاوِضُونَ رَسُولَ  
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبِيعُ بِالسَّرَايَا إِلَى الْمَنَاطِقِ الْحَيْطَةِ  
بِمَكَّةَ؛ فَتَأْتِي الْقَبَائِلَ أَفْوَاجًا وَهِيَ تَعْلَنُ إِسْلَامَهَا؛ وَيَبْلُغُ ذَلِكَ قَرِيشًا بِأَنَّ الْإِسْلَامَ يُوَاصِلُ رَحْفَهُ؛ ثُمَّ  
تَأْتِيهِمُ الْقَارِعَةُ بِأَنَّ يَدْخُلَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ؛ وَيَتَحَقَّقُ وَعْدَ اللَّهِ بِأَنَّ يَدْخُلُوا هُمْ  
أَيْضًا إِلَى حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ .

أو : أن يكون المقصود ب : { حتى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ . . . } [ الرعد : 31 ]  
هو مجيء يوم القيامة الذي يحمل وَعْدَ اللَّهِ بِأَنَّ يُحْلَلَ عَلَيْهِمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ عَذَابٍ .  
وفي هذا القول تطمين لِمَنْ قَالَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْآيَةِ : { أَفَلَمْ يَنبَأ . . . } [ الرعد  
: 31 ]

ذلك أن الله لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ ، وَهُوَ الْقَائِلُ فِي تَذْيِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ : { . . . إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ }  
[ الرعد : 31 ]

ونعلم أن كلمة « وَعْدٌ » عادة تأتي في الخير ، أما كلمة « وعيد » فيه فتأتي غالباً في الشر .

والشاعر يقول :

وَإِنِّي إِذَا أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ ... لَمَنْجِرٍ مِيعَادِي وَمُخْلِفٍ مَوْعِدِي  
فالإيعاد دائماً يكون بِشَرٍّ؛ وَالْوَعْدُ يَعْنِي الْخَيْرَ ، إِلَّا أَنْ بَعْضَ الْعَرَبِ يَسْتَعْمَلُ الْاِثْنَيْنِ . أَوْ نَسْتَطِيعُ  
أَنْ نَقُولَ : إِنَّ الْمَسْأَلَةَ بِتَعْبِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَارِعَةِ الَّتِي تَصِيبُ أَهْلَ الْكُفْرِ؛ أَوْ  
تَأْتِي حَوْلَ دِيَارِهِمْ ، وَفِي ذَلِكَ وَعْدٌ يُصَبِّرُ بِهِ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَهُوَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ وَعَيْدٌ بِالنِّسْبَةِ  
لِلْكَافِرِينَ .

وقوله سبحانه : { . . . إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } [ الرعد : 31 ]  
هو قضية قرآنية ستتحقق حتماً؛ في كل عصر وأوان ، إذا ما أخذ المسلمون بأسباب الإيمان؛  
وهي كقضية تختلف عن وَعْدٍ أَوْ وَعِيدِ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَعِدُ أَوْ يَتَوَعَّدُ؛ لَكِنْ أَغْيَارَ الْحَيَاةِ  
تُصِيبُهُ؛ فَتُعْطَلُ قُدْرَتُهُ عَلَى إِفْضَالِ الْوَعْدِ أَوْ الْوَعِيدِ .

أما حين يَعِدُ اللَّهُ فَالْأَمْرُ يَخْتَلِفُ؛ لِأَنَّ وَعْدَهُ هُوَ وَعْدٌ مُطْلَقٌ؛ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى : { . . . إِنَّ اللَّهَ لَا  
يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } [ الرعد : 31 ]

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

{ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن . . . }

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32)

ويقال « هَزَأَ بفلان » أي : سخر منه ، أما « اسْتَهْزِئَ بفلان » أي : طَلَبَ من الغير أن يهزأ بشخص معين ، وهذا عليه إثمُه وإثم مَنْ أوعز له بالسخرية من هذا الشخص .

وقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ . . . } [ الرعد : 32 ]

أي : لستَ بدعاً يا محمد في أن يقف بعض الكافرين منك هذا الموقف . والمثلُّ هو الحَكَم بين أبي العاص أبو مروان الذي كان يُقَلِّد مشية النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وكان رسول الله يمشي كأنما يتحدَّر من صيب؛ وكان بصره دائماً في الأرض .

« ولم يكن الناس مُعْتادين على تلك المشية الخاشعة؛ فقد كانوا يسرون بغرور مستعرضين مناكيهم .

وحين قَلَّد الحَكَم رسول الله رآه صلى الله عليه وسلم بنور البصيرة ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « كُنْ على هذا » ، فصارت مشيته عاهة ، بينما كانت مشية رسول الله تطامناً إلى ربه ، وتواضعاً منه صلى الله عليه وسلم .

ونفى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحَكَم إلى الطائف؛ وراح يرعى الغنم هناك ، ولم يَعْفُ النبي صلى الله عليه وسلم عنه؛ وكذلك أبو بكر في خلافته؛ ولا عمر بن الخطاب؛ ولكن الذي عفا عنه هو عثمان بن عفان ، وكان قريباً له .

وشهد عثمان بن عفان وقال : « والله لقد استأذنتُ رسول الله فيه فقال لي : إن استطعت أن تعفو عنه فاعفُ ، وحين وليتُ أمر المسلمين عَفَوْتُ عنه » .

وحدث من بعد ذلك أن تولى عبد الملك بن مروان أمر المسلمين؛ وكان لابنه الوليد خيَل تتنافس مع خيل أولاد يزيد بن معاوية؛ واحتال أولاد يزيد بالغش ، ووضعوا ما يُعْرِق خيَل الوليد . وحدث خلاف بين الفريقين فشتم الوليدُ أبناء يزيد؛ فذهب أولاد يزيد إلى عبد الملك يشكُون له ولده؛ وكان الذي يشكو لا يتقن نُطق العربية دون أخطأ؛ فقال له عبد الملك : مَا لَكَ لا تقيم لسانك من اللحن؟ فردَّ الذي يشكو ساخراً : « والله لقد أعجبني فصاحة الوليد » . ويعني : أن حال لسان ابن عبد الملك لا يختلف عن حال لسان مَنْ يشكو؛ فكلاهما لا ينطق بِسَلَاة ، ويكثر اللحن في التُّطق بالعربية .

فقال عبد الملك : أَتُعَيِّرني بعبد الله ابني الذي لا يُتقن العربية دون لحن؟ إن أخاه خالداً لا يلحن . وتبع ذلك بقوله : اسكُتْ يا هذا ، فلست في العير ولا في النَّفير .

وهذا مثلٌ نقوله حالياً ، وقد جاء إلينا عبر قريش؛ حيث كانت السلطة فيها ذات مصدرين؛ مصدر العير؛ أي : التجارة التي تأتي من القوافل عبر الشام وقائدها أبو سفيان؛ والنَّفير؛ وهم القوم الذين نَفَرُوا لنجدة أبي سفيان في موقعة بدر؛ وكان يقودهم عتبة .

فقال ابن يزيد : وَمَنْ أَوْلَى بِالْعِيرِ وَالنَّفِيرِ مِنِّي؟ ويعني أنه حفيدُ أبي سفيان من ناحية الأب؛ وحفيدُ عتبة من ناحية الأم .

وأضاف : لكن لو قُلْتَ شُوَيْهَاتٍ وَعُنَيْمَاتٍ وَذَكَرْتَ الطَّائِفَ لَكُنْتَ عَلَى حَقٍّ؛ وَرَحِمَ اللَّهُ عَثْمَانَ الَّذِي عَفَا عَنْ جَدِّكَ ، وَأَرْجَعَهُ مِنَ الْمَنْفَى .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } [ الحجر : 95 ]

وكان أيّ إنسان يسخر من رسول الله صلى الله عليه وسلم يَلْقَى عِقَاباً إلهياً .  
وهنا يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرَسُولٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [ الرعد : 32 ]

فأنت يا رسول الله لست بدعاً في الرسالة ، ولك أسوة في الرسالة ، والحق سبحانه يَعِدُكَ هنا في مُحْكَمِ كتابه : { فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا . . . } [ الرعد : 32 ]

أي : أمهلتُ الذين كفروا ، والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه ترك العقوبة على الذنب ، وإنما تأخير العقوبة لذنب قادم ، والمثل هو أن تترك مخطئاً ارتكب هفوة؛ إلى أن يرتكب هفوة ثانية؛ ثم الثالثة ، ثم تُنزل به العقاب من حيث لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث في عالم البشر؛ فما بالنا بقوة الحق سبحانه اللامتناهية ، وهو القائل : { سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّن حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } [ الأعراف : 182 ]

ويقول تعالى : { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَذَابٌ مُّهِينٌ } [ آل عمران : 178 ]

تماماً مثلما نجد مَنْ يصنع فِتْحاً لعدوه .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرَسُولٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [ الرعد : 32 ]

وكلمة : { . . . فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [ الرعد : 32 ]

توضح أنه كان عقاباً صارماً؛ ولذلك يقول الحق سبحانه في موقع آخر : { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ \* وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ \* وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ \* وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُّونَ \* وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ \* فاليوم الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفْرَانِ يَضْحَكُونَ \* عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ \* هَلْ نُؤِوبَ الْكُفْرَانِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [ المطففين : 2936 ]

إذن : فلسوف يَلْقَى الذين استهزءوا بالرسول العقاب الشديد .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

{ أَفَمَن هُوَ قَاتِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ . . . }

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيَّاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)

ولقائل أن يتساءل : أَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْوَاجِبِ مَا دَامَ قَدْ قَالَ : { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ . . . } [ الرعد : 33 ]

أن يأتي بالمقابل ، ويقول : كَمَنْ لَيْسَ قَائِمًا عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ؟  
ولمثل هذا السائل نقول : إنها عظمة القرآن الذي يترك للعقل ما يمكن أن يستنبطه؛ فيأتي بأشياء تتطلب التفكير والاستنباط ، كي يتنبه الإنسان أنه يستقبل كلام رَبِّ حكيم؛ وعليه أن يبحث فيه .

ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود : « تَوَرَّوْا الْقُرْآنَ » أي : أثيروه ، كي تكتشفوا ما فيه من كنوز .

ونحن نعلم أن كلمة « قائم على الأمر » تعني أنه هو الذي يُدِيرُهُ وَيُدَبِّرُهُ ، وَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .  
وجاء الحق سبحانه هنا بصيغة القيام؛ كي نعلم أن الحق سبحانه لا يدير الأمر من حالة قعود؛ بل يديره وهو قائم عليه ، فكل أمر هو واضح عنده غير خفي .

وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت إن خيراً فخير؛ وإن شراً فشر ، ولكنكم أيها الكافرون المشركون لا تملكون لأنفسكم ضراً ولا نفعاً؛ فهل يمكن لعاقل أن يساوي بين الذي يقوم على أمر كل نفس ، بغيره مَن ليس كذلك؟

ولكن هناك مَنْ قَالَ فِيهِمْ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ فِي نَفْسِ الْآيَةِ : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ . . . } [ الرعد : 33 ]

أي : جعلوا للقائم على أمر كُلِّ نَفْسٍ شُرَكَاءَ لَا يَقْدِرُ الْوَاحِدُ فِيهِمْ عَلَىٰ أَمْرِ نَفْسِهِ؛ وبالتالي لا يقدر على أمر غيره؛ بل قد يُصَابُ الصَّنَمُ مِنْ هَوْلَاءِ بَشَرٍ؛ فَيَأْتِي مَنْ يَعْبُدُونَهُ لِيَقُومُوا عَلَىٰ أَمْرِهِ صَارِخِينَ بِأَنْ إِلَهُهُمْ قَدْ انشَرَخَ؛ ويحتاج إلى مسمارين لتثبيتته ، فكيف يُسُوُونَ ذَلِكَ الصنم بالله الذي لا يحده شيء ولا يحُدُّ قُدْرَتَهُ شَيْءٌ؟

وَقَوْلُ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ . . . } [ الرعد : 33 ]

دليل على النص المحذوف : « كَمَنْ هُوَ غَيْرُ قَائِمٍ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ » ، فسبحانه ليس كهذه الأصنام العاجزة؛ لأنه سبحانه قائم على كل نفس؛ نفسك ونفس غيرك ونفس كل إنسان عاش أو سيعيش .

ولذلك يقول سبحانه بعدها : { قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيَّاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ

. . . } [ الرعد : 33 ]

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يقول للكافرين بالله : قُولُوا أَسْمَاءَ مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ؛ وهي أحجار ، والأحجار لا أسماء لها؛ وهم قد سَمَّوْا الأصنام كَاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَهَبِلَ؛ وهي أسماء لم تُضَيَّفْ لتلك الأصنام شيئاً ، فهي لا تقدر على شيء؛ ولو سَمَّوْهَا لُنُسِبَتْ لعمر بن لُحَيّ ، الذي أوجدتهم؛ وَهُمْ سَمَّوْهَا سَاعَةَ أَنْ نُحْتَوَهَا .  
والإله الحق لا يسميه أحد ، بل يُسَمِّي هو نفسه ، ولكن بما أن المسألة كَذِبٌ فِي كَذِبٍ ، لذلك يسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أسماء تلك الآلهة .

ويقول لهم : هل تبتنون أنتم الله خالق كل الكون بما لا يعلم في كونه الذي أوجده من عدم؟ سبحانه يعلم كل ما خلق؛ وأنتم لا تعبدون إلا أصناماً ينطبق عليها أنها من ظاهر القول؛ أي : قول لا معنى له؛ لأنهم أطلقوا أسماء على أشياء لا باطن لها ولا قدرة تستطيعها ، وهم اكتفوا بالظاهر والمُسَمَّى غير موجود .  
ويقول الحق سبحانه : { بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ . . . } [ الرعد : 33 ]

أي : أنهم ظنوا أنهم يمكرون على الله ، ويقولون إن تلك الأصنام آلهة ، وهي ليست كذلك .  
ثم يقول سبحانه : { . . . وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [ الرعد : 33 ]  
أي : أن العذاب الذي يَلْقَوْنَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هو لصيانة حركة المجتمع من الفساد ، ولا بد أن يقع لهم عذابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ ولأن مَنْ يُوَجَّلْ عَذَابُهُ لِلْآخِرَةِ؛ لا بد أن يرى في نفسه آية العذاب قبل أن يلقى عذابه فِي الْآخِرَةِ .  
إذن : فعذاب الدنيا هو لحماية حركة الحياة؛ ولذلك نجد القوانين وهي تُسَنُّ لِتُنْطَبِقَ عَلَى المنحرف؛ وَمَنْ يَرْتَكِبِ الْجُرْمَ يَخَافُ أَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ الْعَيْنُ؛ وَإِنْ رَأَاهُ أَحَدٌ فَهُوَ يَبْلُغُ عَنْهُ لِيَلْقَى عِقَابَهُ؛ وبذلك تستقيم حركة الحياة .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في سورة الكهف : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا \* إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا \* فَاتَّبَعِ سَبَبًا \* حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا \* قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا }  
[ الكهف : 83-87 ]

أي : أنه قد أخذ تفويضاً بأن يقيم الأمر في هؤلاء الناس ، فأقامه على أساس من الثواب والعقاب؛ فَمَنْ أَحْسَنَ فَلَهُ الْجِزَاءُ الْحَسَنُ؛ وَمَنْ أَسَاءَ يَلْقَى الْعِقَابَ ، وهكذا نجد عذاب الدنيا ضرورياً لسلامة حركة الحياة من بطش مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

{ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . }

هَمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34)

ولهؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة عذابٌ في الدنيا بالقتل والأسر والمصائب والكوارث التي لا يقدرُونَ عليها ، وفَوْقَ ذلك لهم عذاب في الآخرة أكثر شدةً من عذاب الدنيا؛ فليس لهم مَنْ يحميهم ، أو يُقيم بينهم وبين عذاب الله وقاية أو عِصْمَةً .

وفي المقابل يقول سبحانه بعد ذلك :

{ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ . . . }

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35)

والمصدر الأساسي الذي وعد المتقين بالجنة هنا هو الله ، وقد بلغ عنه الرسل عليهم السلام هذا الوعد ، وتلاههم العلماء المبلِّغون عن الرسل .

وأنت حين تنظر إلى فعل يشيع بين عدد من المصادر ، تستطيع أن تبحث عن المصدر الأساسي

، والمثل هو قول الحق سبحانه : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا . . . } [ الزمر : 42 ] ويقول في موقع آخر من القرآن : { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ . . . } [ السجدة

: 11 ]

وهكذا تكون التَّوْفِيَةُ قد آلت إلى الله؛ وآلت إلى مَلَكِ الْمَوْتِ ، وقد أخذ مَلَكُ الْمَوْتِ مسؤولية التَّوْفِيَةِ من إسناد الحق له تلك المهمة؛ ويكون نسبتها لِمَلَكِ الْمَوْتِ هو نوع من إيضاح الطرف الذي يُوكَّل له الحق سبحانه تنفيذ المهمة .

ومرة يأتي الحق سبحانه بالمصدر الأصلي الذي يُصدر الأمر لِمَلَكِ الْمَوْتِ مباشرةً مهمته .

وهنا في الآية الكريمة نجد قول الحق سبحانه : { وَعَدَ الْمُتَّقُونَ . . . } [ الرعد : 35 ]

وهي مَبْنِيَةٌ لِمَا لم يُسَمَّ فاعله؛ فالوعد منه سبحانه . « ونعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يَعِد أيضاً ، فهذا نحن قد جاء إلينا خبر بيعة العقبة؛ حين أخذ البيعة من الأنصار ، وقالوا له : خذ نفسك ، فأخذ لنفسه ما أراد ، ثم قالوا له : وماذا نأخذ نحن إنْ أَدِينَا هذا؟ فقال لهم : « لكم الجنة » .

وقال صلى الله عليه وسلم ذلك؛ لأن العمل الذي فعلوه؛ لا يكفيه أجراً إلا الجنة ، ومن المعقول أن أيَّ واحد من الذين حضروا العقبة قد يتعرض للموت من بعد معاهدة رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، فلو أنه وعدهم بما في الدنيا من متاع قد يأخذه البعض فيما بعد؛ فالذي يموت قبل هذا لا بُدَّ أن يدرك شيئاً مما وعد الرسول من عاهدوه؛ ولذلك أعطاهم ما لا ينفد ، وهو الوعد بالجنة .

والحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها يقول : { مَثَلُ الْجَنَّةِ . . . } [ الرعد :

[ 35

أي : أنه يضرب لنا المثل فقط؛ لأن الألفاظ التي نتخاطب بها نحن قد وُضِعَتْ لِمَعَانٍ نَعْرِفُهَا؛ وإذا كانت في الجنة أشياء لم تَرَهَا عَيْنٌ ولم تَسْمَعَهَا أُذُنٌ ، ولم تَخْطُرْ عَلَى بَالِ بَشَرٍ؛ فَمَنْ المُمْكِنُ أَنْ نقول إنه لا توجد ألفاظ عندنا تؤدي معنى ما هناك ، فيضرب الله الأمثال لنا بما نراه من المملدات؛ ولكن يأخذ منها المكدرات والمعكرات .

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين « مثل الجنة » وبين « الجنة » ، فالمثل يعطيني صورة أسمعها عن واقع لا أعلمه؛ لأن معنى التمثيل أن تُلْحَقَ مجهولاً بمعلوم لتأخذ منه الحكم .

مثلاً نقول لصديق : أتعرف فلاناً؛ فيقول لك : « لا » . فتقول له : « إنه يشبه فلاناً الذي تعرفه » .

وأنت تفعل ذلك كي تشبه مجهولاً بمعلوم؛ لتأتي الصورة في ذهن سامعك .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم شرحاً لما أجمله القرآن : { وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ . . . } [ الزخرف : 71 ]

ويضيف صلى الله عليه وسلم : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وحين تُدَقِّقُ في هذا القول النبوي الكريم تجد الترقّي كاملاً؛ فقولته : « ما لا أذن سمعت » جاء لأنه يعلم أن مُدْرَكَاتِ العَيْنِ محدودة بالنسبة لِمَا تَعْلَمُ الأذن؛ لأن الأذن تسمع ما لا تدركه العين؛ فهي تسمع ما يراه غيرك بالإضافة إلى ما تراه أنت .

فالأذن تسمع القريب وتسمع البعيد وتنقل صوته وتستحضره ثم تميزه ، بخلاف العين فهي محدودة المسافة حسب قوة الإبصار ، ومع كل فنعيم الجنة فوق كل هذا الفوق .

ثم يأتي الترقّي الأكبر في قوله : « ولا خطر على قلب بشر » . والخواطر أوسع من قدرة الأذن وقُدْرَةُ العَيْنِ؛ فالخواطر تتخيّل أشياء قد تكون غير موجودة .

وهكذا نرى عجز اللغة عن أن تُوجَدَ بها ألفاظ تعبر عن معنى ما هو موجود بالجنة ، ولا أحد فينا يعلم ما هي الأشياء الموجودة بالجنة ، وما دام أحد منا لم ير الجنة؛ وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

فلا بُدَّ أَنْ نَعْلَمَ قَدْرَ عَجْزِ اللُّغَةِ عَنِ التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي الْجَنَّةِ ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُعَبِّرَ عَمَّا فِيهَا؛ فَهُوَ

يُوضِّح لنا بالمثل؛ لا بالوصف ، لأنه يعلم أن لغتنا تضع الألفاظ لِمَا هو موجود في حياتنا؛ ولا توجد ألفاظ في لغتنا تُؤدِّي معاني ما في الجنة .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه : { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى . . . } [ محمد :

[ 15

ومع أن الحق سبحانه يضرب مثلاً ، إلا أنه خلَّص المثل من شوائبه التي نعرفها في الدنيا ، فالمياه عندما تجري؛ تكون خُلوة ورائقة وصالفة؛ وإن ركدت فهي تأسنُ وتكون عَطنة .

ولذلك يُوضِّح لنا الحق سبحانه أن المياه في الجنة غير آسنة؛ وأنها تكون أنهاراً منزوعاً من مياهها ما يُكدرها .

وكذلك المثل بأنهار من لبن لم يتغير طعمه . واللبن كما نعرف هو غذاء البدو؛ فَهَمَّ يحملون الماشية ، ويحتفظون بألبانها في قِربٍ لِمُدَّةٍ طويلة؛ فيتغير طعم اللبن؛ ولذلك يضرب لهم المثل بوجود أنهار من لبن لم يتغير طعمه .

وأيضاً يضرب المثل بوجود أنهار من عَسَلٍ مُّصَفًّى ، والعسل كما نعرف كان في الأصل يأتي من النحل الذي كان يسكن الجبال قبل استئناسه؛ ووَضَّعه في مناحل في الحدائق .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل : { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } {

[ النحل : 68 ]

وحين بحث علماء الحشرات عن تاريخ النحل ، وجدوا أن أقدم عسل في العالم هو الذي كان موجوداً في الكهوف الجبلية؛ ثم يليه في العمر العسل الذي جاء من خلايا النحل؛ تلك الخلايا التي أقامها النحل بعد استئناسه؛ ومن بعد ذلك يأتي العسل الذي أقمنا نحن له المناحل .

وقد ميَّزوا العسل القديم عن المتوسط عن الجديد ، بأن أحرقوا بعضاً من كل نوع من أنواع العسل ، فنتج من الاحتراق عنصر الكربون؛ ومن هذا العنصر اكتشفوا عمر كل نوع من الثلاثة .

ويوضح الحق سبحانه أن بالجنة أنهاراً من عَسَلٍ مُّصَفًّى ، وبذلك يُقدِّم لنا خَيْرَ ما كنا نُحِبُّه من عسل الدنيا ، ولكن بدون ما يُكدره .

ويوضِّح سبحانه أيضاً أن في الجنة أنهاراً من خمر ، ولكنها خَمْرٌ تختلف عن خمر الدنيا؛ فهي لا تؤثر على التكوين العضوي للعقل ، كما أن خمر الدنيا ليس فيها لذَّةٌ للشاربين؛ لأننا من كحول يَكْوِي الفم ويلسعه؛ ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسكُّبها في فمه لِتَمُرَّ بسرعة فلا يشعر بلسعها في فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة فتلهبها .

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو البرتقال أو القصب؛ حيث تستطيب النفس مذاق تلك الفواكه؛ فنجد مَنْ يشربها يتمهّل ليستبقى أثرها في فمه .

ويقول الحق سبحانه عن خمر أنهار الجنة : { لَأَفِيهَا عَوْلٌ . . . } [ الصافات : 47 ]

أي : أنه سبحانه ينفي عن خمر أنهار الجنة كُلاًّ المكدرات التي توجد في خمر الدنيا .

إذن : فساعةً تسمع مثلاً عن الجنة؛ فاعلم أنه مَثَلٌ تقريبي؛ لأنه لا يمكن أن تأتي الحقيقة ، حيث لا يوجد لفظ يُعبّر عنها؛ وهي لم توجد عندنا؛ وسبحانه لا يخاطبنا إلا بما نعلم من اللغة؛ لذلك يأتي لنا بالمثّل المضروب لناخذ منه صورة تقريبية .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها ، يقول الحق سبحانه : { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . . } [ الرعد : 35 ]

ونعلم أن عَصَبَ حياة العرب أيام نزول القرآن كان هو الماء؛ ألم يطلبوا من الرسول أن يُفجّر لهم الأنهار تفجيراً؟

نجد الحق سبحانه قد جاء بالتعبير القرآني عن أنهار الجنة بصورتين مختلفتين :

أولهما : { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . . } [ الرعد : 35 ]

مثملاً قال في الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها .

ومرةً يقول سبحانه : { تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . . } [ التوبة : 100 ]

والفارق بين العبارتين هو استيعاب الكمالية في النص ، بمعنى أن : { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . . }

{ [ الرعد : 35 ]

تُوضِحُ أن منابع تلك الأنهار تأتي من تحت تلك الجنة مباشرة؛ فلا يقلّ الماء في تلك الأنهار أبداً .

ويقال : إن الفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق في الأرض لها

شواطئ تحتضنها؛ أما أنهار الآخرة فهي تسير على الأرض دون شواطئ تحجزها .

ونجد أنهار الخمر تسير أيضاً في الأرض ، ولا تتداخل مع أنهار الماء ، وكذلك أنهار اللبن ، وكُلُّ

ذلك من صنعة ربِّ حكيم قادر .

أما قوله : { تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . . } [ التوبة : 100 ]

أي : أن منابعها ليست من تحتها مباشرة؛ ولكنها تأتي دون نقصٍ من جهة أنت لا تعلمها؛ وهو

سبحانه قادر على كل شيء .

ويتابع سبحانه ، فيقول عن تلك الجنة : { أَكُلُّهَا دَائِمٌ . . . } [ الرعد : 35 ]

والأكل هو ما يُؤكَل ، وسبحانه القائل : { تَوْتِي أَكُلُّهَا كُلٌّ حِينَ يَأْذُنُ رَبِّي . . . } [ إبراهيم :

[ 25

وقوله : { أَكُلُّهَا دَائِمٌ . . . } [ الرعد : 35 ]

أي : لا ينقطع ، ونعلم أن الإنسان حين يأكل؛ فهو يفعل ذلك بهدف إشباع جوعه؛ وبعد أن يُشبع جوعه؛ قد يطلب أن يُرفع الطعام من أمامه ، إلى أن يجوع ، فيطلب الطعام من جديد . ومن يحبون الطعام في حياتنا الدنيا نرى الواحد منهم وهو يقول : « أشعر ببعض الضيق لأني شبعْتُ » ، فهو في عراك بين نفس تشتهي وبين بطن لا تشبع ، وكأنه كان يريد أن يستمر في تناول الطعام طوال الوقت .

وقول الحق سبحانه : { أَكُلْهَا دَائِمًا . . . } [ الرعد : 35 ]

شغل هذا القول الرومان الذين كانوا أصحاب إمبراطورية عظيمة زلزلها الإسلام بحضارته الوليدة ، وأرسل إمبراطورهم من يطلب من أحد الخلفاء إرسال رجل قادر على شرح قول الحق : { أَكُلْهَا دَائِمًا . . . } [ الرعد : 35 ]

فأرسل لهم أحد العلماء؛ وسأله : يقول قرآنكم إن أكل الجنة دائم؛ ونحن وأنتم تعلمون أن كل شيء يُؤخذ منه لا بُدَّ له أن ينقص؛ فكيف يكون أكل الجنة دائماً؟ قال العالم لهم : هاتوا مصباحاً . فأحضروا له المصباح وأشعله أمامهم . وقال لكل منهم : فليأت كل منكم بمصباحه . فأحضر كل منهم مصباحه . وقال لهم : فليُشعل كل منكم مصباحه . وهنا سأهم : ما الذي أنقصه إشعال مصابيحكم من هذا المصباح؟ قالوا : لا شيء . فقال لهم : هكذا ضرب الله لنا المثل بأكل الجنة .

وبطبيعة الحال كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المصباح يعتمد في اشتعاله على الزيت المخزون فيه ، ويأتيه منه المدد ، أما الجنة فمددُها من الله . وهناك من قال : هل نتغوّط في الجنة؟ فردَّ عليه واحد من العارفين : لا . فتساءل : وأين تذهب بقايا ما نأكل من طعام الجنة؟

فقال العارف بالله : مثلما تذهب بقايا ما يتغذى عليه الطفل في بطن أمه؛ حيث يحترق هذا الفائض في مَشِيمة الطفل؛ والطفل في بطن أمه إنما ينمو بشكل مستمر ، مُعتمداً على غذاء يأتيه من أمه عبر الحبل السري .

وكل تلك الأمور تقريبية تجعلنا نعبر الفجوة بين ما نشهده في حياتنا اليومية ، وبين ما أعدّه الله للمتقين ، وهو القيوم على كلِّ أمرٍ .

وقد قال الحق سبحانه : { أَكُلْهَا دَائِمًا . . . } [ الرعد : 35 ]

يعني : أن الطعام موجود ولا ينتهي وكذلك الظل . والظل حجب المضيء من مكان؛ أو حجب مكان عن المضيء ، ولا أحد يعلم أنه ستوجد هناك شمس أم لا؛ والعقل البشري قاصر عن تحيُّل ذلك؛ فهو من فعل الله ، وهو سبحانه قادر على كل شيء .

وهو القائل سبحانه : { والذين آمنوا وَعَمِلُوا الصالحات سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا } [ النساء : 57 ]

وهو القائل سبحانه : { وَظِلٍّ مَمْدُودٍ } [ الواقعة : 30 ]

ويتابع سبحانه : { . . . تِلْكَ عِقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } [ الرعد : 35 ]  
أي : يا متقي الله؛ وضعت بينك وبين صفات جلاله وقاية ، ولم تقرب محارمه واتبعت منهجه؛ ستجد أنه سبحانه يُجَازِيكَ بصفات كماله وجماله؛ فينزلك الجنة التي وعدك بها .  
لذلك إن وجدت مشقة في التكليف فعليك أن تعلم أن جزء تلك المشقة هو الجزء الجميل؛ لأنك صدقت رسولك صلى الله عليه وسلم حين قال : « حفت الجنة بالمكاره؛ وحفت النار بالشهوات » .

والعاقل ساعة يرى تكليفاً يُحْدُ من حريرته؛ فهو يستحضر الجزء على تلك المشقة ، وهو أيضاً حين يرى أمراً يبدو في ظاهره شهوة عاجلة؛ فهو يستحضر العقاب على تلك الشهوة العاجلة فيستبدها .

وأي من الجزء الطيب أو العقاب قد يأتي فجأة؛ لأن الموت لا ميعاد له؛ ونحن نُصَدِّقُ قول رسولنا صلى الله عليه وسلم : « الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته » .  
وهكذا يُضَحِّمُ الحق سبحانه من جزء المؤمن المتقي فيعشق العمل ، ويتحمل مشاق التكليف ليكون مَوْضُوعًا بالجزاء الطيب ، فهذا الجزء هو عُقْبَى العمل الحسن في الدنيا ، فالغاية الحقيقية من كل مراحل الوجود هي ألا يوجد بُعد للغاية؛ لأنها غاية الخلود لا تعرف البعدية .  
ومادامت الجنة تضمن الخلود أبداً ، فهي تستحق أن تكون غاية المؤمن وعاقبة عمله ، والتزامه بالتكاليف الإيمانية .

تماماً كما تكون النار هي عاقبة الكافرين المكذبين؛ حيث يروون الخير مصير المؤمنين؛ ويروون الشر مصيرهم؛ فيجمع عليهم التنغيص؛ مرة بوجود الخير عند أهل الإيمان؛ ومرة بأن يروا ما أعد لهم من شر .

لذلك قال سبحانه : { . . . وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } [ الرعد : 35 ]

ويقول سبحانه بعد ذلك :

{ والذين آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ . . . }

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (36)

ونعلم أن الإسلام قد سبق بدينين؛ دين النصراني قوم عيسى عليه السلام؛ ومن قبله دين اليهود قوم موسى عليه السلام؛ وكلاً الدينين له كتاب؛ الإنجيل كتاب المسيحية؛ والتوراة كتاب اليهودية؛

والقرآن هو كتاب الله المهيم الخاتم؛ كتاب الإسلام ، وهناك كتب سماوية أخرى مثل : صحف إبراهيم؛ وزبور داود ، وغير ذلك .

وكان على مَنْ نزل عليهم التوراة والإنجيل أن يواصلوا الإيمان بمدد السماء ، والخير القادم منها إلى الأرض ، وقد سبق أن أخذ الله من أنبيائهم الميثاق على ذلك ، وقال تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [ آل عمران : 81 ]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد شاء أن يستقبل كلَّ دين سابق الدين الذي يليه بالإيمان به؛ وفي كل دين سابق لآخر كانت النصوص تؤكد ضرورة الإيمان بالرسول القادر ، كي لا يحدث اقتراع بين الأديان الناسخة والأديان المنسوخة .

فمن صميم مواد أي دين سابق أن ينتظر الدين الذي يليه ، وإذا ما جاء الدين الجديد فهو يستقبله فرحاً وتكملة ، ولا يستقبله كدين يُضاد الدين السابق .

وإذا كان الإسلام هو الدين الذي تُختم به مواكب الرُّسل؛ فلا بُدَّ أن الأديان السابقة عليه قد بَشَّرَتْ به ، وكل مؤمن بالأديان السابقة مُوصى بضرورة الإيمان به .

ويقول الحق سبحانه : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ . . . } [ الشورى : 13 ]

ويقول الحق سبحانه : { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ . . . } [ الرعد : 36 ]

أي : أن أهل التوراة والإنجيل يفرحون بما جاء يا محمد من القرآن ، والإنسان لا يفرح بشيء إلا إذا حَقَّقَ له غاية تُسَعِّده ، ولا بُدَّ أن تكون هذه الغاية منشورة ومعروفة .

وهم قد فرحوا بما نزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه حقق لهم ما جاء في كتبهم من نبوءة به .

ومعنى ذلك أن كتبهم قد صدقت ، ومن جاء بالرسالة الخاتم صادق ، وكان عليهم أن يكونوا أول المُبَادرين إلى الإيمان به .

ذلك أن الفرحة هي العملية التعبيرية أو التزوعية من مواجيد الحب ، والإنسان إنما يفرح بتحقيق أمر طَيِّب كان ينتظره .

ولذلك كان يجب أن يُهْرولوا للإيمان بالدين الجديد ، وأن يعلنوا الإيمان به مثلما فعل كعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي الذي جاب أغلب البلاد باحثاً عن الدين الحق .

وهؤلاء هم مجرد أمثلة لِمَنْ أرادوا أن يُعَبِّروا بالفرحة واستقبال مدد السماء عبر مجيء النبي الخاتم

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلنوا البيعة للرسول الجديد كما بشرت به الكتب السماوية السابقة على بعثته ، ثم وقفوا موقف العداء من الذين لم يفرحوا بمقدم الرسول ، ثم غيروا ما جاء في كتبهم السماوية طمعاً في السلطة الزمنية .

وعرف مَنْ آمنوا برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذين أنكروا نبوة محمد بن عبد الله قد دَلَّسوا على أنفسهم وعلى غيرهم ، وأتوا بأشياء لم تكن موجودة في كتبهم المنزلة على رسلهم كادعائهم أن الله أبناء ، وسبحانه مُنَزَّه عن ذلك .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه : { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ الْرُجُوعِ } [ الرعد : 36 ]

تلك عدالة من القرآن؛ لأن القرآن لم ينكر الكتب السماوية السابقة بأصولها ، لكنه أنكر التحريف في العقائد ، وأنكر مواقف مَنْ حرَّفوا وادَّعوا كذباً أن هناك نبوة لله . هذا التحريف لم يَنَلْ من القرآن إنكاراً لكل ما جاء بالكتب السابقة على القرآن؛ ولكنه أنكر التحريف فقط .

وقد أثبت القرآن ما لله وما للرسول ، وأنكر التحريف الذي أرادوا به السلطة الزمنية؛ وادعاء القداسة ، والتجارة بصكوك الغفران وبيع الجنة ، وتلقِّي الاعترافات ، وغير ذلك مما لم ينزل به كتاب سماوي .

وحين جاء الإسلام ليُحَرِّم ذلك دافعوا عن سلطتهم التي يتاجرون بها في أمور الدين ، وهي ليست من الدين .

وانظر إلى قول الحق سبحانه : { قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ . . . } [ الرعد : 36 ]

وهذا القول دليل على أن هؤلاء المُعَيَّرِينَ في الكتب السماوية أو الذين أنكروا وحدانية الله؛ هؤلاء جاء لهم بالقول الفصل : { إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ . . . } [ الرعد : 36 ] أي : أنه يُقَرُّ بأن هناك ديناً قد أُخْتِيرَ له من قِبَلِ مُرَبِّهِ؛ ولم يَخْتَرْ محمد شيئاً أعجبه ليعبده ، ولكنه كرسول من الله يَشْرُفُ بالانتماء لما جاءه الأمر به من السماء ، وهو لا يشرك به أحد . ونجد الرسول صلى الله عليه وسلم يتعصَّب لِمَا يتعلق بربه؛ وقد يتهاون بما يتعلق بشخصه . ولذلك وجدنا بعض الملاحدة وقد قالوا له : نحن نؤمن بالله وبالسماء والوحي وبكل شيء ، لكننا لا نؤمن بك أنت ، ولم يغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولو كان يُدْخِلُ ذاته أو أنانيته في الأمر لَغَضِبَ ، ولكنه لم يغضب .

والدليل على هذا هو أن مواجيدته صلى الله عليه وسلم كانت مع الروم المؤمنين بكتاب سماوي

ضد المشركين الذين لا يؤمنون بدين سماوي وهم الفُرس؛ وحزن صلى الله عليه وسلم حين غلبت الروم ، فنزل إليه القول الحق نبأ النصر القادم في بضْع سنين؛ تسليَّةً له صلى الله عليه وسلم :

{ الم \* غَلِبَتِ الروم \* في أدنى الأرض وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ \* فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ \* بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }

### [ الروم : 1-5 ]

وهؤلاء في قلب رسول الله كانوا أقرب من غيرهم؛ لأنهم يتبعون ديناً سماوياً؛ وساعة يرى رائحة صاحب خير يرجحه على صاحب الشر؛ فهو يطلب لهم النصر ويُبشِّرُهُ اللهُ بخير نصرهم في بضْع سنين ، وهم يحملون رائحة الخير ، رغم أنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومعنى : { قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ . . . } [ الرعد : 36 ]

أي : أني سأعبد الله وحده ، ولن أعطف على عبادته شيئاً؛ ويدعو لعبادته وحده؛ لأنه يعلم أنه سيؤوب إليه ، كما سيؤوب إليه كلُّ إنسان؛ فلا أحدَ ينفلتُ من ربه وخالقه ، ولا بُدَّ لكل إنسان أن يُعدَّ عُدَّتَهُ لهذا المآب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

{ وكذلك أنزلناه حُكْماً عَرَبِيًّا . . . }

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وِثْيٍ وَلَا وَاقٍ (37)

والمقصود ب « كذلك » إشارة إلى إرسال الرسل المُتَقَدِّمِينَ بمعجزات شاءها الحق سبحانه ، ولم يقترحها أحد .

وقوله : { أَنْزَلْنَاهُ . . . } [ الرعد : 37 ]

ساعةً نسمعه نرى أن هناك مكانة عَلِيَّةٌ يُنزلُ منها شيئاً لمكانة أدنى ، ومثل ذلك أمر معروف في الحِسِّيَّاتِ ، وهو معروف أيضاً في المعنويات .

بل وقد يكون هذا الشيء لم يصل إلى السماء؛ ولكنه في الأرض ، ومع ذلك يقول فيه الحق

سبحانه : { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . . } [ الحديد : 25 ]

وهو إنزالٌ ، لأنه أمر من تدبير السماء ، حتى وإن كان في الأرض : { وكذلك أنزلناه حُكْماً

عَرَبِيًّا . . . } [ الرعد : 37 ]

والحكم هو المُعْنَى ، والمقصود بالإنزال هنا هو القرآن ، وهو كتاب؛ والكتاب مَبْنِيٌّ وَمَعْنَى ، وشاء

الحق سبحانه هنا أن يأتي بوصف المبالغة ليأتي الوصف وكأنه الذات ، أي : أنه أنزل القرآن

حُكْماً؛ وهذا يعني أن القرآن في حَدِّ ذاته حكم .

وأنت حين تصف قاضياً يحكم تمام العدل؛ لا تقول « قَاضٍ عَادِلٌ » بل تقول « قَاضٍ عَدْلٌ »  
أي : كأن العدل قد تجسم في القاضي؛ وكأن كل تكوينه عدل . والحق سبحانه هنا يوضح أن  
القرآن هو الحكم العدل ، ويصفه بأنه : { حُكْمًا عَرَبِيًّا . . . } [ الرعد : 37 ]  
لأن اللسان الذي يخاطب به الرسول القوم الذين يستقبلون بأذانهم ما يقوله لهم لابد أن يكون  
عربياً . ولذلك يقول في آية أخرى . { وَإِنَّهُ لَدِكَّرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ } [ الزخرف :  
[ 44 ]

أي : أنه شرفٌ كبير لك ولقومك ، أن نزل القرآن بلغة العرب .  
وقد حفظ القرآن لنا اللغة العربية سليمة صافية؛ بينما نجد كل لغات العالم قد تشعبت إلى  
لهجات أولاً ، ثم استقلت كل لهجة فصارت لغة ، مثل اللغة اللاتينية التي خرجت منها أغلب  
لغات أوروبا المعاصر من : الإنجليزية وفرنسية وإيطالية ، ووجدنا تلك اللغات تتفرق إلى لغات  
استقلالية ، وصار لكل منها قواعد مختلفة .  
بل إن اللغة الإنجليزية على سبيل المثال صارت « الإنجليزية الإنجليزية » يتكلم بها أهل بريطانيا؛ و  
الإنجليزية أمريكية « يتكلم بها أهل الولايات المتحدة .  
ولو تركنا نحن لغة التخاطب بيننا كمسلمين وعرب إلى لغة التخاطب الدارجة في مختلف بلادنا؛  
فلن يفهم بعضنا البعض ، ومرجع تفاهمنا مع بعضنا البعض حين نتكلم هو اللغة الفصحى .  
ودليلنا ما رأينا في مغربنا العربي ، فنجد إنساناً تربى على اللغة الفرنسية ، أو تكون لغة جمعاً بين  
لهجات متعددة من البربرية والفرنسية ويقايا لغة عربية ، فإذا حدثته باللغة العامية لا يفهم منك  
شيئاً ، وإن تحدثت معه باللغة العربية استجاب وأجاب؛ لأن فطرته تستقبل الفصحى فهماً  
وإدراكاً .  
وهكذا رأينا كيف صان القرآن الكريم اللغة العربية واللسان العربي .  
ومن ضمن معاني قول الحق سبحانه : { حُكْمًا عَرَبِيًّا .

. . . } [ الرعد : 37 ]

أي : أن الذي يَصُون ويعصم هذا اللسان العربي هو القرآن الكريم .  
ويتابع سبحانه بقوله : { . . . وَلَئِن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ  
وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ } [ الرعد : 37 ]

وهذا خطاب مُوجَّه منه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم يكشف فيه الحق سبحانه أمام  
رسوله صلى الله عليه وسلم مَضَارَّ وخطورة اتباع الهوى؛ وهو خطاب يدل على أن الدين الذي  
نزل على موسى ثم عيسى ، وهما السابقان لرسول الله؛ لم يُعَدَّ كما كان على عهد الرسولين  
السابقين؛ بل تدخَّل فيه الهوى؛ ولم يُعَدَّ الدين متماسكاً كما نزل من السماء .

ولذلك يقول سبحانه في آية أخرى : { وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . . . } [ المؤمنون : 71 ]

ذلك أنه سبحانه لو اتبع أهواءهم لَصَاعَ نظام الكون؛ ألم يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا . . . } [ الإسراء : 92 ]

ولو استجاب الحق مثلاً لهذه الدعوة ، ألم تكن السماء لتفسد؟  
إذن : فبعد أن نزل القرآن من السماء حكماً وعلماً ومنهجاً يسهل عليهم فهمه ، لأنه بلغتهم ، وهم يحمل كامل المنهج إلى أن تقوم الساعة ، وفيه دليل السعادة في الدنيا والآخرة .  
لذلك فليس لأحد أن يتبع هواه؛ فالهوى كما نعلم يختلف من إنسان لآخر ، والخطاب الموجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتضمن في طياته الخطاب لأُمَّته صلى الله عليه وسلم .  
ومن يفعل ذلك فليس له من دون الله وليّ يؤازره أو ينصره ، أو يقيه عذاب الحق : شقاء في الدنيا ، وإلقاء في الجحيم في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ . . . }

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرُسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38)

وأنت يا محمد لست بدعاً من الرسل في مسألة الزواج والإنجاب . وهي تحمل الرد على مَنْ قالوا : { مَا لِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسُحُ فِي الْأَسْوَاقِ . . . } [ الفرقان : 7 ]

ومنهم مَنْ قال : ما لهذا الرسول يتزوج النساء؟ ألم يكن من اللائق أن يتفرغ لدعوته؟  
وهؤلاء الذين قالوا ذلك لم يستقرئوا الموكب الرسالي ، لأنهم لو فعلوا لوجدوا أن أغلب الرسل قد تزوجوا وأنجبوا .

وحين تكون حياة الرسول قريبةً كمثال واضح من حياة الناس الذين أرسل إليهم؛ ليكون أسوة لهم؛ فالأسوة تتأتى بالجنس القابل للمقارنة؛ وحين تكون حياة الرسول كحياة غيره من البشر في إطارها العام؛ كأبٍ وزوج ، فالأسوة تكون واضحة للناس .

ونعلم أن هناك مَنْ جاء إلى رسول الله؛ ليطلب الإذن بالتفرغ التام للعبادة من : صوم وصلاة ورُهد عن النساء ، فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال في حديث شريف : « إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

ويتابع الحق سبحانه : { . . . وَمَا كَانَ لِرُسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } [

الرعد : 38 ]

أي : ما كان لأحد أن يقترح على الله الآية التي تأتي مع أي رسول من الرسل ، ولم يكن لأي رسول حق في اختيار الآية المصاحبة له .

وبهذا القول حسم الحق سبحانه قضية طلب المشركين لآيات الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن كل رسول جاء لزمانه ولقومه؛ وكل معجزة كانت من اختيار الله ، وكل رسول يؤدي ما يكلفه به الله؛ وليس للرسول أن يقترح على الله آية ما؛ لأن الخالق الأعلى هو الأعلّم بما يصلح في هذه البيئة على لسان هذا الرسول .

ونأخذ من قوله الحق : { . . . لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } [ الرعد : 38 ]

أن لكل رسالة رسولها ، ولكل رسالة مكانها ، ولكل رسالة معجزتها ، فإذا كان الأمر كذلك فدعوا محمد صلى الله عليه وسلم وما اختاره الله له؛ في المكان الذي شاءه سبحانه ، وفي الزمان؛ وفي المعجزة المصاحبة له صلى الله عليه وسلم .

ولكن ، هناك تغيير بعد أن يقول الحق سبحانه : { . . . لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } [ الرعد : 38 ]  
نعم هناك تغيير ، وانظروا إلى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :  
{ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ . . . }

### يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39)

والمحو كما نعلم هو الإزالة ، والتثبيت أي : أن يُبقي الحق ما يراه ثابتاً .  
وقد فهم بعض الناس خطأ أن كل حُكْم في القرآن قد جاء ليثبت وسيظل هكذا أبداً الدهر؛ ولكن عند التطبيق ظهر أن بعض الأحكام يقتضي تغييرها بغيرها الله لحكمة فيها خير البشرية .  
ونقول : لا ، لم يحدث ذلك ، ولكن كانت هناك أحكام مَرَحَلِيَّة؛ ولها مُدَّة مُحدَّدة؛ ولذلك جاء قول الحق سبحانه : { . . . وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } [ الرعد : 39 ]

أي : عنده اللوح المحفوظ الذي تحدّث فيه الأحكام التي لها مُدَّة مُحدَّدة؛ وما أن تنتهي إلا وينزل حُكْم آخر مكانها ، وعلى هذا المعنى يمكن أن نقول : إنه لم يوجد نَسْخٌ للأحكام ، لأن معنى النَسْخ أن يُرْحَلَ حُكْمٌ عن زمانه؛ وهنا لم نجد حُكْماً يتزحزح عن زمانه؛ لأن كل حُكْم موقوفٌ بوقت محدود؛ وما أن ينتهي الوقت حتى يبدأ حُكْم جديد .

أقول ذلك كي أنبّه العلماء إلى ضرورة أن يجلسوا معاً لدراسة ذلك ، حتى لا يختلف العلماء :  
أهناك نَسْخٌ أم لا ، وأقول : فلنُحدِّد النَسْخَ أولاً ، لأن البعض يظن أن هناك حكماً كان يجب أن ينسحب على كل الأزمنة ، ثم جاء حُكْم آخر ليحل محله لحكمة تقتضيها مصلحة البشرية والمراد لله منها .

ولا يوجد حُكْمٌ أنهى حُكْماً وطراً عليه ساعة الإنهاء؛ بل كل الأحكام كانت مُقدَّرةً أزلاً؛ وعلى ذلك فلا يوجد نَسْخٌ لأي حُكْم ، ولكن هناك أحكام ينتهي وقتها الذي قدره الله لها؛ ويأتي

حُكْم سبق تقديره أولاً ليواصل الناسُ الأخذ به؛ وما دام الأمر كذلك فلا يوجد نسخ .  
ولننظرُ إلى قول الحق سبحانه : { مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّثْلَهَا . . . } [ البقرة : 106 ]

ويتضح من منطوق الآية ومفهومها أن عند نسخ حكم يأتي الله بمثله أو خير منه . إذن : ليس هناك نسخ وإنما هناك أحكام تؤدي مهمتها في زمن ثم يأتي زمن يحتاج إلى حكم خير منه أو مثله في الحكم ، ولكنه يوافق المصالح المرسله مع مراد الله .  
ولقائل أن يقول : مادام سيأتي بخير من الآية المنسوخة أو المنسأة فذلك افضل ، ولكن لماذا يأتي بالمثل؟

وأقول : لأنك إن جاءك ما هو خير منها قد تستسيغه ، ولكن حين نتقل إلى مثل ما جاءت به الآية؛ فهذا محكُ الإيمان .

والمثل هو التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس في أول الدعوة؛ ثم مجيء الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة؛ فلا مشقة في ذلك .

ولكن هنا يتم اختبار الالتزام الإيماني بالتكليف ، وهنا الانصياع للحكم الذي ينزله الله ، وهو حكم مقدر أولاً؛ وفي هذا اختبار لليقين الإيماني في إدارة توجيه المدبر لهذا السير .  
وكذلك في الحج يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم ليُقْبَل الحجر الأسود؛ ثم يرمم الحجر الذي يرمز لإبليس ، ونحن نفعل ذلك أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما حجر ، ولكننا نتمثل لأمره صلى الله عليه وسلم .

فتقبيل الحجر الأسود ورمم الحجر الذي يشير إلى رمزية إبليس ، كل هذا استجابة لأمر الأمر .  
وحين يقول الحق سبحانه : { يَمْخُوا لِلَّهِ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } [ الرعد : 39 ]  
فهو يعني أنه سبحانه يُنهي زمن الحكم السابق الذي ينتهي زمنه في أم الكتاب أي اللوح المحفوظ؛ ثم يأتي الحكم الجديد .

والمثال : هو حكم الخمر؛ وقد عاجلها الحق سبحانه أولاً بما يتفق مع قدرة المجتمع؛ وكان المطلوب الأول هو تثبيت العقيدة؛ ثم تجيء الأحكام من بعد ذلك .  
وهناك فرق بين العقيدة وهي الأصل وبين الأحكام ، وهي تحمل أسلوب الالتزام العقدي ، وكان الحكم في أمر العقيدة ملزماً ومستمراً .

أما الأحكام مثل حكم الخمر فقد تدرج في تحريمها بما يتناسب مع إلف الناس؛ واعتيادهم؛ فقلل الحق سبحانه زمن صُحبة الخمر؛ ثم جاء التحريم والأمر بالاجتناب ، وعدم القرب منها .  
والمثل في حياتنا؛ حيث نجد من يريد أن يمتنع عن التدخين وهو يُوسّع من الفجوة الزمنية بين سيجارة وأخرى ، إلى أن يقلع عنها بلطف ، وينفيها من حياته تماماً .

ونجد القرآن يقول في الخمر : { وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا .  
 . . { [ النحل : 67 ]

وهنا يمتن الله عليهم بما رزقهم به؛ ولكن أهل الذوق يلتفتون إلى أنه لم يصف الخمر بأنها من الرزق الحسن؛ ووصف البلح والعنب بأنه رزق حسن؛ لأن الإنسان يتناوله دون أن يفسده . وهكذا يلتفت أهل الذوق إلى أن الخمر قد يأتي لها حكم من بعد ذلك ، ثم يُنزل الحق سبحانه عظة تقول : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا . . . } [ البقرة : 219 ]

وهكذا أوضح الحق سبحانه ميل الخمر والميسر إلى الإثم أكثر من ميلهما إلى النفع ، ثم جاء من بعد ذلك قوله بحكم مبدئي : { لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . . . } [ النساء : 43 ]

ومعنى ذلك أن تتباعد الفترات بين تناول الخمر ، فلا يحتسي أحد الخمر طوال النهار وجزء من الليل ، وفي ذلك تدريب على الابتعاد عن الخمر .

ثم يأتي التحريم الكامل للخمر في قوله تعالى : { . . . إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [ المائدة : 90 ]

وهكذا أخذ الحكم بتحريم الخمر تدرجه المناسب لعادات الناس ، وتمَّ تحريم الخمر بهوادة وعلى مراحل .

وهكذا نفهم النَّسخ على أنه انتهاء الحكم السابق زمنًا وبداية الحكم الجديد ، وهذا يعني أن الحكم الأول لم يكن مُنسخًا على كل الزمن ثم أزلناه وجئنا بحكم آخر؛ ولكن توقيت الحكم الأول أزلًا قد انتهى؛ وبدأ الحكم الجديد .

وهكذا لا يوجد مجال للاختلاف على معنى النَّسخ ، ذلك أن الحق سبحانه أرجع المَحْو والإثبات إلى أم الكتاب؛ ففيها يتحدد ميعاد كل حكم وتوقيتته؛ وميعاد مجيء الحكم التالي له .

وما دام كل أمر مرسوم أزلًا؛ فعلى مَنْ يقولون أن البداء محرم على الله أن ينتبهوا إلى أن هذا المحو والإثبات ليس بداء؛ لأن البداء يعني أن تفعل شيئًا ، ثم يبدو لك فسادُه فتغيره .

والحق سبحانه لم يظهر له فساد ما أنزل من أحكام أو آيات؛ بل هو قدر كل شيء أزلًا في أم الكتاب ، وجعل لكل حكم ميقاتًا وميلادًا ونهاية .

ويصح أن يتسع معنى قول الحق سبحانه : { يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } [ الرعد : 39 ]

ليشمل نسخ رسالة برسالة أخرى؛ فيكون قد محَا شيئًا وأثبت شيئًا آخر ، وكل شيء فيه تغيير إلى الخير ويصح فيه المحو والإثبات ، وهو من عند الرقيب العتيد : { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ

رَقِيبٌ عَتِيدٌ { [ ق : 18 ]

أي : أنه القادر على أن يأمر الرقيب العتيد بأن يُثبِتنا الواجبات والحرمات ، وأن يتركنا الأمور  
المباحة ، وهو القادر على أن يمحُو ما يشاء من الذنوب ، ويُثبِت ما يشاء من التوبة .  
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

{ وَإِنْ مَا نُرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ . . . }

وَإِنْ مَا نُرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْتِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40)

هذه الآية تُحدِّد مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم في أن يُبلِّغ منهج الله ، فمن شاء فليؤمن ومن  
شاء فليكفر ، إلا أن قول الحق سبحانه في رسوله صلى الله عليه وسلم : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ  
مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [ التوبة : 128 ]  
جعله هذا القول متعلقاً بمداية قومه جميعاً ، وكان يرجو أن يكون الكل مهتدياً؛ ولذلك يقول  
الحق سبحانه لرسوله في موقع آخر : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا  
الْحَدِيثِ أَسَفًا } [ الكهف : 6 ]

أي : أنك لستَ مسئولاً عن إيمانهم ، وعليك ألاّ تخزن إن لم ينضمُّوا إلى الموكب الإيماني ، وكُلُّ ما  
عليك أن تدعوهم وتُبلِّغهم ضرورة الإيمان؛ والحق سبحانه هو الذي سوف يحاسبهم إما في الدنيا  
بالحو والإهاب ، أو في الآخرة بأن يلقُوا عذاب النار .

وحين يقول الحق سبحانه : { وَإِنْ مَا نُرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْتِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ  
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [ الرعد : 40 ]

فنحن نعلم أن كل دعوة من دعوات الخير تكبر يوماً بعد يوم؛ ودعوات الشر تبتهت يوماً بعد يوم  
. ومن يدعو إلى الخير يُحب ويتشوق أن يرى ثمار دعوته وقد أينعت ، ولكن الأمر في بعض  
دعوات الخير قد يحتاج وقتاً يفوق عمر الداعي .

ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : { وَإِنْ مَا نُرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ  
نَتَوَفَّيْتِكَ . . . } [ الرعد : 40 ]

أي : اغرس الدعوة ، ودع مَنْ يقطف الثمرة إلى ما بعد ذلك ، وأنت حين تتفرغ للغرس فقط؛  
ستجد الخير والثمار تأتي حين يشاء الله؛ سواء شاء ذلك إبان حياتك أو من بعد موتك .  
وأنت إذا نظرت إلى الدعوات التي تستقبلها الحياة تجد أن لكل دعوة أنصاراً أو مؤيدين ، وأن  
القائمين على تلك الدعوات قد تعجَّلوا الثمرة؛ مع أنهم لو تمهَّلوا ليقطفها مَنْ يأتي بعدهم  
لنَجحت تلك الدعوات .

ونحن في الريف نرى الفلاح يغرس؛ ومن خلال غرسه نعرف مراداته ، هل يعمل لنفسه ، أو  
يعمل من أجل من يأتي بعده؟

فَمَنْ يَغْرِسُ قَمْحاً يَحْصِدُ بِسُرْعَةٍ تَفُوقُ سُرْعَةَ مَنْ يَغْرِسُ نَخْلاً أَوْ شَجَرَةً مِنَ الْمَانِجُو ، حَيْثُ لَا تَتَمَرُ النَخْلَةُ أَوْ شَجَرَةُ الْمَانِجُو إِلَّا بَعْدَ سِنِينَ طَوِيلَةٍ ، تَبْلُغُ سَبْعَ سِنِيَّاتٍ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، وَهَذَا يَزْرَعُ لِيُؤَدِيَ لِمَنْ يَجِيءُ مَا أَدَاهُ لَهُ مَنْ ذَهَبَ .

وَنَحْنُ نَأْكُلُ مِنْ تَمْرٍ زَرَعَهُ لَنَا غَيْرُنَا مِمَّنْ ذَهَبُوا ، وَلَكِنَّهُمْ فَكَّرُوا فِيمَنْ سَيَأْتِي مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَبَدٍ وَأَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ سِعَةٌ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يَزْرَعُهَا؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يَمْلِكُ سِعَةً مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ يَفْكَرُ فَقَطْ فِيمَنْ يَعُولُ وَفِي نَفْسِهِ فَقَطْ؛ لِذَلِكَ يَزْرَعُ عَلَى قَدْرِ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْطِيَهُ الْأَرْضُ الْآنَ .  
أَمَّا مَنْ يَمْلِكُ سِعَةً مِنَ الْأَرْضِ وَسِعَةً فِي النَّفْسِ؛ فَهُوَ مَنْ وَضَعَ فِي قَلْبِهِ مَسْئُولِيَّةَ الْإِهْتِمَامِ بِمَنْ سَيَأْتُونَ بَعْدَهُ .

وَأَنْ يَرِدَ الْجَمِيلُ الَّذِي أَسَدَاهُ لَهُ مَنْ سَبَقُوهُ ، بَأَنْ يَزْرَعُ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ سَيَأْتُونَ مِنْ بَعْدِهِ .  
وَدَعْوَةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَهِدَتْ لَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَبْحَثْ لِنَفْسِهِ عَنْ ثَمَرَةٍ عَاجِلَةٍ؛ بَلْ نَجَدَ الدَّعْوَةَ وَهِيَ تُقَابِلُ الصَّعَابَ تَلُو الصَّعَابَ ، وَيَلْقَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا تَلَقَّى مِنَ الْعَنْتِ وَالْإِرْهَاقِ وَالْجُهْدِ؛ بَعْدَ أَنْ جَهَرَ بِالدَّعْوَةِ فِي عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ .  
ثُمَّ ظَلَّتْ الدَّعْوَةُ تَتَسَعُّ فِي بَعْضِ الْعَشَائِرِ وَالْبَطُونِ إِلَى أَنْ دَالَتْ عَاصِمَةَ الْكُفْرِ؛ وَصَارَتْ مَكَّةَ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ كَمَا شَاءَ اللَّهُ ، وَأَسْلَمَتْ الْجَزِيرَةَ كُلَّهَا لِمَنْهَجِ اللَّهِ ، وَأَرْسَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكُتُبَ إِلَى الْمُلُوكِ وَالْقِيَاصِرَةِ ، وَكُلِّهَا تَتَضَمَّنُ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَسْلَمَ تَسْلَمَ » .  
وَدَلَّتْ هَذِهِ الْكُتُبُ عَلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ هِيَ دَعْوَةٌ مُتَمَدِّدَةٌ لِكُلِّ النَّاسِ؛ تَطْبِيقاً لِمَا قَالَهُ الْحَقُّ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ : « رَسُولٌ لِلنَّاسِ كَافَّةً » .

قَالَ تَعَالَى : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . . . } [ سبأ : 28 ]  
وَفَهِمَ النَّاسُ الْفَارِقَ بَيْنَ رِسَالَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ كَافَّةِ الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ ، فَإِلَى قَوْمِ عَادٍ أَرْسَلَ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ .

يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ : { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا . . . } [ الأعراف : 65 ]  
وَقَالَ عَنْ أَهْلِ مَدْيَنَ : { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . . . } [ الأعراف : 85 ]  
وَقَالَ عَنْ بَعْنَةَ مُوسَى : { وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . } [ آل عمران : 49 ]  
وَهَكَذَا حَدَّدَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ زَمَانَ وَمَكَانَ الْقَوْمِ فِي أَيِّ رِسَالَةٍ سَبَقَتْ رِسَالَةَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

لَكِنِ الْأَمْرُ يَخْتَلِفُ حِينَ أَرْسَلَ سَبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا وَجَعَلَهُ لِلنَّاسِ كَافَّةً ، فَقَدْ عَلِمَ سَبْحَانَهُ أَوْلَى أَنْ هَذَا هُوَ الدِّينُ الْخَاتِمُ؛ لِذَلِكَ أَرْسَلَ رَسُولَ اللَّهِ إِلَى حُكَّامِ الْعَالَمِ الْمُعَاصِرِينَ لَهُ دَعْوَةً لِدُخُولِ الدِّينِ الْخَاتِمِ .

وَقَدْ تَرَكَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ الْمَهْمَةَ لِمَنْ يَخْلُفُونَهُ ، وَدَعَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الجزيرة العربية تحت لواء « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » بعد أن كانت قبائل متعددة . كل قبيلة كانت لا تُلزِم نفسها بعبادة إله القبيلة الأخرى؛ وكل قبيلة لا تُلزِم نفسها بتقنين القبيلة الأخرى ، ولم يجمعهم أبداً شئ ، ولا استيطان لهم إلا في بعض القرى ، ذلك أن أغلبهم من البدو الرُّحَّل؛ كل واحد منهم يحمل بيته الخيمة على ظهر بعيره ، ويمشي بحثاً عن الكلاً والماء لأغنامه وماشيتته .

فلم يكن عندهم انتماء وطني؛ فضلاً عن القبائل التي كانت تتقاتل فيما بينها في تارات عنيفة ، وامتدت الحرب فيما بين بعض القبائل إلى أربعين عاماً في بعض الأحيان . استطاع صلى الله عليه وسلم أن يُوظف ما كانوا عليه من تدريب وعناد وُعْدَة لِنُصْرَة دين الله؛ فحين إعداده للغزوات أو اختياره للسرايا كان يجد المقاتلين في كامل لياقتهم .

وحين استدعاهم إلى الحرب لم يُجر لهم تدريبات؛ فقد كان الكل مُدْرَباً على القتال . وهكذا صارت القبائل أمة واحدة بعد أن جمعهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في وحدة التكامل العقدي تحت راية الإسلام ، وهذه الأمة الأُمِيَّة ، قال فيها الحق سبحانه : { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ . . . } [ الجمعة : 2 ] وكانت هذه الأُمِيَّة شرفاً لهم كَيْلَا يُقَالَ : إنهم أصحاب قَفْزَة حضارية من أمة مُتَمَدِينَة . وكانت هذه الأُمِيَّة مُلْفَتَة ، لأن ما جاء في تلك الأُمّة من تشريعات وقفت أمامه الأُمم الأخرى إلى زماننا هذا باندهاش وتقدير .

و شاء الحق سبحانه لهذه الأُمّة أن تحمِلَ رسالة السماء لكل الأرض ، وبعد أن نزل قول الحق سبحانه : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . . . } [ المائدة : 3 ]

فهم بعض الناس أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعني نفسه لأُمته . ومن بعد رحيله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى انساح صحابته بالدين الخاتم في الدنيا كلها ، وخلال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحان؛ جناح في الشرق ، وجناح في الغرب . وهزم أكبر إمبراطوريتين متعاصرتين له؛ هما إمبراطورية فارس بمضارتها وإمبراطورية الروم . وكانت البلاد تتخطف الإسلام كمنهيج حياة ، حدث ذلك بعد أن حارب الإسلام الإمبراطوريتين في آن واحد ، وأقبل الناس على الإسلام ليتحققوا من معجزته التي لمسوها في حُلُق مَنْ سَمِعُوا القرآن وحملوا رسالته؛ ثم في اكتشافهم لعدالة القرآن في إدارة حركة الحياة . وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية؛ وأن رسوله صلى الله عليه وسلم هو الرسول الخاتم الذي لم يأت لهم بمعجزة حسّية ، وإذا كان القرآن معجزة في اللغة للقوم الذين نزل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالقرآن لمن لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة في العدالة والقيم النابعة

منه .

وكان الناس يندفعون إلى الإسلام بقوة دُفِعَ من المؤمنين به ، وبقوة جَذَبَ من غير المؤمنين؛ حين يروُنَ أَلَاَ فَرَّقَ بين الأمير وأصغر فَرُدَ تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر . ولم يكن الإسلام معجزة لقومه فقط؛ بل لكل الدنيا ، ويتحقق دائماً قول الحق سبحانه : { سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . . . } [ فصلت : 53 ] ونجد مُفَكِّراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن؛ بل نظر فقط في المبادئ التي قَنَّنَهَا الإسلام ، وكيف تحمل حلولاً لِمَا عجزت عنه الحضارات المتعاقبة وأهل القوانين في كل بلاد الأرض .

ويعرف أن تلك القوانين قد جاءت لرسول ينتمي لأمة لم تبرعْ إلا في البلاغة والأدب ، وتضع تلك القوانين حلولاً لمشاكل تعاني منها الدنيا كلها .  
ورأينا كيف بحثَ رجل عن أعظم مائة في تاريخ البشرية ، وكيف جعل محمداً صلى الله عليه وسلم أولهم ، وهذا الباحث لم يقرأ القرآن؛ ولكنه درس آثار تطبيق القرآن ، وبعد أن يُعجب بالمنهج القرآني نجده يُعجب بالنص القرآني .

والمثل : هو دراسة الألمان لعملية إدراكات الحِسِّ؛ وكيف يشعر الإنسان بالألم؟ وكيف يلمس الإنسان بِبَشَرَتِهِ بلمسٍ ناعم فيسّر منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه . واستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات؛ كي يعرفوا مناطَ الإحساس وموقعه في الإنسان ، هل هو في المَخِّ أم أين؛ إلى أن انتهوا إلى مناطَ الإحساس في كَلِّ إنسان هو في الجِلْد ، وأنها خلايا مُنبسطة تحت الجِلْد مباشرة؛ بدليل أن الإبرة حين نغرزها في جسم الإنسان؛ فهو يتألم فقط في منطقة دخولها؛ وليس أكثر .

ولفتَ ذلك نظر أحد العلماء؛ فقال : لقد تحدث القرآن عن ذلك حين قال : { . . . كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيمًا } [ النساء :

[ 56 ]

ومن الأمثلة المعاصرة في العلوم الجنائية قصة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليُعد رسالة الدكتوراه في القانون ، ووجدهم يقفون عند قضية التعسّف في استعمال الحق ، ويعتبرونها من أهم الإنجازات القانونية في القرآن العشرين .

فأوضح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهم في تقدير هذه المسألة ووضع الحكم المناسب فيها من أربعة عشر قرناً من الزمان .

« وروى لهم أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : إن لفلان عندي في ساحة بيتي نخلة ، وهو يدخل بيتي كل ساعة بحجة رعاية تلك النخلة؛ مرة بدعوى تأبيرها؛

وأخرى جني ثمارها . وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شغله الشاغل .  
وشكا الرجل للرسول صلى الله عليه وسلم أنه يتأذى هو وأهل بيته من اقتحام الرجل للحياة  
الخاصة له ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى صاحب النخلة وقال له : أنت بالخيار بين ثلاثة  
مواقف : إما أن تهبه النخلة وتلك منتهى الأريحية ، وإما أن تبيعها له ، وإما قطعناها » .  
وهكذا وضع صلى الله عليه وسلم قواعد للتعامل فيما يسمى « التعسف في استعمال الحق » .  
وفي إنجلترا وجدوا أن القانون التجاري مليء بالثغرات ، ومثال هذا أن التعامل في السوق قد  
يتطلب بعضاً من المرونة بين التجار؛ فهذا يرسل لذلك طالباً من الآخر ألفاً من الجنيهات؛ وفلان  
يردُّ ما أخذه أو يقايضه .

واصطدم الواقع بأن بعض التجار لا يعترفون ببعض الديون التجارية التي عليهم ، وقديماً كان إذا  
أراد تاجر أن يقترض من زميل له؛ فهو يكتب الدَّين في كمبيالة أو إيصال أمانة؛ وذلك لتوثيق  
الدَّين .

ولكن الأمر اليومي في السوق قد يختلف؛ فهذا يحتاج نقوداً لأمر عاجل ، وزميله يثق في قدرته  
على الردِّ والتسديد؛ لأنه قد يحتاج هو الآخر لنقود عاجلة ، ويثق أن مَنْ يقرضه الآن ، سيقرضه  
فيما بعد؛ ولذلك أنشأوا ما يُسمَّى بالدَّين التجاري ، فيفتحون « دفترًا » يُسجِّلون في الديون  
التجارية؛ لتحكم الدفاتر فيما يعجز عن تذكره الأشخاص .

وذهب شاب مسلم لبعثة دراسية هناك؛ وأوضح لهم أن قضية الدَّين أخذت اهتمام الإسلام؛  
لدرجة أن أطول آية في القرآن هي الآية التي تحدد التعامل مع الديون؛ وأخذ يترجم لهم قول الحق  
سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ  
بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ  
وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِكِ  
وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ  
الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ  
تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ  
تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا  
يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ  
[ البقرة : 282 ] {

وظاهر الأمر أنه يحمي الدائن ، ولكن الحقيقة أنه يحمي المدين أيضاً؛ لأن المدين إن علم أنَّ  
الدين مُوثَّق؛ فهو سيسعى جاهداً أن يؤديه في مواعده ، وأيضاً كي لا يأخذ النصابون فرصة  
للهرب من السداد ، وبذلك حمى القرآن الدائن والمدين معاً كي لا تقف حركة التعامل بين الناس

ومع هذا فإنه لم يمنع الأريحية الإيمانية والمروءة أن تسلك طريقها في عالم الود والإخاء المؤمن؛ فإن كان لك قريب أو إنسان لك به صلة ، وأنت تأمنه على ما اقترض منك؛ يقول لك الحق سبحانه : { فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ . . . } [ البقرة :

[ 283

وبهذا القول يشعر مَنْ يحمل أمانة من الغير بالخجل؛ فيعمل على رَدِّهَا . ثم يضيف الحق سبحانه : { إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا . . . } [ البقرة :

[ 282 :

وهكذا جاء الإسلام بقوانين لا يمكن أن تخرج من أمة أمية؛ لأنها قوانين تسبق العصور ، وهي قوانين تنبع من دين سماوي خاتم . ولذلك عندما سألوني عن موقف الإسلام من التقدمية والرجعية ، قلت لهم :

إن القياس خاطئ؛ لأنك لن تستطيع أن تقيس فكر بشر بما أنزله ربُّ كل البشر ، وإذا كان العالم بشرفه وعزِّيه يهتدي إلى أيِّ خير تنتظم به حياته؛ ويجد جذوراً لذلك الخير في الإسلام؛ فهذا دليل على أن العالم يتجه إلى الوسطية .

وكان المثل في الشيوعية التي قامت ثورتها الدموية في عام 1917؛ وقالوا : إنها مُقدمة للشيوعية؛ وسقطت الشيوعية من بعد أن أصيب المجتمع الروسي بالتيبس والجمود ، والخوف من أسلوب حُكم الحزب الشيوعي .

ونجد الرأسمالية الشرسة ، وهي تُهدِّب من شرستها؛ وتعطي العامل حقَّه وتؤمِّن عليه ، وهكذا يتجه العالم إلى الوسطية التي دعا لها الإسلام .

وقد نزل الإسلام من قِبَلِ عالمٍ عليهم بكل الأهواء وبكل المراحل .

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يُطمئنُ رسوله صلى الله عليه وسلم إن آذاه أحدٌ في المنهج الذي جاء به؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأبه بمن يحاول أن يؤذيه في شخصه ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يغضب لنفسه؛ ولكن إن تعرَّض أحدٌ للمنهج فعضبه صلى الله عليه وسلم يظهر جلياً .

ومن وقفوا ضد الدين قابلهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة؛ فمن آمن منهم نال حلاوة الإيمان؛ ومن لم يؤمن فقد توالَتْ عليه المصائب من كل جانب ، منهم مَنْ رأى النبي صلى الله عليه وسلم مصارعه .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : { فَإِنَّمَا تَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ

مُنتَقِمُونَ \* أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ } [ الزخرف : 41-42 ]

أي : أنه جَلَّ وعَلاَ إما أن يُلحِقَ رسوله بالرفيق الأعلى ، وينتقم من الذين وقفوا ضده؛ أو يُريه عذابهم رَأَى العين .

وكان هذا القول هو الذي يشرح قوله سبحانه هنا : { وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِينَاكَ فَاِنَّمَا عَلَيْنَا الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [ الرعد : 40 ]  
وعذاب الدنيا كما نؤمن مَهْمَا بلغ فلن يصل إلى مرتبة عذاب الآخرة .  
ويقول سبحانه من بعد ذلك :  
{ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا . . . }

أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ  
(41)

و { يَرَوْا } هنا بمعنى « يعلموا » ، ولم يُقَلْ ذلك؛ لأن العلم قد يكون علماً بغيب ، ولكن « يروا » تعني أنهم قد علموا ما جاء بالآية عِلْمَ مشهد ورؤية واضحة ، وليس مع العين أَيْن .  
وإذا جاء قول الحق سبحانه ليخبرنا بأمر حدث في الماضي أو سيحدث في المستقبل؛ ووجدنا فيه فعل الرؤية؛ فهذا يعني أننا يجب أن نؤمن به إيمان مَشْهَدٍ ، لأن قوله سبحانه أوثق من الرؤية ، وعلمه أوثق من عينيك .

وسبق أن قال الحق سبحانه لرسوله : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ } [ الفيل : 1 ]  
ونعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وُلِدَ في عام الفيل ، ولا يمكن أن يكون قد رأى ما حدث لأصحاب الفيل ، ولكنه صَدَّقَ ما جاء به القول الحق وكأنه رؤيا مَشْهَدِيَّة .  
وقال الحق سبحانه : { أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا . . . } [ الفرقان : 45 ]

وحين يُعَبِّرُ القرآن عن أمر غيبي يأتي بفعل « يرى » مثل قوله الحق : { وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . . . } [ السجدة : 12 ]  
وحين يتكلم القرآن عن أمر معاصر يقول : { أَفَلَا يَرَوْنَ . . . } [ الأنبياء : 44 ]  
وهنا يقول الحق سبحانه : { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . } [ الرعد : 41 ]

وهذا قول للحاضر المعاصر لهم .

وتعريف الأرض هنا يجعلها مجهولة ، لأننا حين نرغب في أن نُعْرِفَ الأرض؛ قد يتجه الفكر إلى الأرض التي نقف عليها؛ وبالمعنى الأوسع يتجه الفكر إلى الكرة الأرضية التي يعيش عليها كل البشر .

وقد تُنسَبُ الأرض إلى بقعة خاصة وقع فيها حَدَثٌ ما؛ مثل قول الحق سبحانه عن قارون : {

فَحَسَنًا بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضُ . . . } [ القصص : 81 ]

ويقول الحق سبحانه عن الأرض كلها : { وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ . . . } [ النور : 55 ]

وبطبيعة الحال هم لن يأخذوا كل الأرض ، ولكن ستكون لهم السيطرة عليها .

وسبحانه يقول أيضاً : { فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ . . . } [ الأعراف : 73 ]

وهكذا نفهم أن كلمة « الأرض » تطلق على بقعة لها حدث خاص ، أما إذا أُطلقت؛ فهي تعني

كل الأرض ، مثل قول الحق سبحانه : { وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ } [ الرحمن : 10 ]

ومثل قوله تعالى لبني إسرائيل : { وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ . . . } [ الإسراء

: 104 ]

مع أنه قد قال لهم في آية أخرى : { ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ . . . } [ المائدة : 21 ]

فبعد أن حدّد لهم الأرض بموقع معين عاد فأطلق الكلمة ، ليدل على أنه قد شاء ألا يكون لهم

وَطَنٌ ، وَأَنْ يَطَّلُوا مُبْعَثِينَ ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ رَفَضُوا دَخُولَ الْمَوْقِعِ الَّذِي سَبَقَ وَأَنْ حَدَّده لهم وقالوا : {

إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا . . . } [ المائدة : 24 ]

ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا . . . } [ الأعراف :

[ 168 ]

أي : جعلنا كل قطعة بما تحويه من تماسك متفرقة عن القطعة الأخرى ، وهذا هو حال اليهود في

العالم؛ حيث يُوجَدُونَ في أحياء خاصة بكل بلد من بلاد العالم؛ فلم يذوبوا في مجتمع ما .

وقوله الحق هنا : { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . } [ الرعد : 41 ]

مُوجَّهٍ إِلَى قَرِيشٍ ، فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ السِّيَادَةُ وَمَرْكَزُهَا مَكَّةُ ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَجَدُوا أَنَّ الْمَوْقِفَ يَتَغَيَّرُ

فِي كُلِّ يَوْمٍ عَنِ الْيَوْمِ الْآخَرِ؛ فَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَذْهَبُ قَبِيلَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

الْمَدِينَةِ لِيَتَعَلَّنَ إِسْلَامُهَا وَتَبَايَعَهُ .

وهكذا تنقص أمام عيونهم دائرة الكفر ، إلى أن أعلنوا هم أنفسهم دخولهم في الإسلام .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن نقصت أرض الكفر ، وازدادت أرض الإيمان ، ورأوا ذلك بأنفسهم

ولم يأخذوا عِبْرَةً بما رَأَوْه أمام أعينهم من أن الدعوة مُتَمَدَّةٌ ، ولن تتراجع أبداً ، حيث لا تزداد

أرض إلا بمكين فيها .

والمكين حين ينقص بموقعه من معسكر الكفر فهو يُريد رُقْعَةَ الْإِيمَانِ؛ إِلَى أَنْ جَاءَ مَا قَالَ فِيهِ الْحَقُّ

سَبْحَانَهُ : { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ \* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا \* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } [ النصر : 1-3 ]

وهناك أناس مُخْلِصُونَ لدين الله ، ويجاولون إثبات أن دين الله فيه أشياء تدلُّ على المعاني التي لم

تُكْتَشَفُ بعد ، فقالوا على سبيل المثال فَوْر صعود الإنسان إلى القمر : لقد أوضح الحق ذلك حين قال : { يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لآ تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } [ الرحمن : 33 ] وقالوا : إنه سلطان العلم .

ولكن ماذا يقولون في قوله بعدها : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ } [ الرحمن : 35 ]

فهل يعني ذلك أنه أباح الصعود بسلطان العلم كما تقولون؟ وهؤلاء نقول : نحن نشكر لكم محاولة رَبُّطِكُمْ للظواهر العلمية بما جاء بالقرآن ، ولكن أين القمر بالنسبة لأقطار السماوات والأرض؟ إنه يبدو كمكان صغير للغاية بالنسبة لهذا الكون المتسع ، فأين هو من النجم المسمى بالشعري ، أو بسلسلة الأجرام المسماة بالمرأة المسلسلة؟ بل أين هو من المجرّات التي تملأ الفضاء؟

وحين تنظر أنت إلى النجوم التي تملوك تجد أن بينك وبينها مائة سنة ضوئية ، ولو كنت تقصد أن تربط بين سلطان العلم وبين القرآن ، فعليك أن تأخذ الاحتياط ، لأنك لو كنت تنفذ بسلطان العلم لما قال الحق سبحانه بعدها : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ . . . } [ الرحمن : 35 ]

وإن سألت : وما فائدة الآية التي تحكي عن هذا السلطان؟ فهي قد جاءت لأن الرسول قد أخبر القوم أنه صعد إلى السماء وعُرج به ، أي : أنه صعد وعُرج به بسلطان الله . وهنا يقول الحق سبحانه : { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . } [ الرعد : 41 ]

وكلمة « أطراف » تدلنا على أن لكل شيء طولاً وعرضاً تتحدد به مساحته؛ وكذلك له ارتفاع ليتحدد حجمه . ونحن نعرف أن أيّ طول له طرفان ، وإن كان الشيء على شكل مساحي تكون أطرافه بعدد الأضلاع .

ومادام الحق سبحانه يقول هنا : { مِنْ أَطْرَافِهَا . . . } [ الرعد : 41 ] أي : من كل نقطة من دائرة المحيط تعتبر طرفاً . ومعنى ذلك أنه سبحانه قد شاء أن تضيق أرض الكفار ، وأن يُوسّع أرض المؤمنين من كل جهة تحيط بمعسكر الكفر ، وهذا القول يدل على أنه عملية محدّثة ، ولم تكن كذلك من قبل .

ويتابع سبحانه من بعد ذلك : { وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ . . . } [ الرعد : 41 ] أي : أن الموضوع قد بُتَّ فيه وانتهى أمره . . . ونحن في حياتنا اليومية نقول : « هذا الموضوع قد انتهى؛ لأن الرئيس الكبير قد عبّ على الحكم فيه » .

ونحن في القضاء نجد الحكم يصدر من محكمة الدرجة الابتدائية ، ثم يأتي الاستئناف ليؤيد الحكم أو يرفضه ، ولا يقال : إن الاستئناف قد عَقِبَ على الحكم الابتدائي؛ بل يُقال : إنه حكم بكذا إما تأييداً أو رفضاً؛ فما بالنأ بحكم مَنْ لا يغفل ولا تخفى عنه خافية ، ولا يمكن أن يُعَقَّبَ أحد عليه؟

والمثلُ في ذلك ما يقوله الحق سبحانه عن سليمان وداود عليهما السلام : { وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ \* فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا . . . } [ الأنبياء : 78-79 ]

وأصلُ الحكاية أن خلافاً قد حدث بسبب أغانم يملكها إنسان؛ واقتحمتُ الأغنامُ زراعةَ إنسانٍ آخر؛ فتحاكموا إلى داود عليه السلام؛ فقال داود : إن على صاحب الأغنام أن يتنازل عنها لصاحب الأرض .

وكان سيدنا سليمان عليه السلام جالساً يسمع أطراف الحديث فقال : لا ، بل على صاحب الأغنام أن يتنازل عن أغانمه لصاحب الأرض لفترة من الزمن يأخذ من لبنها ويستثمرها ، وينتفع بها إلى أن يزرع له صاحب الغنم مثل ما أكلتُ الأغنام من أرضه .

وقال الحق سبحانه : { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ . . . } [ الأنبياء : 79 ]

وهذا هو الاستئناف ، ولا يعني الاستئناف طَعْنَ قاضٍ في القاضي الأول؛ لكنه بَحَثٌ عن جوهر العدل؛ ولعل القضية إن أُعيدتْ لنفس القاضي الأول لحكم نفس الحكم الذي حكم به الاستئناف بعد أن يستكشف كل الظروف التي أحاطت بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَاللَّهُ يَحْكُمُ . . . } [ الرعد : 41 ]

ولحظة أن يُصدرِ اللهُ حُكْمًا؛ فلن يأتي له استئناف ، وهذا معنى قوله الحق : { لَا مَعْقِبَ لِحُكْمِهِ . . . } [ الرعد : 41 ]

وكان هذا القول الحكيم يحمل التنبؤ بما أشار به القضاء بإنشاء الاستئناف؛ ولا أحد يُعَقَّبَ على حُكْمِ اللهِ؛ لأن المَعَقَّبَ يفترض فيه أن يكون أيقظاً من المَعَقَّبَ عليه؛ وعنده قدرةُ النفاذ إلى ما لم يلتفت إليه القاضي الأول ، ولا يوجد قِيُومٌ إلا اللهُ ، ولا أحدٌ بقادر على أن يعلم كل شيء إلا هو سبحانه .

وآفة كل حُكْمٍ هو تنفيذه؛ ففي واقعنا اليومي نجد من استصدر حُكْمًا يُعاني من المتاعب كي يُنفِذَه؛ لأن الذي يُصدرِ الحكم يختلف عَمَّنْ ينفذه ، فهذا يتبع جهة ، وذاك يتبع جهة أخرى .

ولكن الحُكْمُ الصادر من الله؛ إنما يُنفِذُ بقوته سبحانه ، ولا يوجد قوياً على الإطلاق سِوَاهُ ،

ولذلك يأتي قول الحق : { . . . وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [ الرعد : 41 ]

فكان الله يُنبِّهنا بهذا القول إلى أن الحكم بالعدل يحتاج إلى سرعة تنفيذ .

ونحن نرى في حياتنا اليومية : كيف يُرهق مَنْ له حكمٌ بحقٍ عادلٍ؛ ولو أننا نُسرِعُ بتنفيذ الأحكام لَسَادَتْ الطمأنينةُ قلوبَ أفراد المجتمع .

ونحن نجد استشرَاء العصبية في الأخذ بالثأر إنما يحدث بسبب الإبطاء في نظر القضايا؛ حيث يستغرق نظر القضية والحكم فيها سنواتٍ؛ ممَّا يجعل الحقد يزداد . لكن لو تمَّ تنفيذ الحكم فورَ معرفة القاتل ، وفي ظل الانفعال بشراسة الجريمة؛ لَمَا ازدادت عمليات الثأر ولهدأت النفوس . ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

{ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارَ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارُ }

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارَ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارُ (42)

وهنا يجبر الحق سبحانه رسوله ، وأيُّ سامع لهذا البلاغ يستقرئ موكب الرسالات السابقة؛ وسيجد أن كُلَّ أمة أرسل لها رسول مكرت به وكادت له كي تبطل دعواه ، ولم ينفع أيُّ أمة أي مكر مكرته أو أي كيد كادته ، فكلُّ الرسالات قد انتصرت .

فسبحانه القائل : { كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . . . } [ المجادلة : 21 ]

وهو القائل : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ \* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ \* وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ

الغالبون } [ الصفات : 171-173 ]

والحق سبحانه حين يُورد حُكْمًا فبالقرآن؛ وهو الذي حفظ هذا القرآن؛ فلن تأتي أيُّ قضية كونية لتنسخ الحكم القرآني .

وأنت إذا استقرت مواكب الرسل كلها تجد هذه القضية واضحة تماماً؛ كما أثبتتها الحق سبحانه في القرآن المحفوظ؛ وما حفظه سبحانه إلا لوثوقه بأن الكونيات لا يمكن أن تتجاوزته .

وبالفعل فقد مكرت كُلُّ أمة برسولها؛ ولكن الحق سبحانه له المكر جميعاً؛ ومكر الله خيرٌ للبشرية من مكر كل تلك الأمم؛ ومكره سبحانه هو الغالب ، وإذا كان ذلك قد حدث مع الرسل السابقين عليك يا رسول الله؛ فالأمر معك لا بُدَّ أن يختلفَ لأنك مُرْسَلٌ إلى الناس جميعاً ، ولا تعقيب يأتي من بعدك .

وكلُّ تلك الأمور كانت تطمئنه صلى الله عليه وسلم ؛ فلا بُدَّ من انتصاره وانتصار دعوته؛

فسبحانه محيط بأيِّ مكر يمكره أيُّ كائن؛ وهو جلٌّ وعلاٌ قادر على أن يُحيط كل ذلك .

ويتابع سبحانه في نفس الآية : { . . . يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارَ لِمَنْ عُقِيَ

الدار } [ الرعد : 42 ]

والحق سبحانه يعلم ما يخفي عن الأعين في أعماق الكائنات؛ خيرٌ هو أو شرٌّ ، ويحمي مَنْ

شاء من عباده من مَكْر الماكرين ، ويُنزِل العقاب على أصحاب المَكْر السيء بالرسول والمؤمنين .  
ولسوف يعلم الكافرين أن مصيرهم جهنم ، وبنس الدار التي يدخلونها في اليوم الآخر؛ فضلاً عن  
نُصْرَة رسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا وخزيهم فيها .  
وهكذا يكونوا قد أخذوا الخزي كجزاء لهم في الدنيا؛ ويزدادون علماً بواقع العذاب الذي  
سيلقونهُ في الدار الآخرة .  
ويُنهي الحق سبحانه سورة الرعد بهذه الآية :  
{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . . }

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ  
(43)

ونفهم من كلمة : { لَسْتَ مُرْسَلًا . . . } [ الرعد : 43 ]  
أن الكافرين يتوقفون عند رَفْض الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وكأن كلَّ أمانيتهم أن يَنفوا عنه  
أنه رسول اصطفاه الحق سبحانه بالرسالة الخاتمة؛ بدليل أنهم قالوا : { . . . لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ  
عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ } [ الزخرف : 31 ]  
ومن بعد ذلك قالوا : { . . . اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ  
السَّمَاءِ وَإِنَّا بِعَذَابِ أَلِيمٍ } [ الأنفال : 32 ]  
أي : أن فكرة الإرسال لرسول مقبولة عندهم ، وغير المقبول عندهم هو شخص الرسول صلى  
الله عليه وسلم .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم : { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي  
وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [ الرعد : 43 ]  
والشاهد كما نعلم هو الذي يرجح حُكْم الحق ، فإذا ما ظهر أمر من الأمور في حياتنا الدنيا  
الذي نحتاج إلى حُكْم فيها؛ فنحن نرفع الأمر الذي فيه خلاف إلى القاضي ، فيقول : « هاتوا  
الشهود » .

ويستجوب القاضي الشهود ليحكم على ضوء الشهادة؛ فما بالنا والشاهد هنا هو الحقُّ  
سبحانه؟

ولكن ، هل الله سيشهد ، ولمن سيقول شهادته؛ وهم غيرُ مُصدِّقين لكلام الله الذي نزل على  
رسوله صلى الله عليه وسلم ؟  
ونقول : لقد أرسله الحق سبحانه بالمعجزة الدالة على صدق رسالته في البلاغ عن الله ، والمعجزة  
خَرْقٌ لنواميس الكون .

وقد جعلها الحق سبحانه رسالةً بين يدي رسوله وعلى لسانه؛ فهذا يعني أنه سبحانه قد شهد له

بأنه صادق .

والمعجزة أمر خارق للعادة يُظهرها الله على مَنْ بلغ أنه مُرْسَل منه سبحانه ، وتقوم مقام القول « صدق عبدي فيما بلغ عني » .

وإرادة المعجزة ليست في المعنى الجزئي؛ بل في المعنى الكلّي لها . والمثل في المعجزات البارزة واضح؛ فهاهي النار التي أَلْقَوْا فيها إبراهيم عليه السلام ، ولو كان القصد هو نجاته من النار؛ وكانت هناك ألف طريقة ووسيلة لذلك؛ كأن تُمَطَّر الدنيا؛ أو لا يستطيعون إلقاء القبض عليه . ولكن الحق سبحانه يوضح لهم من بعد أن أمسكوا به ، ومن بعد أن كَبَلُوهُ بالقيود ، ومن بعد أن أَلْقَوْهُ في النار؛ ويأتي أمره بأن تكون النار برداً وسلاماً عليه فلا تحرقه : { قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وسلاماً على إبراهيم } [ الأنبياء : 69 ]

وهكذا غير الحق سبحانه الناموس وخرقه؛ وذلك كي يتضح لهم صدق إبراهيم فيما يبلغ عن الله؛ فقد خرّق له الحق سبحانه النواميس دليل صحة بلاغه .

وإذا كان الحق سبحانه قد قال هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها : { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . . . } [ الرعد : 43 ] وشهادة الحق سبحانه لرسوله بصدق البلاغ عنه؛ تتمثل في أنه صلى الله عليه وسلم قد نشأ بينهم ، وأمضى أربعين عاماً قبل أن ينطق حرفاً يحمل بلاغه أو خطبة أو قصيدة ، ولا يمكن أن تتأخر عبقريات النبوغ إلى الأربعين .

وشاء الحق سبحانه أن يجري القرآن على لسان رسوله في هذا العمر ليبلغ محمد صلى الله عليه وسلم الناس جميعاً به ، وهذا في حد ذاته شهادة من الله .

ويضيف سبحانه هنا : { . . . وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [ الرعد : 43 ] والمقصود بالكتاب هنا القرآن؛ وَمَنْ يقرأ القرآن بإمعان يستطيع أن يرى الإعجاز فيه؛ وَمَنْ يتدبر ما فيه من معاني ويتفحص أسلوبه؛ يجده شهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أو يكون المقصود بقوله الحق : { . . . وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [ الرعد : 43 ] أي : هؤلاء الذين يعلمون خبر مَقْدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوراة والإنجيل؛ لأن نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفته المذكورة في تلك الكتب السابقة على القرآن؛ لدرجة « أن عبد الله بن سلام ، وقد كان من أحرار اليهود قال : « لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد » .

ولذلك ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله إن نفسي مالت إلى الإسلام ، ولكن اليهود قوم بُهت ، فإذا أعلنت إسلامي؛ سيسبوني ، ويلعنوني ، ويلصقون بي أوصافاً ليست في . وأريد أن تسألهم عني أولاً . فأرسل لهم رسول الله يدعو صناديدهم وكبار

القوم فيهم؛ وتوهموا أن محمداً قد يلين ويعدل عن دعوته؛ فجاءوا وقال لهم صلى الله عليه وسلم : « ما تقولون في ابن سلام؟ » فأخذوا يكيلون له المديح؛ وقالوا فيه أحسن الكلام .

وهنا قال ابن سلام : « الآن أمامكم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ، فأخذوا يسبُّون ابن سلام؛ فقال ابن سلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أقل إن يهود قوم بهت »

؟ ونعلم أن الذين كانوا يفرحون من أهل الكتاب بما ينزله الحق سبحانه على رسول الله صلى الله عليه وسلم من وحي هم أربعون شخصاً من نصارى نجران؛ واثان وثلاثون من الحبشة؛ وثمانية من اليمن .

ونعلم أن الذين أنكروا دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا ينهون بعضهم البعض عن سماع القرآن؛ وينقل القرآن عنهم ذلك حين قالوا : { . . . لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون } [ فصلت : 26 ]

وهذا يعني أنهم كانوا متأكدين من أن سماع القرآن يُؤثر في النفس بيقظة الفطرة التي تهفو إلى الإيمان به .

أما من عندهم علم بالكتب السابقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يعلمون خبر بعثته وأوصافه من كتبهم .

يقول الحق سبحانه : { الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . . . } [ البقرة : 146 ]

ويقول أيضاً : { . . . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين } [ البقرة : 89 ]

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1)

هكذا يستهل الحق سبحانه هذه السورة بالحروف المقطعة « ألف » « لام » « راء » ، وسبق أن قلنا : إنها حروف توقيفية بلغها رسول الله لنا كما سمعها من جبريل عليه السلام .

إلا أن الملاحظ أن هذه الحروف التوقيفية المقطعة لم تأت وحدها في هذه السورة كآية منفصلة؛ مثل قوله في أول سورة ق :

{ ق } [ ق : 1 ] .

وهي آية بمفردها ، وكما جاء في غير ذلك من السور بحروف مقطعة وأثبتها كآيات . وهنا تأتي الحروف التوقيفية المقطعة كجزء من الآية .

ويقول الحق سبحانه :

{ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ . . . } [ إبراهيم : 1 ] .

كلمة « كتاب » إذا أطلقت انصرف معناها إلى القرآن؛ فهو يُسَمَّى كتاباً؛ ويُسَمَّى قرآناً ،  
ويُسَمَّى تنزيلاً ، وله أسماء كثيرة .

وكلمة « كتاب » تدل على أنه مكتوب ، وكلمة « قرآن » تدل على أنه مقروء ، وهذان الاسمان  
هما العُمدة في أسماء القرآن؛ لأنه كتاب مكتوب ومقروء .

فكان الصحابي الذي يجمع القرآن لا يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة ، ووجدها مَقْرُوءة عن  
اثنين من الصحابة؛ فالقرآن كتاب يملك الدليل على كتابته من عهد رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ؛ وهو مَقْرُوء كما تدلُّ كلمة « قرآن » .

وقوله الحق :

{ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ . . . } [ إبراهيم : 1 ] .

يدلُّ على أنه جاء من عَلُوِّ .

ويقول الحق سبحانه في موقع آخر عن القرآن : { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى  
وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [ النحل : 89 ] .

ويقول في موقع آخر : { وبالحق أنزلناه وبالحق نزل . . . } [ الإسراء : 105 ] .

ومرة يسند النزول إلى مَنْ جاء به؛ ومرة ينسب النزول إلى الكائن الذي أرسله الحق بالقرآن إلى  
محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو جبريل عليه السلام .

فقوله : { أَنْزَلْنَاهُ . . . } [ إبراهيم : 1 ] للتعدي من منطقة اللوح الخفوظ ليباشر مهمته في  
الوجود ، وَعَلِيَّةٌ إنزال القرآن إليك يا محمد هي :

{ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . . . } [ إبراهيم : 1 ] .

ونلاحظ هنا أن القرآن نزل للناس كافَّةً ، ولم يَقُلِ الحقُّ سبحانه ما قاله للرسل السابقين على  
رسول الله؛ حيث كانت رسالة أيِّ منهم مُحدَّدة بقوم مُعيَّنين ، مثل قوله تعالى : { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ  
هُودًا . . . } [ الأعراف : 65 ] .

وقوله الحق : { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . . . } [ الأعراف : 85 ] .

وكذلك قوله سبحانه لموسى : { وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . } [ آل عمران : 49 ] .

وهكذا كان كُلُّ رسولٍ إنما يبعثه الله إلى بُقعة خاصة ، وإلى أناسٍ بعينهم ، وفي زمنٍ خاصٍ ، إلا  
محمدًا صلى الله عليه وسلم ؛ فقد بعثه الله إلى الناس كافَّةً .

والمثل أمامنا حين حكم صلى الله عليه وسلم بالحق بين مسلم ويهودي؛ وأنصف اليهودي : لأن  
الحق كان معه؛ والحق عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أعزُّ عليه ممَّن ينتسب إلى الإسلام .

وهكذا نرى أن قوله الحق :

{ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

. . { [ إبراهيم : 1 ] .

دليل على عمومية الرسالة ، ويُعزّزها قوله :

{ إني رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً } [ الأعراف : 158 ] .

وبذلك تبطل حُجَّة مَنْ قالوا إنه مُرْسَلٌ للعرب فقط .

ونجد هنا اصطفاةين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

الاصطفاة الأول : أن الحق سبحانه قد اختاره رسولاً؛ فمجرد الاختيار لتلك المهمة : فهذه منزلة عالية .

والاصطفاة الثاني : أنه رسولٌ للناس كافةً؛ وهذه منزلة عالية أخرى؛ لأنها تستوعب المكان

والزمان ، والألسنة والأقوام .

ثم يأتي الإعجاز في قوله :

{ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . . . } [ إبراهيم : 1 ] .

ولم يَقُلْ من الظلمات إلى الأنوار ، وشاء أن يأتي بالظلمات كجمع؛ وأن يأتي بالنور كالمفرد ، لأن

النور واحد لا يتعدد؛ أما الظلمات فمتعددة بتعدد الأهواء؛ ظلمة هنا وظلمة هناك .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يُجَلِّي المعاني بالمُحَسَّنَات التي يدركها الجميع ، فلا شك أن الظلمة

تستر الأشياء التي قد يصطدم بها الإنسان فيمتنع عن السير مطمئناً؛ لأنه إن اصطدم بشيء فقد

يُحِطُّم الشيء أو يُحِطِّمُه هذا الشيء؛ وهكذا تمنع الظلمة الإنسان من أن يهتدي إلى ما يريد .

أما النور فهو يوضح الأشياء ، ويستطيع الإنسان أن يُمَيِّز بين الطرق ويتجنب الضار ويتجه إلى

النافع؛ ويكون على بصيرة من الهداية؛ ذلك هو الأمر الحسي؛ وكلُّ من النور والظلمة أمرٌ حسي

وهكذا يُجَلِّي الله لنا المعاني ، والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يُجَلِّي المظاهر المادية بالنور؛ بل تحتاج

أيضاً إلى نور يُجَلِّي المظاهر المعنوية؛ من حقد وحسد ، وخوف وأمن ، واطمئنان ، وأمانة ووفاء؛

وغير ذلك .

فالحياة كلها فيها الشيء وما يقابله؛ لذلك لا بُدَّ أن تُجَلِّي المعاني أيضاً . والنور الذي جاء به

رسول الله صلى الله عليه وسلم يُجَلِّي الحسَّ والمعنى في آن واحد؛ لتتجنب الأشياء التي تطمسها

الظلمة؛ ولنسير على بينة من المعاني ، فلا نصطدم بالعقبات .

ولذلك يُفسِّر لنا الحق سبحانه الأمر المعنوي ، فيقول :

{ إلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . . . } [ إبراهيم : 1 ] .

وهذا هو الصراط المستقيم الذي يُخرجنا إليه محمد صلى الله عليه وسلم من الظلمات إلى نوره .

ويريد الحق سبحانه أن يُجَلِّي لنا الطريق إلى هذا الصراط ، لأنه قد يكون مُتعباً للبعض؛ فيريد

سبحانه أن يجمع لنا بين أمرين؛ طريق متضح واضح يصل فيه الإنسان إلى الغاية بِسُرٍّ؛ وطريق

آخر غير واضح لا تتجلى فيه الأشياء .

وجاء بالظلمات والنور ليوضح لنا هذا المعنى؛ حيث يكون الطريق المستقيم هو أقصر وسيلة  
للغاية المرجوة من الحياة الدنيا والآخرة؛ ويكون طريق الظلمات هو الطريق غير الآمن .  
وينسب الحق سبحانه الطريق الذي يُخْرِجنا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم :

{ إلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ { [ إبراهيم : 1 ] .

والعزیز هو الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ . والحميد هو مَنْ ثبتت له صفة الحمد من الغير ، وإن لم  
يصدر حمداً من الغير؛ فهو حميد في ذاته ، ويجب أن يُحمد رغم أنك إن حمدته أو لم تحمده فهو  
حميد .

ولله المثل الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّه عن كل مثيل أو شبيه؛ نجد في حياتنا الدنيا مَنْ يُقال عنه إنه  
حميد الخصال؛ وإن لم يوجد مَنْ يمدحه؛ لكنه في كُلِّ ما يصدر عنه يراعي أن يكون محموداً .  
ولكن البشر يكون الحمد منهم حَدَثاً؛ أما المحمود من الحق فهو مُطلق ، ولا تكون الذات  
محمودة أو حميدة إلا إذا كان لها من الصفات ما يجعلها أهلاً للإنعام الذي يجب على الإنسان أن  
يحمده .

والفطرة السليمة في الإنسان تستقبل هذا الكون المُعدَّ من قَبْلُ أن يوجد لاستقباله ، وتحب أن  
تحمد مَنْ صنع هذا الكون ، رغم أن حمد الإنسان أو عدم حمده لا يضيف شيئاً لِمَنْ أعدَّ هذا  
الكون وخلقاه؛ فهو محمود في ذاته .

وإن حمدته فهذا لمصلحتك؛ وفي هذا هداية إلى صراط العزيز الذي لا يُغلب ، والحميد الذي  
يستحق الحمد؛ وإن لم يوجد حامد له؛ لأن صفاته سبحانه أزلية .

فالله خالق قبل أن يخلق الخلق؛ وهو الرازق قبل أن يُخلق المرزوق ، وهو مُعز قبل أن يوجد مَنْ  
يُعزه؛ محمود قبل أن يوجد مَنْ يحمده؛ تَوَّاب قبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه .

فهو سبحانه بالصفة يفعل؛ أما الإنسان فلا يفعل إلا إذا فعل الصفة ، فأنت لا تعرف أن فلاناً  
كريم؛ إلا لأنك تراه يعطي عن جودٍ وسخاء ، أما الله فهو الكريم من قبل أن يوجد مَنْ يُكرمه .  
ويقول سبحانه من بعد ذلك : { الله الذي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ . . . } .

اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2)

وأنت إن قرأت هذه الآية موصولة بما قبلها؛ فستقرؤها :

{ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ \* اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ { [ إبراهيم : 1-2 ] .

وإن كنت ستقرؤها مَفْصُولة عما قبلها؛ فستقول :

{ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ { [ إبراهيم : 2

[ .

وستنطق كلمة « الله » غير مُرَقَّفة عكسَ إن قرأتموها موصولة ، حيث يجب أن تنطقها مُرَقَّفة .  
وتقتضي الأصول في الكتاب أن يوجد الاسم العلم على الذات أولاً ، ثم تأتي الصفة من بعده ،  
فتقول : « لقيت فلاناً الشاعر أو الكاتب أو العالم » ، لكن الأمر هنا جاء على غير هذا النَّسَق  
: { صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [ إبراهيم : 1 ] .

أي : قدّم { العزيز الحميد } ثم جاء بلفظ الجلالة ، وهو العلم على واجب الوجود « الله » ،  
وقد حدث ذلك لأن العلم يدل على مُسَمَّاه بصرف النظر عن الصفات ؛ ثم توجد الصفات له .  
وهناك من العلماء مَنْ قال : إنه مُشْتَقٌّ بمعنى أن « الله » تعني المعبود بحقٍ؛ وصفة العزيز الحميد  
حيثية لأن يُعْبَدَ سبحانه بحقٍ .

ومن العلماء من قال : إن كلمة « الله » هي علم ، وليست اسماً مُشْتَقّاً؛ فَلهُ الملكية المطلقة :  
{ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [ إبراهيم : 2 ] .  
لا يقع في هذا المُلْك إلا ما شاء هو ، فَمَنْ آمَن به أنصف نفسه وحياته وآخرته ، أما مَنْ لم يؤمن  
به فَلهُ المقابل ، وهو قوله الحق :

{ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [ إبراهيم : 2 ] .

وهذا الوَيْل ليس في الآخرة فقط ، بل في الدنيا أيضاً؛ لأن الإنسان يدفعها بها؛ هنا يستطيع  
المؤمن أن يذكر أن له رباً فوق الأسباب؛ ويرتاح إلى معونة الحق سبحانه له ، وهكذا يشعر أن له  
رصيداً في الدنيا يعتمد عليه في مواجهة الأحداث الجسام .  
أما غير المؤمن فليس أمامه سوى اليأس؛ ولذلك نجد انتشار الانتحار بين غير المؤمنين؛ لأن هناك  
أحداثاً فوق أسبابهم ، ولا يستطيعون دفعها ، وليس لهم إيمان برَبٍ يرجعون إليه .  
ولذلك حين أقرأ للمفسرين مَنْ يشرح كلمة « الويل » بأنها عذابُ الآخرة؛ فأجد نفسي قائلاً :  
بل والوَيْل يكون في الدنيا أيضاً؛ لأن الكثير من أحداث الحياة يكون فوق أسباب الإنسان؛ فلو  
لم يؤمن الإنسان بالله لَفَزِعَ من فَرَطِ اليأس .

ولذلك نجد بعضهم حين لا يجدون مَفَرّاً إلا أن يقولوا يا رب ، وهم بذلك يعلنون صرخة الفطرة  
الأولى التي قاوموها بالإلحاد وعدم الإيمان؛ وهذا الويل له امتداد بلون أشد في الآخرة .  
ويصف الحق سبحانه هؤلاء الذين لا يؤمنون ، فيقول : { الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . . . }

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي  
ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3)

وهنا نجد مادة الحاء والباء؛ حب؛ ومن عجائبها أن الفعل يكون رباعياً؛ فنقول « أحبَّ فلان »  
ونقول لِمَنْ يحبه « محبوب » وهذا يعني أن هناك تلاقياً بين الاثنين؛ أما في حالة عدم التلاقي

فيقال « حَبٌّ يُحِبُّ فَهُوَ حَابٌّ مُحِبٌّ » .

والفرق بين أحبّ واستحبّ؛ ملحوظٌ في مجيء السين والتاء ، وهما علامة على الطلب . على هذا فاستحبّ تعني أن مَنْ يحب لم يكتفِ بالأمر الطبيعي ، بل تكلف الحب وأوغل فيه . والمثل على ذلك نجده في الحياة اليومية؛ فنرى مَنْ ينحرف إلى شيء من الانحراف؛ ولكنه لا يُحِبُّ أن يكون مُحِبًّا لهذا الانحراف في نفس الوقت؛ ويفعل الانحراف وهو كارهٌ له ، وقد يضرب نفسه ويلومها لأنها تنحرف إلى هذا الانحراف .

ونجد آخر ينحرف؛ لأنه يحب هذا الانحراف وينغمس فيه؛ وهو مُحِبٌّ لهذا الانغماس ويتحدث بهذا الانحراف؛ ويُحِبُّ في نفسه أنه أحب تلك المعصية؛ لأنها تُحقِّق له شهوة عاجلة؛ هذا هو مَنْ « استحبّ » لأنه ازاد الحب عن حدّه الطبيعي .

وحين تُدقِّق في الآية الكريمة تجد أنها لا تمنعك من حُبِّ الدنيا؛ لكنها تتحدث أن تستحبّها على الآخرة ، فهذا هو الأمر المذموم؛ أما إذا أحببت الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلتها مزرعة للآخرة؛ فهذا أمر مطلوب؛ لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد في آخرتك؛ فهذا طلبٌ للدنيا من أجل الآخرة .

ولذلك تجد قوله الحق في سورة « المؤمنون » . { والذين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } [ المؤمنون : 4 ]

فهو لا يؤدي الزكاة فقط؛ بل يعمل ليأتي لنفسه ولعِياله بالقوت؛ ويبدل الجهد ليكون لديه فائضٌ يؤدي منه الزكاة؛ ولذلك فهو لا يعمل قَدْر حاجته فقط بل على قَدْر طاقته ليحقق ما يمكن أن يُعطيه لِمَنْ لا يقدر على العمل .

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه :

« والذين هم للزكاة مؤدون » بل قال :

{ والذين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } [ المؤمنون : 4 ] .

وهنا لا نجد هؤلاء الذين يستحبون الحياة من أجل أن يجعلوها مزرعة للآخرة؛ بل هم يستحبون الحياة :

{ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ . . . } [ إبراهيم : 3 ] .

أي : أنهم لم يكتفوا بحُبِّ الدنيا على الآخرة فقط ، ولم يكتفوا بالسَّير في طريق الشهوات والملذات وتخريب ذواتهم ، بل تماذروا في الغي وصدّوا غيرهم عن سبيل الله . ونجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر : { لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُوهَا عِوَجًا . . . } [ آل عمران : 99 ] .

كانهم صدّوا في ذواتهم؛ ولم يكتفوا بذلك ، بل يحاولون إضلال غيرهم وصدوهم عن الهداية .

ثم تأتي مرحلة جديدة :

{ وَيَبْغُوهَا عِوَجًا . . . } [ إبراهيم : 3 ] .

أي : يبغون شريعة الله مُعْوَجَةً لتحقيق لهم نزواتهم . وهكذا نجد ثلاث مراتب للضلال ، استحباب الحياة الدنيا على الآخرة؛ والصّد عن سبيل الله؛ وتشويه المنهج كي يُكْرِهوا الناس فيه . ويصف الحق سبحانه هؤلاء :

{ أولئك في ضلالٍ بعيدٍ } [ إبراهيم : 3 ] .

أي : أن أصحاب المرتبة في الضلال هم من استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين توغّلوا في الضلال أكثر فهم الذين يصدون عن سبيل الله؛ أما الذين توغّلوا أكثر فأكثر فهم الذين يُشَوِّهون في منهج الله لتنفير الناس منه ، أو ليحقق لهم نزواتهم ، وهكذا ساروا إلى أبعد منطقة في الضلال .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ . . . } .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)

ونعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مُبَلِّغٌ عن الله منهجه؛ ومُؤَيَّدٌ بمعجزة تثبت صدقة فيما بلغ لمن أُرسِلَ إليهم . وقد حدّث الحق سبحانه من قبل عمّا حدث للأمم السابقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان كل رسول يتكلم بلغة قومه .

وهناك فرق بين قوم الدعوة وهم أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقوم الاستقبال؛ وهم الأمم السابقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فالأمم السابقة لم تكن مُطَالِبَةً بأن تُبَلِّغَ دعوة الرُّسُل الذين نزلوا فيهم ، أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمُطَالِبَةٌ بذلك ، لأن الحق سبحانه أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأبلغنا في القرآن أن من آياته سبحانه أن جعل الناس على ألسنة مختلفة .

ولم يُكُنْ من المعقول أن يرسل رسولاً يتكلم كل اللغات ، فنزل صلى الله عليه وسلم في أمة العرب؛ وحين استقبلوه وأُشْرِبَتْ قلوبهم حُبَّ الإِيمان؛ صار عليهم أن ينساحوا بالدعوة؛ لينقلوا معنى القرآن حجة بعد أن استقبلوه معجزة .

والقرآن حُجَّةٌ لأنه يسوسُ حركة الحياة؛ وحركاتُ الحياة لا تختلف في الناس أجمعين ، كما أن كُلَّ حضارة تأخذ من الأخرى مُنجزاتها العلمية ، وتُترجمها إلى لسانها الذي تنطق به .

وترجمة المعاني من لسان إلى آخر مسألة معروفة في كُلِّ حضارات العالم؛ لأن المسألة في جوهرها مسألة معاني؛ والمعاني لا تختلف من أمة إلى أخرى .

والقرآن معاني ومنهج يصلح لكل البشر؛ ونزل العربية؛ لأن موهبة الأمة العربية هي النبوغ في اللغة والكلام؛ وهكذا صار على تلك الأمة مهمة الاستقبال لمنهج الله كمعجزة بلاغية؛ وإرساله

إلى بقية المجتمعات .

ولذلك تستطيع أن تعقد مقارنة بين البلاد التي فتحت بالسيف والقتال؛ والبلاد التي فُتحت بالسلم ورؤية القدوة المسلمة الصالحة؛ ستجد أن الذين نشروا الإسلام في كثير من أصقاع الأرض قد اعتمدوا على القدوة الصالحة .

ستجد أنهم نقلوا الدين بالخصال الحميدة ، وبتطبيق منهج الدين في تعاملهم مع غيرهم ، ولذلك أقبل الناس على دين الله .

وهكذا نجد أن منهج الإسلام قد حمل معجزة من المعاني ، بجانب كونه معجزة في اللغة التي نزل بها ، وهي لغة العرب .

ونحن نجد أقواماً لا يستطيع أن تقرأ حرفاً عربياً إلا في المصحف ، ذلك أنهم تعلموا القراءة في المصحف ، واعتمدوا على فهم المعاني الموجودة فيه عبر الترجمات التي قام بها مسلمون أحبوا القرآن ، ونقلوه إلى اللغات الأخرى .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ { [ القمر : 17 ]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد يسر أم القرآن بلسان العرب أولاً ، ثم يسره بأن جعل من تلك الأمة التي نزل عليها القرآن أمة نشر البلاغ عنه سبحانه ، ذلك أن الرسائل تُريد تبليغاً؛ والتبليغ وسيلته الأولى هي الكلام؛ ووسيلته الثانية الاستقبالية هي الأذن ، فلا بُدَّ من الكلام أولاً ، ثم لا بُدَّ من أذن تعرف مدلولات الألفاظ لتسمع هذا الكلام ، ولتطبقه سلوكاً .

كما أننا نعلم أن مَنْ يسمع المتكلم لا بُدَّ وأن يكون واعياً وعارفاً بمعاني الألفاظ؛ فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

وعرفنا أن اللغة بنت السماع ، وكلُّ فرد إنما يتكلم باللغة التي سمعها في بيئته؛ وإذا تتبعنا سلسلة تعلم كل الكلام ستجد نفسك أمام الجذر الأصلي الذي تعلم منه البشر الكلام؛ وهو آدم عليه السلام .

وقد قال سبحانه : { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . . } [ البقرة : 31 ] .

ونعلم أن اللغة بدأت توقيفية حين علمها الله لآدم ، ثم تكلمها آدم فسمعها بيئته؛ فصارت وضعية من بعد ذلك ، واختلفت اللغة من مجتمع إلى آخر .

وهنا قال الحق سبحانه :

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ . . . } [ إبراهيم : 4 ] .

وجاء بعد ذلك مباشرة بالتعليل :

{ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [ إبراهيم : 4 ] .

وهكذا أوضح جلّ وعلاً السبب في إرسال كل رسول بلسان قومه ، وهناك آية يقول فيها سبحانه : { وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ \* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ } [ الشعراء : 198-199 ] .

وقال أيضاً : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٍّ وَعَرَبِيٍّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . . } [ فصلت : 44 ] .

فهناك مَنْ يستقبل القرآن كدليل هداية ويُنقي نفسه من الكَدَر ، وهناك مَنْ يستقبل القرآن فيكون عليه عمى وعلى سمعه غشاوة وخوف وعدم ارتياح ، ذلك أنه كافر . والسبب - كما نعلم - أن حدوث الحادث من أمر به يحتاج إلى فاعل وإلى قابل للفعل . وسبق أن ضربتُ مثلاً بمن يشرب الشاي؛ فينفخ فيه ليُبرده قليلاً؛ ونفس هذا الإنسان حين يخرج في صباح شتوى فهو ينفخ في يديه ليُدْفئهما ، وهكذا ينفخ مرة ليرد شيئاً؛ وينفخ أخرى مُستدعيًا الدفء .

والمسألة ليست في أمر النفخ؛ ولكن في استقبال الشاي للهواء الخارج من فمك ، الشاي أكثر حرارة من حرارة الجسم فيبرد بالنفخ ، بينما اليد في الشتاء تكون أكثر برودة من الجسم؛ فتستقبل النفخ لها برفع درجة حرارتها لتساوى مع حرارة الجسم . وهكذا تجد أن القرآن واحد؛ لكن المؤمن يسمعه فيفرح به ، والكافر يسمعه فيتعب ويرهق منه . وسبحانه يقول : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَادَا قَالَ آنِفًا . . . } [ محمد : 16 ] .

وهكذا نجد مَنْ يستقبل القرآن ، ولا ينصاع إلى معانيه؛ ونجد مَنْ يستمع إلى القرآن فيخشع قلبه وينفعل بالاستجابة لِمَا يُوصِي به الحق سبحانه . إذن : عرفنا الآن أن اللغة بدأت توقيفية وانتهت اصطلاحية؛ فقد أخذنا من الله ما علّمه لآدم من أسماء؛ وتغيّرت الألسن من جماعة إلى أخرى ، وهكذا اختلفت ألسنة الرُّسُل حسب القوم المرسلين إليهم .

وكل رسول يُبَيِّن للقوم منهج الله؛ فإذا بيّن هذا المنهج ، استقبله البعض بالإيمان بما جاء به والهداية ، واستقبله البعض الآخر بالكُفْر والضلال . فالذي هداه الله استشرف قلبه إلى هذا المنهج؛ وأخرج من قلبه أي عقيدة أخرى ، وبحث فيما جاء به الرسول ، وملاً قلبه بالمنهج الذي ارتاح له فهماً وطمأنينة . وهو عكس مَنْ تسكن قلبه قضية مخالفة ، ويُصرُّ عليها ، لا عن قناعة ، ولكن عن عدم قدرة على التمحيص والدراسة والاستشرف . وكان عليه أن يُخْرِج القضية المُضِلّة من قلبه ، وأن

يبحث ويقارن ويستشف ويحسن التدبر؛ ثم يُدخل إلى قلبه القضية الأكثر قبولاً ، ولكنه لا يفعل ، عكس مَنْ هداه الله .

ولا يقولن أحد « ما دام قد أضلنا الله فلم يعذبنا؟ » ولكن ليعلم كل إنسان أن المشيئة لقابلية الإيمان موجودة ، ولكنه لم يَسْتَدْعِهَا إلى قلبه .

والحق سبحانه يقول : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ . . . } [ محمد : 17 ] .  
ويقول : { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [ البقرة : 26 ] .

أي : أن الفسق قد صدر منهم ، لأنهم ملأوا أفئدتهم بقضايا باطلة؛ فجاءت قضايا الحق فلم تجد مدخلًا .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

{ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [ إبراهيم : 4 ] .

فَمَنْ يُقْبِلْ عَلَى الضلال يزيد الله ضلالاً؛ فلن يزيد إيمانه مُلْكَ الله شيئاً ، وَمَنْ يُوْمِنْ فَهُوَ يضمن لنفسه سلامة الحياة وما بعد الموت؛ وهو في الحياة عنصر خَيْرٍ؛ وهو من بعد الموت يجد الحياة مع نِعَمِ الْمُنْعَمِ سبحانه العزيز الذي لا يُغْلَبُ؛ والحكيم الذي قَدَّرَ لكلِّ أمرٍ ما يشاء .  
ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا . . . } .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

والآيات التي أرسلها الله مع - موسى عليه السلام - والمعجزات التي حدثت معه وبينها وأظهرها لقومه كثيرة ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم نزل ومعه معجزة واحدة وهي القرآن ، أما بقية المعجزات الحسية التي حدثت مع رسول الله؛ فهي قد جاءت لتثبيت فؤاد المؤمنين برسالته ، ولم يَبْقَ لها أثر من بعد ذلك إلا الذكرى النافعة التي يأتس بها الصالحون من عباد الله .

وكثرة المعجزات التي جاءت مع موسى - عليه السلام - تبين أن القوم الذين أرسل لهم قوم لَجَجٍ وجدل ، وحين عَدَّد العلماء المعجزات التي جاءت مع موسى وجدها بعض من العلماء تسع آيات؛ ووجدها غيرهم ثلاث عشرة معجزة؛ ووجدها بعض ثالث أربع عشرة .

وفي التحقيق لمعرفة تلك الآيات علينا أن نُفَرِّقَ بين الآيات التي صدرت بالنسبة لفرعون؛

والآيات التي جاءت لبني إسرائيل . فالعصا التي انقلبت حية تسعى ، واليد التي تُضِيء هي

لفرعون ، وعَدَّد القرآن الآيات التي جاءت مع موسى لفرعون بتسع آيات ، يقول الحق سبحانه : { فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ . . . } [ النمل : 12 ] .

ولم يكن موسى يطلب من فرعون أن يؤمن؛ فهو لم يُرْسَلْ لهدايته؛ ولكنه جاء ليُفحمه وليأخذ بني إسرائيل المُرْسَلُ إِلَيْهِمْ ، والآيات هي : العصا وَوَضَعَ الْيَدَ فِي الْجَيْبِ لَتَخْرُجَ بَيْضَاءَ ، وَنَقَضَ

الأنفس والثمرات؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، هذه هي الآيات التسع الخاصة بفرعون .

أما بقية الآيات التي جاء بها موسى - عليه السلام - لبني إسرائيل فهي كثيرة مثل : { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ . . . } [ الأعراف : 171 ] .

وأيضاً : { وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ . . . } [ البقرة : 57 ] .

وكذلك قوله الحق : { وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى . . . } [ البقرة : 57 ] .

ولذلك أجمال الحق سبحانه الآيات التي جاءت مع موسى لقومه :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ . . . } [ إبراهيم : 5 ] .

أي : أعد إلى بُؤرة شعورهم ما كان في الحاشية؛ وأن يستدعوا من الذاكرة أيام الله ، والمراد ما حدث في تلك الأيام ، مثلما نقول نحن « يوم بدر » أو « يوم ذي قار » أو « السادس من أكتوبر » أو « العاشر من رمضان » .

وهنا في القول الكريم إما أن يكون التذكير بتلك الأيام الخاصة بالوقائع التي حدثت للأقوام السابقين عليهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ذلك أن الحق سبحانه قد أعلمهم بقصص الأقوام السابقة عليهم؛ وما حدث من كل قوم تجاه الرسول المرسل إليه من الله .

أو أن يكون التذكير بالأيام التي أنعم الله فيها على بني إسرائيل بنعمه ، أو ابتلاهم فيها بما يُؤلمهم؛ ذلك أن الحق سبحانه قال :

{ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [ إبراهيم : 5 ] .

والصَّبَّارُ هو مَنْ يُكثِرُ الصَّبْرَ على الأحداث؛ وهي كلمة تُوحى بأن هناك أحداثاً مؤلمة وقَعَتْ ، وتحتاج إلى الصبر عليها ، كما تُوحى كلمة « شكور » بحوادث منعمة تستحق الشكر .

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين؛ صَبْرٌ على ما يُؤلم ، وشُكْرٌ على ما يُرضي ، وحين تجتمع هاتان الصفتان في مؤمن؛ يكون مُكْتَمِلَ الإيمان .

وقد قال الحق سبحانه : إن تلك الآيات هي أدلة تُوضِّح الطريق أمام المؤمن ، وتُعطي له العِبْرَةَ ، لأنه حين يعلم تاريخ الأقوام السابقة؛ ويجد أن مَنْ آمَنَ منهم قد عانى من بعض الأحداث المؤلمة؛ لكنه نال رضا الله ونعمه؛ وَمَنْ كَفَرَ منهم قد تمتع قليلاً ، ثم تَلَقَّى نِقْمَةَ اللَّهِ وغضبه .

هذا يُقبِلُ الْمُؤْمِنَ على تَحْمُلِ مَشَاقِّ الإِيمَانِ؛ لأنه يثق في أن الحق سبحانه لا يُضِيعُ أَجْرَ مُؤْمِنٍ؛ ولا بُدَّ لِمُوكِبِ الإِيمَانِ أَنْ يَنْتَصِرَ؛ ولذلك فالْمُؤْمِنُ يصبر على الخن ، ويشكر على النِّعَمِ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا . . . } .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ  
وَيَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6)

وهكذا نجد الحق سبحانه وقد جاء بنموذج من أيام معاناتهم من جبروت فرعون ، وكيف خلّصهم  
سبحانه من هذا الجبروت ، وكان فرعون يُسلط عليهم أفسى ألوان العذاب ، ف « سام »  
الشيء أي : طلبه؛ و « سام سوء العذاب » أي : طلب العذاب السيء .  
قد ذبح فرعون أبناءهم الذكور ، ولم يُذبح الإناث لتصبح النساء بلا عائل ويستبيحهن ، وفي  
هذا نكّاية شديدة .

ووقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ، وقالوا : لقد تعرض القرآن من قبل لهذه الآية في سورة  
البقرة؛ حين قال : { وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ  
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } [ البقرة : 49 ] .

فهل هذه الآية في سورة إبراهيم هي البليغة ، أم الآية التي في سورة البقرة؛ خصوصاً وأن الفرق  
بينهما هو محيء « الواو » كحرف عطف على ذبح الأبناء باستباحة النساء؟  
وأضاف هذا المستشرق : ولسوف أتنازل عن النظر إلى ما جاء في سورة الأعراف حين قال  
القرآن : { وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ  
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } [ الأعراف : 141 ] .  
وبطبيعة الحال ، فهذا المستشرق لم يأخذ فُهم القرآن عن ملكة عربية ، ذلك أنه لو كان قد  
امتلك هذه القدرة على الفُهم؛ لَعرَفَ أن الكلام لم يصدر في الآيات عن مصدر واحد ، بل  
صدر عن مصدرين .

ففي آية سورة البقرة كان المصدر المتكلم هو الله سبحانه ولذلك قال : { نَجَّيْنَاكُمْ . . . } [ البقرة : 49 ] .

ولكن المصدر المتكلم في سورة إبراهيم هو موسى عليه السلام؛ لم يَقُلْ أنه هو الذي أنجاهم بل  
يُعَدِّد النعم التي من الله بما عليهم؛ ويمتّن بها عليهم . وعِلَّة ذلك أن العظيم حين يمتنّ على غيره لا  
يمتنّ إلا بالعظام ، أما دون العظيم فقد يمتنّ بما دون ذلك .

وأسوق هذا المثل لمزيد من الإيضاح لا للتشبيه؛ فسبحانه مُنَزَّه عن التشبيه ، وأقول : هَبْ أن  
إنساناً غنياً له أخ رقيق الحال ، وقد يُمد الغنيُّ أخاه الفقير بأشياء كثيرة ، وقد يعتني بأولاده؛  
ويقوم برعايته ورعاية أولاده رعاية كاملة . ويأتي ابن الفقير ليقول لابن الغني : لماذا لا تسألون  
عنا؟ فيقول ابن الغني : ألم يأت أبي لك بهذا القلم وتلك البذلة ، بالإضافة إلى الشقة التي  
تسكنون فيها؟

ولكن العمّ الغنيّ يكتفي بأن يقول : أنا أسأل عنكم ، بدليل أنّي أحضرت لكم الشقة التي

تسكنون فيها . إذن : فالكبير حقاً هو الذي يذكر الأمور الكبيرة ، أما الأقل فهو من يُعَدِّد الأشياء .

وهنا يصف الحق سبحانه سُوم العذاب وَذَبَح الأبناء بالبلاء العظيم في قوله تعالى :  
{ ذلکم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } [ إبراهيم : 6 ] .

وهكذا نرى مظهرية الخير التي مَنَّ اللهُ بها عليهم ، وهي الإنجاء من ذبح الأبناء واستباحة النساء؛ وكان ذلك نوعاً من مظهرية الشر . وهذا ابتلاء صعب .

وسبق أن أوضحنا أنَّ البلاء يكون بالخير أو بالشر ، فقد قال سبحانه : { وَنَبَلُوكُم بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَّا وَآلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [ الأنبياء : 35 ] .

فلا الخير دليلُ تكريم ، ولا الشرُّ دليلُ إهانة؛ فهو القائل : { فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ \* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ } [ الفجر : 15-16 ] .

فالابتلاء في الأصل هو الامتحان؛ إما أن تنجح فيه أو ترسب؛ ولذلك فهو غير مذموم إلا بالنتيجة التي يؤول إليها .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ . . . } .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7)

ونلاحظ أن الآية تبدأ بكلمة « تأذَّن » وكل المادة الألف والذال والنون مأخوذة من الأذن . والأذن آلة السماع ، والأذان إعلام ، وآذنهم أي أعلمهم .

وتأذن أي : أعلم بتوكيد . وهكذا يكون معنى الآية : أُنِي أعلمكم بتوكيد من ربكم أنكم إن شكرتم ليزيدنكم من نعمه وعطائه؛ لأن الشكر دليلُ ارتباط بالوهاب؛ وأنكم سلختم أنفسكم من الاعتزاز بما أوتيتم ، وعلمتم أنه هو وحده الوهاب .

والحق سبحانه هو مَنْ قال : { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ \* أَلَمْ يَرَأْهُ اسْتَغْفِي } [ العلق : 67 ] . ولو كان الإنسان مربوطاً بالحق سبحانه؛ لما فصل الحق عن نعمه؛ ولظل ذاكراً للحق الذي وهبه النَّعَمَ .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تشغلك النعمة عن المُنعم؛ لأن النعمة موهوبة لك؛ وليست ذاتية فيك .

وتأتي المقابلة من بعد ذلك مباشرة؛ فيقول :

{ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } [ إبراهيم : 7 ] .

وهنا يثور سؤال : هل الذي لا يشكر نعم الله يكون كافراً؟

وهنا علينا أن نعلم أن هناك فارقاً بين الكفر والكفران ، ولكن لفظ الكفر جاء هنا ليغلظ من

معنى عدم الشكر ، ولم يأت بكلمة كُفْران وجاء بقوله :

{ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } [ إبراهيم : 7 ] .

والمثل في ذلك قول الحق سبحانه : { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ

كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } [ آل عمران : 97 ] .

وَمَنْ لَمْ يَحِجْ فَهُوَ عَاصٍ؛ وكان الله يريد أن يُصعّب عدم القيام بالحج . أو : أن الآية تريد حُكْمين

: الحكم الأول : الإيمان بفرضية الحج؛ والثاني : القيام بالحج فعلاً .

ذلك أن الحق سبحانه قد قال : { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . . . } [

آل عمران : 97 ] .

فَمَنْ يُؤْمِنُ بِأَنْ هَذَا حُكْمٌ صَحِيحٌ وَاجِبٌ يُؤْمِنُ بِهِ وَلَكِنَّهُ لَا يُنْقِذُهُ؛ قد يدخل في المعصية؛ لأنه

يستطيع أن يُحجّ ولم يفعل . أما مَنْ يكفر بالحج نفسه وينكر القضية كلها؛ فهو كافر والعياذ بالله

وهنا يقول الحق سبحانه : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }

[ إبراهيم : 7 ] .

وهكذا جاء الكفر مقابل الشكر ، ولا بُدَّ من عذاب للكفر؛ وعذابُ الله لا بُدَّ أن يكون

شديداً؛ لأن العذاب يتناسب بقدرة المعذب ، ولا أقدرَ من الله ، ونعوذُ به سبحانه من عذابه ،

فهو أمر لا يُطاق ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُورًا أَنْتُمْ . . . } .

**وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُورًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنِيَّ حَمِيدٌ (8)**

وقد قال موسى ذلك كي لا يظنَّ ظانٌّ من قومه أن الله في حاجة إلى شكرهم؛ وأنه سيعاقبهم

بالعذاب إن كفروا بشكره؛ فأراد أن ينسخَ هذا الظنَّ من أذهان مَنْ يسمعونَه .

وأوضح لهم أن الحق سبحانه لن يزيده إيمانكم شيئاً؛ ولن يضيف هذا الإيمانَ منهم ومعهم أهل

الأرض كلهم لملكه شيئاً؛ لأن مُلكَ الله إنما أبرزه سبحانه بصفات الكمال فيه ، وهو ناشيء عن

كمال موجود .

ولذلك يأتي قوله الحق : { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ . . . } .

**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ**

**رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا**

**إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)**

وهذه الآية الكريمة أعطتنا تفسيراً لقوله سبحانه : { وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } [ فاطر : 24 ] .

وكذلك قوله سبحانه : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ . . . } [ غافر : 78 ] .

ونعلم أن الحق سبحانه قد أوحى لموسى - عليه السلام - أن يُبلغ قومه بقصص بعض من الأنبياء السابقين عليه . وهذا واضح في قوله الحق :

{ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ . . . } [ إبراهيم : 9 ] .

ويقول سبحانه عن القوم الذين جاءوا من بعد ذلك :

{ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ . . . } [ إبراهيم : 9 ] .

أي : أن الرسل قد حملوا منهج الله ، وكذلك المعجزات الدالة على صدقهم لمن جاءوا من بعد ذلك . والبيّنات إما أن تكون المعجزات الدالة على صدقهم؛ أو : هي الآيات المُشتملة على الأحكام الواضحة التي تُنظّم حركة حياتهم لِتُسعدهم .

ولكن هل قَبِلَتْ تلك الأقوامُ تلك البيّناتِ؟

لا ، لأن الحق سبحانه يقول عنهم :

{ فَرَدُوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ . . . } [ إبراهيم : 9 ] .

وهكذا نرى أن الكافرين هم مَنْ وضعوا أيديهم على أفواههم ، وإما أنهم عَضُّوا على الأيدي بالنواجذ لأنهم لم يُطيقوا تطبيق منهج الله؛ ولم يستطيعوا التحكّم في أنفسهم .

أو : أنهم رَدُّوا أيديهم إلى أفواههم بمعنى أن قالوا للرسل : « هس » ، أصمتوا ولا تتكلموا بما جئتم به من بلاغ . أو : أن بعضهم قال للرسل « لا فائدة من كلامكم في هؤلاء » .

والثراء في القرآن يتحمّل كل هذه المعاني؛ والآية تتسق فيها كل تلك المعاني؛ فالعبارة الواحدة في القرآن تكون شاملة لخيرات تناسب كمالات الله ، وستظل كمالات القرآن موجودة يظهر بعضها لنا؛ وقد لا ندرك البعض الآخر إلى أن يُعلمنا بها الله يوم القيامة .

ويأتي قولهم :

{ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ . . . } [ إبراهيم : 9 ] .

ليكشف لنا غباءهم ، فَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَن هَؤُلَاءِ رِسل من السماء ، وفي نفس الوقت يُنكرونها المنهج ، ويُعلنون هذا الإنكار ، يكشف لنا ذلك قوله تعالى :

{ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [ إبراهيم : 9 ] .

أي : أنهم أعلنوا رأيهم في المنهج ، وقالوا : إنهم مُحَيَّرُونَ ويشكّون في هذا المنهج .

ويأتي القرآن بِردِّ الرسل في قول الحق سبحانه : { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِيَّ اللَّهُ شَكٌّ فَاطِرٍ . . . } .

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (10)

وقوله : { أَفِي اللَّهِ شَكٌّ . . . } [ إبراهيم : 10 ] هو لؤن من الخطاب الذي لا يترك لمن توجه إليه الكلام أن يجيب إلا كما تريد أنت . وأنت لا تفعل ذلك إلا إذا كُنْتَ واثقاً من أن مَنْ تُوَجَّه إليه الكلام سيحجب - إن استحضَرَ الحق في ذهنه - كما تريد أنت .  
ولذلك لم يَأْتِ الخطاب هنا بقوله « لا شك في الله » وبذلك يكون الكلام خبرياً ، وقد يقول واحد : إن هذا الكلام كاذب ، ولكن على الرغم من أن المستمعين من الكفار ، إلا أنه يأتي بالقضية في شكل تساؤل يستأنهم على أنهم سوف يُديرون الكلام في رؤوسهم ، وسيعثرون على الإجابة التي لا يمكن أن ينكرونها؛ وهي « ليس في الله شك » .  
وهكذا نجد أن القائل قد سكتَ عن إعلانهم الكفرَ أولاً؛ وجاء لهم بالتساؤل الذي سيجيبون عليه « ليس في الله شك » ، ويأتي لهم بالدليل الذي لا يحتمل أيَّ شكٍّ ، وهو قوله الحق :  
{ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } [ إبراهيم : 10 ] .  
والفاطر هو الذي خلق خَلْقاً على غير مثال سابق ، مثلها مثل قوله الحق : { بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } [ البقرة : 117 ] .

فلا أحدٌ قادرٌ على أن يخلقَ مثل السماوات والأرض؛ وهي مخلوقة على غير مثال سابق .  
وسبحانه هو مَنْ شاء أن يكون الإنسان سيدياً لكل الكائنات المخلوقة ، وأن تكون تلك الكائنات مُسَخَّرَةً لخدمته .  
وقد يتخيل الإنسان أن خَلَقَهُ أكبر من خَلْقِ السماوات والأرض؛ لذلك يُنَبِّههُ الحق سبحانه : { خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ . . . } [ غافر : 57 ] .  
ولو نظرت إلى الشمس وسألتَ نفسك؛ كم من الأجيال قد استمتعوا بدفئها واستفادوا منها؛ فمن المؤكَّد أنك لن تعرف عدد الأجيال؛ لأن الشمس مخلوقة من قَبْلِ خَلْقِ البشر ، وكل إنسان يستمتع بالشمس ويستفيد منها عدد سنوات حياته ، ثم يذهب إلى الموت .  
ونجد المفسر الجليل الفخر الرازي يضرب المثل الذي لا يمكن أن يُنكره أحد ، ويدلُّ على الفطرة في الإيمان ، ويُوضِّح أن الحق سبحانه لم يُجهل الإنسان إلى أن ينضج عقله ليُشعر بضرورة الإيمان ، ويضرب المثل بطفل صغير تسَلَّلَ ، وضرب شقيقه؛ هنا لا بُدَّ أن يلتفتَ الشقيق ليكتشف مَنْ الذي ضربه؛ لأن الإنسان من البداية يعلم أن لا شيء يحدث إلا وله فاعل .  
وهبَّ أن طفلاً جاء ليجد شقيقه جالساً على كرسي ، وهو يريد أن يجلس على نفس الكرسي؛ هنا سيقوم الطفل بشدِّ وجذب أخيه من على الكرسي ليجلس هو ، وكأنه اكتشف بالفطرة أن

اثنين لا يمكن أن يستوعبهما حَيِّز واحد .

وهكذا يتوصل الإنسان بالفطرة إلى معرفة أن هناك خالقاً أَوْحد . وهكذا نجد قوله الحق :

{ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } { إبراهيم : 10 } .

هو الآية الكونية الواسعة .

ويأتي من بعد ذلك بالقول :

{ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ .

. . . } { إبراهيم : 10 } .

وهذا القول يدل على الرحمة والحكمة والقدرة والحنان؛ وهو هنا يقول :

{ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ } { إبراهيم : 10 } .

ولم يَقُلْ : يغفر لكم ذنوبكم؛ ذلك أنه يخاطب الكفار؛ بينما يقول سبحانه حين يخاطب المؤمنين :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ \* تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ  
. . . } { الصف : 10-12 } .

وهكذا لا يساوي الحق سبحانه في خطابه بين المؤمنين والكافرين .

أو : أن المقصود من قوله :

{ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ } { إبراهيم : 10 } .

هو غفران الكبائر : ذلك أن صغائر الذنوب إنما يغفرها أداء الفرائض والعبادات؛ فنحن نعلم أن

الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما  
لم تُغش الكبائر » .

ويتابع سبحانه :

{ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . . } { إبراهيم : 10 } .

وكلنا نعرف أن الأجل هو الزمن المضروب والمُقرر للحدث . وإن شاء الحق سبحانه الإبادة

فنجد ما يدل عليه قوله الحق : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ } { القصص : 81 } .

كما فعل مع قارون .

أو : أن قوله : { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . . } { إبراهيم : 10 } مقصود به يوم القيامة .

ولكن الكفار أهل لَدَدٍ وعناد ، لذلك نجد قولهم :

{ قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } {

إبراهيم : 10 } .

وهكذا يعلن أهل الكفر لرسولهم أنهم يُفْضِلُونَ أن يكونوا أهل تقليد للآباء ، ولو أنهم فَكَّرُوا

لَعَلِّمُوا أَنْ التَّقْلِيدَ لَوْ شَاعَ فِي المَجْتَمَعَاتِ لَمَا ارْتَقَى أَحَدٌ عَنْ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ ، فَالعَالَمُ يَتَطَوَّرُ مِنْ تَمَرُّدِ جِيلٍ عَلَى جِيلٍ سَابِقٍ ، فَلِمَاذَا يُصَبِّرُ هَؤُلَاءِ الكَافِرُونَ عَلَى أَنْ يَحْتَفِظُوا بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ؟ وَإِذَا كَانَ الأَبْنَاءُ يَتَطَوَّرُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَلِمَاذَا يَحْتَفِظُ هَؤُلَاءِ الكُفَّارَ بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ فِي العَقَائِدِ؟ وَلَا يَكْتَفِي أَهْلُ الكُفْرِ بِذَلِكَ ، بَلْ يَطْلُبُونَ أَنْ يَأْتِيَ لَهُمُ الرِّسَالُ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، وَالسُّلْطَانُ يُطْلَقُ مَرَّةً عَلَى القَهْرِ عَلَى الفِعْلِ ، وَيَكُونُ الفَاعِلُ المَقْهُورَ كَارِهًا لِلْفِعْلِ .

وَمَرَّةً يُطْلَقُ عَلَى الحِجَّةِ الَّتِي تُقَنَّعُ بِالفِعْلِ ، وَيَكُونُ الفَاعِلُ مُجِبًّا لِمَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ ، وَالدِّينُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَشِرَ قَهْرًا؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَقْبَلَ الإِنْسَانُ عَلَى الدِّينِ بِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ لَا يَأْتِي قَهْرًا .

لِذَلِكَ نَجِدُ القَوْلَ الحَقَّ : { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ العِي . . . } [ البقرة : 256 ] .

وَمَا دَامَ الرُّشْدُ قَدْ ظَهَرَ فَالإِكْرَاهُ لَا مَجَالَ لَهُ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُكْرَهُ عَلَى شَيْءٍ لَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَعْتَقَ مَا يُكْرَهُ عَلَيْهِ .

وَإِذَا مَا دَخَلَ الإِنْسَانُ الدِّينَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِمَا يُكَلِّفُ بِهِ الدِّينُ؛ وَلِذَلِكَ فَالإِنْسَانُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى الدِّينِ مُكْرَهًا ، بَلْ ، لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَهُ عَلَى بَصِيرَةٍ .

وَيَأْتِي الحَقُّ سَبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا قَالَهُ الرِّسَالُ رَدًّا عَلَى قَوْلِ أَهْلِ الكُفْرِ : { قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ . . . } .

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)

وهكذا أوضح الرسل لأقوامهم : نحن بشر مثلكم ، والسلطان الذي تملكه هو المعجزة التي اختص بها الحق سبحانه كلَّ رسول ، والحق سبحانه هو الذي يفضِّلُ على عباده؛ فيختار منهم الرسول المناسب لكل قوم؛ ويرسل معه المعجزة الدالة على تلك الرسالة؛ ويقوم الرسول بتبليغ كل ما يأمر به الله .

وكل رسول إنما يفعل ذلك ويُقْبَلُ عَلَيْهِ بِكُلِّ الثِّقَةِ فِي أَنْ الحَقَّ سَبْحَانَهُ لَنْ يَخْذَلَهُ وَسَيَنْصُرُهُ؛ فَسَبْحَانَهُ هُوَ القَائِلُ : { وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ } [ الصافات : 173 ] .

ويخبرنا سبحانه بطمأنة الرسول وَمَنْ مَعَهُ لِحِطَّةٍ أَنْ تَزْلُجَهُمُ جِسَامُ الأَحْدَاثِ؛ وَتَبْلُغُ قُلُوبَهُمُ الحَنَاجِرَ ، وَيَتَسَاءَلُونَ : { مَتَى نَصُرُ اللَّهُ . . . } [ البقرة : 214 ] .

فَتَأْتِي أَخْبَارَ نَصْرِ الحَقِّ سَبْحَانَهُ لِرِسَالِهِ السَّابِقِينَ لِطَمَآنَةِ المُؤْمِنِينَ ، وَنَجِدُ الحَقَّ سَبْحَانَهُ هُنَا يَقُولُ : { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ } [ إبراهيم : 11 ] .

هكذا أعلن كل رسول لِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ ، فَعَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ يَتَوَكَّلُ المُؤْمِنُونَ ، وَيُفَوِّضُونَ كُلَّ أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ وَحْدَهُ؛ صَبْرًا عَلَى مَعَانِدَةِ الكَافِرِينَ ، وَثِقَةً فِي أَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَنْصُرُ مَنْ أَبْلَغُوا رِسَالَتَهُ

ومنهجته ، وينصر معهم مَنْ آمنوا بالمنهج والرسالة .  
وينقل لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الرسل لأقوامهم : { وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ . . . } .

وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ  
الْمُتَوَكِّلُونَ (12)

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد وصف المتوَكِّلين في نهاية الآية السابقة بأنهم المؤمنون؛ وهنا يصفهم في نهاية هذه الآية بأنهم المتوَكِّلون؛ لأن صفة الإيمان تدخل في صفة التوكل ضمناً .  
ونعلم أن هناك فارقاً بين التوكل والتوكل؛ فالمتوكل يعني أن تستنفد أسباب الله الممدودة؛ لأن التوكل عمل القلوب؛ بعد أن تُؤدِّي الجوارح ما عليها من عمل وأخذ بالأسباب؛ فالجوارح تعمل والقلوب هي التي تتوكل .  
ويأتي لنا الحق سبحانه بقية الحوار بين الذين كفروا من أهل الأقوام السابقة وبين رسلهم ، فيقول : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ . . . } .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ  
الظَّالِمِينَ (13)

وهكذا نرى أن فاشية الخير حين فَشَتْ في الناس؛ يغضب منها المستفيدون من الفساد والذين يعيشون عليه؛ ويتجه تفكير المفسدين إلى ضرورة إخراج خمائر الخير من الأرض التي يعيش المفسدون على الاستفادة من أهلها .  
وإن عَزَّتْ الأرض على خمائر الخير ، فعليهم أن يعلنوا عودتهم إلى ديانة الكافرين . ولا يقال : عُدْتُ إلى الشيء إلا إذا كنتُ في الشيء ثم خرجتُ عنه وعُدْتُ إليه .  
هل كان الرسل الذين يُهدِّدهم أهل الكفر بالإخراج من البلاد؛ يقبلون العودة إلى ديانة الكفر؟ طبعاً لا؛ ولذلك نفهم من قوله تعالى :  
{ أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا . . . } [ إبراهيم : 13 ] .

بمعنى « أو لتصيرن في ملتنا » .

ولم يقبل الرسل تلك المساومة؛ ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يُنزل جنود التشييت والطمأنينة والسكينة على قلوب رُسُلِهِ والمؤمنين؛ فلا يتأثر الرسل وَمَنْ معهم بمثل هذا الكلام .  
وهذا ما يُعبّر عنه قَوْلُ الحق سبحانه في آخر الآية :

{ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ } [ إبراهيم : 13 ] .

وهكذا يأتي القانون السماوي بالعدل وهو إهلاك الظالمين ، وتلك قضية إيمانية باقية ودائمة أبداً

ويكمل الحق سبحانه وعده لرسله ومن معهم من المؤمنين : { وَلَنَسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ . . . } .

### وَلَنَسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ (14)

وهنا يؤكد الحق سبحانه أن من يثبت على الإيمان ، ويخاف مقام الحق سبحانه ، ويخشى يوم العَرْض على الحق ويوم الحساب؛ ولم ينكص عن منهج دعوة الحق؛ سيورثه الحق سبحانه أرض من كفر بالله؛ فتلك سنة الله؛ لأنه سبحانه قال : { وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّئُوهَا . . . } [ الأحزاب : 27 ] .

ونعلم أن من يخاف الله ويخشاه ويؤمن أنه قائم على كَلِّ نفس؛ فسبحانه يجزي من يعيش حياته في ضوء الإيمان بأن يورثه أرض من كفر ، وقد قال الحق سبحانه لرسوله : { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا . . . } [ الأعراف : 137 ] . ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { واستفتحوا . . . } .

### وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15)

و « استفتح » تعني طلب الفتح ، وهناك فتح ، واستفتح . وكلمة « فتح » تدل على أن شيئاً مُغلقاً ينفتح ، ومرة يكون المقصود بالكلمة أمراً حسيماً؛ وأحياناً يكون الأمر معنوياً ، ومرة ثالثة يكون الفتح بمعنى الفصل والحكم .

والمثل على الأمر الحسي قول الحق سبحانه : { وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِصَاعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ . . . } [ يوسف : 65 ] .

ومرة يكون الفتح معنوياً؛ وبمعنى سابقة الخير والعلم ، كقول الحق سبحانه : { وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ . . . } [ البقرة : 76 ] . وكذلك قول الحق سبحانه : { مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ . . . } [ فاطر : 2 ] .

أما المثل على الفتح بمعنى الفصل في الأمر ، فالمثل هو قول الحق سبحانه :

{ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } [ الأعراف : 89 ]

وهكذا نجد للفتح معاني متعددة ، وكلها تدور حول المغاليق هي تَفْضُّ ، ويُطلق الفتح آخر الأمر على النصر ، والمثل هو قول الحق سبحانه : { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } [ النصر : 1 ] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ واستفتحوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ { [إبراهيم : 15] .  
وهم طلبوا الفتح بمعنى طلبوا النصر ، وكانت تلك خيبةً من الكفار؛ فَهُمْ طلبوا الفتح أي  
النصر؛ وهم قد فعلوا ذلك مظنةً أن عندهم ما ينصرهم .  
وكيف ينصرهم الله وهم كافرون؟  
لذلك يُخَيِّبُ اللهُ ظَنَّهُمْ ويحكم عليهم بمصير كل مَنْ عاش جباراً في الأرض ، متكبراً عن عبادة ربه  
ويقول سبحانه :

{ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ { [إبراهيم : 15] .  
والجبار هو مَنْ يقهر الناس على ما يريد؛ والمقصود هنا هم المتكبرون عن عبادة الحق سبحانه  
وتعالى ، ويعاندون في مسألة الإيمان به سبحانه .  
وماذا ينتظرهم من بعد ذلك؟  
يقول الحق سبحانه : { مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ . . . } .

### مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ (16)

أي : من خلف الجبار المتعنت بالكفر جهنم ، وما فيها من عذاب . وفي العامية نسمع مَنْ  
يتوعد آخر ويقول له « وراك . . . وراك » ويعني بذلك أنه سيوقع به أذىً لم يأتِ أوانه بَعْدَ .  
وكلمة « وراء » في اللغة لها استخدامات متعددة؛ فمرة تأتي بمعنى « بَعْدَ » والمثل في قوله تعالى  
عن امرأة إبراهيم عليه السلام :

{ وامرأته قَانِمَةٌ فَصَحِيحَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ { [هود : 71] .  
أي : جاء يعقوب من بعد إسحق .

ومرة تُطلق « وراء » بمعنى « غير » مثل قول الحق سبحانه : { والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ \*  
إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ \* فَمَنْ ابْتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ  
العادون { [المؤمنون : 5-7] .

وهنا يقول الحق سبحانه

{ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ . . . } [إبراهيم : 16] .

ونعلم أن جهنم ستأتي مستقبلاً ، أي : أنها أمامه ، ولكنها تنتظره؛ وتلاحقه .  
ويتابع الحق سبحانه :

{ ويسقى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ { [إبراهيم : 16] .

والصديد هو الماء الرقيق الذي يخرج من الجرح ، وهو القَيْح الذي يسيل من أجساد أهل النار  
حين تُشوى جلودهم .

ولنا أن نتصورَ حجمَ الألمِ حينَ يحتاجُ أحدهمُ أن يشربَ؛ فيُقدِّمُ له الصديدَ الناتجَ من حَرْقِ جلده  
وجُلودِ أمثاله . والصديدُ أمرٌ يُتَأَقَّفُ من رؤيته؛ فما بألنا وهو يشربه ، والعياذُ بالله .  
ويقول الحق سبحانه متابعاً لما ينتظر الواحد من هؤلاء حين يشرب الصديد : { يَتَجَرَّعُهُ وَلَا  
يَكَادُ يُسِيغُهُ . . . } .

يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ  
(17)

ويتجرعه أي : يأخذه جُرْعَةٌ جُرْعَةٌ ، ومن فرط مرارته لا تكون له سيولة تُستَسَاغُ؛ فيكاد يقف في  
الحلق؛ والإنسان لا يأخذ الشيء جُرْعَةً جُرْعَةً إلا إذا كان لا يقدر على استمرار الجرعة؛ ولكن  
هذا المشروب من الصديد لا يكاد يستسيغه مَنْ يتجرعه . ويقال : استساغ الشيء . أي :  
ابتلعه بسهولة .  
وقوله سبحانه :

{ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ . . . } [ إبراهيم : 17 ] .

أي : لا يكاد يبلعه بسهولة قطعاً وشكله غير مقبولين .  
ويتابع سبحانه :

{ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ . . . } [ إبراهيم : 17 ] .

أي : ينظر حوله فيجد الموت يحيط به من كل اتجاه ، لكنه لا يموت ، ويُفاجأ بأن العذاب يحيط  
به من كل اتجاه مُصَدِّقاً لقول الحق سبحانه :

{ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ } [ إبراهيم : 17 ] .

هكذا يتعذب الجبار المتعنت في أمر الإيمان . وإذا قَسْنَا العذاب الغليظ بأهون عذاب يلقاه  
إنسان من النار لوجدنا أنه عَذَابٌ فوق الاحتمال؛ فهذا هو صلى الله عليه وسلم يقول : « إن  
أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجلٌ يُوضَعُ في أَحْمَصِ قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه » .  
فَمَا بَالُنَا بالعذاب الغليظ ، وقانا الله وإياكم شره؟  
ويقول سبحانه من بعد ذلك قضية كونية : { مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . . } .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَاهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى  
شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18)

وقد يأتي في أذهان البعض ما يُشَوِّه عقائد الإيمان ، فيقول : كيف يدخل فلان النار وهو مَنْ  
أهدى البشرية تلك المخترعات الهائلة التي غيَّرت مسارات الحضارة ، وأسعدت الناس؟ كيف

يُعَذِّبُ اللهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَدَلُوا الْجَهْدَ لِيَطُورُوا مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ ، أَيْعَذِبُهُمْ لِمَجْرَدِ أَنْهَمْ كَفَارًا؟  
وأقول : نعم ، يعذبهم الله على الرغم من أنه سبحانه لا يضيع عنده أَجْرٌ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا؛ وهو  
قادر على أَنْ يَجْزِيَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَا يَنَالُونَهُ مِنْ مَجْدٍ وَشَهْرَةٍ وَثَرْوَةٍ؛ وهم قد عملوا من أجل ذلك .  
وانطبق عليه قوله : « عَمِلْتَ لِيُقَالُ وَقَدْ قِيلَ » وأخذوا أجورهم مما عملوا لهم؛ ذلك أنهم عملوا  
ولم يكن في باهم الله .

وهكذا يصور القرآن مسألة الجزاء ، فالواحد من هؤلاء الكفار إذا كان يلقى العذاب الغليظ  
على الكفر؛ فالحق لا يغمطه أجر ما فعل من خير؛ فينال ذلك في الدنيا ويستمتع بإطلاق اسمه  
على اختراعه أو اكتشافه .

ونعلم جميعاً قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يَصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةً يَنْكَحُهَا  
فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » أما في الآخرة فالعذاب جزاؤه؛ لأنه عاش كافراً بالله .  
وهذه الأعمال التي صنعوها في الدنيا ، وظنوا أنها أعمال إنسانية وأعمال برّ تأتي يوم القيامة  
وهي رماد تهبُّ عليه الرياح الشديدة في يوم عاصف لتذره بعيداً :  
{ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا  
عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ { [ إبراهيم : 18 ] .

ولن تكون لديهم عندئذ فرصة لاستئناف الحياة ليستفيدوا من التجربة؛ بل أمامهم وحوهم  
العذاب؛ لسان حال كل منهم يقول : { رَبِّ ارْجِعُونِ \* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا . . . } [ المؤمنون :  
99100 ] .

لكنه لو رُدَّ إِلَى الْحَيَاةِ لَعَادَ إِلَى مَا تُهِيَ عَنْهُ ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : { وَلَكِنَّ رُدُّدْتُ إِلَى رَبِّي  
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا } [ الكهف : 36 ] .  
وهذا الكفر هو الضلال البعيد الذي جعل كل أعمالهم التي ظنوا أنها صالحة؛ مجرد أعمال مُحْبَطَةٌ؛  
فضلُّوا بالكفر عن الطريق الموصِّل إلى خير الآخرة .  
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ . . . } .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَأُ يُذْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19)

وسبحانه يُعَلِّمُنَا هُنَا أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمِيزَانِ الْحَقِّ؛ فَلَا تَأْتِي السَّمَاءُ وَتَنْطَبِقُ عَلَى  
الْأَرْضِ ، فَسُبْحَانَهُ الْقَائِلُ : { وَيَمْسُكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ . . . } [ الحج :  
65 ] .

وأنت كلما سِرَّتْ وَجَدْتَ الشَّمْسَ مِنْ فَوْقِكَ ، وَهِيَ مَرْفُوعَةٌ بِنِظَامٍ هَنْدَسِيٍّ دَقِيقٍ .  
وهكذا أراد الحق سبحانه أَنْ يُؤَكِّدَ قَضِيَّةَ كَوْنِيَّةِ مُحَسَّةٍ مَشْهُودَةٍ؛ وَبَدَأَ بِقَوْلِهِ :  
{ أَلَمْ تَرَ . . . } [ إبراهيم : 19 ] .

رغم أنه لا يوجد مع العَيْنِ أَيْنَ؛ ذلك أن الشمس واضحة أمام كُلِّ البشر ، وهكذا نجد أن معنى { أَلَمْ تَرَ } هنا تكون بمعنى « ألم تعلم » .

وجاء سبحانه ب { أَلَمْ تَرَ } هنا ليدلنا على أن ما يُعلمنا الله به من حَقِّ أَصْدَقِ مِمَّا تُعَلِّمُنَا بِهِ العَيْنَ؛ فَإِذَا قَالَ سبحانه : { أَلَمْ تَرَ } فاعلم أنه علم موثوق به .

وحين يلفتنا الحق سبحانه هنا إلى رؤية السماوات والأرض؛ فكان لا بُدَّ لنا أن نعلم أنها لم تُكُنْ لِتُوجَدَ إِلَّا بِخَلْقِ اللَّهِ لها؛ وهو الذي أخبرنا أنها من خَلْقِهِ؛ ولم يدعها أحدٌ لنفسه؛ وبذلك تثبت له قضية خَلْقِهَا إلى أن يقولَ آخر أنه خلقها؛ ولم يَقُلْ لنا أحدٌ ذلك أبداً .

وسبق أن قال سبحانه : { خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ . . . } [ غافر : 57 ] .

والبشر كما نعلم لا يعيش فرد منهم مثلما تعيش السماء؛ فالفرد يموت ويولد غيره؛ وكُلُّ البشر يأتون ويذهبون ، والشمس باقية ، وكذلك الأرض .

ومن عجيب الخلق الرحماني أن الله خلق كُلَّ ذلك تسخييراً لأمر الإنسان؛ فلا يشدَّ كائن من تلك المُسَخَّرَاتِ عن أمر الإنسان . وما طُلب منك أيُّها الإنسان تكليفاً مُخَيَّرَ فيه إن شئتَ آمنت ، وإن شئتَ كُفرت؛ وإن شئتَ أطعت ، وإن شئتَ عصيت .

ولكن المخلوق المُسَخَّرَ لخدمتك ليست له هذه المشيئة . وهو سبحانه الحق القائل : { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } [ الأحزاب : 72 ] .

وقد أعلمنا هذا القولُ الكريمُ بأن الرحمانية سبقتُ لنا نحن البشر من قبل خَلْقِنَا ، وأقدمتنا رحمانية الله على وجود مُهيأ لنا .

ومن العجيب أن الكونَ المخلوق لنا استبقاءً لحياتنا واستبقاءً لنوعنا يتركز في أشياء لا دَخَلَ لنا فيها ، ولا تتغير أبداً؛ وهي الأشياء العليا كالشمس والقمر والأرض .

وهناك أشياء أخرى يكون التغيير فيها على نوعين : قسم يتغير ويأتي بدلاً منه شيء جديد ، كالنبات الذي يذهب ويصير حصيداً ، وكذلك الحيوانات التي تأكلها أو التي تموت .

وهناك خَلْقٌ يتغير مع إبقاء عناصره ، وإن تغيَّرت مادته ، كالجُمادات التي نراها - الجبال والأرض وعناصرها - ونكتشف منها كُلَّ يومٍ جديداً .

إذن : فالمخلوقات التي استقبلتُ الوجودَ الإنساني نوعان : نوع لا دَخَلَ للأغيار فيها؛ ونوع آخر فيه دَخَلَ للأغيار مع بقاء مادتها وهي الجُمادات؛ ونوع تتغير أنواعه وأجناسه .

كُلُّ هذه الأشياء تدلُّنا على أن الحقَّ سبحانه وتعالى له صِفَتَانِ .

صفة القدرة والقهر؛ وهو سبحانه يقهر ما يشاء على ما يشاء؛ ولا يتغير .

وصفة الاختيار التي أوجدها في الإنسان .

وأثبتت صفة القدرة التي سخر بها سبحانه الأشياء لخدمة الإنسان مُطلقاً سبحانه على كَلِّ ما خلق؛ فلا شيء يخرج عن مراده أبداً .

وأراد سبحانه بصفة الاختيار التي وهبها للإنسان أن يأتيه عبده الإنسان محباً متبعاً لتكليفه الإيمانية ، فالذي يطيع الله وهو قادر على أن يعصيه إنما يدلُّ بذلك على أنه مُحِبٌّ لله؛ ويثبت له صفة المحبوبة .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ . . . } { إبراهيم : 19 } .

ولنا أن نلاحظ أن كلمة « بالحق » وردت في مواقع كثيرة من القرآن الكريم .

وعلى سبيل المثال ، نجد في القرآن الكريم قوله تعالى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ . . . } { الحجر : 85 } .

وقوله تعالى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ } { الدخان : 38 } .

وهذا يدل على أن السماوات والأرض مخلوقة على هيئة ثابتة ، وقد جعل ذلك مدارس الفلسفة تستقبل تلك القضية استقباليين؛ استقبالي من يريد أن يؤمن؛ واستقبالي من يريد أن يكفر . وانقسم من أرادوا الكفر إلى فريقين .

الفريق الأول : أخذ من ثبات قوانين الشمس والقمر والأرض دليلاً على أنه لا يوجد خالق لهذا الكون ، وقالوا : لو أن هناك خالقاً له لغير من هيئة السماوات والأرض ، ولكن كل من تلك الكواكب تدير نفسها بآلية ذاتية مُحكمة .

والفريق الثاني ممن أرادوا الكفر قال : إن الشذوذ في الكون ووجود خلل وعيوب خلقية في بعض من المخلوقات والأنواع؛ دليل على أنه لا يوجد إله . فكيف يخلق إله مخلوقاً أعمى؛ وآخر أعرج؛ وثالثاً بعين واحدة؟

وهكذا أخذ هذا الفريق من أهل الكفر وجود الشذوذ في الكون كدليل على عدم وجود إله . ومن العجيب أن الفريق الذي أراد التغيير في هيئة السماوات والأرض؛ أراد ذلك كدليل على وجود خالق ، والفريق الذي رأى أن هناك شذوذاً في بعض المخلوقات أخذ ثبات الخلق على هيئة واحدة كدليل على وجود إله .

كل ذلك يدلُّنا على أن الفريقين قد أخذاً من قضيتين متعارضتين دليلاً على الكفر ، ولم يتفق الفريقان على قضية واحدة ، وهذا يوضح التناقض بينهما .

ولو أمعن كل من الفريقين النظر لعلم كل منهما أن الإيمان ضرورة أساسية لفهم هذا الكون على ثبات ما فيه؛ وعلى وجود بعض من الشذوذ فيه .

فأنت يا مَنْ تنتظر ثباتاً في الأكوان خُذ ثبات آلية الحركة في السماوات والأرض والشمس والقمر

دليلاً على الإيمان بوجود خالق إله قادر .

وأنت يا مَنْ تأخذ التغيير في الخلق دليلاً على وجود خالق؛ فهذا أنت ترى اختلاف بعض المخلوقات ما يجعلك تعثر على عدم التماثل في المخلوقات دليلاً على وجود إله خالق له طلاقة القدرة .

وأوضح الحق سبحانه لنا أنه لم يخلق السماوات والأرض لعبة؛ بل خلقهما بالحق ، وهناك فارق بين اللعبة والحق ، فاللعبة قد يتوصل إليها مَنْ يعثر بشيء؛ فتخرج له صدفة يستخدمها هو أو غيره كلعبة .

يقول الحق : { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [ النحل : 3 ] .

أما الخلق بالحق؛ فهذا يعني أن مَنْ يخلقها إنما يفعل ذلك بموازين دقيقة مُحَكِّمة؛ ويصنعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحكمة والحق .

وما دام الكون الأعلى ثابتاً؛ فإن الحق سبحانه هو الذي خلق السماوات والأرض ، وما دُمت تريد ثباتاً في حركتك الاختيارية؛ فخذ المنهج الذي أنزله الله بالحق؛ فتثبت قضاياك كما ثبتت القضايا العليا؛ وأنت حين تخرج عن منهج الحق تجد فساداً .

وإذا أردت ألا يوجد فساد في المجتمع من أي لَوْنٍ فابحث عن حكم الله الذي صَيَّعه الإنسان في مخالفة منهجه تجد أن ضياعه هو السبب في وجود الفساد؛ وقرأ قوله الحق في سورة الرحمن : { الرحمن \* عَلَّمَ الْقُرْآنَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ \* الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ \* وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ \* وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ \* أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ \* وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } [ الرحمن : 1-9 ] .

وهكذا أنت ترى الشمس - على سبيل المثال - منضبطة في شروقها وغروبها وكسوفها؛ وكذلك القمر في سطوعه أو محاقه أو خسوفه .

وكما رفع الحق سبحانه السماء ووضع الميزان؛ فعليكم أن تزنوا كُلَّ أمر بالميزان الصحيح لتنصلح أموركم ، فإن اعتدال الموازين المادية والمعنوية والقيمية هي استقرار حركة الحياة .

أما إن ظللتُم على العوج فاعلموا أنه سبحانه قادر على أن يذهبكم وأن يأتي بخلق جديد :

{ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ } [ إبراهيم : 19 ] .

إن منطوق الآن ومفهومها ليس مراده سبحانه؛ لأن الله خلق الخلق ، ووهبهم الاختيار ليُقْبِل الخلق على الله ، رغم أنه سبحانه قد ملَّكهم ألا يُقْبِلوا عليه .

وفي موقع آخر يقول سبحانه : { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [ محمد : 38 ] .

ويقول في قضية إنكار اليهود لطريقة ميلاد المسيح عيسى بن مريم : { وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ \* وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ \* إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ \* وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ } [ الزخرف : 57-60 ] .

إذن : فطلاقة قدرة الله التي خلقتة بلا أب ، يمكن أن تفعل تلك القدرة المطلقة ما تشاء ، فلا شيء يتأبى على مرادات الحق ولا على قدراته .

ويقول في موقع آخر : { فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ \* عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ } [ المعارج : 40-41 ] .

فلا أحد يسبق إرادة الله أو مشيئته .

ويقول الحق سبحانه مؤكداً أن قدرته على الجيء بخلق جديد ليست مسألة مستحيلة : { وَمَا ذَلِكَ . . . } .

### وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20)

والشيء العزيز هو الشيء الممتنع . والله سبحانه لا يُغَلَب . وقد بين لنا في جزئيات الحياة أنه يذهب بنبات ويأتي بنبات آخر ، ويذهب بحيوان ويأتي بحيوان آخر؛ وكذلك يذهب بالجماعة من البشر ويأتي بغيرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك : { وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا . . . } .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ (21)

والبروز أن يظهر شيء كان خفياً . ويال « رجل بارز » أي : مرموق وقيد الأبصار ، ولا تفتح الدنيا إلا عليه ، ويُقال « امرأة بارزة » أي : امرأة تختلط بالرجال وغير مُستتره .

ويقول سبحانه : { وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً . . . } [ الكهف : 47 ] .

أي : سيرى كلُّ منا كلَّ الأرض في اليوم الآخر وهي مكتملة؛ لا جزء منها فقط كما يحدث في حياتنا الدنيوية؛ ذلك أن الحق سبحانه قد قال لنا : { فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ

حَدِيدٌ } [ ق : 22 ] .

ويقال أيضاً « فرس بارز » وهو ما يطلق على الحصان الذي يفوز عند التسابق مع غيره؛ ولا يستطيع فرس آخر أن يسبقه؛ لذلك فهو فرس تراه العين أثناء السباق بوضوح .

ونعلم أن الخيل في لحظات السباق تثير أثناء تسابقها غباراً - أي : تراباً يُضَيَّبُ المرثيات - فلا

يرى أحد تفاصيل الموقع الذي تجري فيه الخيول؛ أما إذا ظهر فرس يسبق الجميع فلا خيول  
أخرى قريبة منه تثير غباراً يمنع رؤيته بارزاً واضحاً .  
وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا . . } { إبراهيم : 21 } .

ولقائل أن يسأل : وهل كانت هناك أشياء خافية عنه سبحانه ثم برزت؟  
ونقول : إنه سبحانه مُنَّزَّهٌ أَنْ تَخْفِيَ عَنْهُ خَافِيَةٌ فِي الْأَرْضِ أَوْ السَّمَاءِ أَوْ الْكَوْنِ كُلِّهِ ، ولكن  
المقصود هنا أنهم يبرزون عند أنفسهم ، ويرون وجودهم واضحاً أمام الحق سبحانه .  
وهم مِنْ قَبْلِ كَانُوا : { يَسْتَحْفُفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا  
يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا } { النساء : 108 } .  
وكانوا قد ظنُّوا أنهم قادرون على أن يخفوا عن ربهم ما كانوا يفعلون؛ ويبيِّتون ويمكرون؛ ونجدهم  
يوم القيامة مفضوحين أمام خالقهم؛ حُكْمهم في ذلك حُكْم كل الخلق .  
أو : برز كل واحد منهم أمام نفسه ، ورأى نفسه أمام الله .

ونعلم أنه سبحانه قد خلق الخلق على لونين؛ لون مقهور فيه الإنسان ، ولا إرادة له : وَلَوْ نِ مُخَيَّرَ  
فيه الإنسان ، ونسبة ما منع فيه الإنسان الاختيار قليل ، إذا ما قيس بما ليس له في اختيار .  
وقد شاء الحق سبحانه ذلك؛ لأنه علم أولاً أن الإنسان الذي تعود على أن يتمرد على الله؛ فهو  
يُوضِحُ له : أنت قد أَلْفَتِ التمرد وَقَوْلُ « لا » ، وقد تُجَاهِرُ بالكفر ، وتحارب من أجله ، وتريد  
أن تخرج عن مرادات الحق؛ فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي أَنْ هَذَا الْخُرُوجُ ذَاتِي فَيْكَ؛ فتمرد على القهريات  
التي تتنابك .

ويعلم الإنسان بالتجربة أنه غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ؛ فلا الفقير يستطيع أن يثري دون مشيئة الله؛  
والمرضى لا يستطيع أن يشفي دون مشيئة الله؛ والضعيف لا يستطيع أن يقوى ضد إرادة الله .  
وكل هذا يدل على أن ملكية الله لك لا تزال بالقهر فيك؛ وسيأتي يوم يسلب منك الاختيار .

{ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } { غافر : 16 } .

وأنت تبرز بكلِّ تكوينك لحظتها أمام نفسك ، وتجد الحق سبحانه أمامك . وأنت إما أن تكون  
بارزاً بكلِّ تكويناتك أمام نفسك لحظة وقوفك أمام خالقك ، أو يكون المقصود بقوله الحق  
وقوف كل الخلق أمامه بارزين ، سواء أكانوا تابعين أو متبوعين .  
ولحظتها سنجد قوله الحق مُطَبَّقًا .

{ فَقَالَ الضَّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا . . } { إبراهيم : 21 } .

وهكذا نرى أن هناك حواراً بين اثنين من البشر؛ نوع مستكبر ، وهم القادة السادة الذين يُلقون  
أوامرهم؛ لِيُنْفِذَهَا الضَّعْفَاءُ ، ثم يُفاجأ الضعفاء التابعون أن رؤوسهم تساوت في اليوم الآخر مع

هؤلاء الأقوياء الجبابرة؛ ويرؤن ما ينتظرهم جميعاً من عذاب؛ فيسأل الضعاف أهل الجبروت :  
{ فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } { إبراهيم : 21 } .

وهؤلاء المستكبرون سبق لهم أن استكبروا على هؤلاء الضعاف بما لهم من قوة وسيادة ، أو  
استكبروا على الرسل إيماناً كما أوضح الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن : { وَقَالُوا لَوْلَا  
نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ } { الزخرف : 31 } .  
وفي هذا القول استكبارٌ على الإيمان ، وكأنهم يُعدِّلون على الله - والعباد بالله - مشيئته وواسع  
علمه الذي يختار به الرسل .

أو : أنهم قد استكبروا على أنفسهم فلم يؤمنوا؛ أو : أنهم قد استكبروا على الأتباع بما لهم من  
جاه ونفوذ فلم يقدر الأتباع على مخالفتهم؛ لذلك يقول لهم الأتباع لحظة تساوي الرؤوس :  
{ فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } { إبراهيم : 21 } .  
وهذا تقريع وخزي وفضيحة للتابع .

ونعلم أن الحق سبحانه قال في موقع آخر من القرآن على لسان التابعين : { رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا  
سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا \* رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } { الأحزاب  
: 67-68 } .

وقد عرض الحق سبحانه هذه المسألة علينا لتتعلم من البداية كيف يكون ميزان التبعية؟ وإياك أن  
تتبع في أمر إلا إذا اقتنعت أنه يأتي . لك بخير ، وأنه يدفع عنك الشر ، ولينتبه كل منا جيداً ولا  
يعطي زمام قيادة حركة الحياة إلا عن بينة .

وليتذكر كل منا قوله الحق : { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ  
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } { الحشر : 16 } .

فحين يأتيك أمر مخالف لمنهج الله؛ عليك أن تُعلي منهج الله فوق كل أمر . وقد أوضح لنا الحق  
سبحانه ذلك كي ننتبه جيداً فلا نُلقِي على شر؛ وهل يستطيع أن يدرأ عنا الشر ، وأن يُنجينا  
من الإصابة بمكروه؟

فليكن كلُّ منا على بينة من أمره ، وقد قال الحق سبحانه في سورة الرحمن : { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا  
تُكَذِّبَانِ } { الرحمن : 16 } .

والآلاء هي النعم؛ ومن أرقى النعم هي تلك القيم التي أوضحها لنا الحق سبحانه لنسير على  
هداها في الحياة الدنيا كي لا نُقبِل على الحياة بجهالة؛ بل بتوضيح وتبيان لكل شيء .

وهكذا يجب أن يتصرف التابع مع المتبوع كي لا يقف في موقف الخزي المشترك بين الاثنين في  
يوم الحساب؛ حيث يقول التابعون للمتبوعين :

{ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . . } { إبراهيم : 21 } .

وهذا القول القرآني يتكلم به ربُّ العالمين؛ وكلُّ حرف فيه لهدف ومعنى .  
وقوله :

{ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . . . } [ إبراهيم : 21 ] .

يعني أنهم لن يقدرُوا أَنْ يُخَفِّفُوا ولو جزءاً بسيطاً من عذاب الله ، وكأنهم يُسهِّلونها عليهم ،  
فيطلبون منهم أَنْ يتحمَّلوا؛ أو أَنْ يُخَفِّفُوا عنهم ولو جزءاً بسيطاً من العذاب .  
والمثَلُ على ذلك حين يطلب إنسان من آخر جنيتها؛ فيقول له : ليس معي غيره ، فيردُّ الطالب :  
إِذْنُ أعطني بعضاً منه ، وكأنه يطلب ولو رُبْعَهُ أو عشرة قروش منه .  
هكذا قال الذين اتبعوا لمن اتبعوهم؛ فماذا يكون الرد من هؤلاء الذين تَابُوا على الله إيماناً به؛ ها  
هم يردُّون على مَنْ سألوهم أَنْ يُخَفِّفُوا ولو جزءاً قليلاً من العذاب :

{ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ } [ إبراهيم : 21 ] .

وهكذا يتكشف كذبهم؛ فهم يدَّعون أن معنى الهداية هو أَنْ يَهَبَهُمُ اللهُ الإِيمانَ؛ مُتناسين أن معنى  
الهداية هو الدلالة المُوصِّلة إلى الغاية .

ولنا في قول الحق سبحانه ما يُوضِّح المعنى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى . . . } [ محمد : 17 ] .

فمَنْ يُقْبِلُ على الإِيمان بصدر مُنشرح يجد كُلَّ سُبُلِ الخير أمامه؛ أما مَنْ كَفَرَ فكيف يهديه الله ،  
وهو قد استحَبَّ العمى على الهدى؟ لن يجد بطبيعة الحال آية هداية .  
ويقول الكافرون ذلك لِمَنْ اتبعوهم في يوم الحشر؛ ذلك أنهم يرون رأي العين أن الجنة حَقٌّ؛  
والنار حَقٌّ ، والحساب حَقٌّ؛ لذلك يعترفون أمام مَنْ اتبعوهم في الدنيا بأن الحق سبحانه لو أخذ  
بيدهم في الحياة الدنيا إلى الإِيمان لَقَدْنَاكم إلى هذا الإِيمان؛ وهم في ذلك أصحاب رأي مغلوط .  
وذلك قولهم :

{ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ . . . } [ إبراهيم : 21 ] .

ونعلم أن الإنسان إذا ما وقع في مأزق أقوى من قدراته : ولا فِجْوة فيه للنجاة؛ فهو يستقبل هذا  
المأزق بأحد استقبالين؛ الاستقبال الأول : أن يجزَع ويتضرع؛ والاستقبال الثاني : أن يصمدَ  
ويصبر .

وهنا نجد الكافرين يقولون :

{ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ } [ إبراهيم : 21 ] .

أي : أنهم سواء جَزَعوا وتضرَّعوا أو صبروا وصمدوا فلن يُنجيهم اللهُ ممَّا هم فيه؛ فلا مهْرَب ولا  
مَنْجِي .

و « حاص » في المكان أي : ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد راحة؛ ونجد في تعبيرنا العامي ما

يُصَوِّر ذلك وهو قولنا « فلان حايس » أي : لا يجد مكاناً يرتاح فيه .  
ولذلك يقال : « نَبَتْ بهم الأرض »؛ أي : أن كُلَّ مكان في الأرض يرفضهم؛ ويشرح الحق سبحانه هذه القضية فيقول :

{ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ . . . } [ التوبة : 118 ]

وهكذا نرى مَنْ نَبَتْ بهم الأرض؛ إنما لا تسعهم أنفسهم أيضاً بل تضيق عليهم؛ ونسمع مَنْ يُنْكَل بهم الحق في الحياة الدنيا مَنْ يقول : « أنا لا أطيق نفسي » .  
وهذا ما يحدث بالفعل لبعض من الناس في لحظات الضيق؛ فتضيق ذات أيّ منهم عن حَمَل ذاته ، وكأن الواحد منهم له ذاتان؛ وكأن الواحد منهم له صورتان؛ الصورة التي تُزِين الشهوة؛ وحين تزيد عن الحدِّ يعود إلى صورة كاره الشهوة؛ وهو لا يسعدُ في الحالتين؛ عشق الشهوة وكراهيتها .  
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ . . . } .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَعَوَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22)

وهنا نجد تصعيداً للحوار؛ فبعد أن كان من المتبوعين والتابعين؛ نجد هذا الارتقاء في الحوار ليكون بين الشيطان وبين البشر . ونلاحظ أن الحق سبحانه هنا بالحال الذي يدور فيه الحوار وهو انقضاء الأمر؛ حيث يقرّر الوضْع النهائي لكل شيء؛ ولا نقاش في أيّ أمر ، ولا فرصة للتراجع عما حدث .

وقضاء الأمر يعني أن يذهب كل إنسان إلى مصيره ، فمَنْ كان من أهل الجنة دخلها؛ ومَنْ كان من أهل النار دخلها؛ فقد وصلتْ الأمور إلى حُدّها النهائي الذي لا تتغير من بعده .  
ويوضح الشيطان نفسه فيقول :

{ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَعَوَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ } [ إبراهيم : 22 ] .  
وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ، لأنه وَعَدَ مَنْ يملك؛ أما وَعَدَ الشَّيْطَانُ فقد اختلف؛ لأنه وَعَدَ بما لا يملك؛ هو وَعَدَ كاذب؛ لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذي لا يتغير .

وحين تَعِد أنت - الإنسان - إنساناً آخر بخير قادم؛ فهل تضمن أن تُؤتيك طُروفك على أن تُحَقِّق له هذا الأمر؟

ولذلك يوصينا الحق سبحانه أن نقول « إن شاء الله » وبذلك نردّ الوَعْدَ لله؛ فهو وحده الذي يمكنه أن يَعِدَ وَيُؤَقِّدَ ما يَعِد به .

وعلى الواحد منا أن يحمي نفسه من الكذب ، وأن يقول « إن شاء الله » فإن لم تستطع أن تحقق ما وعدت به تكون قد حميت نفسك من أن تُلقي اتهاماً بالكذب .

ونجد الشيطان وهو يقول في الآخرة :

{ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ . . . } [ إبراهيم : 22 ] .

ذلك أن وَعْده باطل؛ والباطل لَجَلج ، وحين تحكم به الآن تثبت لك الوقائع عكسه ، وتجعلك لا تصدق ما حكمت به .

ولذلك نجد الحق سبحانه يوضح لنا المسافة بين الحق والباطل فيقول : { فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ

جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } [ الرعد : 17 ] .

وهكذا يحاول الشيطان أن يُبريء نفسه رغم علمه أنه قد وعد ، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به؛

ولذلك يحاول أن يلصق التهمة بمن اتبعوه مثله مثل أولئك الذين قالوا : { لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ

. . . } [ إبراهيم : 21 ] .

فيقول الشيطان من بعد ذلك :

{ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي } [ إبراهيم : 22 ] .

والسلطان – كما نعلم – إما سلطان قَهْر أو سلطان إقناع . وسلطان القَهْر يعني أن يملك أحدٌ

من القوة ما يقهر به غيره على أن يفعل ما يكره ، بينما يكون كارهاً للفعل .

أما سلطان الحجة فهو أن يملك منطقاً يجعلك تعمل وفق ما يطلبه منك وتحب ما تفعل ، وهكذا

يعترف الشيطان للبشر يوم الحشر الأعظم؛ ويقول : أريد أن أناقشكم؛ هل كان لي سلطان

قَهْرِي أقهركم به؟ هل كان لي سلطان إقناع أقنعكم به على اتباع طريقي؟

لم يكن لي في دنياكم هذه ولا تلك ، فلا تتهموني ولا تجعلوني « شماعة » تُعلّقون عليّ أخطاءكم؛

فقد غويت من قبلكم وخالفتم أمر ربي؛ ولم يكن لي عليكم سلطان سوى أن دعوتكم فاستجبتم

لي .

وكل ما كان لي عندكم أيّ حرّكت فيكم نوازع أنفسكم ، وتحركت نوازع أنفسكم من بعد ذلك

لُتقبلوا على المعصية .

إذن : فالشيطان إما أن يُحرّك نوازع النفس؛ أو يترك النفس تتحرك بنوازعها إلى المعصية؛ وهي

كافية لذلك .

وسبق أن أوضحنا كيف تُعرف المعصية ، إن كانت من الشيطان تسويلاً استقلالياً أو تسويلاً

تبعياً؛ فإن وقفت النفس عند معصية بعينها؛ وكلما أبعدها الإنسان تلح عليه؛ فهذا هو ما تريده

النفس من الإنسان حيث تطلب معصية بعينها .

أما نَزْع الشيطان فهو أن ينتقل الشيطان من معصية إلى أخرى محاولاً غواية الإنسان؛ إن وجده

رافضاً لمعصية ما؛ انتقل بالغواية إلى غيرها؛ لأن الشيطان يريد الإنسان عاصياً على أي لُون؛ فالهَمُّ أن يعصي فقط؛ لذلك يحاول أن يدخل الإنسان من نقطة ضعفه؛ فإنَّ وحده قوياً في ناحية اتجه إلى أخرى .

ويعلن الشيطان أنه ليس المَلُوم على ذلك :

{ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ . . . } [ إبراهيم : 22 ] .

فالمَلُوم هنا هو مَنْ أَقْبَلَ على المعصية؛ لا مَنْ أَغْوَى بها .

ويستمر الحق سبحانه في فَضْح ما يقوله الشيطان لَمَنْ أَغْوَاهم في اليوم الآخر :

{ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي . . . } [ إبراهيم : 22 ] .

هذا هو قَوْل الشيطان الذي سبق وأن تعالَى على آدم لحظة أن طلب منه الحق سبحانه أن يسجدَ له مع الملائكة؛ ولكن الموقف هنا هو التساوي بين الذين أَغْوَاهم وبينه؛ فهو يعلن أنه لن ينفعهم وهم لن ينفعونه .

والمُصْرِخ من مادة الصِّرَاح من صرَّخ ، وهو رَفَع الصوت بغرض أن يسمعه غيره؛ ولا يطلب مَنْ يصرخ شيئاً آخر غير المعونة فلو أن أحداً عثر على كنز تحت قدميه فلن يصرخ؛ بل يلتفت حوله ليرى : هل هناك مَنْ رآه أم لا؟

أما إن هاجمه أسد فلا بُدَّ أن يصرخ طالباً النجاة ، وهكذا يكون الصراخ له مَأْرَب طَلِبِ المعونة؛ وهذا لا يتأتَّى إلا مِمَّنْ يخاف من مُفْرِع .

و « مُصْرِخ » يدل على الفعل « أصرخ » ، وهو فعل دخلت عليه ما يُسمَّى في اللغة « همزة الإزالة » . والمثل هو كلمة « معجم » أي : الذي يدلُّك على معنى للفظ يُزِيلُ إبهامه؛ فيقال « أعجم الكتاب » أي : أزال إبهامه ، وهذه الهمزة التي دخلت تُوضِّح إزالة العُجْمَة عن الكلمة . والمثل أيضاً على هذه الهمزة؛ هو كلمة « عتب » أي : لامه ، وحين تدخل عليها الهمزة تصبح « أعتب » أي : أزال ما به عَتَب .

ونجد في دعائه صلى الله عليه وسلم قوله الشريف : « لك العُتْبَى حتى ترضى » .

أي : إذا كُنْتَ يا ربّ تعتب عليّ في أيّ شيء؛ فأنا أدعوك أن تُزِيلَ هذا العتب .

وهكذا نجد أن الإزالة تأتي مرة بإضافة الهمزة؛ ومرة تأتي بالتضعيف؛ مثل قولنا « مَرَضَ الطبيب

مريضه » أي : أزال عنه - بإذن من الله - مرضه .

إذن : « مُصْرِخ » هو مَنْ يُزِيلُ صراخ آخر؛ فكأن هناك مَنْ استغاث؛ فجاءه مَنْ يُعِينُه . وهكذا

يلعن الشيطان في اليوم الآخر أنه وَمَنْ أَغْوَاهم في مأزق؛ وأنه غَيْرُ قادر على إزالة سبب هذا

المأزق؛ ولا هُمْ بقادرين على إزالة سبب مأزقه؛ ولن يُغيث أحدهما الآخر .

ويضيف :

{ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ . . . } { إبراهيم : 22 } .

فأنتم أشركتموني مع الله في الطاعة؛ حين استسلمتم لغوايتي؛ ولم تكونوا من عباد الله المحلّصين الذين أقسمتُ أنا بعزة الله ألا أُغويهم؛ وكل منكم نفذ ما أغويته به؛ فناديتكم واستجيبتم؛ وناداكم الله فعصيتُم أو كفرتم . وصرتُم مثلي ، فقد سبق لي أن أمرني الله وعصيتُ .

ويقول الحق سبحانه ما يجيء على لسان الشيطان لمن كفر وعصى :

{ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } { إبراهيم : 22 } .

وهذه قضية عامة ، قضية الكفر في القمة ، فكما أطعتم الشيطان وجعلتموه شريكاً لله؛ فهذا هو الشيطان يُخبركم بتقدير هذا الموقف؛ بأنه شريك بالله؛ وهو يعلن الكفر بهذا؛ لأن يوم الحشر قد جاء؛ وتحقق فيه قول الله له : { فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ \* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ } [ الحجر : 37-38 ] .

وكان الشيطان من قبل اليوم المعلوم - وهو اليوم الآخر - يندسُ ويؤسوس وينزع؛ أما في ذلك اليوم فقد برز كل شيء من إنس وجن وكل الكائنات أمام الواحد القهار ، ولم يعد هناك ما يخفى عن العين .

وهذا ما خدعوا به أنفسهم ، وظنوا أنهم قادرون على أن يخفوا ما فعلوه عن أعين الله؛ ولذلك نجد الحديث القدسي يقول :

« يا بني آدم ، إن كنتم تعتقدون أنني لا أراكم ، فاحللل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم » .

وأنت في حياتك اليومية لا تجد من يسرق من آخر وجهاً لوجه : ولا أحد يحرق بيت أحد أمام عينيه؛ فإن كنتم يا معشر البشر لا تفعلون ذلك مع بعضكم البعض؛ فكيف تفعلون ذلك مع خالقكم؛ فتعصونه .

وإن شككتم أنه لا يراكم فاحللل في إيمانكم؛ وإن كنتم تعتقدون أنه يراكم فلا تجعلوه أهون الناظرين إليكم ، لأنه لو نظر إليك إنسان فأنت لا تجرؤ على أن تصنع له ما يكرهه .

ولذلك يقول الشيطان معترفاً ومُقراً بأن الظالمين لهم عذاب أليم ، والظلم في القمة هو الشرك بالله : { إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } { لقمان : 13 } .

وحين نقراً ذلك إما أن نأخذه على أنه إقرار من الشيطان؛ أو نفهمه على أن الشيطان قد قال : { إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ } .

. . . { إبراهيم : 22 } .

ويقول الحق سبحانه بعدها تلك القضية العامة :

{ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [ إبراهيم : 22 ] .

فبعد أن تكلم سبحانه عن بروز الخلق والكائنات؛ ثم الحوار بين الضعفاء والسادة؛ ثم الحوار بين الشيطان وبين أهل الكفر والمعصية؛ يأتي بالقضية النهائية في الحكم :

{ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [ إبراهيم : 22 ] .

والمناسبات توحى بمقابلاتها؛ لتكون النفس مُتَشَوِّقَةً ومُتَقَبِّلَةً لهذا المقابل؛ مثل قول الحق سبحانه :

{ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ } [ الانفطار : 13 ] .

ويأتي بعدها بالمقابل لها : { وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [ الانفطار : 14 ] .

فكما جاء بمقابل الأشقياء؛ لا بُدَّ أن يفتح القلوب لتتعم بسعادة مصير وجزاء الذين سُعدوا بالإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه : { وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا . . . } .

وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ  
تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23)

وهنا جاء الفعل ، ويمكن نسبته إلى ثلاث جهات . ولكل جهة مَلْحَظ؛ فمرة يُسند الفعل لله سبحانه ، ومرة يُنسب الفعل للملائكة الذين يتلقون الأمر من الله بإدخال المؤمنين الجنة؛ ومرة للمؤمنين الذين يدخلون الجنة بإذن الله .

فالله أدخلهم إذناً؛ والملائكة المُوكَّلون فتحوا أبواب الجنة لهم؛ والمؤمنون دخلوا بالفعل . وهكذا يكون لكل مَلْحَظ .

وهناك قراءة أخرى للآية توضح ذلك :

« وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الجنة » والمتكلم هنا هو الله . ونلاحظ أن الله قال هنا :

{ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ . . . } [ إبراهيم : 23 ] .

لكي تضم كلمة « أدخل » أنه سبحانه أذن بدخولهم؛ لأنه قال في نفس الآية :

{ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } [ إبراهيم : 23 ] .

وأن الملائكة المُكَلَّفين بذلك فتحوا لهم أبوابها . والمؤمنون دخلوها كل ذلك بإذن الله .

ونلاحظ أن كُلَّ الكلام هنا عن الجنات؛ فما هي الجنات؟

ونقول : إن الجنة في أصل اللغة هي السَّتْر ، ومنها الجنون أي : سَتْرَ العقل ، والمادة هي : الجيم والنون ، والجنة تستر مَنْ فيها بما فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشي فيها لا يظهر؛ لأن أشجارها تستره .

أو : أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد؛ لأن كل خير فيها لا يُلجئنه أن يخرج منها .

وتُطلق الجنات على ما في الدنيا أيضاً؛ والحق سبحانه هو القاتل : { أَيْوَدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ

جَنَّةٌ مِّنْ نُحَيْلٍ وَأَعْنَابٍ . . . { [ البقرة : 266 ] .

ولنا أن نعرف أن الجنةَ غَيْرَ المساكن التي في الجنة؛ لأن الحق سبحانه يقول : { وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ . . . { [ التوبة : 72 ] .

والجنة - والله المثل الأعلى - هي الحديقة الواسعة؛ وهذا الاتساع مُوزَع على كل مرأى عَيْن .  
والإنسان - بعجائب تكوينه - يُجِب أن يتخصص في مكان مرة؛ ويجب أن ينتشر في مكان مرة أخرى؛ فيستأجر شقة أو يبني لنفسه بيتاً مستقلاً « فيللا » وفي البيت أو الفيللا يجب الإنسان أن تكون له حجرة خاصة لا يدخلها غيره .

والإنسان يُقيِّم الأشياء على هذا الأساس؛ فينظر مَنْ يرغب في شراء قطعة أرض ليبني عليها بيتاً؛ أهى تُطلّ على حارة أم على شارع؟ وهل سيستطيع أن يعلو بالبناء إلى عدة أدوار أم لا؟ وهل سيخصص قطعة من الأرض كحديقة أم لا؟

فإن كانت الأرض تُطلّ على الفضاء ، فحساب المتر ليس بالثمن المدفوع فيه؛ ولكن بقيمة ما يتيح من اتساع أفق وفضاء من مزارع أو على البحر مثلاً ، حيث لن يتطفل عليك أحدٌ في هذا المكان .

والجنات بهذا الشكل التقريبي؛ هي أماكن مُتسعة ، وكل مَنْ يدخلها له فيها مساكن طيبة ، تلك الجنات تجري من تحتها الأنهار . ومَنْ يدخلونها .

{ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ . . . { [ إبراهيم : 23 ] .

ذلك أن الإنسان يحب التَّعَمُّ؛ ولكن كل تَنَعُّم في الدنيا هناك ما يُنَعِّصه ، وهل يدوم أم لا يدوم؟ وكل مَنْ رأى أناساً عاشت في نعيم؛ ثم نُزِع منها بحكم الأعمار؛ أو تركوه بحكم الموت .

أما جنة الله ونعيمها فالأمر مختلف؛ ذلك أن النعيم هناك لا يفوتك ولا تفوته؛ لأنه على قَدْر إمكانات ربك .

ونلاحظ أن قول الحق سبحانه :

{ خَالِدِينَ فِيهَا . . . { [ إبراهيم : 23 ] .

يُوضِّح أن الخلود في الجنة دائمٌ بإذن من الله .  
ويتابع سبحانه :

{ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ { [ إبراهيم : 23 ] .

والتحية هو ما يواجهه به الإنسان أخاه إثباتاً لسروره بلقائه؛ ولذلك تأتي التحية على مقدار السرور؛ فمرة تكون التحية بمجرد رَفْع اليد دون مُصافحة؛ وقد لا تكفي بذلك في حالة ازدياد المعزة التي لصاحبك عندك؛ فتصافحه؛ وقد تأخذه في أحضانك ، وهكذا ترتقي في التحية ، وهي إعلان السرور باللقاء .

وتحية الجنة هي السلام لأن السلام أمنٌ كل إنسان؛ سلامٌ مع نفسك؛ فلا تُكدرها بحديث النفس الذي يندم على ما فات؛ أو الحلم بعمل قادم ، فالسلام في الجنة لن تجد فيه مُنغصاتٍ من الماضي أو الحاضر أو المستقبل؛ وتنسجم مع كل ما حولك في الكون؛ الجماد؛ النبات؛ البشر؛ الملائكة .

ولذلك قال الحق سبحانه تذيلاً لهذه الآية :

{ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ } [ إبراهيم : 23 ] .

وهذه أفضلُ نعمة ، وهي الحياة في سلامٍ وأمن ، وبعد ذلك تدخل الملائكة عليهم مصداقاً لقول الحق سبحانه : { وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ \* سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّ عَقبي الدار } [ الرعد : 23-24 ] .

ثم يُلقون السلام الأعلى من الله؛ وهو القائل : { سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ } [ يس : 58 ] . وبعد أن شرح الحق سبحانه أحوال أهل القرب والسعادة ، وأهل البعد والشقاء ، أراد عز وجل أن يضرب لنا مثلاً يوضح فيه الفارق بين منهج السعداء الذين عاشوا بمنهج الله ، ومنهج الأشقياء الذين اتبعوا مناهج شتى غير منهج الله ، فقال سبحانه : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ \* تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . . . } .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)

والمثل هو الشيء الذي يوضح بالجلي الخفي . وأنت تقول لصديق لك : هل رأيت فلاناً؟ فيقول لك : لا لم أراه؛ فتقول له : إنه يُشبهه صديقنا علان . وهكذا توضح أنت من خفي عن مُخيلة صديقك بمن هو واضح في مخيلته .

والحق - سبحانه وتعالى - يضرب لنا الأمثال بالأمور المحسنة ، كي ينقل المعاني إلى أذهاننا؛ لأن الإنسان له إلفٌ بالتحسن؛ وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حسية أولاً ، ثم تحقق له المعاني بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَّا قَوْفَهَا . . . } [

البقرة : 26 ] .

وقد قال الكافرون : أيضرب الحق مثلاً ببعوضة؟ ذلك أنهم لم يعرفوا أن البعوضة لها حياة ، وفيها حركة كأبي كائن؛ وتركيبها التشريحي يتشابه مع التركيب التشريحي لكل الأحياء في التفاصيل؛ ويؤدي كل الوظائف الحيوية المطلوبة منه .

ولا أحد غير الدارسين لعلم الحشرات يمكن أن يعرف كيف تتنفس ، أو كيف تهضم طعامها؛ ولا

كيفية وجود جهاز دمويّ فيها؛ أو مكان الغُدد الخاصة بها؛ وهي حشرة دقيقة الصنع . وهو سبحانه ضرب الأمثال الكثيرة ليُوضِّح الأمر الخفيّ بأمر جليّ . ومن بعد ذلك ينتشر المثل بين الناس . ونقول : إن كلمة « ضرب » مثلها مثل « ضرب العملة » ، وكان الناس قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويُسكِّلونها بقدر وشكل مُحدّد لتُدل على قيمة ما ، وتصير بذلك عملة متداولة ، ويُقال وشكّل - أيضاً - « ضُرب في مصر » أي : اعتمد وصار أمراً واقعاً . وكذلك المثل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

والمثل الذي يضربه الحق سبحانه هنا هو الكلمة الطيبة؛ ولها أربع خصائص :

{ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . . . } { إبراهيم : 24 } .

أي : تعطيك طيباً تستريح له نفسك؛ إما منظرًا أو رائحة أو ثمارًا؛ أو كل ذلك مجتمعاً؛ فقله :

{ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . . . } { إبراهيم : 24 } .

يُوحى بأن كلّ الحواس تجد فيها ما يُريحها؛ وكلمة « طيبة » مأخوذة من الطيب في جميع وسائل الإحساس .

فالخاصة الأولى ، أنها شجرة طيبة ، أما الخاصية الثانية فهي أن أصلها ثابت ، كإيمان المؤمن المحب ، والثالثة أن فروعها في السماء ، وهذا دليل أيضاً على ثبات الأصل وطيب منبتها .

أما الخاصية الرابعة فهي أن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، أي : فيها عطاء المدد المدد الذي لا يعرف الحد ولا العدد ، وهي تدل على صفات المؤمنين الحبين .

وبما أنها شجرة طيبة؛ فهي كائن نباتي لا بُد لها من أن تتغذى لتحفظ مقومات حياتها . ومقومات حياة النبات توجد في الأرض ، فإن كانت الشجرة مُخلَّلة وغير ثابتة فهي لن تستطيع أن تأخذ غذاءها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن تلك الشجرة :

{ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . . . } { إبراهيم : 24 } .

وكلنا نظن أن الشجرة تأخذ غذاءها من الجذور فقط؛ ولكن الحقيقة العلمية تؤكد أن الشجرة تأخذ خمسة بالمائة من غذائها عبر الجذور؛ والباقي تأخذه من الهواء ، وكلما كان الهواء نظيفاً فالشجرة تنمو بأقصى ما فيها من طاقة حتى تكاد أن تبلغ فروعها السماء .

أما إن كانت البيئة غير نظيفة ومُلَوَّثة؛ فالهواء يكون غير نظيف بما لا يسمح للشجرة أن تنمو المناسب؛ فتتمُّ الأغيار غير المناسبة على الشجرة ، فلا تستخلص منها الغذاء المناسب ، ولا تنمو النمو المناسب .

اللهم إلا إذا نزل عليها المطر فيغسل أوراقها .

إذن : فقول الحق سبحانه :

{ أَصْلُهَا ثَابِتٌ . . . } [ إبراهيم : 24 ] .

يعني : أنها تأخذ من الأرض .

وقوله :

{ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ . . . } [ إبراهيم : 24 ] .

يُبَيِّنُ أَنَّهَا تَأْخُذُ مِنْ أَعْلَى .

ويتابع سبحانه :

{ تَوْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ . . . } [ إبراهيم : 25 ] .

والأكل هو ما يُؤْكَلُ ويُتَمَتَّعُ بِهِ ، ولكننا لا نأخذ المعنى هنا على ما يُؤْكَلُ بالفم فقط؛ ذلك أن هناك أشجاراً ونباتات طيبة؛ لأن مزاج الكون العام يتطلبها؛ فالظل مثلاً يُستفاد منه؛ وكذلك هناك أشجار يتفاعل وجودها مع الأثير؛ ويأخذ منها رائحة طيبة .

والمثل في ذلك : الطفل البدوي الذي شاهد نخيل جيرانه مثمراً بالبح ، ولكن النخلة التي يملكونها غير مثمرة ، وتساءل : لماذا؟ وذهب ليقطعها ، فلحقه والده ومنعه من ذلك ، وقال له : إن نخلتنا هي الذكر الذي يُنتج اللقاح اللازم لبقية النخيل كي تثمر .

ولذلك فأنا لا أوافق المفسرين الذين ذهبوا إلى تفسير قوله الحق :

{ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . . . } [ إبراهيم : 24 ] .

بأنها مثل شجرة النفاح وغيرها من الأشجار المثمرة؛ ذلك أن كل شجرة حتى ولو كانت شجرة حنظل فهي طيبة بفائدتها التي أودعها الحق إياها؛ فشجرة الحنظل تأخذ منها دواءً - قد يكون مرير الطعم - لكنه يشفي بعضاً من الأمراض بإذن الله .

ذلك أن كل ما هو موصوف بشجرة له مهمة طيبة في هذا الكون . وقول الحق سبحانه :

{ تَوْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ . . . } [ إبراهيم : 25 ] .

يدلنا على أن هناك قدراً مشتركاً بين الشجر كله؛ مثمراً بما نراه من فاكهة أو غير ذلك .

وقد نهنا العلم الحديث إلى أن كل خُضرة إنما تُنْقِي الجو بما تأخذ منه من ثاني أكسيد الكربون ، وبما تضيف لنا من أوكسجين؛ وتستمر الخضرة في ذلك نحارص؛ وتقلب مهمتها بإرسال ثاني أكسيد الكربون ليلاً وامتصاص الأوكسجين ، وكأنها مُبرَّجة على فهم أن النهار يقتضي الحركة .

ويحتاج الكائن الحي فيه إلى المزيد من وقود الحركة وهو الأوكسجين؛ والإنسان أثناء الحركة

يستهلك كمية كبيرة من الأوكسجين؛ ونجد من يصعد سلماً ينهج لأن رثيته تحاولان امتصاص

أكبر قدر من الأوكسجين ليؤكسد الدم ، وينتج الطاقة اللازمة للصعود . وهكذا نجد كل خُضرة

إنما تقوم بوظائف محددة لها سلفاً من قِبَل الخالق الأعلى .

ولذلك اختلف العلماء عند تفسير :

{ تَوْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ . . . } [ إبراهيم : 25 ] .

فمنهم مَنْ قال : إن « الحين » يُطلق على اللحظة؛ مثل قول الحق سبحانه : { فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ  
الحلُومَ \* وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ } [ الواقعة : 83-84 ] .

وقال مُفسِّر آخر : إن « الحين » يُقصد به الصباح والمساء ، والحق سبحانه هو القائل : {  
فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } [ الروم : 17 ] .

وأقول : فلننتبه إلى أن « الحين » هو الوقت الذي يحين فيه المقدور؛ فإذا كان الحين هو لحظة  
بلوغ الرُّوح إلى الحُلُوم؛ فهذه اللحظة هي المراد بـ « الحين » هنا ، وإذا كان المقصود بها زمناً  
أطول من ذلك؛ صباحاً أو مساءً؛ فهذا الزمن ينسحب عليه معنى الحين .

والحق سبحانه هو القائل : { والصابرين في البأساء والضراء وَحِينَ الْبَأْسِ . . . } [ البقرة :  
177 ] .

والبأس يعني الحرب؛ ومدة الحرب قد تطول . وكذلك يقول الحق سبحانه : { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ  
مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [ الأعراف : 24 ] .

وهكذا يكون معنى « الحين » هنا هو الأجل غير المُسمّى الذي يمتد إلى أن تتبدل الأرض غير  
الأرض والسماء غير السماء . إذن : فلا يوجد توقيت مُحدد المدة يمكن أن تُحدد به معنى « حين  
» .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

{ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [ إبراهيم : 25 ] .

وضَرْبُ المثل معناه إيقاع شيء صغير ليدل على شيء كبير؛ أو بشيء جلي ليدل على شيء  
خفي؛ لِيَقْرَبَ المعنويات إلى وسائل الإدراكات الأولى ، وهي مُدْرَكَاتِ الحِسِّ من سمع وبصر وبقية  
وسائل الإدراك .

وحين تأتي المعاني التي تناسب الطموح العقلي؛ فالإنسان يتجاوز مرحلة الحِسِّ إلى المعلومات  
المعنوية؛ فيقرّبها الحق سبحانه بأن يضرب لنا الأمثال التي توصل لنا المعنى المطلوب إيصاله .  
والحق سبحانه لا يستحي - كما قال - أن يضرب مثلاً بالبعوضة وما فوقها . والبعض من

المستشرقين يقول : ولماذا لم يُقَلَّ « وما تحتها »؟

ونقول لمن يقول ذلك : أنت لم تفهم اللغة العربية؛ لذلك لم تستقبل القرآن بالملكة العربية؛ ذلك  
أن المثل يُضْرَبُ بالشيء الدقيق؛ وما فوق الدقيق هو الأدق .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للحياة الدنيا ، وهي الحياة التي من لَدُنْ خَلَقَ اللهُ للإنسان؛ ذلك  
أنه كانت هناك أجناسٌ قبل الإنسان ، وهو سبحانه هنا يُوضِّح لنا بالمثل ما يخص الحياة من لحظة  
خَلَقَ آدم إلى أن تقوم الساعة ، وهو يطويها - تلك الحياة الطويلة العريضة التي تستغرق أعمال  
أجيالٍ - ويعطيها لنا في صورة مثلٍ موجز ، فيقول لنا : { واضرب لهم مثلاً الحياة الدنيا كَمَا  
أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

مُفْتَدِرًا { [ الكهف : 45 ] .

وهكذا يطوي الحق سبحانه الحياة كلها في هذا المثل من ماء ينزل ونبات ينمو لينضج ثم تذروه الرياح .

وأيضاً يقول الحق سبحانه : { اَعْلَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا . . } .

[ الحديد : 20 ] .

وهكذا يطوي الحق سبحانه الحياة الدنيا بطولها وعرضها في هذا المثل البسيط لنرى ما يوضح لنا المعاني الخفية في صورة مُحَسَّنة بحيث يستطيع العقل الفطري أن يدرك ما يريد الله منها .  
ونعلم أن المُحَسَّنَات تدرك أولاً بعض الأشياء؛ ثم ترتقي إلى مرتبة التخيُّل؛ ثم يأتي التوهُّم؛ فمراحل الإدراك للأشياء الخفية هي الحِس أولاً؛ ثم التخييل ثانياً؛ ثم التوهُّم ثالثاً .

والتخيُّل هو أن تجمع صورة كلية ليس لها وجود في الخارج؛ وإن كانت مُكوَّنة من مادة وأشياء موجودة في هذا الخارج . والمثل على ذلك هو قول الشاعر الذي أراد أن يصف الوشم على يد حبيبتة ، فقال :

خوض كأنَّ بِنَاهَا ... فِي نَقْشِهِ الْوَشْمِ الْمُرْدِ

سَمَكٌ مِنَ الْبَلُّورِ فِي ... شَبِكِ تَكْوُنٍ مِنْ زَبْرَجِدٍ

وحين تبحث في الصورة الكلية لتلك الأبيات من الشعر؛ لن تجدها موجودة في الواقع؛ ولكن الشاعر أوجدها من مُكوِّنات ومُفردات موجودة في الواقع؛ فالسَّمَك موجود ومعروف؛ والبلُّور موجود ومعروف؛ وكذلك الشَّبِك والزبرجد ، وقام الشاعر بنسج تلك الصورة غير الموجودة من أشياء موجودة بالفعل ، وهذا هو الخيال الذي يُقَرِّب المعنى .

والتوهُّم يختلف عن الخيال؛ فإذا كان التخيُّل هو تكوين صورة غير موجودة في الواقع من مفردات موجودة في هذا الواقع؛ فالتوهُّم هو صورة غير موجودة في الواقع ، ومُكوَّن من مفردات غير موجودة في الواقع .

والحق سبحانه يقول لنا عن الجنة : { وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ . . . } [ الزخرف :

[ 71 ] .

ويشرح الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بمذكرة تفسيرية ، فيقول : « فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أذنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا حَظَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » .

والعَيْن وسيلة إدراك وحسٍّ؛ وكذلك الأذن ، أما ما لا يخطر على القلب فهو ليشرحه الخيال أو الوهِّم .

وهكذا نعلم لماذا يضرب الله لنا الأمثال؛ ليؤجِّز لنا ما يشرح ويوضح بأشياء قريبة من الفهم

البشري .

وأنت حين تريد أن تكتب لصديق؛ فقد تُمسك الورقة والقلم وتُدبج رسالة طويلة؛ ولكن إن كنت تملك وقتك فستحاول أن تُركّز كل المعاني في كلمات قليلة .

وكلنا يذكر ما كتبه سعد زغلول زعيم ثورة 1919 المصرية لواحد من أصدقائه بعد أن سطر له رسالة في خمس صفحات؛ وأنهاها : « إني أعتذر عن الإطالة في الخطاب ، فلم يكن عندي وقت للإيجاز » وذلك لأن مَنْ يُوجز إنما يضع معاني كثيرة في كلمات قليلة .

وحين طلب أحد القادة المسلمين النُصرة من خالد بن الوليد؛ وكان القائد الذي يطلب المساعدة مُحاصراً؛ وأرسل لخالد بن الوليد كلمتين اثنتين « إياك أريد » ، وهكذا اختصر القائد المحاصر ما يرغب إيصاله إلى مَنْ ينجده ، بإيجاز شديد .

والشاعر يقول :

إِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طَوَيْتُ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ  
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَزَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرَفِ الْعُودِ

أي : أنه إذا كانت هناك فضيلة مكتومة نسيها الناس؛ فالحق سبحانه يتيح لها لسان حاسدٍ حاقدٍ ليُشرِّث ويُنقِب؛ لتظهر وتنجلي؛ مثلما يُوضَعُ خشب العود - وهو من أرقى ألوان البخور - في النار ، فينتشر عطره بين الناس .

وهكذا ضرب الشاعر المثل ليُوضِحَ أمراً ما للقارئ أو السامع .

ويقول الشاعر ضارباً المثل أيضاً :

وَإِذَا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَأَةً لِنَوَالِهِ ... وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَطَالَ هِجَاءَهُ  
لَوْ لَمْ يُقَدِّرْ فِيهِ بُعْدَ الْمُسْتَقَى ... عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

والمقاييس العادية تقول : إن المرء حين يمدح أحداً لفترة طويلة ، فهذا يعني الرِّفعة والمجد

للممدوح . ولكن حين يقرأ أحدٌ قول هذا الشاعر قد يتعجّب ويندهش ، ولكنه يتوقف عند

قول الشاعر أن الماء لو كان قريباً في البئر؛ لأخرجه العطشان بدلوه مربوط بجبل قصير؛ ولكن إن

كان الماء على بُعد مسافة في البئر فهذا يقتضي حبلاً طويلاً لينزل الدلو إلى الماء .

وهذا يعني أن طول المدح إنما يُعبّر عن فظاظة الممدوح الذي لا يستجيب إلا بالثناء الطويل؛ ولو

كان الممدوح كريماً حقاً لاكتفى بكلمة أو كلمتين في مدحه .

وهكذا يكون ضربُ المثل توضيحاً وتقريباً للذهن .

وهنا قال الحق سبحانه :

{ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [ إبراهيم : 25 ] .

والتذكر معناه أن شيئاً كان معلوماً بالفطرة؛ ولكن الغفلة طرأت؛ فيأتي المثل ليُذكّر بالأمر الفطريّ

وبعد أن ضرب الحق سبحانه المثل بالكلمة الطيبة بياناً لحال أهل القُرْب من الله والود معه واتباع منهجه ، أراد أن يذكر لنا المقابل ، وهو حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الله ، وعن منهجه ، فيقول سبحانه وتعالى : { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ . . . } .

### وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26)

وحين نقارن الكلمة الخبيثة بالكلمة الطيبة سنكتشف الفارق الشاسع؛ فالكلمة الخبيثة مُجْتَنَّة من فوق الأرض؛ والجُثَّة كما نعلم هي الجسد الذي خرجت منه الروح ، ومن بعد أن يصبح جُثَّة يصير رَمَّةً؛ ثم يتحلل إلى عناصره الأولى .  
إذن : فالاجتثاث هو استئصال الشيء من أصله وقَلْعُه من جذوره ، أما المقابل في الشجرة الطيبة فأصلها ثابت لا تُخلخله ظروف أو أحداث ، والكلمة الخبيثة بلا جذور لأنها مُجْتَنَّة؛ وليس لها قَرَار تستقر فيه .

وحين تكلم المُفسِّرون عن الشجرة الطيبة منهم مَنْ قال إنها النخلة لأن كُلَّ ما فيها خير؛ فورقها لا يسقط ، ويبقى دائماً كَظِلٍّ وكل ما فيها يُنتفع به .  
فنحن - على سبيل المثال - نأخذ جذع النخلة ونصنع منه أعمدة في بيوت الرِّيف ، وجريد النخل نصنع منه الكراسي؛ والليف الموجود بين الأفرع نأخذه لنصنع منه الحبال؛ والخصوص نصنع منه القُفف .

والذين حاولوا أن يُفسِّروا « الشجرة الخبيثة » بأنها شجرة الحُنْظَل ، أو شجرة التين ، أو شجرة الكُرَات؛ لكل هؤلاء أقول : لقد خلقها الحق سبحانه لتكون شجرة طيبة في ظروف احتياجنا لها؛ لأنك حين تنظر إلى الكون ستجد أن مِرَاجِه مُتَنَوِّعٌ؛ ومُقَوِّمات الحياة ليست هي الأكل والشرب فقط؛ بل هناك توازن بيئي قد صممه الحق تعالى ، وهو الأعلَم مِنَّا جميعاً بما خلق؛ ولم يخلق إلا طَيِّباً .

وكل شيء في الكون له عطاء مستمر يُشع في الجو ، والمثل هو تساقط أوراق الشجر التي تُعيد الخِصْب مرة أخرى إلى الأرض . وكلها أمور يُبدىها الحق سبحانه ولا يبتديها ، أي : يُظهرها بعد أن كانت موجودة أزلًا وخَفِيَّة عَنَّا .

وهو جَلٌّ وعلاً يرفع قوماً ويخفض قوماً؛ وهو القائل عن ذاته : { كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } [ الرحمن : 29 ] .

وكُنَّا نعلم أن اليوم عند منطقة ما يبدأ في توقيت مُعَيَّن ، وينتهي في توقيت مُعَيَّن؛ وتختلف المناطق الجغرافية وتختلف معها بدايات أيِّ يوم من منطقة إلى أخرى؛ فبعد لحظة من بداية يومك يبدأ يوم آخر في منطقة أخرى؛ وهكذا تتعدد الأيام وبدايات النهار والليل عند مختلف البشر والمجتمعات

ولذلك فحين نسمع قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » . فمعنى ذلك أن يد الله مبسوطة دائماً ، ذلك أن الليل يبدأ في كل لحظة عند قَوْم ، ويبدأ النهار عند قوم في نفس اللحظة؛ ويتتابع ميلاد الليل والنهار حسب دوران الشمس حول الأرض . وهكذا لا يجب أن نظلم شجرة الثوم ، أو شجرة الحنظل ، أو أي شجرة من مخلوقات الله ونصِفها بأنها شجرة خبيثة ، فلا شيء خبيث من مخلوقات الله .

ونحن حين نجد شاباً يقوم بثني قطعة من الحديد قد يحسبه الجاهل أنه يُسيء استخدام الحديد ، ولكن العاقل يعلم أنه يقوم بثنيها ليصنع منها ما يفيد؛ كخُطَّاف يشدُّ به شيئاً يلزمه . وعمدة الكلمة الطيبة هي شهادة « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ومن هذه الشهادة يتفرَّع كل الخير . ومن هنا نعلم أن عمدة الكلمة الخبيثة هي الكفر بتلك الشهادة ، وما يتبع الكفر من عناد لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدِّ عن سبيل الله؛ ومن تكذيبٍ لمعجزات الرسل؛ وإنكارٍ لمنهج الله .

ولقائل أن يقول : ما دام الحق سبحانه قد قال إن هناك شجرة خبيثة؛ فلا بُدَّ أن تُوجد تلك الشجرة ، وأقول : إن كُلَّ ما يضرُّ الإنسان في وقت ما هو خبيث؛ فالسكر مثلاً يكون خبيثاً بالنسبة لمريض بالسكر؛ وكل كائن فيه حسنات مفيدة؛ وله جانب ضارٌّ في حالات معينة؛ وعلى الإنسان المختار أن يميِّز ما يضرُّه وما ينفعه .

ونلاحظ هنا في وصف الكلمة الخبيثة بأنها كالشجرة الخبيثة؛ أن الحق سبحانه لم يقل إن تلك الشجرة الخبيثة لها فرع في السماء؛ ذلك أنها مُجْتَمِعة من الأرض؛ مُخلخلة الجذور؛ فلا سند لها من الأرض؛ ولا مدد لها من السماء .

ولذلك يصفها الحق سبحانه :

{ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ } [ إبراهيم : 26 ] .

أي : ما لها من ثبات أو قيام ، وكذلك الكُفْر بالله؛ ومَنْ يكفر لا يصعد له عمل طيب ، فلا أساس يصعد به العمل أو القول الطيب . ولهذا وصفت الشجرة الخبيثة بصفات ثلاث ، أولها : أنها شجرة خبيثة وثانيها : أنها عديمة الأصل بغير ثبات ، وثالثها : ما لها من قرار لعدم ثبات الأصل .

ثم يبين الله جل علاه متحدثاً عن حصاد الحالتين ، فالأولى : أمن وأمان في الدنيا والآخرة .

والحالة الثانية : ظلم بضلال ، وقلق بضنك ، وفي الآخرة لهم عذاب أليم .

ويقول سبحانه وتعالى : { يُتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا . . . } .

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ  
مَا يَشَاءُ (27)

وتأتي هنا كلمة « التثبيت » طبيعية بعد قوله : { اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار } [ إبراهيم : 26 ] .

لأن الذي يُجْتَثُّ لا ثبوت له ولا استقرار؛ فجاء بالمقابل بقوله :  
{ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا . . . } [ إبراهيم : 27 ] .

وتوحي كلمة التثبيت أيضاً بأن الإنسان ابنٌ للأغيار ، وتطراً عليه الأحداث التي هي نتيجة  
لاختيار المُكَلَّفِينَ في نفاذ حُكْمٍ أو إبطاله ، فالمُكَلَّفُ حين يأمره الله بحكم؛ قد يُنْفِذُه ، وقد لا  
ينفذه .

وكذلك قد يتعرض المُكَلَّفُ لمخالف لمنهج الله ، فلا يُنْفِذُ هذا المخالفُ تعاليم المنهج؛ ويؤذي مَنْ  
يتبع التعاليم ، وهنا يتق المؤمن أن له إلهاً لن يخذله في مواجهة تلك الظروف ، وسينصره إن  
قريباً أو بعيد على ذلك .

وهكذا لا تنال الأحداث من المؤمن ، ويصدق قوله الحق :  
{ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا . . . } [ إبراهيم : 27 ] .

فهم قد آمنوا بوجوده وقدرته ، وبأن له طلاقة مشيئة يُثَبِّتُهم بها مهما كانت جسامة الأحداث؛  
ذلك أن المؤمن يعلم عن يقين أن الحق سبحانه قد قال وصدق : { أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ  
[ الرعد : 28 ] .

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بالإيمان وبالقول الثابت؛ فهو لا يتعرّض لزيغ القلب؛ ولا يتزعزع  
عن الحق .

والتثبيت يختلف في أعراف الناس باختلاف المُثَبِّتِ؛ فحين يُخَلِّجُ عمود في جدار البيت؛  
فصاحب البيت يأتي بالمهندس الذي يقوم بعمل دعائم لتثبيت هذا العمود؛ ويتبادل الناسُ  
الإعجابَ بقدرات هذا المهندس ، ويتحاكى الناس بقدرات هذا المهندس على التثبيت للأعمدة  
التي كادت أن تنهار ، وهذا ما يحدث في عُرف البشر؛ فما بالنا بما يمكن أن يفعله خالق البشر؟  
وقوله الحق :

{ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا . . . } [ إبراهيم : 27 ] .

يُردك إلى المُثَبِّتِ الذي لَنْ يطرأ على تثبيته أدنى خَلَلٍ . وكلمة « التثبيت » دلّنا على أن الإنسان  
ابنُ أغيارٍ؛ وقد تحدث له أشياء غَيْرَ مطابقة لما يريد في الحياة؛ لذلك فالمؤمن يجب ألاَّ يُخَوِّرَ؛ لأن  
له رباً لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

وسبحانه يُثَبِّتُ الَّذِينَ آمَنُوا :

{ بالقول الثابت في الحياة الدنيا . . . } { إبراهيم : 27 } .

والقول الثابت؛ لأنه من الحق الذي لا يتغير؛ وهذا القول موجه للمؤمنين الذين يواجههم قوم  
أشرار اختاروا أن يكونوا على غير منهج الله .

وهذا القول يوضح للمؤمنين ضرورة أن يهدأوا؛ وأن يجعلوا أنفسهم في معية الله دائماً ، وأن  
يعلموا أن الظالم لو علم ما أعدّه الله للمظلوم من ثواب وحسن جزاء لسنّ الظالم بظلمه على  
المظلوم ولقال : ولماذا أجعل الله في جانبه؟

والذين اضطهدوا في دينهم؛ وقام الكفار بتعذيبهم؛ لم يُفتنوا في الدين؛ فكلما قسا عليهم الكفار  
صرباً وتعذيباً كلما تذكروا حنان الحق فتحملوا ما يذيقهم الكافرون من عذاب .

وحسن الجزاء قد يكون في الدنيا التي يُثبت فيها المؤمن بمشيئة الله؛ وهي بنت الأغيار وبنات  
الأسباب؛ فأنت في الدنيا تحوز على أي شيء بأن تتعب من أجل أن تحصل عليه ، وتكد لتعلم؛  
وتعثر على وظيفة أو مهنة؛ ثم تتزوج لتكوّن أسرة؛ وتخدم غيرك؛ ويخدمك غيرك ، وتراول كل  
أسبابك بغيرك؛ فأنت تأكل مما تطبخ زوجتك ، أو أمك أو من تستخدمه ليؤدي لك هذا العمل

باختصار كلما ارتقيت؛ فأنت ترتقي بأثر مجهود ما . وكلّ متعة تحصل عليها إنما هي نتيجة لمجهود  
جاء منك؛ وأنت تحاول دائماً أن تُقلّل المجهود والأسباب لتزيد من متعتك .

فما بالك بالآخرة التي لا تكليف ولا أسباب فيها؛ وكل ما فيها قد جهّزه الحق تعالى مقدماً  
للإنسان؛ ثواباً إن آمن ، وعذاباً إن كفر وعصى ، وإن كنت مؤمناً فالحق سبحانه يُجازيك ببنة  
عرّضها السماوات والأرض؛ فيها كل ما تشتهي الأنفس .

وإذا كان الحق سبحانه يُثبت الذين آمنوا في الدنيا بالقول الثابت الحق فتثبته لهم في الآخرة هو  
حياة بدون أسباب .

ونجده سبحانه لم يقل هنا : الحياة الآخرة ، بل قال :

{ في الحياة الدنيا وفي الآخرة . . . } { إبراهيم : 27 } .

ذلك أن الارتقاءات الطمّوحية في الحياة تكون مناسبة للمجهود المبذول فيها ، ولكن الأمر في  
الآخرة يختلف تماماً؛ لأن الحق سبحانه هو الذي يُجازي على قدر طلاقة مشيئته ، وهو يُثبتهم  
بداية من سؤال القبر ونهاية إلى أن يلقوا الثواب على حسن ما فعلوا من خير في سبيل الله .  
وما دام الحق سبحانه قد ذكر هنا التثبيت في الحياة الدنيا والآخرة؛ فلا بد أن يأتي بالمقابل ،  
ويقول :

{ ويضلل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء } { إبراهيم : 27 } .

وسبحانه يُضلل الظالم لأنه اختار أن يظلم؛ وهو سبحانه قد جعل للإنسان حق الاختيار ، فمن

اختار أن يظلم؛ لا بُدَّ له من عقاب . وإذا كان سبحانه قد خلق الخلق وجعل الكون مُسخرًا لهم؛ وأعطى المؤمن والكافر من عطاء الربوبية؛ فإن اختار الكافر كفره؛ فهو لن يُفقد تكاليف الألوهية التي أنزلها الله منهجاً لهداية الناس .

والكافر إنما يظلم نفسه؛ ذلك أنه ما دام قد أنسَ إلى الكفر فالحق سبحانه يختم على قلبه؛ فلا يخرج من القلب الكفر ، ولا يدخل إليه الإيمان؛ وهو ربُّ العالمين يفعل ما يشاء .  
وإذا كان الحق سبحانه يعطي كل إنسان ما يريد؛ وما دام الكافر يطلب أن يكون كافرًا؛ فسبحانه يمدُّ له في أسباب الكفر ليأخذه من بعد ذلك بها؛ كما يمدُّ الله للمؤمنين كُلَّ أسباب الإيمان  
مصدقاً لقوله الحق : { كَلَّا مِمَّا هُوَآ هُوَآ هُوَآ هُوَآ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } [ الإسراء : 20 ] .

وهكذا تكون طلاقة قدرة الحق سبحانه وهو يفعل ما يشاء ، ذلك أنه لا يوجد إله غيره .  
والحق سبحانه قد أكرمنا بالعبودية له وحده ، ذلك أننا رأينا جميعاً وشاهدنا أثر عبودية الإنسان للإنسان؛ حين يأخذ السيد خَيْرَ العبد؛ وقد ذاقَت البشرية الكثير من ويلاتهما ، ولكن العبودية لله تختلف تماماً حيث يأخذ العبد خَيْرَ السيد؛ ويُعَدِّق السيد إحسانه على عباده .  
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا . . . } .

**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28)**

وحين يقول الحق سبحانه :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى . . . } [ إبراهيم : 28 ] .

فهذا يعني أن المُخبر وهو الحق إذا ما أخبرنا بشيء فهو أصدق من أن تراه أعيننا .  
وتشير الآية إلى عملية مُبادلة بين اعتراف بالنعمة؛ ثم إنكارها . كأن هناك شيئاً قد استبعدناه ، وأتينا ببديل له . والحق سبحانه هو القائل : { أُنسَبِدِلُونِ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ . . . } .  
[ البقرة : 61 ] .

والحق سبحانه وتعالى قد أعطاك النعمة ولم يطلب منك أن تقوم بأي تكليفٍ إيمانيٍّ قبل البلوغ .  
وهكذا نجد أن النعمة هي الأصل ، والتكليف إنما يأتي من بعد ذلك ، وكان من الواجب ألا يعصي العبد من أنعم عليه بكل النعم ، وأن يتجه إلى التكليف بمحبة؛ كي لا يقلب نعمة الله كُفْرًا .

أو : أن المقصود هم قوم قريش الذين أفاء الله عليهم الخير ، وجعل لهم الحرم آمناً : { أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِيئُ إِلَيْهِ تَمَرَاتٌ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [ القصص : 57 ] .

وكذلك أنعم عليهم بأن يكون نبي الإسلام - الدين الخاتم - منهم ، وهو النبي الذي ستدين له

الدنيا والعالم في كل زمان ومكان؛ فلماذا يُبدلون تلك النعمة كفرة؟  
أما كانت تلك النعمة وحدها كافية لمقابلتها بعميق الشكر وحسن العبادة؟ فهذا النبي الذي قال الحق سبحانه عن رسالته : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ } [ الزخرف : 44 ] .  
وهو سبحانه القائل عن نعمه عليهم : { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ \* إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ \* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ \* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ } [ قريش : 1-4 ] .  
فكيف يُبدلون نعمة الله كفرة؟ وكيف يُسيئون معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه حتى قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعل سنينهم كسنين يوسف » .

وخرج لقتالهم في بدر؛ وهم الذين صنعوا بأنفسهم ذلك نتيجة تبديلهم لنعمة الله كفرة ، ولماذا قبلوا عطاء الحق من خير ونعم ورفضوا منهجه؟  
ولو كانوا قوم صدق مع النفس ، وصدق مع ما يعتقدونه لطلبوا من الأصنام أن تعطيتهم؛ أو لرفضوا أن يأخذوا خير المنعم ما داموا قد رفضوا منهجه ، وهو سبحانه قد أنعم عليهم بمقومات المادة؛ وأضاف لذلك منهجه مقوم الروح .

وحين نقراً قول الحق سبحانه :

{ وَأَخْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ } [ إبراهيم : 28 ] .

نفهم أن الإحلال هو إيجاد حالٍ في محلِّ . ونعلم أن الظرف ينقسم إلى قسمين : ظرف مكان ، وظرف زمان؛ فإذا أحللت حدثاً محلَّ حدث؛ فهذا يخصُّ ظرف الزمان ، وحين تحل شيئاً مكان شيء آخر ، فهذا أمر يخصُّ ظرف المكان .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ وَأَخْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ } [ إبراهيم : 28 ] .

وهذا يعني ظرف مكان . ولقائل أن يقول : وكيف يأخذون أهلهم وقومهم ليحلوهم إلى دار بوار؟

ونقول : لقد حدث ذلك نتيجة أنهم قد غشَّوهم وخدعوهم ، ولم يستعمل هؤلاء الأهل عقولهم؛ ولم يلتفتوا إلى أن قادتهم وأولي الأمر منهم يسلكون السلوك السيء وعليهم ألا يقلدوهم؛ فجزوا عليهم الفتن واحدة تلو أخرى ، وترين الفتن على القلوب .

ولهذا أراد الحق سبحانه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تكون بما مناعات من الفتن؛ فتحت النفس اللوامة المؤمن؛ فيكثر الحسنات ليبطل السيئات ، وإذا ما تحولت النفس اللوامة إلى نفس أمارة بالسوء وجدت في المجتمع المسلم من يجرها .

وبهذا تصبح أمة محمد صلى الله عليه وسلم محصنة ضد الفتن التي تذهب الإيمان .

ويقول الحق سبحانه : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . . .

{ [ آل عمران : 110 ] .

وَيَذَكِّرُنَا الْحَقَّ سُبْحَانَهُ بِأَنَّ الرَّسُولَ سَيَكُونُ شَهِيداً عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ سَنَكُونُ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ،  
وهكذا ضمن الحق سبحانه أن يعلم كلُّ واحد من أمة محمد جزئية من العلم ليكون امتداداً  
لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
ومثلما شهد الرسول أنه قد بلغ الرسالة؛ سيكون على كل واحد من أمة محمد صلى الله عليه  
وسلم أن يشهد بأنه قد بلغ ما علم من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .  
وكلُّ منا يعلم كيف حدثت الغفلة الأولى؛ حيث حدثت الغفلة من الأسوة؛ فزاحمتهم الشهوات  
وارتكبوا السيئات ، فحين غفلت النفس ارتكبت المعصية؛ وحين رأى الناس من يرتكب المعصية  
قلَّدوه .

وهكذا حمل من وقع في الغفلة وزه ووزر من اتبعه بالأسوة السيئة؛ فصار ضالاً في ذاته؛ ثم تحمَّل  
وزر من أضله أيضاً .

وهكذا صار من فعل ذلك هو من أحلَّ قومه دار البوار .

والبوار يعني الهلاك؛ ذلك أن الكبار من هؤلاء القوم حين تصرَّفوا وسلَّكوا بما يخالف المنهج أورثوا  
من اتبعوهم الهلاك .

ونحن في الريف نصِفُ الأرض التي لا تصلح للزراعة بأنها الأرض البور؛ وكذلك يُقال « قُمْنَا  
بتبوير الأرض » أي : أهلكنا ما فيها من زرع .

وحين نقرأ قول الحق :

{ وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ } [ إبراهيم : 28 ] .

نجد في كلمة « قومهم » ما يُوحى بالحسنة لمن يرتكبون هذا الفعل الشائن؛ فمن يهلك قومه لا  
بُد أن يكون خسيساً؛ ولا بُد أن يكون محترف غشٍّ وخديعة؛ فالقوم هم من يقومون معهم؛ وكان  
من اللائق أن تضرب على يد من يصيبهم بشرٍّ أو يغشَّهم أو يخدعهم .  
ويشرح الحق سبحانه دار البوار هذه ، فيقول : { جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ . . . } .

**جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْقَرَارُ (29)**

وإذا قسنا جهنم بالمقرات؛ فلن نجد من يرغب في أن تكون جهنم هي مقره؛ لأن الإنسان يجب  
أن يستقر في المكان الذي يجد فيه راحة؛ ولو لم يجد في هذا المكان راحة؛ فهو يتركه .  
وجهنم التي يصلونها لن تكون المقر الذي يجدون فيه أدنى راحة؛ لأن العذاب مُقيم بها؛ ولذلك  
يصفها الحق سبحانه بأنها :

{ وَيَنْسَوْنَ الْقَرَارِ } [ إبراهيم : 29 ] .

فكأنهم مسوكون بكلايب فلا يستطيعون منها فكاكاً . وهي تقول : { هَلْ مِنْ مَزِيدٍ } [ ق :

وكأنهم قد عَشِقُوا النار فعشقتهم النار ، ولو كانت لديهم قدرة على أن يَفْرُوا منها لَفَعَلُوا ، لكنهم مربوطون بها وهي مربوطة بهم؛ وهي بنس القرار؛ لأن أحداً لن يخرج منها إلا أن يشاء الله

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا . . . } .

**وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30)**

والنَّد هو : المِثْل والمُشَابِه . وهم قد اتخذوا لله شركاء؛ وأيَّ شريك اتخذوه لم يَقُلْ لهم عن النعم التي أسبغها عليهم ولم يُنزلْ لهم منهجاً . وهؤلاء الشركاء كانوا أصناماً ، أو أشجاراً ، أو الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، ولم يَقُلْ كائن من هؤلاء : ماذا أعطى من نعم ليعبدوه؟ ونعلم أن العبادة تقتضي أمراً وتقتضي نهياً ، ولم يُنزلْ أيُّ من هؤلاء الشركاء منهجاً كي يتبعه مَنْ يعبدونهم؛ ولا ثواب على العبادة؛ ولا عقاب على عدم العبادة .

ولذلك نجد أن مثل هؤلاء إنما اتجهوا إلى عبادة هؤلاء الشركاء؛ لأنهم لم يأتوا بمنهج يلتزمون به . ولذلك نجد الدجالين الذين يدَّعون أنهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ويتصرفون مع مَنْ يُصَدِّقونهم من الأتباع ، وكأنهم كائنات أرقى من النبي صلى الله عليه وسلم – والعياذ بالله منهم . -

ومن العجيب أننا نجد بعضاً من المثقفين وهم يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد يتعد عنه بسطاء الناس؛ ذلك أن النفس الفطرية تحب أن تعيش على فطرة الإيمان؛ أما مَنْ يَأْتِي لِيُخَفِّفَ من أحكام الدين؛ فيهوأه بعض مِمَّنْ يتلمسون الفِكَاك من المنهج . وبذلك يجعل هؤلاء الأتباع مَنْ يخفف عنهم المنهج نِداً لله – والعياذ بالله – ويضلون بذلك عن الإيمان .

والحق سبحانه يقول هنا :

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ . . . } [ إبراهيم : 30 ] .

أي : لِيُضِلُّوا غيرهم عن سبيل الله .

وهناك قراءة أخرى لنفس الآية « لِيُضِلُّوا عن سبيل الله » ، وأنت ساعةَ تسمع حدثاً يوجد ليجيء حدث كنتيجة له ، فأنت تأتي ب « لام التعليل » كقولك « ذاكر الطالب لينجح » هنا أنت لم تأتِ بفعل ونقيضه . وهل كانوا يضلون أنفسهم؟

لا ، بل كانوا يتصوِّرون أنهم على هُدًى واستقامة ، وهذه تُسمَّى « لام العاقبة » وهي تعني أنه قد يحدث بعد الفعل فِعْلٌ آخر كان وارداً . وهذه تُسمَّى « لام تعليلة » .

ولكن قد يَأْتِي فِعْلٌ بعد الفعل ولم يكن صاحبُ الفعل يريدُه؛ كما فعل فرعون حين التَّقَطَّ موسى

عليه السلام من الماء ليكون ابناً له؛ ولكن شاء الحق سبحانه أن يجعله عدواً .  
وساعة التقاط فرعون لموسى لم يكن فرعون يريد أن يكبر موسى ليصبح عدواً له؛ ولكنها مشيئة  
الله التي أرادت ذلك لتخطئة مَنْ ظنَّ نفسه قادراً على التحكُّم في الأحداث ، بداية من ادعاء  
الألوهية ، ومروراً بذبح الأطفال الذكور ، ثم يأتي التقاطه لموسى ليكون قُرّة عينٍ له؛ فينشأ موسى  
ويكبر ليكون عدواً له!!  
ويتابع الحق سبحانه :

{ قُلْ مَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [ إبراهيم : 30 ] .

وهذا أمر من الله لحمد أن يقول لهم : تمتعوا . وهذا أمر من الله . والعبادة أمر من الله ، فهل إن  
تمتعوا يكونون قد أطاعوا الله؟

وهنا نقول : إن هذا أمر تهكمي ، ذلك أن الحق سبحانه قال من بعد ذلك :

{ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [ إبراهيم : 30 ] .

وعلى هذا نجد أن الأمر إما أن يُراد به إنفاذ طلب ، وإما أن يُراد به الصّد عن الطلب بأسلوب  
تهكمي .

ونجد في قول الإمام علي - كرم الله وجهه - قولاً يشرح لنا هذا : « لا شرٌّ في شر بعده الجنة ،  
ولا خير في خير بعده النار » .

فَمَنْ يقول : إن التكاليف صعبة؛ عليه أن يتذكّر أن بعدها الجنة ، وَمَنْ يرى المعاصي والكفر أمراً  
هيناً ، عليه أن يعرف أن بعد ذلك مصيره إلى النار؛ فلا تعزل المقدمات عن الأسباب ، ولا تعزل  
السبب عن المُسبّب أو المقدمة عن النتائج .

فالأب الذي يجد ابنه يُلاحق المذاكرة في الليل والنهار ليبنى مستقبله قد يشفق عليه ، ويسحب  
الكتاب من يده ، ويأمره أن يستريح كل لا يقع في المرض؛ فيصبح كالمُنْبَت؛ لا أرضاً قطع ، ولا  
ظهوراً أبقى ، ولكن الولد يرغب في مواصلة الجهد ليصل إلى مكانة مُشْرِفة .

وهنا نجد أن كلاً من الأب والابن قد نظرُوا إلى الخير من زوايا مختلفة؛ ولذلك قد يكون اختلاف  
النظر إلى الأحداث وسيلة لالتقاءات الخير في الأحداث .

وهم حين يسمعون قول الحق سبحانه :

{ قُلْ مَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [ إبراهيم : 30 ] .

قد يستبطنون الأحداث؛ ويقول الواحد منهم إلى أن يأتي هذا المصير : قد نجد حلاً له .

ونقول : فليتذكر كُلّ إنسان أن الأمر المُعلّق على غير ميعاد مُحدّد؛ قد يأتي فجأة؛ فَمَنْ يعيش في  
معصية إلى عمر التسعين؛ هل يظن أنه سيفرّ من النار .

إنه وَاهِمٌ يخدع نفسه ، ذلك أن إجماع الله ليمعاد الموت هو أعنفُ بيانٍ عنه . وما دام المصير إلى

النار فلا مُتعة في تلك الحياة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا . . . } .

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ (31)

و { قُلْ } من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وهل معنى هذا أن العباد الذين سيسمعون هذا الأمر سيقومون إلى الصلاة؛ لقد سمعه بعضهم ولم يُقْم إلى الصلاة .  
إذن : مَنْ يُطع الأمر هو مَنْ حَقَّق شَرْطَ الإِيمَانِ ، وعلينا أن ننظر إلى مُكْتَنَفَاتِ كلمة « عبادي »  
فعباد الله هم الذين آمنوا ، وحين يؤمنون فهم سَيُعَبَّرُونَ عن هذا الإِيمَانِ بالطاعة . وهكذا نفهم معنى الألفاظ لتستقيم معانيها في أساليبها .  
وكل خَلَقَ الله عبيد له؛ ذلك أن هناك أموراً قد أرادها الله قد طريقة خَلَقَهُمْ ، لا قدرة لهم على مخالفتها؛ فهو سبحانه قد قهرهم في أشياء؛ وخيّرهم في أشياء .  
ولذلك أقول دائماً للمتَمَرِّدين على الإِيمَانِ بالله؛ لقد أَلْفَمَ التمرّد على الله؛ ولم يَأْبَ طَبَعِ واحد منكم على رفض التمرّد ، فإن كنتم صادقين مع أنفسكم عليكم أن تتمردوا على التنفس؛ فهو أمر لا إرادي ، أو تمردوا - إن استطعتم - على المرض وميعاد الموت ، ولن تستطيعوا ذلك أبداً .

ولكنهم أَلْفَمُوا التمرّد على ما يمكنهم الاختيار فيه . ونسوا أن الله يريد منهم أن يلتزموا بمنهجه؛ فإن اختار المؤمن أن يتبع منهج الله صار من « عباد الله » ، وإن لم يخضع للمنهج فيما له فيه اختيار فهو من العبيد المقهورين على اتباع أوامر الله القهرية فقط .

وأنت حين تستقري كلمة « عباد » وكلمة « عبيد » في القرآن ستجد قول الحق سبحانه : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } [ الفرقان : 63 ] .

وتتعدد هنا صفات العباد الذين اختاروا اتباع منهج الله ، وستجد كلمة العبيد وهي مُلتصقة بمن يتمردون على منهج الله؛ ولن تجد وصفاً لهم بأنهم « عباد » إلا في آية واحدة؛ حين يخاطب الحقُّ جَلًّا وعلا الذين أضلوا الناس؛ فيقول لهم : { أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِيَ هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ } [ الفرقان : 17 ] .

ونلاحظ أن زمن هذا الخطاب هو في اليوم الآخر؛ حيث لا يوجد لأحد مُرتاد مع الله؛ وحيث يسلب الحق سبحانه كل حق الاختيار من كل الكائنات المختارة .

وهكذا لا يمكن لأحد أن يطعن في أن كلمة « عباد » إنما تستخدم في وصف الذين اختاروا عبادة الله والالتزام بمنهجه في الحياة الدنيا؛ ذلك أنهم قد سَلِمُوا زَمَامَ اختيارهم لله ، وأطاعوه في

أوامره ونواهيته .

ونلاحظ أن قول الحق سبحانه :

{ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . . } [ إبراهيم : 31 ] .

هو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن المؤمنين في انتظار هذا الأمر ليُنْفَذوه فوراً ، ذلك أن المؤمن يجب أن يُنْفَذ كل أمر يأتيه من الله . وما دُمْتُ قد أبلغتكم يا محمد هذا الأمر فسيُنْفَذونه على الفور؛ وقد جاء قوله ( يقيموا ) محذوفاً منه لام الأمر ، تأكيداً على أهم سيصعدون لتنفيذ الأمر فور سماعه .

وعادة نجد أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في جمهرة آيات القرآن تأتيان متتابعتين مع بعضهما؛ لأن إقامة الصلاة تتطلب حركة ، تتطلب طاقة وتأخذ وقوداً؛ والوقود يتطلب حركة ويأخذ زمناً ، والزكاة تعني أن تُخْرِج بعضاً من ثمرة الزمن ، وبعضاً من أثر الحركة في الوقت . ونجد الكسالى عن الصلاة يقولون : « إن العمل يأخذ كل الوقت والواحد منا يحاول أن يجزع الصلوات إلى آخر النهار ، ويؤدِّيها جميعها قضاءً » . وهم لا يلتفتون إلى أن كُلَّ فرض حين يُؤدِّي في ميعاده لن يأخذ الوقت الذي يتصورون أنه وقت كبير .

وظاهر الأمر أن الصلاة تُقَلِّل من ثمرة العمل ، لكن الحقيقة أنها تُعطي شحنة وطاقة تحفز النفس على المزيد من إتقان العمل؛ وكيف يُقبل المصلى على العمل بنفس راضية؛ ذلك أنه بالصلاة قد وقف في حضرة مَنْ خلقه ، ومَنْ رزقه ، ومَنْ كفله .

ولذلك يخرج منها هادئاً مطمئناً مُنتهباً راضياً؛ وذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أرحنا بها يا بلال » .

والصلاة في كل فرض؛ لن تأخذ أكثر من ربع الساعة بالوضوء ، وإذا نسبت وقت الصلوات كلها إلى وقت العمل ستجد أنها تأخذ نسبة بسيطة وتعطي بأكثر مما أخذت . وكذلك الزكاة قد تأخذ منك بعضاً من ثمرة الوقت لتعطيه إلى غير القادر ، ولكنها تمنحك أماناً اجتماعياً فوق ما تتخيّل .

ولذلك تجد الصلاة مُرتبطة بالزكاة في آيات القرآن ببعضهما ، وإقامة الصلاة هي جِماع القيم كلها؛ وإيتاء الزكاة جِماع قيام الحركات العضلية كلها .

وتعالج الصلاة شيئاً ، وتعالج الزكاة شيئاً آخر؛ وكلاهما تُصلح مكونات ماهية الإنسان؛ الروح ومقوماتها ، والجسد ومقوماته .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » .

وحين تنظر إلى الصلاة والزكاة تجد مصالح الحياة مجتمعة وتتفرع منهما؛ ذلك أن مصالح الحياة قد

جمعها صلى الله عليه وسلم في الأركان الخمس للدين ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

وعرفنا من قَبَل كيف أخذت الصلاة كُل هذه الأركان مجتمعة؛ ففيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وفيها تضحية وتزكية ببعض الوقت؛ وفيها صَوْم عن كل ما يلتزم به وأنت صائم؛ وأنت تتوجه خلالها إلى قبلة بيت الله الحرام .

وهكذا نرى كيف ترتبط حركة الحياة والقيم المُصلحة لها بالصلاة والزكاة .  
ويأمرنا الحق سبحانه في هذه الآية الكريمة بأن ننفق سراً وعلانية ، وهكذا يشيع الحق الإنفاق في أمرين متقابلين؛ فالإنفاق سراً لا يقع الإنسان فريسة المُبَاهَاة؛ والإنفاق علناً كي يعطي غيره من القادرين أُسوة حسنة ، ولكي تمنع الآخرين من أن يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغيرة مما أفاء الله عليك من خير .

ولذلك أقول : اجعل الصدقة التطوعية سراً ، واجعلها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تعلم شمالك ما أعطت يمينك » .

واجعل الزكاة علانية حتى يعلم الناس أنك تُؤدي ما عليك من حقوق الله وتكون بالنسبة لهم أُسوة فعلية ، وعِظَةٌ عملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عِظَةٌ سلوكية ، فنحن نرى بعضاً من القرى والمدن لا يحجّ منها أحد ، لأن القادرين فيها قد أدّوا فريضة الحج .  
ونجد أن القادر الذي يبني مسجداً؛ يعطي القادر غيره أُسوة ليبنى مسجداً آخر ، وما أن يأتي رمضان حتى يصوم القادرون عليه؛ ويعطوا أُسوة لصغارهم ، وتمنع الاستخذاء أمام الغير ، وهكذا نعلن كل تكاليف الإسلام بوضوح أمام المجتمعات كلها .  
ويقول الحق سبحانه :

{ قُل لِّعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ } [ إبراهيم : 31 ] .

ومن هنا نعلم أن هناك أعمالاً يمكن أن تُوجّلها ، إلا الغايات التي لا توجد فيها أعواض؛ فعليك أن تنتهز الفرصة وتنفذها على الفور؛ ذلك أن اليوم الآخر لن يكون فيه بَيْع أو شراء ، ولن يستطيع أحد فيه أن يُرْكِي أو يُصَلِّي؛ فليست هناك صداقة أو شفاعة تُغنيك عما كان يجب أن تقوم به في الحياة الدنيا .

والشفاعة فقط هي ما أذن له الرحمن بها ، ولذلك يأتي الأمر هنا بسرعة القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق سراً وعلانية من قبل أن يأتي اليوم الذي لا بَيْع فيه ولا خِلَال .  
والبيع - كما نعلم - هو مُعَارضة متقابلة؛ فهناك مَنْ يدفع الثمن؛ وهناك مَنْ يأخذ السلعة .

والخِلال هو المُخالَّة؛ أي : الصديق الوفي الذي تلزمه ويلزمك .

والشعر يُبين معنى كلمة « خليل » حين يقول :

لَمَّا التَقِينَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْدَهُ ... خَلِيلِينَ ذَابَا لَوْعَةً وَعِتَابَا

كَأَنَّ خَلِيلًا فِي خِلَالِ خَلِيلِهِ ... تَسْرَبَ أَثْنَاءَ الْعِنَاقِ وَغَابَا

وهذا يوضح أن المُخالَّة تعني أن يتخلل كُلُّ منهما الآخر .

وفي الآخرة لن تستطيع أن تشتري جنة أو تفتدي نفسك من النار؛ ولا مُحَالَّةً هناك بحيث يفيض

عليك صديق من حسناته . والحق سبحانه هو القائل : { الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

الْمُتَّقِينَ } [ الزخرف : 67 ] .

وبعض السطحيين يريدون أن يأخذوا على القرآن أنه أثبت الحُلَّة ونفاها؛ فهو القائل :

{ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ } [ إبراهيم : 31 ] .

وهو القائل : { وَلَا حُلَّةٌ . . . } [ البقرة : 254 ] .

ثم أثبت الحُلَّة للمتقين؛ الذين لا يُزَيِّن أحدهما للآخر معصية .

وهؤلاء السطحيون لا يُحْسِنون تدبُّر القرآن؛ ذلك أن الحُلَّة المنفعية - أو الخِلال المنفعية - في

الآيات هي الخِلال التي تحضُّ على المعاصي؛ وهذه هي الخِلال السيئة .

ونعلم أن البيع في الحياة الدنيا يكون مقابلةً سلعة بثمان؛ أما المُخالَّة ففيها تكْرُم ممن يقدمها؛ وهو

أمرٌ ظاهري؛ لأن في باطنه مُقايضة؛ فإذا قدّم لك أحدًا جميلًا فهذا يقتضي أن تردّ له الجميل؛ أما

التكْرُم المجرد فهو الذي يكون بغير سابق أو لاحق .

وبعد أن بيّن لنا الحق سبحانه السعداء وبيّن الأشقياء ، وضرب المثل بالكلمة الطيبة ، وضرب

المثل بالكلمة الخبيثة ، يأتي من بعد ذلك بما يهيج في المؤمن فرحةً في نفسه؛ لأنه آمن بالله الذي

صنع كل تلك النعم ، ويذكر نعماً لا يشترك فيها مع الله أحد أبداً ، فيقول : { اللهُ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . } .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ

وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (32)

والسماوات والأرض - كما نعلم - هما ظرفاً للحياة لنا كلنا ، وقد قال الحق سبحانه : { خَلَقُوا

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ . . . } [ غافر : 57 ] .

فإذا كان الله هو الذي خلق السماوات والأرض؛ فهذا لفتٌ لنا على الإجمال؛ لأنه لم يقل لنا ما

قاله في مواضع أخرى من القرآن الكريم بأنها من غير عمد؛ وليس فيها فُطور ، ولم يذكر هنا أنه

خلق في الأرض رواسي كي لا تميد بنا الأرض ، ولم يذكر كيف قدّر في الأرض أقواتها ، واكتفى

هنا بلمحة عن خلق السماوات والأرض .

وحين يتكلم سبحانه هنا عن خَلْق السماوات يأتي بشيء لم يدعه أحد على كثرة المُدَّعين من الملاحدة؛ وذلك لتكون ألزم في الحجّة للخصم ، وبذلك كشف لهم حقيقة عدم إيمانهم؛ وجعلهم يروون أنهم كفروا نتيجة لِدِّ غير خاضع لمنطق؛ وهو كفر بلا أسباب .  
وحين يحكم الله حُكماً لا يوجد لا معارض ولا منازع ، فهذا يعني أن الحكم قد سلّم له سبحانه . ولم يجترئ أحد من الكافرين على ما قاله الله؛ وكأن الكافر منهم قد أدار الأمر في رأسه ، وعلم أن أحداً لم يدع لنفسه خَلْق السماوات والأرض؛ ولا يجد مفرّاً من التسليم بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض .

وقول الحق سبحانه هنا :

{ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض . . . } { إبراهيم : 32 } .

يُوضِّح لنا أن كلمة « الله » هنا؛ لأنها مناطُ الصعوبة في التكليف؛ فالتكليف يقف أمام الشهوات؛ وقد تغضبون من التكليف؛ ولكنه يحميكم من بعضكم البعض ، ويكفل لكم الأمان والحياة الطيبة .

ولم يأتِ الحق سبحانه بكلمة « رب » هنا لأنها مناطُ العطاء الذي شاءه للبشر ، مؤمنهم وكافرهم .

وكلمة « الله » تعني المعبود الذي يُنزل الأوامر والنواهي؛ وتعني أن هناك مشقات؛ ولذلك ذكر لهم أنه خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء .  
ونحن حين نسمع كلمة « السماء » نفهم أنها السماء المقابلة للأرض؛ ولكن التحقيق يؤكد أن السماء هي كُلُّ ما علاك فأظلك .

والمطر كما نعلم إنما ينزل من الغيم والسحاب . والحق سبحانه هو القائل : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } { النور : 43 } .  
وقد عرفنا بالعلم التجريبي أن الطائفة - على سبيل المثال - تطير من فوق السحاب ، وعلى ذلك فالمطر لا ينزل من السماء؛ بل ينزل ممَّا يعلونا من غيمٍ وسحاب .

أو : أنك حين تنسب النزول من السماء؛ فهذا يوضح لنا أن كل أمورنا تأتي من أعلى؛ ولذلك نجد الحديد الذي تحتضنه الجبال وينضج في داخلها؛ يقول فيه الحق سبحانه : { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . . } { الحديد : 25 } .

وهكذا نجد أنه إما أن يكون قد نزل كعناصر مع المطر؛ أو لأن الأمر بتكوينه قد نزل من السماء .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها يتحدث الحق سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض؛ وكيف أنزل الماء من السماء :

{ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ . . . } { إبراهيم : 32 } .

والثمرات هي نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها؛ وقد لا تأكل البعض الآخر؛ فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكننا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال؛ ولكننا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال .

ويتابع سبحانه :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ . . . } { إبراهيم : 32 } .

والتسخير معناه قَهْر الشيء ليكون في خدمة شيء آخر . وتسخير الفلْك قد يثير في الذهن سؤالاً : كيف يُسَخَّر الله الفلك ، والإنسان هو الذي يصنعها؟

ولكن لماذا لا يسأل صاحب السؤال نفسه : ومن أين تأتي بالأخشاب التي تصنع منها الألواح التي نصنع منها الفلْك؟ ثم من الذي جعل الماء سائلاً؛ لتطفو فوقه السفينة؟ ومن الذي سيرّ الرياح لتدفع السفينة؟

كل ذلك من بديع صنْع الله سبحانه .

وكلمة « الفلك » تأتي مرة ويُراد بها الشيء الواحد؛ وتأتي مرة ويُراد بها أشياء؛ فهي تصلح أن تكون مفرداً أو جمعاً .

والمثل هو قول الحق سبحانه : { والفلْك التي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ . . . } { البقرة : 164 } .

وكذلك قال في قصة نوح عليه السلام : { واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا . . . } { هود : 37 } .

وبعض العلماء يقولون : إذا عاد ضمير التأنيث عليه؛ تكون جَمْعاً؛ وإذا عاد عليها بالتذكير تكون مفرداً .

ولكني أقول : إن هذا القول غَيْرُ غالب؛ فسبحانه قد قال عن سفينة نوح وهي مفرد : { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . . . } { القمر : 14 } .

ولم يُقَل : « يجري بأعيننا » ، وهكذا لا يكون التأنيث دليلاً على الجمع .

ويتابع سبحانه :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ . . . } { إبراهيم : 32 } .

ونفهم بطبيعة الحال أن النهر عَذْبُ الماء؛ والبحر ماؤه مالح . وسبحانه قد سَخَّرَ لنا كل شيء بأمره ، فهو الذي خلقَ النهارَ عَذْبُ الماء ، وجعل له عُمُقاً يسمح في بعض الأحيان بمسير الفلك؛ وأحياناً أخرى لا يسمح العمق بذلك .

وجعل البحر عميقاً القاع لتَمْرُقَ فيه السفن ، وكل ذلك مُسَخَّرُ بأمره ، وهو القائل سبحانه : { إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ . . . } { الشورى : 33 } .

أي : أنه سبحانه قد يشاء أن تقف الرياح ساكنة؛ فتركد السفن في البحار والأنهار .

ومن عجائب إنباءات القرآن أن الحق سبحانه حينما تكلم عن الريح التي تُسِيرُ الفلك والسفن؛ قال الشكليون والسطحيون « لم نعد نُسِيرُ السفن بالرياح بل نُسِيرُها بالطاقة ». .  
ونقول : فلنقرأ قوله الحق : { وَلَا تَنَارَعُوا فِتْنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . . } [ الأنفال : 46 ] .  
و { رِيحُكُمْ } تعني : قوتكم وطاقتكم؛ فالمراد بالريح القوة المطلقة؛ سواء جاءت من هواء ، أو من بخار ، أو من ماء .

وهذه الآية – التي نحن بصدد خواطرنا عنها – نزلت بعد أن أعلمنا الحق سبحانه بقصة السعداء من المؤمنين؛ والأشقياء الكافرين؛ فكانت تلك الآية بمثابة التكريم للمؤمنين الذين قدروا نعمة الله هذه؛ فلمّا علموا بما آمنوا به سبحانه .

وكرمتهم هذه الآية لصفاء فطرتهم التي لم تُضَيَّب ، وتكريم للعقل الذي فكّر في الكون ، ونظر فيه نظرة اعتبار وتدبّر ليستنتج من ظواهر الكون أن هناك إلهاً خالقاً حكيماً .  
وفي الآية تقريع للكافر الذي استقبل هذه النعم ، ولم يسمع من أحد أنه خلقها له؛ ولم يخلقها لنفسه ، ومع ذلك يكابر ويعاند ويكفر بربّ هذه النعم .  
وأول تلك النعم خَلَقَ السماوات والأرض؛ ثم إذا نظرت لبقية النعم فستجدها قد جاءت بعد خَلَقَ السماوات والأرض؛ وشيء من تلك النعم مُتَّصِلٌ بالسما؛ مثل السحاب ، وشيء متصل بالأرض مثل الثمرات التي تخرجها .

إذن : فالاستقامة الأسلوبية موجودة بين النعمة الأولى وبين النعمة الثانية .  
ثم قال بعد ذلك :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ . . . } [ إبراهيم : 32 ] .  
فما هي المناسبة التي جعلت هذا الأمر يأتي بعد هذين الأمرين؟ لأن الفلك طريقها هو البحار ومسارها في الماء .

وقد قال الحق سبحانه أنه خلق السماوات والأرض . ومدلول الأرض ينصرف على اليابسة كما ينصرف على المائية ، ومن العجيب أن المائية على سطح الكرة الأرضية تساوي ثلاثة أميال اليابسة؛ ورُقْعَةُ الماء بذلك تكون أوسع من رقعة التراب في الأرض .  
وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أخرج من الأرض ثمراً هي رِزْقٌ لنا ، فلا بُدَّ من وجود علاقة ما بين ذلك وتلك ، فإذا كانت البحار تأخذ ثلاثة أرباع المساحة من الأرض؛ فلا بُدَّ أن يكون فيها للإنسان شيء .

وقد شرح الحق سبحانه ذلك في آيات أخرى؛ وأوضح أنه سَخَّرَ البحر لتأكل منه لحماً طرياً؛ وتلك مُقَوِّمات حياة ، ونستخرج منه حلية نلبسها؛ وذلك من تَرَفِ الحياة .  
ونرى الفلك مواخر فيه لنبتغي من فضله سبحانه .

وبذلك يكون هناك خيرات أخرى غير السمك والحلي؛ ولكنها جاءت بالإجمال لا بالتفصيل؛  
فربما لم يكن الناس قادرين في عصر نزول القرآن على أن يفهموا ويعرفوا كل ما في البحار من  
خيرات؛ ولا تزال الأبحاث العلمية تكشف لنا المزيد من خيرات البحار .  
وحين نتأمل الآن خيرات البحار نتعجب من جمال المخلوقات التي فيه .  
إذن : فقوله : { لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ . . . } [ الإسراء : 66 ] .  
هو قول إجمالي يُلخّص وجود أشياء أخرى غير الأسماك وغير الزينة من اللؤلؤ والمرجان وغيرها ،  
ونحن حين نرى مخلوقات أعماق البحار نتعجب من ذلك الخلق أكثر مما نتعجب من الخلق الذي  
على اليابسة ، ومن خلق ما في السماء .  
وهكذا يكون قوله الحق : { لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ . . . } [ الإسراء : 66 ] .  
من آيات الإجمال التي تُفصّلها آيات الكون؛ فبعض من الآيات القرآنية تُفسرها الآيات الكونية  
، ذلك أن الحق سبحانه لو أوضح كل التفاصيل لَمَا صدّق الناس - على عهد نزول القرآن -  
ذلك .

وعلى سبيل المثال حين تكلم سبحانه عن وسائل المواصلات؛ قال : { والخيل والبغال والحمير  
لِتَرْكُوبَهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [ النحل : 8 ] .  
وقوله تعالى : { وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [ النحل : 8 ] .  
أدخل كُلَّ ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات؛ حتى النقل بالأزرار كالفاكس وغير ذلك  
وحيثما يتكلم سبحانه عن البحار؛ إنما يُوضّح لنا ما يُكمّل الكلام عن الأرض .  
{ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ . . . } [ إبراهيم : 32 ] .  
ولو فطن الناس لقالوا عن السفن « جمال البحار »؛ ما داموا قد قالوا عن الجمل إنه « سفينة  
الصحراء »؛ ولكنهم أخذوا بالجهول لهم بالمعلوم لديهم .  
وابياك أن تقول : أنا الذي صنعتُ الشراع؛ وأنا الذي صنعتُ المركب من الألواح ، ذلك أنك  
صنعت كل ذلك بقواك المخلوقة لك من الله ، وبالفكر الموهوب لك من الله؛ ومن المادة الموهوبة  
لك من الله ، فكلُّها أشياء جاءت بأمر من الله .  
وهنا يقول سبحانه :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ } [ إبراهيم : 32 ] .  
والنهر ماؤه عادة يكون عذباً ليروي الأشجار التي تُنتج الثمار . والأشجار عادة تحتاج ماء عذباً  
وهكذا شاء الله أن يكون ماء البحار والمحيطات مخزناً ضخماً للمياه؛ يحتل ثلاثة أرباع مساحة

الكرة الأرضية ، وهي مساحة شاسعة تتيح فُرصة لعمليات البَحْر؛ التي تُحوّل الماء بواسطة الحرارة إلى بخار يصعد إلى أعلى ويصير سحاباً؛ فيسقط السحابُ منه الأشجار التي تحتاجه ، وتنتج لنا الثمار التي نحتاجها ، وكأنّ الأملاح التي توجد في مياه البحار تكون لحفظها وصيانتها من العطب .

ونعلم أنّ معظم مياه الأنهار تكون من الأمطار ، وهكذا تكون دورة الماء في الكون؛ مياه في البحر تسطع عليها الشمس لتبخّرها؛ لتصير سحاباً؛ ومن بعد ذلك تسقط مطراً يُغذي الأنهار؛ ويصب الزائد مرة أخرى في البحار .

ويتابع سبحانه : { وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ . . . } .

### وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33)

والشمس آية نهارية؛ والقمر آية ليلية ، والماء له علاقة بالشمس والتي تُبخّره من مياه البحار؛ ونروي به أيضاً الأرض التي تنتج لنا الثمار؛ أما البحار فحساب كُلِّ ما يجري فيها يتم حسب التقويم القمري .

وهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم كل ذلك وهو النبي الأمي؟  
طبعاً لم يكن ليعلم ، بل أنزل الحق سبحانه عليه القرآن؛ يضمُّ حقائق الكون كلها .  
وقول الحق سبحانه عن الشمس والقمر « دائبين » من الدَّابِّ ، والدُّوْب هو مرور الشيء في عمل رتيب ، ونقول « فلان دءوب على المذاكرة » أي : أنه يبذل جُهداً مُنظماً رتيباً لتحصيل موادّه الدراسيّة ، ولا يُبدد وقته .

وكذلك الشمس والقمر اللذان أقام الحق سبحانه لهما نظاماً دقيقاً .  
وعلى سبيل المثال نحن نحسب اليوم بأوله من الليل ثم النهار؛ ونقسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة؛ ولذلك قال الحق سبحانه : { الشمس والقمر بحُسابٍ . . . } [ الرحمن : 5 ] .  
وقال أيضاً : { والشمس والقمر حُساباً . . . } [ الأنعام : 96 ] أي : أنك أيها الإنسان ستجعل من ظهور واختفاء أيٍّ منهما حساباً .  
وقد جعلهما الحق سبحانه على دقة في الحركة تُيسّر علينا أن نحسبَ بهما الزمن ، فلا اصطدامَ بينهما ، ولكلٍّ منهما فلك خاص وحركة محسوبة بدقة فلا يصطدمان . ولا يُشبهان بطبيعة الحال الساعات التي نستخدمها وتحتاج إلى ضبط .  
وكلما ارتقينا في صناعة نجد اختراعاتنا فيها تُقَرِّبنا من عُمق الإيمان بالخالق الأعلى .  
وفي نفس الآية يقول الحق سبحانه :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } [ إبراهيم : 33 ] .

وبما أنّ الشمس آية نهارية؛ والقمر آية ليلية ، والنهار يسبق الليل في الوجود بالنسبة لنا . كان

مُقتضى الكلام أن يقول : سخر لكم النهار والليل .

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُعلمنا أن القمر وهو الآية الليلية؛ ويسطع في الليل؛ والليل مخلوق للسكون؛ لكن هذا السكون ليس سبباً لوجود الإنسان على الأرض؛ بل السبب هو أن يتحرك الإنسان ويستعمر الأرض ويكده ويكده فيها .

لذلك جعل استهلال الشمس أولاً والقمر يستمد ضوءه منها؛ ثم جاء بخبر الليل وخبر النهار ، فكأن الله قد اكتنف هذه الآية بنورين .

النور الأول : من الشمس . والنور الثاني : من القمر ، كي يعلم الإنسان أن حياته مُغلقة تغليفاً يتيح له الحركة على الأرض ، فلا تظننَّ أيها الإنسان أن الأصل هو النوم! ذلك أنه سبحانه قد خلق النوم لترتاح؛ ثم تصحو لتكده .

ونلاحظ أن كلمة « التسخير » تأتي للأشياء الجوهرية ، وتأتي للمُسَخَّرَات أيضاً ، فالحيوان مُسَخَّر لنا ، وكذلك النبات والسماء مُسَخَّرَةٌ بما فيها لنا ، أما الليل والنهار فهما نتيجتان لجواهر؛ هما الشمس والقمر؛ والليل والنهار مُسَبَّبان عن شئئين مُباشرين هما : الشمس والقمر . والتسخير - كما نعلم - هو منع الاختيار . وإذا ما سَخَّر الحق سبحانه شيئاً فلنعلم أنه مُنضبط ولا يتأتى فيه اختلال ، ولكن الكائن غير المُسَخَّر هو الذي يتأتى فيه الاختلال؛ ذلك أنه قد يسير على جادة الصواب ، أو قد يُخطيء .

وفي مسألة التسخير والاختيار تعب الفلاسفة في دراستها؛ وذهبت المذاهب الفلسفية - وخصوصاً في ألمانيا - إلى مذهبين اثنين ظاهرهما التعارض؛ ولكنهما يسيران إلى غاية واحدة وهي تبرير الإلحاد .

وكان من المقبول أن يكونَ مذهبُ يُبرر الإلحاد ، وأن يبررَ الآخِرُ الإيمانَ ، ولكن شاء فلاسفة المذهبيين أن يُبرروا الإلحاد .

وقال فلاسفة أحد المذهبيين : أنتم تقولون إن الكون تُديره قوة قادرة حكيمة؛ وأن كُلَّ ما فيه منضبط بتصرفات محسوبة ودقيقة .

ولكن الواقع يقول : إن هناك بعضاً من المخالفات التي نراها في الكائنات ، والمثل هو تلك الشذوذات التي في الإنسان - على سبيل المثال - فهناك القصير أكثر من اللازم؛ وهناك الطويل أكثر من اللازم؛ وهناك مَنْ يولد بعين واحدة؛ وهناك مَنْ يولد بذراع عاجز؛ ولو أن القوة التي تدير الكون حكيمة لَمَا ظهرتْ أمثال تلك الشذوذات .

ونرد على صاحب تلك النظرية قائلين : وإذا لم يكنْ هناك إله ، أتستطيع أن تقول نال الحكمة من وراء وجود تلك الشذوذات؟ فأنت تدفع الحكمة عن الخالق الذي نؤمن به؛ فهل تستطيع أنت إثبات الحكمة لغيره؟ طبعاً لن يستطيع أن يردَّ عليك؛ لأن كلامه مردود .

ثم نأتي للمدرسة المقابلة التي تقول : إن النظام الموجود بالكون يدل على أنه لا يوجد له خالق؛ فهو نظام ثابت آلي؛ ولا يوجد إله قادر على أن يقلب آلية هذا الكون .

وهكذا كانت هاتان المدرستان مختلفتين؛ ومتعارضتين؛ ولكنهما يؤديان إلى الإلحاد .

ونرد على المدرستين قائلين : يا من تأخذ ثبات النظام دليلاً على وجود إله؛ فهذا الثبات موجود في الكون الأعلى . ويا من تأخذ الشذوذ دليلاً على وجود خالق؛ فهو موجود في الكائنات الأدنى؛ ولو حدث الشذوذ في الكائنات الأعلى لفسدت السماوات والأرض . وقد شاء الحق سبحانه أن يوجد الشذوذ لوجه في الأفراد؛ فواحد يكون شاذاً؛ والباقي الغالب يكون سليماً .

وهكذا يكون الشذوذ في الأفراد غير مانع لقضية وجود خالق أعلى ، وإذا أردت ثبات النظام فانظر إلى الكون الأعلى؛ كي تعلم أنه لا يوجد للإنسان مدخل في هذا الأمر .

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد سخر لنا الليل والنهار؛ وهما من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر؛ وكلاً من الشمس والقمر دائبين ، يمشي كل منهما في حركته مشياً لا تنقطع فيه رتابة العادة . ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق ، فنحدد - على سبيل المثال - أوائل الفصول ومواسم الزراعة؛ ومواقيت الصلاة .

وإذا نظرت إلى أيّ اختلال قد ينشأ من بعض الظواهر؛ فاعلم أن ذلك قد نشأ من تدخّل الإنسان المُختار المُستخلف في الأرض؛ والمثال هو مشكلة ثقب طبقة الأوزون الموجودة في الغلاف الجوي ، والتي قد نشأت من تجاربنا التي نلهث فيها من أجل تحسين حياتنا على الأرض .

ولكننا ننظر إلى التجربة بأفق محدود ، ونفصل النظرة الجزئية عن النظرة الكلية المطلوب منا أن ننظر بها لكل ما يحيط بنا في الكون؛ فنتسبب بهذا اللهث في التجارب في إفساد الكثير من أسرار حياتنا على الأرض؛ حتى بنتنا نشكو من اضطراب الجو بزداً وصقيعاً؛ وحرراً فوق الاحتمال .

وذلك بتدخّل الإنسان المختار فيما لا يجب أن يتدخل فيه إلا بعد أن يدرس كل جوانبه . واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه : { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ . . . } [ الروم : 41 ] .

ولذلك لا بُدَّ من دراسة المُقدّمات والنتائج جيداً قبل أن نُضخّم من تجاربنا التي قد تضر البشر؛ ولذلك أيضاً أقول : إن علينا أن ندرس الآثار الجانبية لكل اختراع علمي كي نحمي البشر من سيئات تلك الآثار الجانبية .

ولنتذكر قول الحق سبحانه : { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . } [ الإسراء : 36 ] .

ولعل ما نعيش فيه من مُشكلات تتعلق بالجو والصحة هو نتيجة تدخُّلنا بغير علم مكتمل؛ وهذا يؤكد لنا حكمة الخالق الأعلى؛ ذلك أننا لما خرجنا بالمُخترعات العلمية وانبهرنا بفائدتها السطحية؛ ظننا أن في ذلك مكسباً كبيراً؛ ولكنه كان وبالاً في بعض الأحيان نتيجة الآثار الجانبية .

ولذلك لم يَقُلِ الحق سبحانه : « بما اكتسبت أيدي الناس » بل قال : { بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ . . . } [ الروم : 41 ] .

وفي الآية نحن بصدد خواطرننا عنها يقول الحق سبحانه :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } [ إبراهيم : 33 ] .

وهكذا نعلم أن تعاقب ظهور الشمس والقمر؛ يُسبب تعاقب مجيء الليل والنهار .

ولا يعني ظهور الشمس وسطوعها أن القمر غير موجود؛ فهو موجود ، ولكن ضوء الشمس

المُبهر يمنعك من أن تراه ، ولكن هناك أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً .

أما الليل والنهار فهما يتتابعان كل منهما خَلْفَ الآخر . والحق سبحانه هو القائل : { وَهُوَ الَّذِي

جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً . . . } [ الفرقان : 62 ] .

أي : أنهما لا يأتيان معاً أبداً؛ فالليل في بلد ما يقابله نهار في بلد آخر .

وهكذا أثبت لنا الدأب في الحركة؛ فكلُّ منهما يأتي عَقِبَ الآخر؛ وقد جعل الحق سبحانه ذلك من أول لحظة في الخلق؛ وكان لحظة الوجود خِلْفَةً ، كل منهما يأتي من بعد الآخر؛ فكأن الكون حين خلقه الله؛ وجعل الشمس في مواجهة الأرض ، صار الجزء المواجه للشمس نهاراً؛ والجزء غير المواجه لها صار ليلاً .

ثم دارت الأرض؛ ليأتي الجزء الذي كان غير مُواجه للشمس؛ في مواجهتها؛ فصار ليلاً ، وذهب الجزء الذي كان في مواجهتها ، ليكون مكان الجزء الآخر فصار ليلاً ، وهكذا شاء سبحانه أن يكون كل منهما خَلْفَ الآخر .

وهكذا تكلم الحق سبحانه عن حَصْرٍ بعضٍ من نعمة الكلية علينا نحن العباد ، سماء ، وأرض ، وماء ينزل ، وثمرات تنبت من الأرض ، وكذلك سَخَّرَ لنا الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهذا ما يُسَمَّى تعديداً لبعض النعم .

ونجد واحداً من الصالحين يقول عن نعم الله « أعد منها ولا أعددها » . فكأن الله ينبهنا إلى

أصول النظام الكوني الأعلى ، ثم فتح المجال لِنَعْمٍ أخرى لن يستطيع أحد أن يُحصيها .

لذلك يقول سبحانه من بعد ذلك : { وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . . } .

وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

نعم ، أعطانا الحق سبحانه مما نسأل وقبل أن نسأل ، وأعدَّ الكون لنا من قبل أن نوجد . إذن : فسبحانه قد أعطانا من قبل أن نسأل؛ وسبقت النعمة وجود آدم عليه السلام ، واستقبل الكون آدم ، وهو مُعدُّ لاستقباله .

وإذا نظرت للفرد منا ستجد أن نعم الله عليه قد سبقت من قبل أن نعرف كيف نسأله ، والمثل هو الجنين في بطن أمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

{ وَأَتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . . } { إبراهيم : 34 } .

يعني : أنه قد أعطاك ما تسأله وما لم تسأله ، نطقته به أو لم تنطق ، ولو بحديث النفس أو خواطر خافية ، وأنت قد تقترح وتطلب شيئاً فهو يعطيه لك .

وقد يسأل البعض من باب الرغبة في التحدي - والله المثل الأعلى - نجد بعض البشر ممن أفاء الله عليهم بجزيل نعمه؛ ويقول الواحد منهم : قُل لي ماذا تطلب؟

وقد حدث معي ذلك ونحن في ضيافة واحد ممن أكرمهم الله بكريم عطائه ، وكنا في رحلة صحراوية بالمملكة العربية السعودية ، وقال لي : أطلب أي شيء وستجده بإذن الله حاضراً . وفكرت في أن أطلب ما لا يمكن أن يوجد معه ، وقلت : أريد خيطاً وإبرة ، فما كان ردّه إلا « وهل تريدها فتلة بيضاء أم حمراء؟ » .

وإذا كان هذا يحدث من البشر؛ فما بالنا بقدرة الله على العطاء؟ ومن حكمة الله سبحانه أنه قال :

{ وَأَتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . . } { إبراهيم : 34 } .

ذلك أن وراء كل عطاءٍ حكمةً ، ووراء كل منع حكمة أيضاً ، فالمنع من الله عين العطاء ، فالحق سبحانه مُنزه عن أن يكون مُوظفًا عندك ، كما أن الحق سبحانه قد قال : { وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ . . . } { الإسراء : 11 } .

ولذلك قال :

{ وَأَتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . . } { إبراهيم : 34 } .

أي : بعض مما سألتموه ، ذلك أن هناك أسئلة حمقاء لا يُجيبكم الله عليها؛ مثل قول أي امرأة يعاندها ابنها « يسقيني نارك » هذه السيدة؛ لو أذاقها الله نارَ افتقاد ابنها؛ ماذا سوف تفعل . إذن : فمن عظمته سبحانه أن أعطانا ما هو مُطابق للحكمة؛ ومنع عنا غير المطابق لحكمته سبحانه ، فالعطاء نعمة ، والمنع نعمة أيضاً ، ولو نظر كلُّ منا لعطاء السُّلب؛ لوجد فيه نعماً كثيرة .

ويقول سبحانه : { سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ } { الأنبياء : 37 } .

لذلك فلا يقولن أحدٌ : « قد دعوت ربي ولم يستجب لي » وعلى الإنسان أن يتدبَّر قول الحق

سبحانه : { وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } [ الإسراء : 11 ] .  
فهو سبحانه مَنْ يملك حكمة العطاء وحكمة المنع . ولا أحدٌ مِنَّا يستطيع أن يعدَّ نِعْمَ الله . والعدُّ -  
كما نعلم - هو حَصْرُ لمفردات جَمْعٍ أو جزئيات كُلِّ . ويعلم أهل العلم بالمنطق - ونسميهم  
المَنَاطِقَةَ - أن هناك « كُليّ » يقابله « جُزئيّ » ، وهناك « كُل » يقابله « جزء » .

والمثل على « الكُليّ » الإنسان؛ حيث إننا جميعاً مُكوّنين من عناصر متشابهة؛ ومفرد البشر  
يختلف باختلاف الأسماء؛ أما ما يُسمّى « كل » فالمثل عليه هو الكرسي ، وهو مُكوّن من مواد  
مختلفة كالخشب والمسامير والغراء ، ولا يمكن أن نطلق على الخشب فقط كلمة كرسي؛ وكذلك  
لا نستطيع أن نُسمّي « المسامير » بأنّها كراسي .  
وعلى هذا نكون قد عرفنا أن حقيقة الكُليّ أن مفرداته متطابقة؛ وإن اختلفت أسماءها ، لكن  
حقيقة الكلّ أن مفرداته غير متشابهة ، وتختلف في حقيقتها .

وإذا أردت أن تُحصي الكُليّ فأنت تنطق بأسماء الأفراد كأن تقول : محمد وأحمد وعلي؛ وهذا ما  
يُسمى عدداً ، وهكذا نفهم أن العدّ هو إحصاء جزئيات الكلي ، أو إحصاء أجزاء الكلّ .  
ونعلم أنّهم قد سمّوا العدّ إحصاءً؛ لأنهم كانوا يعدّون الأشياء قديماً بالحصي؛ وأُطلقت كلمة  
الإحصاء على مُطلق العدّ حساباً للأصل ، وعرف عدد أجزاء الكلي أو الكل .

وكان الإنسان في العصور القديمة يعدّ - على سبيل المثال - إلى رقم « مائة » ، ثم يحسب كل  
مائة بحصاة واحدة؛ فإذا تجمّع لديه عَشْر حصوات عرف أن العدد قد صار ألفاً ، ومن هنا  
جاءت كلمة الإحصاء ، وفي كثير من أمور عصرنا المتقدم؛ ما زلنا نُسمّي بعض الأشياء بمُسمّيات  
قديمة؛ فنحسب قوة السيارة بقوة الحصان .

وأنت إذا نظرت إلى قول الحق سبحانه :

{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا . . . } [ إبراهيم : 34 ] .

ستجد الكثير من المعاني ، ولكن مَنْ يحاولون التصيّد للقرآن يقولون : إن هذا أمر غير دقيق؛ فما  
دام قد حدث العدّ؛ فكيف لا يتم الإحصاء؟ وهؤلاء ينسون أن المقصود هنا ليس العدّ في ذاته؛  
ولكن المقصود هو إرادة العدّ .

ولو وُجدت الإرادة فليس هناك قدرة على استيعاب نعم الله ، ومن هنا لا نرى تعارضاً في آيات  
الله ، وإنما هو نسق متكامل ، فأنت لا تُقبل على عدّ أمر إلا إذا كان غالبُ الظن أنك قادرٌ  
على العدّ ، وذلك إذا كان في إمكان البشر ، ولكن نعم الله فوق طاقة مقدور البشر .

والمثل أيضاً على مسألة إرادة الفعل يمكن أن نجده في قوله الحق : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ  
إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ . . . } [ المائدة : 6 ] .

ونحن لا نغسل وجوهنا لحظة أن نقوم بالصلاة؛ ولكننا نغسلها ونستكمل خطوات الوضوء حين

يُؤدّن المؤذن ويمتلك إرادة الصلاة ، فكأن القول هنا يعني : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فافعلوا  
كذا وكذا .

ونعلم أن ذِكر الشيء بسببه كأنه هو؛ ولذلك يُقال : إذا كان الأذان قد أذن في المسجد؛ وأنت  
خارج من منزلك بقصد الصلاة؛ فلا تجري لتلحق بالإمام وتُدرِك الصلاة؛ لأنك في صلاة من  
لحظة أن توضع وتخرجت من بيتك للصلاة؛ وإياك أن تفعل حركة تتناقض مع الصلاة ، وادخل  
المسجد بسكينة ووقار لتؤدي الصلاة مع الإمام .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا . . . } [ إبراهيم : 34 ] .

ستجد أن العادة في اللغة هي استعمال « إن » في حالة الأمر المشكوك فيه ، أما الأمر المُتيقّن  
فنحن نستخدم « إذا » مثل قوله الحق : { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } [ النصر : 1 ] .

وقد جاء الحق سبحانه هنا بأسلوب الشك حين قال :

{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا . . . } [ إبراهيم : 34 ] .

ذلك أن العاقل يعلم مُقدّماً أنه سيعجز عن إحصاء نعم الله . وكلنا يعلم أن هناك علماً اسمه «  
الإحصاء » وله أقسام جامعية متخصصة .

وعلى الرغم من التقدم وصناعة الحاسب الآلي « الكمبيوتر » لم يستطع أحد ولم يقبل أحد على  
إحصاء نعم الله في الكون ، ذلك أن العدّ والإحصاء يقتضي كلياً له أفراد ، أو كلاً له أجزاء .

وأنت إن نظرت إلى أيّ نعمة من نعم الله؛ قد تظنها نعمة واحدة؛ ولكنك إن فصلت فيها

ستجدها نعماً مُتعدّدة وشتى ، وهكذا لا يوجد تناقض في قوله الحق :

{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا . . . } [ إبراهيم : 34 ] .

وأنت إن أخذت نعمة المياه ستجدها نعماً متعددة؛ فهي مُكوّنة من عناصر ، كل عنصر فيها  
نعمة؛ وإن أخذت نعمة الأرض ستجد فيها نعماً كثيرة مطمورة ، وهكذا تكون كل نعمة من الله

مطمور فيها نعمٌ متعددة ، ولا تُحصَى .

وحين تنظر في قول الحق سبحانه :

{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا . . . } [ إبراهيم : 34 ] .

تجد ثلاثة عناصر؛ هي المنعم؛ والنعمة التي حكّم الحق سبحانه أنك لن تحصيها ، وأن خلقه لم  
يضعوا أنوفهم في أن يعدّوا تلك النعمة ، فهي لا تحصى لأنها ليست مظنة الإحصاء؛ ولا يقبل  
عاقل أن يحصيها .

والعنصر الثالث هو المنعم عليه ، وهو الإنسان الذي قد يعجز عن إحصاء نعم رئيسه من البشر

عليه - فما بالك بنعم الله التي لا تحصى ، وكمالاته التي لا تُحدّ ، وعطائه الذي لا ينفد؟ والله

المثل الأعلى ، فهو المنزه عن المثل .

ثم يأتي قول الحق سبحانه :

{ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [ إبراهيم : 34 ] .

وهنا في سورة إبراهيم نجد قوله الحق مبيناً ظلم الإنسان لنفسه وكفره بالنعمة ، وفي كفره للنعمة كفر بالمنعم يقول سبحانه وتعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ \* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارِ } [ إبراهيم : 28-29 ] .

وهؤلاء هم من ارتكبوا مظالم بالنسبة لعقيدة الوحداية والإيمان بالله ، والإنسان هو المنعم عليه؛ وما كان يصح أن يرى كل تلك النعم ثم يكفر بها ، وكان من العدل أن يعطي الحق لصاحبه ، ولكن بعضاً من البشر بدّلوا نعمة الله كُفْرًا؛ وهكذا صاروا ممن يُطْلَقُ على كل منهم أنه ظلوم في الحكم؛ وأنه كَفَّارٌ؛ لجحوده بالنعمة ونكرانه عطاء الخالق للمخلوق .

والظلم كما نعرف هو أن تنقل الحق من صاحبه إلى غير صاحبه؛ وإن لم تؤمن بالله تكون قد أخذت حق الإله في الوجود ، وإن كنت تؤمن بشركاء؛ فأنت تنقل بذلك حقاً من الله إلى غيره وهذا ظلم القمة .

وانظر إلى قول الحق سبحانه في سورة النحل : { وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ \* وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ \* وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ حَمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ \* وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ \* وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ \* أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ \* وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [ النحل : 12-18 ] .

فهل هناك إرادة أو قدرة تستطيع أن تحصي عطاءات الله التي فوق العَدِّ والحدِّ؟ ففي الآيات

السابقة وغيرها إعجاز وعجز ، وما دام هناك عجز فالكمال عنده لا يتناهى .

إن بعضاً ممن يستدركون على القرآن يقولون : كيف يقول القرآن مرة :

{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [ إبراهيم : 34 ] .

ثم يقول في آية أخرى :

{ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [ النحل : 18 ] .

ونردُّ على هؤلاء : أنتم لم تنظروا إلى السياق الذي جاء في كل آية ، وعميت بصيرتكم عن معرفة

أن سياق الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها قد جاء فيها ذِكرُ النعم وذكر الجحود والكفران

بالنعم؛ وهذا ناشئ عن ظلم الإنسان لنفسه بالظلم العظيم .

وفي آية أخرى سورة النحل جاء بذكر النعم ، ورغم ظلمنا إلا أن رحمته سبحانه وَسِعَتْنا ، ولم يمنع عنا ما أسبغه علينا من نعم ، وكأنه سبحانه يُوضِّح لنا : إياكم أن تستخُوا أن تسألوني شيئاً؛ وإن كنتم قد ظلمتم وكفرتم في أشياء ، فظلمكم يقابله غفران مني ، وكافرتكم يقابلها مني رحمة ، وهكذا لا يوجد تعارض بين الآيتين؛ بل كل تذييل لكل آية مناسب لها ، ففي الآية الأولى يعاملنا الله بعدله ، وفي الآية الثانية يعاملنا الله بفضله .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

{ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [ إبراهيم : 34 ]

ونعلم أن هناك أناساً قد آمنوا بالله وبنعمه ، ويشكرون الله عليها ، فكيف يَصِفُ الحق سبحانه الإنسان بأنه ظَلُومٌ كَفَّارٌ؟

ونقول : إن كلمة « إنسان » إذا أُطْلِقَتْ من غير استثناء فهي تنصرف إلى الحُسْران والحياة بلا منهج؛ ودون التفات للتفكير في الكون .

والحق سبحانه حين أراد أن يُوضِّح لنا ذلك قال : { والعصر \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ } [ العصر : 1-2 ] .

ولذلك جاء سبحانه بالاستثناء بعدها ، فقال : { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ } [ العصر : 3 ] .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ لِي . . . } .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35)

وحيث يقول سبحانه ( إذ ) أي « اذكر » ويقول من بعد ذلك على لسان إبراهيم ( رَبِّ ) ولم يُقَلِّ « يا الله » ذلك أن إبراهيم كان يرفع دعاءه للخالق المرئي ، لذلك قال « رَبِّي » ولم يُقَلِّ « يا الله » لأن عطاء الله تكليف ، وأمام التكليف هناك تخير في أن تفعل ولا تفعل ، مثل قوله سبحانه : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ . . . } [ البقرة : 43 ] .

أما عطاء الربوبية فهو ما يقيم حياة المُصَلِّين وغير المُصَلِّين .

ولم تأت مسألة إبراهيم هنا قَفْزاً؛ ولكننا نعلم أن القرآن قد نزل ، وأول مَنْ سيسمعه هم السادة من قريش؛ الذين تمتعوا بالمهابة والسيادة على الجزيرة العربية؛ ولا يجرؤ أحد على التعرُّض لقوافلها في رِحْلَتَي الشتاء والصيف؛ لليمن والشام؛ وهم قد أخذوا المهابة من البيت الحرام . ولذلك تكلم الحق سبحانه عن النعمة العامة لكل كائن موجود تنتظر أذنه نداء الإسلام؛ وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن النعم التي تخصُّهم؛ لذلك قال :

{ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا . . . } [ إبراهيم : 35 ] .

وقد وردت هذه الجملة في سورة البقرة بأسلوب آخر ، وهو قول الحق سبحانه : { وَإِذْ قَالَ

إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا . . . { [ البقرة : 126 ] .

والفرق بين « البلد » و « بلداً » يحتاج منا أن نشرحه ، ف « بلداً » تعني أن المكان كان قفراً؛ ودعا إبراهيم أن يصبح هذا المكان بلداً آمناً أي : أن يجد من يقيمون فيه ، يُجددون حاجاتهم ومتطلباتهم؛ وتكون وسائل الرزق فيه مُيسرة ، ودعاؤه أيضاً شمل طلب الأمن ، أي : ألا يوجد به ما يُهدد طمأنينة الناس على يومهم العادي ووسائل رزقهم .

وأجاب الحق سبحانه دعاء إبراهيم فصار المكان بلداً؛ وجعله سبحانه آمناً أماناً عاماً؛ لأن الإنسان في أي بقعة من بقاع الأرض لا يتخذ مكاناً يجلس فيه ويقيم ويتوطن إلا إذا ضمن لنفسه أسباب الأمن من مقومات حياة ومن عدم تفريجه تفريعاً قوياً ، وهذا الأمن مطلوب لكل إنسان في أي أرض .

وقد دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء وقت أن نزل هذا المكان ، وكان وادياً غير ذي زرع؛ ولا مقومات للحياة فيه؛ فكان دعاؤه هذا الذي جاء ذكره في سورة البقرة .

أما هنا فقد صار المكان بلداً؛ وكان الدعاء بالأمن لثاني مرة؛ هي دعوة لأمن خاص؛ ففي غير هذا المكان يمكن أن تُقطع شجرة؛ أو يضطاد صيّد؛ ولكن في هذا المكان هناك أمنٌ خاصٌ جداً؛ أمنٌ للنبات ولكل شيء يوجد فيه؛ فحتى الحيوان لا يُضاد فيه؛ وحتى فاعل الجريمة لا يُمس . وهكذا اختلف الدعاء الأول بالأمن عن الدعاء الثاني؛ فالدعاء الأول : هو دعاء بالأمن العام؛ والدعاء الثاني : هو دعاء بالأمن الخاص؛ ذلك أن كل بلد يوجد قد يتحقق فيه الأمن العام؛ ولكن بلد البيت الحرام يتمتع بأمنٍ يشمل كل الكائنات .

ويقول بعض من السطحيين : ما دام الحق قد جعل البيت حراماً آمناً؛ فلماذا حدث ما حدث من سنوات من اعتداء على الناس في الحرم؟ ونقول : وهل كان أمن الحرم أمراً « كونياً » ، أم تكليفاً شرعياً؟ إنه تكليف شرعي عُرضة أن يُطاع ، وعُرضة أن يُعصي .

وقوله سبحانه : { وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . . . } [ آل عمران : 97 ] .

يعني أن عليكم أيها المتبعون لدين الله أن تؤمنوا من يدخل الحرم أنهم في أمن وأمان ، وهناك فارق بين الأمر التكليفي والأمر الكوي .

ويقول سبحانه على لسان إبراهيم :

{ واجنبي وبني أن نعبد الأصنام } [ إبراهيم : 35 ] .

وهو قول يحمل التنبؤ بما حدث في البيت الحرام على يد عمرو ابن لُحي الذي أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة ، وهو قول يحمل تنبؤاً من إبراهيم عليه السلام .

ولقائل أن يسأل : وكيف يدعو إبراهيم بذلك ، وهو النبي المعصوم؟ كيف يطلب من الحق أن

يُجَنَّبُهُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ؟

وأقول : وهل العصمة تمنع الإنسان أن يدعوَ ربه بدوام ما هو عليه؟ إننا نتلقى على سبيل المثال الأمر التكليفي منه سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . . . } [ النساء : 136 ] .

وهو أمرٌ بالمداومة .

والحق سبحانه قد قال على لسان رسوله شعيب - عليه السلام - : { قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا . . . } [ الأعراف : 89 ] .

وفي هذا القول ضراعة إلى المنعم علينا بنعمة الإيما؛ وفي هذا القول الكريم أيضاً إيضاح لطلاقة قدرة الحق سبحانه .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا : { واجنبي وَبِئْسَ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } [ إبراهيم : 35 ] . والصنم غير الوثن ، فالمشكّل بشكل إنسان هو الصنم؛ أما قطعة الحجر فقد والي خصّها بعض من أهل الجاهلية بالعبادة فهو الوثن .

وهناك مَنْ أراد أن يخرج بنا من هذا المأزق؛ فقال : إن الكفر نوعان . شرك جلي؛ وشرك خفي . والشرك الجلي أن يعبد الإنسان أي كائن غير الله؛ والشرك الخفي أن يُقدّس الإنسان الوسائط بينه وبين الله ، ويعطيها فوق ما تستحق ، وينسب لها بعضاً من قدرات الله .

ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يُجَنَّبَهُ وبنيه أن يعبدوا الأصنام يقتضي منّا أن نفهم معنى كلمة أبناء؛ ذلك أن إبراهيم قصد بالدعاء بنية الذين يصلون إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثله؛ ذلك أننا نعلم أن بعضاً من بنية قد عبدوا الأصنام والأوثان .

ومعنى كلمة « أبناء » أوضحه سبحانه في مواطن أخرى . ونبدأ من قوله : { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . . } [ البقرة : 124 ] . { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . . . } [ البقرة : 124 ] .

أي : أن حيثية الإمامة هي أداء إبراهيم عليه السلام لكل مهمة بتمامها وبدقّة وأمانة ، وإذا كان هذا هو دستور الله في الخلق؛ فلا بُدّ لنا أن نتخلّق بأخلاق الله .

وعلينا ألا نختار أيّ إنسان لأية مهمة ليكون إمامها ، إلا أن كان كُفء لها ويُحسِن القيام بها . ولنتذكر قوله صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا ضَبِغَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » قال السائل له عن موعد قيام الساعة : وكيف إضاعتها؟ قال : « إِذَا وَسَدَ الْأَمْرَ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » .

ذلك أن إسناد أيّ أمر لغير أهله إنما هو إفساد في الوجود ، لأن الأصل في إسناد أيّ أمر لأي

إنسان أن يكون بهدف أن يقوم بالأمر كما يجب ، فإذا كان الاختيار سيئاً؛ فسيكون هذا الإنسان أسوأ في السوء؛ وتنتقل منه عدوى عدم الإتقان إلى غيره؛ ويتفشى السوء في المجتمع ، أما إذا تولى الأمر مَنْ هو أَهْلٌ له فالموقف يختلف تماماً ، فوضع الإنسان في مكانه اللائق ، تعتدل به موازين العدل ، وفي اعتدال الميزان استقرار للزمان والمكان والإنسان .  
والمثُل على ذلك : أن الأولاد الذين تربُّوا في السعودية؛ ورأوا أن يد السارق تُقطع؛ لم نجد منهم مَنْ يسرق؛ لأنهم تربُّوا على أن السارق تُقطع يده ، وفهموا أن الحق سبحانه لحظة أن يضع عقوبة قاسية؛ فليس هذا إذنٌ بأن تقع الجريمة؛ بل ألا تقع الجريمة .  
وحيث يتساءل مَنْ يدعُّون التحضُّرُ : كيف يقول القرآن : { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . . . } [ البقرة : 256 ] .

وحيث تجدون مَنْ يخرج عن الدين تقبضون عليه ، وينادي البعض بإعدامه؟ وهؤلاء أقول : وهل هذا الأمر يُحسب على الإسلام أم لصالح الإسلام؟  
إنه لصالح الإسلام ، ذلك أن مثل هذا الحرص على كرامة الدين يُهيِّب الناس أن يدخلوا الدين إلا بعد الإقناع المؤدي لليقين ، واليقين هو الوصول إلى الدين الحقِّ مصحوباً بالدليل .  
يقول الحق سبحانه : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . . . } [ فصلت : 53 ] .

بهذا نعلم أن دخول الإسلام سيُكلِّفه حياته لو أراد أن يخرج منه ، لأنه خرج من اليقين الذي دخله بالدليل .

وحيث دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه :

{ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } [ إبراهيم : 35 ] .  
كان قد نجح في اختبار الله له ، ونجح في أداء ما أُسند إليه تماماً؛ وشاء له الحق سبحانه أن يكون إماماً ، واستشرف إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة في ذريته؛ فقال : { وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . . . } [ البقرة : 124 ] .

فجاءه الجواب من الحق سبحانه : { لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [ البقرة : 124 ] .  
وهكذا أوضح الحق سبحانه أن بُنُوهُ الأنبياء ليست بنوة لحم ودم؛ بل بنوة اتباع واقتداء ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال لنوح عن ابنه : { فَلَا تَسْتَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . } [ هود : 46 ] .

ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال عن سلمان الذي كان فارسياً : « سلمان منا آل البيت » .

وفي هذا تأكيد على أن بُنُوهُ الأنبياء هي بنوة اتباع واقتداء .

ويستكمل الحق سبحانه دعاء إبراهيم عليه السلام؛ فنجد وعي خليل الرحمن بما تفعله عبادة الأصنام : { رَبِّ إِيَّاهُنَّ أَضَلَّلْنَا كَثِيرًا . . . } .

رَبِّ إِيَّاهُنَّ أَضَلَّلْنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36)

ونعلم أن الأصنام بذاتها لا تُضِلُّ أحداً؛ ذلك أنها لا تتكلم ولا تتحدث إلى أحد؛ ولكن القائمين عليها بدعوى أن لتلك الأصنام ألوهية؛ ولا تكليف يصدر منها ، هم الذين يضلون الناس ويتركونهم كما يقول المثل العامي « على حلِّ شعورهم » .

ويرحب بهذا الضلال كل مَنْ يكره أن يتبع تعاليم الخالق الواحد الأحد .

ويتابع سبحانه ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام من بعد الدعاء :

{ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [ إبراهيم : 36 ] .

وهذه تعقيبات في مسألة الغفران والرحمة بعد العصيان؛ فمرة يعقبها الحق سبحانه : { العزيز الحكيم } [ المائدة : 118 ] .

ومرة يعقبها : { الغفور الرحيم } [ الزمر : 53 ] .

ذلك أن الجرائم تختلف درجاتها ، فهناك جريمة الخيانة العظمى أو جريمة القمّة؛ مثل مَنْ يدّعي أنه إله؛ أو مَنْ يقول عنه أتباعه أنه إله دون أن يقول لهم هو ذلك .

وقد قال عيسى - عليه السلام - بسؤال الحق له : { أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْلِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . . . } [ المائدة : 116 ] .

فيأتي قول عيسى عليه السلام : { إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [ المائدة : 116 ] .

ويتابع عيسى عليه السلام القول : { إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [ المائدة : 118 ] .

وهكذا تأتي العزة والمغفرة بعد ذكر العذاب؛ فهناك مواقف تُناسبها العزة والحكمة؛ ومواقف تُناسبها المغفرة والرحمة ، ولا أحد بقادرٍ على أن يردّ لله أمر مغفرة أو رحمة؛ لأنه عزيزٌ وحكيمٌ . وقوله الحق :

{ رَبِّ إِيَّاهُنَّ أَضَلَّلْنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ . . . } [ إبراهيم : 36 ] .

يعكس صفات مناسبة للمقدمات الصدرية في الآية ، وتؤكد لنا أن القرآن من حكيم خبير ، وأن الله هو الذي أوحى إلى عبده القرآن : { سُنْقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى } [ الأعلى : 6 ] .

فما الذي يجعله يقول في الآية : { الغفور الرحيم } [ الزمر : 53 ] .

وفي آية أخرى : { العزيز الحكيم } [ المائدة : 118 ] .

مع أن السياق المعنوي قد يُوحى من الظاهر بعكس ذلك؟

وما الذي يجعله سبحانه يقول في آية بعد أن يُذَكِّرنا أن نَعْمَ اللهُ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى : { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [ إبراهيم : 34 ] .

ويقول في آية أخرى بعد أن يُذَكِّرنا بِنَعْمِ اللهُ بنفس اللفظ : { إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ } [ النحل : 18 ] .

وكذلك قوله : { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ \* فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ } [ عبس : 11-12 ] .

ثم قوله في آية أخرى : { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } [ الإنسان : 29 ] .

كل ذلك يعطينا حكمة التنزيل ، فإن كل آية لها حكمة ، وتنزيلها يحمل أسرار المراد .

وكلُّ ذلك يأتي تصديقاً لقوله الحق : { سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى } [ الأعلى : 6 ] .

لأن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يُنزل القرآن على رسوله ، ويضمن أنه سيحفظه؛ ولن ينسى موقع أن مكان آية من الآيات أبداً ، ذلك أن الذي قال :

{ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى } [ الأعلى : 6 ]

هو الحق الخالق القادر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي . . . } .

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)

ونفهم من التعبير في هذه الآية أن المكان لا يصلح للزراعة؛ ذلك أنه أرض صخرية؛ وليست أرضاً يمكن استصلاحها؛ وقول إبراهيم - عليه السلام - :

{ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ } [ إبراهيم : 37 ] .

أي : لا أمل في زراعتها بمجهود إنساني ، وليس أمام تواجد الرزق في هذا المكان إلا العطاء الرباني . ولم يكن اختيار المكان نتيجة بحثٍ من إبراهيم عليه السلام؛ ولكن بتكليف إلهي ، فسبحانه هو الذي أمر بإقامة القواعد من البيت المحرم ، وهو مكان من اختيار الله ، وليس من اختيار إبراهيم عليه السلام .

وحين يقول إبراهيم عليه السلام :

{ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ . . . } [ إبراهيم : 37 ] .

فهذا يعني حيثية الرضا بالتكليف ، وما دام هذا أمراً تكليفاً يجب أن يُنفَّذ بعشق؛ فهو يأخذ ثوابين اثنين؛ ثواب حُبِّ التكليف؛ وثواب القيام بالتكليف .

ولنا المثل في حكاية الرجل الذي قابله الأصمعي عند البيت الحرام ، وكان يقول : « اللهم ، إني قد عصيتك ، ولكنني أحب من يطيعك ، فاجعلها قربة لي » . فقال الأصمعي ما يعني أن الله لا

بُدَّ أن يغفر لهذا الرجل لِحُسْنِ مسألته ، ذلك أنه رجل قد فرح بحب التكليف ولو لم يَقُمْ به هو؛ بل يقوم به غيره وهذا يُسعدُه .

فالتكليف عندما يقوم به أيُّ إنسان؛ فذلك أمر في صالح كل البشر ، وكلنا نقول حين نُصلي ونقرأ الفاتحة : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [ الفاتحة : 5 ] .

أي : أن كُلاً مِنَّا يحشر نفسه في زمرة العابدين؛ لعل الله يتقبَّل من واحد فندخل كلنا في الصفقة؛ ولذلك أقول لِمَنْ يرتكب معصية : عليك ألا تغضب ، لأن هناك مَنْ يطيع الله؛ بل افرح به؛ لأن فرحك بالمطيع لله؛ دليلٌ على أنك تحبُّ التكليف ، رغم أنك لا تقدر على نفسك ، وفي هذا الحبِّ كرامة لك .

وقد قال إبراهيم - عليه السلام - عن الوادي الذي أمره الحق سبحانه أن يقيم فيه القواعد للبيت الحرام أنه وادٍ غير ذي زَرْع ، وقد جاء هو إلى هذا المكان لِيُنْقَذَ تكليف الحق سبحانه له؛ لدرجة أن زوجته هاجر عندما علمت أن الاستقرار في هذا المكان هو بتكليف من الله قالت : « إذن لن يضيعنا » .

ويُقَدِّم إبراهيم عليه السلام حيثيات الإقامة في هذا المكان ، وأسباب إقامته للقواعد كما أراد الله ، فيقول :

{ فاجعل أُنْفِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ . . . } [ إبراهيم : 37 ] .

أي : أن مجيء الناس إلى هذا المكان لن يكون شهوة سياحة؛ ولكن إقامة عبادة؛ فما دام المكان قد أُقيم فيه بيت لله باختيار الله؛ فلا بُدَّ أن يُعبدَ فيه سبحانه .

وهكذا تتضح تماماً حيثيات أخذ الأمر بالوجود في مكان ليس فيه من أسباب الحياة ولا مُقَوِّمَاتِهَا شيء؛ ولكن الحق سبحانه قد أمر بذلك؛ فلا بُدَّ للمقيم للصلاة من إقامة حياة؛ والمُقَوِّمُ الأول للحياة هو المأكل والمشرب .

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام :

{ فاجعل أُنْفِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ . . . } [ إبراهيم : 37 ] .

والأُنْفِدَةُ جمع « فؤاد » ، وتُطَلَّقُ على الطائفة؛ وعلاقة الفؤاد بالحجيج علاقةٌ قوية؛ لأن الهوى في الحجيج هوى قلوب؛ لا جيوب . وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يحظى بأداء تلك الفريضة .

وكلمة « هوى » مُكوَّنة من مادة « الهاء » و « الواو » و « الياء » ولها معانٍ متعددة ، فلك أن تقول « هَوَى » أو تقول « هَوَى » ، فإن قلت : « هَوَى يهوي » من السقوط من مكان عالٍ؛ دون إرادة منه في السقوط؛ وكأنه مقهورٌ عليه ، وإن قلت : « هَوَى يهوي » فهذا يعني أحب ، وهو نتيجة لميل القلوب ، لا ميل القوالب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

{ فاجعل أَفئدةً مِنَ الناسِ تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِنَ الثمراتِ لعلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [ إبراهيم : 37 ]

فهم في مكان لا يمكن زراعته . وقد تقبّل الحق سبحانه دعاء إبراهيم عليه السلام؛ ووجدنا التطبيق العملي في قوله الحق : { أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا . . . } [ القصص : 57 ] .

وذلك قبل أن يوجد بتروول أو غير ذلك من الثروات . وكلمة « يُجْبَى » تدل على أن الأمر في هذا الرزق القادم من الله كأنه جباية؛ وأمر مفروض ، فتكون في الطائف مثلاً وفيها من الرمان والعنب وتحاول أن تشتريه؛ فتجد من يقول لك : إن هذا يخص مكة المكرمة؛ إن أردت منه فاذهب إلى هناك .

وتجد في كلمة : { ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ . . . } [ القصص : 57 ] .

ما يثير العجب والدهشة؛ فأنت في مكة تجد بالفعل ثمرات كل شيء من زراعة أو صناعة؛ ففيها ثمرات الفصول الأربعة قادمة من كل البلاد؛ نتيجة أن كل البيئات تُصدّر بعضاً من إنتاجها إلى مكة .

وفي عصرنا الحالي نجد ثمرات النمو الحضاري والعقول المُفكّرة وهي معروضة في سوق مكة أو جدة؛ بل تجد ثمرات التخطيط والإمكانات وقد تمتّ ترجمتها إلى واقع ملموس في كل أوجه الحياة هناك .

وقديماً عندما كُنّا نؤدي فريضة الحج؛ كُنّا نأخذ معنا إبرة الخيط؛ وملح الطعام؛ ومن بعد أن توخّدت غالبية أرض الجزيرة تحت حكم آل سعود واكتشاف البترول؛ صرنا نذهب إلى هناك ، ونأتي بكماليات الحياة .

ولنلاحظ قول الحق سبحانه :

{ فاجعل أَفئدةً مِنَ الناسِ تهوي إِلَيْهِمْ . . . } [ إبراهيم : 37 ] .

فكلمة « من » تُوضّح أن من تهوي قلوبهم إلى المكان هم قطعة من أفئدة الناس ، وقال بعض من العارفين بالله : لو أن النصّ قد جاء « فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم » لوجدنا أبناء الديانات الأخرى قد دخلت أيضاً في الحجاج ، ومن رحمة الله سبحانه أن جاء النص :

{ فاجعل أَفئدةً مِنَ الناسِ تهوي إِلَيْهِمْ . . . } [ إبراهيم : 37 ] .

فاقتصر الحجاج على المسلمين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك مُستكملاً ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام : { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُخْفِي . . . } .

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38)

وبعد أن اطمأن إبراهيم - عليه السلام - أن لهذا البلد أمناً عاماً وأمناً خاصاً ، واطمأن على مقومات الحياة؛ وأن كل شيء من عند الله ، بعد كل ذلك عاودته المسألة التي كانت تشغله ، وهي مسألة تزكته لهاجر وإسماعيل في هذا المكان .

وبعض المُفسِّرين قالوا : إن الضمير بالجمع في قوله تعالى :

{ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ . . . } [ إبراهيم : 38 ] .

مقصود به ما يُكِنُّه من الحُبِّ لهاجر وإسماعيل ، وما يُعَلِّنه من الجفاء الذي يُظهِره لهما أمام سارة ، وكان المعاني النفسية عاودته لحظة أن بدأ في سلام الوداع لهاجر وابنه إسماعيل .  
ونقول : لقد كانت هاجر هي الأخرى تعيش موقفاً صعباً؛ ذلك أنها قد وُجِدَتْ في مكان ليس فيه زرع ولا ماء ، وكأنها كتمت نوازعها البشرية طوال تلك الفترة وصبرت .

ولحظة أن جاء إبراهيم ليُودِّعها؛ قالت له : أين تتركنا؟ وهل تتركنا من رأيك أم من أمر ربك؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : بل هو من أمر الله . فقالت : إذن لن يضيعنا .

وتأكدت هاجر من أن ما قالتها قد تحقَّق؛ ولن يُضَيِّعهما الله ، وحين يعطش وحيدها تجري بين الصفا والمروة بحثاً عن مياه؛ ولكنها ترى تفجُّر الماء تحت قدمي ابنتها في المكان الذي تركته فيه؛ ويبدأ بئر زمزم في عطاء البشر منذ ذلك التاريخ مياهه التي لا تنضب .

وهكذا يتحقق قول إبراهيم - عليه السلام - في أن الله يعلم ما نُسِرُّ وما نُعَلِّنُ؛ ذلك أن كل مُعَلَّنٍ لا يكون إلا بعد أن كل مُخْفِيٍّ ، وعلى الرغم من أن الله غيَّبَ إلا أن صلته لا تقتصر على الغيب؛ بل تشمل العالم الظاهر والباطن؛ وكل مظروف في السماء أو الأرض معلومٌ لله؛ لأن ما تعتره أنت غيباً في ذهنك هو معلوم لله من قبل أن يتحرك ذهنك إليه .

ولذلك يقول سبحانه في موقع آخر : { وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى } [ طه : 7 ]

فإذا كان السِّرُّ هو ما أسررت به لغيرك؛ وخرج منك لأنك استأمنتَ الغير على ألا يقوله ، أو كان السر ما أخفيته أنت في نفسك؛ فالله هو العالمُ به في الحاليتين .

ويقول القرآن : { وَإِذْ أَسْرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً . . . } [ التحريم : 3 ] .

أي : أن السِّرَّ كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى بعض من أزواجه . والأخْفَى هو ما قبل أن تبوح بالسرِّ؛ وكنتمته ولم تُبَحْ به .

وسبحانه يعلم هذا السر وما تخفيه . أي : السر الذي لم تُقُلْهُ لأحد ، بل ويعلمه قبل أن يكون سراً .

ويقول سبحانه ما قاله إبراهيم - عليه السلام - ضراعةً وحمدًا له سبحانه : { الحمد لله الذي وهب لي . . . } .

### الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39)

والوَهْبُ هو عطاء من مُعْطٍ بلا مقابل منك . وكل الذرية هبة ، لو لم تكن هبة لكانت رتيبة بين الزوجين؛ وإنما يوجد زوجان توجد . ولذلك قال الله : { يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذكور \* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [ الشورى : 49-50 ] .

والدليل على أن الذرية هبة هو ما شاءه سبحانه مع زكريا عليه السلام؛ وقد طلب من الله سبحانه أن يرزقه بغيام يرثه ، على الرغم من أنه قد بلغ من الكبر عتياً وزوجه عاقر؛ وقد تعجّب زكريا من ذلك؛ لأنه أنجب بقوة ، وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه : { كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا } [ مريم : 9 ] . وهذا يعني ألا يدخل زكريا في الأسباب والمسببات والقوانين . وقد سمى الحق سبحانه الذرية هبة؛ لذلك يجب أن نشكر الله لأن الذي يقبل هبة الله في إنجاب الإناث برضاً يرزقه الله بشباب يتزوجون البنات؛ ويصبحون أطوعَ له من أبنائه ، رغم أنه لم يشق في تربيتهم .

وكل من يرى ذلك في مُحِيطِيطَة ، فمن أنجب الأولاد الذكور يظل يرقب : هل يتزوج ابنه بمن تحفظه وتجعله أطوعَ لغيره منه . وإن وهب لك الذكور فعلى العين والرأس أيضاً ، وعليك أن تطلب من الله أن يكون ابنك من الذرية الصالحة ، وإن وهبك ذكراً وإناثاً فلك أن تشكره ، وتطلب من الله أن يعينك على تربيتهم .

وعلى من جعله الحق سبحانه عقيماً أن يشكر ربه؛ لأن العقم أيضاً هبة منه سبحانه؛ فقد رأينا الابن الذي يقتل أباه وأمه ، ورأينا البنت التي تجحد أباه وأمه . وإن قيل العاقر هبة الله في ذلك؛ وأعلن لنفسه ولمن حوله هذا القبول؛ فالحق سبحانه وتعالى يجعل نظرة الناس كلهم له نظرة أبناء لأب ، ويجعل كل من يراه من شباب يقول له : « أتريد شيئاً يا عم فلان؟ » ويخدمه الجميع بمحبة صافية .

وإبراهيم - عليه السلام - قد قال للحق سبحانه :

{ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر . . . } [ إبراهيم : 39 ] .

والشكر على الهبة - كما عرفنا - يُشكّل عطاء الذرية في الشباب ، أو في الشيخوخة . وأهل التفسير يقولون في :

{ عَلَى الْكَبْرِ . . . } { إِبْرَاهِيمَ : 39 } .

أنه يشكر الحق سبحانه على وَهَبِهِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ مع أنه كبير . ولماذا يستعمل الحق سبحانه ( على ) وهي من ثلاثة حروف؛ بدلاً من « مع » ولم يَقُلْ « الحمد لله الذي وهب لي مع الْكَبْرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » .

وأقول : إن ( على ) تفيد الاستعلاء ، فَالْكَبْرُ ضَعْفٌ ، ولكن إرادة الله أقوى من الضعف؛ ولو قال « مع الْكَبْرِ » فالمعنية هنا لا تقتضي قوة ، أما قوله :

{ وَهَبَ لِي عَلَى الْكَبْرِ . . . } { إِبْرَاهِيمَ : 39 } .

فيجعل قدرة الله في العطاء فوق الشيخوخة .

وحين يقول إبراهيم عليه السلام ذلك؛ فهو يشكر الله على استجابته لما قاله من قبل : { إني أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ } { إِبْرَاهِيمَ : 37 } .  
أي : أنه دعا أن تكون له ذرية .

ويُذِيلُ الحق سبحانه الآية بقول إبراهيم :

{ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } { إِبْرَاهِيمَ : 39 } .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : { رَبِّ اجْعَلْنِي . . . } .

**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40)**

وكان إبراهيم عليه السلام حين دعا بأمر إقامة الصلاة فهذه قضية تخصُّ منهج الله ، وهو يسأل الله أن يقبل ، ذلك أن الطلبات الأخرى قد طلبها ببشريته؛ وقد يكون ما طلبه شراً أو خيراً؛ ولكن الطلب بأن يجعله مُقِيماً للصلاة هو وذريته هو طَلَبٌ بِالْخَيْرِ .  
ويتتابع الدعاء في قول الحق سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام : { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيْ . . . } .

**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)**

ونعلم أن طلب الغُفْرَانِ مِنَ الْمُعْصُومِ إِيذَانٌ بِطَلَاقَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ فِي الْكُونَ ، ذلك أن اختيار الحق سبحانه للرسول أي رسول لا يُعْفَى الرَّسُولَ الْمُخْتَارَ مِنَ الْحَذَرِ وَطَلَبَ الْمَغْفِرَةَ ، وها هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إني استغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة » .  
وطلب المغفرة من الله إن لم يَكُنْ لذنْبٍ كَمَا فِي حَالِ الرُّسُلِ الْمُعْصُومِينَ فَهُوَ مِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى يستحق منا فوق ما كَلَّفْنَا بِهِ ، فإذا لم نقدر على المندوبات وعلى التطوعات؛ فَلْنَدْعُ الحق سبحانه أن يغفر لنا .

وَمِمَّا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْفَرَائِضِ؛ فَلْيَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ؛ وَلِذَلِكَ يُقَالُ: «حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقْرَبِينَ» .

والحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم: { لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } [ الفتح : 2 ] .

ولذلك أقول دائماً؛ إن الحق - جلَّ جلالُ ذاته - يستحق أن يُعبدَ بفوق ما كلفَ به؛ فإذا اقتصرنا على أداء ما كلفَ به سبحانه؛ فكأننا لم نُؤدِّ كامل الشُّكر؛ وما بالناس إذا كان مثل هذا الحال هو سلوك الرُّسل ، خصوصاً وأن الحق سبحانه قد زادهم عن خَلْقِهِ اصطفاً؛ أفلا يزيدنه شُكراً وطلباً للمغفرة؟

ونلاحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين :

{ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } [ إبراهيم : 41 ] .

والإنسان كما نعلم له وجود أصلي من آدم عليه السلام؛ وله وجود مباشر من أبويه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو : أن الأُسوة كانت منهما؛ لذلك يدعو لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة؛ لأنهم كانوا صُحبة له وفُدوة ، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر ، وكان إبراهيم - عليه السلام - صاحب الدعاء يدعو للمؤمنين من ذريته؛ وتلك دعوة وشفاعة منه لمن آمن؛ ويرجو الحق سبحانه أن يتقبلها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ . . . } .

**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42)**

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وأوضح النعم العامة على الكون ، والنعم الخاصة التي أنعم بها سبحانه على من توطئوا مكة ، ومن نسلهم من وقف ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف العنت ، بعد ذلك جاء الحق سبحانه بهذه الآية تعزيةً وتسريةً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ . . } [ إبراهيم : 42 ] .

وأرضية التصوير التي سبقتها تشتمل بداية التكوين لهذا المكان الذي وجدوا به ، وكيفية مجيء النعم إلى من توطئوا هذا المكان؛ حيث تجيء إليهم الثمرات ، ونعمة المهابة لهم حيث يعصف سبحانه بمن يُعاديهم كأبرهة ومن معه . { فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ } [ الفيل : 5 ] .

حيث يقول سبحانه من بعد هذه الآية مباشرة : { لِإِبِلَافٍ قُرَيْشٍ \* إِبِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ \* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ \* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ } [ قريش :

ورغم ذلك وقفوا من دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف الإنكار والتعنت والتصدي والجهود ، وحاولوا الاستعانة بكل خصوم الإسلام؛ ليحاربوا هذا الدين؛ ولذلك يوضح الحق سبحانه هنا تسريّة عن الرسول الكريم .

{ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ . . . } { إبراهيم : 42 } .

لماذا؟ وتأتي الإجابة في النصف الثاني من الآية :

{ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } { إبراهيم : 42 } .

وقوله الحق :

{ وَلَا تَحْسَبَنَّ . . . } { إبراهيم : 42 } .

أي : لا تظننّ؛ فحسب هنا ليست من الحساب والعدّ ، ولكنها من « حسب » « يحسب »؛ وقوله الحق الذي يوضح هذه المسألة : { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } { العنكبوت : 2 } .

أي : أظنّ الناس . فحسب يحسب ليست - إذن - من العدّ؛ ولكن من الظنّ . والحسبان نسبة كلامية غير مجزوم بها؛ ولكنها راجحة .

والغفلة التي ينفىها سبحانه عنه؛ هي السّهو عن أمر لعدم اليقظة أو الانتباه ، وطبعاً وبداهة فهذا أمر لا يكون منه سبحانه ، فهو القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم .

وهنا يخاطب الحق سبحانه رسوله والمؤمنين معه تبعاً؛ فحين يخاطب الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فهو يخاطب في نفس الوقت كلّ من آمن به .

ولكن ، أكان الرسول يظنّ الله غافلاً؟

لا ، ولنلحظ أن الله حين يُوجّه بشيء فقد يحمل التوجيه أمراً يُنقذه الإنسان فعلاً؛ ويطلب الله منه الاستدامة على هذا الفعل .

والمثّل : حين تقول لواحد لا يشرب الخمر « لا تشرب الخمر » وهو لا يشرب الخمر؛ فأنت تطالبه بقولك هذا أن يستمرّ في عدم شرب الخمر ، أي : استمرّ على ما أنت عليه ، فعلاً في الأمر ، أو امتناعاً في النهي .

وهل يمكن أن تأتي الغفلة لله؟

وأقول : حين ترى صفةً توجد في البشر؛ ولا توجد في الحق سبحانه فعليك أن تُفسّر الأمر بالكمالات التي لله .